الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله
محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي

المكتبة العصرية




منتدى إقراء الثقافي



لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي

المجلد الخامس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

1437 هـ - 2016

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

alassrya.com

ISBN 978-614-414-942-3

9 786144 149423

ISBN 978-614-414-942-3

سورة هود

مقدمة السورة:

مكية إلا الآيات ١٢، ١٧، ١١٤ فمدنية وآياتها ١٢٣ نزلت بعد يونس. مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾(هود: ١١٤). وأسند أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ (اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة)[١]. وروى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت! قال: (شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت)[٢]. قال: هذا حديث حسن غريب، وقد روي شيء من هذا مرسلا. وأخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في "نوادر الأصول": حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك قد شبت! قال: (شيبتني هود وأخواتها)[٣]. قال أبو عبد الله: فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع، ومنه يعرق، فإذا انتشف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر وابيض؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيض؛ وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده، فالنفس تذهل بوعيد الله، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به؛ فمنه تشيب. وقال الله تعالى: ﴿يوما يجعل الولدان شيبا﴾(المزمل: ١٧) فإنما شابوا من الفزع. وأما سورة "هود" فلما ذكر الأمم، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه. وأما أخواتها فما أشبهها من السور؛ مثل ﴿الحاقة﴾(الحاقة: ١) و﴿سأل سائل﴾(المعارج: ١) و﴿إذا الشمس كورت﴾(التكوير: ١) و﴿القارعة﴾(القارعة: ١)، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس. (قلت) وقد قيل: إن الذي شيب النبي ﷺ من سورة "هود" قوله: ﴿فاستقم كما أمرت﴾(هود: ١١٢) على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقرأت عليه سورة "هود" فلما ختمتها قال: (يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء). قال علماؤنا: قال أبو جعفر النحاس: يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد لم تصرف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه. وعيسى بن عمر يقول: هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة؛ وكذا إن سمى امرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع، فقلت:

---

(١) "ضعيف" أخرجه الدارمي في "سننه"، (٢/ ٥٤٥)، وانظر ضعيف الجامع (١١٦٨).

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٧٢٣).

(٣) "صحيح" المصدر السابق (٣٧٢٠).

هذه هُود وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه: والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه.

قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الر ﴾ تقدم القول فيه. ﴿ كتاب ﴾ بمعنى هذا كتاب. ﴿ أحكمت آياته ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى ﴿ أحكمت آياته ﴾ قول قتادة؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نظمت نظما محكما لا يلحقها تناقض ولا خلل. وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالمعنى؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ. وقد تقدم القول فيه. وقد يقع اسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أي بعض طعامه. وقال الحسن وأبو العالية: ﴿ أحكمت آياته ﴾ بالأمر والنهي. ﴿ ثم فصلت ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام. مجاهد: أحكمت جملة، ثم بينت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها. وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في التنزيل. وقيل: ﴿ فصلت ﴾ أنزلت نجما نجما لتتدبر. وقرأ عكرمة ﴿ فصلت ﴾ مخففا أي حكمت بالحق. ﴿ من لدن ﴾ أي من عند ﴿ حكيم ﴾ أي محكم للأمور. ﴿ خبير ﴾ بكل كائن وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ قال الكسائي والفراء: أي بألا؛ أي أحكمت ثم فصلت بألا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لئلا؛ أي أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل: أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله. ﴿ إنني لكم منه ﴾ أي من الله. ﴿ نذير ﴾ أي مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه. ﴿ وبشير ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أولا وآخرا؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره، كما قال: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ (آل عمران: ٢٨).

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ عطف على الأول. ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفراء: "ثم" هنا بمعنى الواو؛ أي وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقد تقدم هذا المعنى في "آل عمران" مستوفى. وفي "البقرة" عند قوله: ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ (البقرة: ٢٣١). وقيل: إنما قدم

ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها؛ فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب. ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. ﴿ يمتعكم متاعا حسنا ﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع ثم سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتعكم يعمركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك ومتع. وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكربها؛ والأول أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ (هود: ٥٢) وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم. قال مقاتل: فأبوا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقذر والجيف والكلاب. ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته "فضله" أي الجنة، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله: "فضله" ترجع إلى الله تعالى. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرا. ﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ أي يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره: و"تولوا" يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى: وإن تولوا فقل لهم إني أخاف عليكم. ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم إن تتولوا فإني أخاف عليكم.

قوله تعالى: ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي بعد الموت. ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ من ثواب وعقاب.

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم. ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة ويظهرون خلافه. نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلا حلو الكلام حلو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء. وقال مجاهد: ﴿ يثنون صدورهم ﴾ شكا وامتراء. وقال الحسن: يثنونها على ما فيها من الكفر. وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه وغطى وجهه، لكيلا يراه النبي ﷺ فيدعوه إلى الإيمان؛ حكي معناه عن عبد الله بن شداد فالهاء في "منه" تعود على النبي ﷺ. وقيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا،

واستغشينا ثيابنا، وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية. وقيل: إن قوما من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبين الله تعالى أن التنسك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قول وعمل. وروى ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ﴾ قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يفضون إلى السماء، فنزلت هذه الآية. وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس: (ألا إنهم تثنوي صدورهم) بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي؛ ومعنى "تثنوي" والقراءتين الأخريين متقارب؛ لأنها لا تثنوي حتى يثنوها. وقيل: كان بعضهم ينحني على بعض بساره في الطعن على المسلمين، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى: "ليستخفوا" أي ليتواروا عنه؛ أي عن محمد أو عن الله. ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ أي يغطون رؤوسهم بثيابهم. قال قتادة: أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره، واستغشى ثوبه، وأضمر في نفسه همه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ "ما" نفي و"من" زائدة و"دابة" في موضع رفع؛ التقدير: وما دابة. ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ "على" بمعنى "من"، أي من الله رزقها؛ يدل عليه قول مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله. وقيل: "على الله" أي فضلا لا وجوبا. وقيل: وعدا منه حقا. وقد تقدم بيان هذا المعنى في "النساء" وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء. "رزقها" رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوصي؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يرزق. وقيل: هي عامة في كل دابة: وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رزقت روحها؛ ووجه النظم به قبل: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يغفل عن تربيته، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدابة كل حيوان يدب. والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك؛ لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها؛ وهكذا الأطفال ترزق اللبن ولا يقال: إن اللبن الذي في الثدي ملك للطفل. وقال تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ (الذاريات: ٢٢) وليس لنا في السماء ملك؛ ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه. وقد تقدم في "البقرة" هذا المعنى والحمد لله.
وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرحى يأتيها بالطحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق. وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله والله أكبر! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد!. وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك

دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما لـه إلا السماء! يا هذا الأرض لـه والسماء لـه؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلهم وللضب في البيداء والحوت في البحر

وذكر الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" بإسناده عن زيد بن أسلم: أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ في ذلك وقد أرملوا من الزاد، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعه يقرأ هذه الآية ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ فقال الرجل: ما الأشعريون بأهون الدواب على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ؛ فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا، ثم قال بعضهم لبعض: لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله ﷺ ليقضي به حاجته؛ فقالوا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإنا قد قضينا منه حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به؛ قال: (ما أرسلت إليكم طعاما) فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره ما صنع، وما قال لهم، فقال رسول الله ﷺ: (ذلك شيء رزقكموه الله)[1].

قوله تعالى: ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه. ﴿ ومستودعها ﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: ﴿ مستقرها ﴾ أيام حياتها. ﴿ ومستودعها ﴾ حيث تموت وحيث تبعث. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ مستقرها ﴾ في الرحم ﴿ ومستودعها ﴾ في الصلب. وقيل: ﴿ يعلم مستقرها ﴾ في الجنة أو النار. ﴿ ومستودعها ﴾ في القبر؛ يدل عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار: ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان: ٧٦) و﴿ ساءت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان: ٦٦). ﴿ كل في كتاب مبين ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ تقدم في "الأعراف" بيانه والحمد لله. ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء. قال

(١) ضعيف، وهو من مراسيل زيد بن أسلم.

كعب: خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ فقال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. وروى البخاري عن عمران بن حصين. قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: (اقبلوا البشرى يا بني تميم) قالوا: بشرتنا فأعطنا (مرتين) فدخل ناس من أهل اليمن فقال: (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم) قالوا: قبلنا، جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السراب؛ وايم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم.

قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ أي خلق ذلك ليبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث. وقال قتادة: معنى ﴿أيكم أحسن عملا﴾ "أيكم" أتم عقلا. وقال الحسن وسفيان الثوري: أيكم أزهد في الدنيا. وذكر أن عيسى عليه السلام مر برجل نائم فقال: يا نائم قم فتعبد، فقال يا روح الله قد تعبدت، فقال (وبم تعبدت)؟ قال: قد تركت الدنيا لأهلها؛ قال: نم فقد فقت العابد بن الضحاك: أيكم أكثر شكرا. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس: أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل. وروي عن ابن عمر أن النبي ﷺ تلا: ﴿أيكم أحسن عملا﴾ قال: (أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله) فجمع الأقاويل كلها، وسيأتي في "الكهف" هذا أيضا إن شاء الله تعالى. وقد تقدم معنى الابتلاء. ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون﴾ أي دللت يا محمد على البعث. ﴿من بعد الموت﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر. وكسرت (إن) لأنها بعد القول مبتدأة. وحكى سيبويه الفتح. ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه، وبعده "ليقولن" لأن فيه ضميرا. و"سحر" أي غرور باطل، لبطلان السحر عندهم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ كناية عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ اللام في "لئن" للقسم، والجواب "ليقولن". ومعنى "إلى أمة" إلى أجل معدود وحين معلوم؛ فالأمة هنا المدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين. وأصل الأمة الجماعة؛ فعبر عن الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها. وقيل: هو على حذف المضاف، والمعنى إلى مجيء أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك. أو إلى انقراض أمة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن. والأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه: فالأمة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى: ﴿وجد عليه أمة من الناس﴾(القصص: ٢٣). والأمة

أيضا اتباع الأنبياء عليهم السلام. والأمة الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به؛ كقولـه تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ (النحل: ١٢٠). والأمة الدين والملة؛ كقولـه تعالى: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ (الزخرف: ٢٢). والأمة الحين والزمان؛ كقولـه تعالى: ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ وكذلك قولـه تعالى: ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ (يوسف: ٤٥) والأمة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك: فلان حسن الأمة أي القامة. والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد؛ قال النبي ﷺ: (يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده). والأمة الأم؛ يقال: هذه أمة زيد، يعني أم زيد.

﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ يعني العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالا واستهزاء؛ أي ما الذي يحبسه عنا. ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ قيل: هو قتل المشركين ببدر؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي. ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل وأحاط. ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار. ويقال: إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت. وقيل: في عبد الله بن أبي أمية المخزومي. "رحمة" أي نعمة. ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أي سلبناه إياها. ﴿ إنه ليؤوس ﴾ أي يائس من الرحمة. ﴿ كفور ﴾ للنعم جاحد لـها؛ قاله ابن الأعرابي. النحاس: ﴿ ليؤوس ﴾ من يئس ييأس، وحكى سيبويه يئس ييئس على فعل يفعل، ونظير حسب يحسب ونعم ينعم، ويأس ييئس؛ وبعضهم يقول: يئس ييئس؛ ولا يعرف في الكلام العربي إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت. على فعل يفعل؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يئس و"يؤوس" على التكثير كفخور للمبالغة.

قولـه تعالى: ﴿ ولئن أذقناه نعماء ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. ﴿ بعد ضراء مسته ﴾ أي بعد ضر وفقر وشدة. ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضر والفقر. ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي يفرح ويفخر بما نالـه من السعة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاخر إذا افتخر ـ وفخور للمبالغة ـ قال يعقوب القارئ: وقرأ بعض أهل المدينة (لفرح) بضم الراء كما يقال: رجل فطن وحذر وندس. ويجوز في كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ يعني المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو استثناء من ﴿ ولئن أذقناه ﴾ أي من

الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو استثناء متصل وهو حسن. ﴿أولئك لـهم مغفرة﴾ ابتداء وخبر ﴿وأجر﴾ معطوف. ﴿كبير﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢)﴾

قولـه تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ هم أن يدع سب آلـهتهم فنزلت هذه الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سب آلـهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ؛ كقولـه: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ (المائدة: ٦٧). وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعاد؛ أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلـهتنا لاتبعناك، فهم النبي ﷺ أن يدع سب آلـهتهم؛ فنزلت. ﴿وضائق به صدرك﴾ عطف على "تارك" و"صدرك" مرفوع به، والـهاء في "به" تعود على "ما" أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال: "ضائق" ولـم يقل ضيق ليشاكل "تارك" الذي قبلـه؛ ولأن الضائق عارض، والضيق ألزم منه. ﴿أن يقولوا﴾ في موضـع نصـب؛ أي كـراهية أن يقولوا، أو لئلا يقولوا كقولـه: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ (النساء: ١٧٦) أي لئلا تضلوا. أو لأن يقولوا. ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ يصدقه؛ قالـه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي؛ ﴿إنما أنت نذير﴾ فقال الله تعالى: يا محمد إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحـونه من الآيات ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ أي حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٣)﴾

قولـه تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ "أم" بمعنى بل، وقد تقدم في "يونس" أي قد أزحت علتهم وإشكالـهم في نبوتك بهذا القرآن، وحججتهم به؛ فإن قالوا: افتريته ـ أي اختلقته ـ فليأتوا بمثلـه مفترى بزعمهم. ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي من الكهنة والأعوان.

قوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾

قولـه تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي في المعارضة ولم تتهيأ لـهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللسن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء. ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ واعلموا صدق محمد ﷺ، ﴿و﴾ اعلموا ﴿أن لا إلـه إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ استفهام معناه الأمر. وقد تقدم القول في معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب. والحمد لله. وقال: "قل فأتوا" وبعده. ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ ولم يقل لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد، إلى

الجمع تعظيما وتفخيما؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في "لكم" وفي "فاعلموا" للجميع، أي فليعلم الجميع ﴿ أنما أنزل بعلم الله ﴾؛ قاله مجاهد. وقيل: الضمير في "لكم" وفي "فاعلموا" للمشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة؛ ولا تهيأت لكم المعارضة ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾. وقيل: الضمير في "لكم" للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي "فاعلموا" للمشركين.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ من كان ﴾ كان زائدة، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿ نوف إليهم ﴾ قاله الفراء. وقال الزجاج: "من كان" في موضع جزم بالشرط، وجوابه "نوف إليهم" أي من يكن يريد؛ والأول في اللفظ ماض والثاني مستقبل، كما قال زهير:

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: نزلت في الكفار؛ قاله الضحاك، واختاره النحاس؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾ (هود: ١٦) أي من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة. وقد تقدم هذا المعنى في "براءة" مستوفى. وقيل: المراد بالآية المؤمنون؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم ينقص شيئا في الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)[1] فالعبد إنما يعطي على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة. وقيل: هو لأهل الرياء؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: (صمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك) ثم قال: (إن هؤلاء أول من تسعر بهم النار). رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديدا وقال: صدق رسول الله ﷺ، ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ وقرأ الآيتين، خرجه مسلم (في صحيحه) بمعناه والترمذي أيضا. وقيل: الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى. وقال ميمون بن مهران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّي ثوابها؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرا وُفّي في الدنيا. وقيل: من كان يريد (الدنيا) بغزوه مع النبي ﷺ وُفّيها، أي وُفّي أجر الغزاة ولم ينقص منها؛ وهذا خصوص والصحيح العموم.

الثانية: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدل على أن من توضأ للتبرد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان في معناه.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

الثالثة: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في "الشورى" ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد لـه في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ (الشورى: ٢٠) الآية. وكذلك ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ (آل عمران: ١٤٥) قيدها وفسرها التي في "سبحان" ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا لـه فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ (الإسراء: ١٨) إلى قولـه: ﴿ محظورا ﴾ (الإسراء: ٢٠) فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما (في قولـه: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ أنها منسوخة بقولـه: ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾) (الإسراء: ١٨). والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثلـه قولـه: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (البقرة: ١٨٦) فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائما على كل حال، وليس كذلك؛ لقولـه تعالى: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ (الأنعام: ٤١) والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول؛ ويأتي في "النحل" بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أولئك الذين ليس لـهم في الآخرة إلا النار ﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لا يخلد؛ لقولـه تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ﴾ (النساء: ٤٨) الآية. فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر. وقيل: المعنى ليس لـهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقبضة. والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان؛ وفي الحديث الماضي يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في "النساء" ويأتي في آخر "الكهف". ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ ابتداء وخبر، قال أبو حاتم: وحذف الـهاء؛ قال النحاس: هذا لا يحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أي وباطل عملـه. وفي حرف أبي وعبد الله ﴿ وباطلا ما كانوا يعملون ﴾ وتكون "ما" زائدة؛ أي وكانوا يعملون باطلا.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبي ﷺ ومعه من الفضل ما يتبين به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ ! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن. وكذلك قال ابن زيد إن الذي على بينة هو من اتبع النبي ﷺ

﴿ويتلوه شاهد منه﴾ من الله، وهو النبي ﷺ. وقيل المراد بقولـه ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ النبي ﷺ والكلام راجع إلى قولـه: ﴿ وضائق به صدرك ﴾ (هود: ١٢)؛ أي أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل ـ على ما يأتي ـ وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يسلمه. والـهاء في "ربه" تعود عليه، وقولـه: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ وروى عكرمة عن ابن عباس (أنه جبريل)؛ وهو قول مجاهد والنخعي. والـهاء في "منه" لله عز وجل؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل. وقال مجاهد: الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويسدده. وقال الحسن البصري وقتادة: الشاهد لسان رسول الله ﷺ. قال محمد بن علي بن الحنفية: قلت لأبي أنت الشاهد؟ فقال: وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله ﷺ. وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنه قال: (هو علي بن أبي طالب)؛ وروي عن علي أنه قال: (ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال لـه رجل: أي شيء نزل فيك؟ فقال علي: "ويتلوه شاهد منه"). وقيل: الشاهد صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخائلـه؛ لأن من كان لـه فضل وعقل فنظر إلى النبي ﷺ علم أنه رسول الله ﷺ؛ فالـهاء على هذا ترجع إلى النبي ﷺ، على قول ابن زيد وغيره. وقيل: الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل، فالـهاء في "منه" للقرآن. وقال الفراء قال بعضهم: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ الإنجيل، وإن كان قبلـه فهو يتلو القرآن في التصديق؛ والـهاء في "منه" لله عز وجل. وقيل: البينة معرفة الله التي أشرقت لـها القلوب، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي ركب في دماغه وأشرق صدره بنوره. ﴿ ومن قبلـه ﴾ أي من قبل الإنجيل. ﴿كتاب موسى﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحاق الزجاج والمعنى ويتلوه من قبلـه كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى ﴿ يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ "ومن قبلـه كتاب موسى" بالنصب؛ وحكاها المهدوي عن الكلبي؛ يكون معطوفا على الـهاء في "يتلوه" والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ المعنى من قبلـه (تلا جبريل كتاب موسى على موسى). ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يرفع "كتاب" على أن يكون المعنى: ومن قبلـه كتاب موسى كذلك؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد ﴿ إماما﴾ نصب على الحال. ﴿ ورحمة ﴾ معطوف. ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيري. والـهاء في "به" يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبي ﷺ ﴿ومن يكفر به﴾ أي بالقرآن أو بالنبي عليه السلام. ﴿من الأحزاب﴾ يعني من الملل كلـها؛ عن قتادة؛ وكذا قال سعيد بن جبير: "الأحزاب" أهل الأديان كلـها؛ لأنهم يتحازبون. وقيل: قريش وحلفاؤهـم. ﴿ فالنار موعده ﴾ أي هو من أهل النار؛ وأنشد حسان:

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والموت لاقيها

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي ﷺ :(والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) . ﴿ فلا تك في مرية﴾ أي في شك.

قوله تعالى: ﴿ منه ﴾ أي من القرآن. ﴿ إنه الحق من ربك ﴾ أي القرآن من الله؛ قاله مقاتل. وقال الكلبي: المعنى فلا تك في مرية في أن الكافر في النار. "إنه الحق" أي القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبي ﷺ والمراد جميع المكلفين.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا؛ فأضافوا كلامه إلى غيره؛ وزعموا أن له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ أي يحاسبهم على أعمالهم ﴿ ويقول الأشهاد ﴾ يعني الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان: سألت الأعمش عن (الأشهاد) فقال: الملائكة. الضحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (النساء: ٤١). وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات. وقال قتادة: عنى الخلائق أجمع. وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي ﷺ ، وفيه قال: (وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله). ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها..

قوله تعالى: ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ يجوز أن تكون "الذين" في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أعاد لفظ "هم" تأكيدا.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أي فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم. ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يعني

أنصارا، و"من" زائدة. وقيل: "ما" بمعنى الذي تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين، لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم. ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ "ما" في موضع نصب على أن يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿وما كانوا يبصرون﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره. والعرب تقول: جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

ويجوز أن تكون "ما" ظرفا، والمعنى: يضاعف لهم أبدا، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبدا. ويجوز أن تكون "ما" نافية لا موضع لها؛ إذ الكلام قد تم قبلها، والوقف على العذاب كاف؛ والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد. قال الفراء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: لبغضهم النبي ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه. قال النحاس: وهذا معروف في كلام العرب؛ يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ ابتداء وخبر. ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع عنهم افتراؤهم وتلف. ﴿لا جرم﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: "لا جرم" بمعنى حق، فـ "لا" و"جرم" عندهما كلمة واحدة، و"أن" عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدوي: وعن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة، وهو قول الفراء أيضا؛ ذكره الثعلبي. وقال الزجاج: "لا" ها هنا نفي وهو رد لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كسب؛ أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و"أن" منصوبة بجرم، كما تقول كسب جفاؤك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نصبنا رأسه في جذع نخل بما جرمت يداه وما اعتدينا

أي بما كسبت. وقال الكسائي: معنى "لا جرم" لا صد ولا منع عن أنهم. وقيل: المعنى لا قطع قاطع، فحذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجرم القطع؛ وقد جرم النخل واجترمه أي صرمه فهو جارم، وقوم جرّم وجرّام وهذا زمن الجَرَام والجرَام، وجرمت صوف الشاة أي جززته، وقد جرمت منه أي أخذت منه؛ مثل جلمت الشيء جلما أي قطعت، وجلمت الجزور أجلمها جلما إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجلمته ـ ساكنة اللام ـ إذا أخذته أجمع، وهذه جلمة

الجزور ـ بالتحريك ـ أي لحمها أجمع؛ قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جرم، ولا عن ذا جرم؛ ولا أن ذا جرم، قال: وناس من فزارة يقولون: لا جر أنهم بغير ميم. وحكى الفراء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جرم، قال: وناس من العرب يقولون: لا جرم بضم الجيم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ "الذين" اسم "إن" و"آمنوا" صلة، أي صدقوا. ﴿ وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: (أخبتوا أنابوا). مجاهد: أطاعوا. قتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب، وأصل الإخبات الاستواء، من الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء. "إلى ربهم". قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿ أولئك ﴾ خبر "إن".

قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ مثل الفريقين ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كالأعمى﴾ وما بعده. قال الأخفش: أي كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر كالأعمى والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولـهذا قال: ﴿ هل يستويان ﴾ فرد إلى الفريقين وهما اثنان؛ روي معناه عن قتادة وغيره. قال الضحاك: الأعمى والأصم مثل للكافر، والسميع والبصير مثل للمؤمن. وقيل: المعنى هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصم والسميع. ﴿ مثلا ﴾ منصوب على التميز. ﴿أفلا تذكرون﴾ في الوصفين وتنظرون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيها لـه على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم. ﴿ إني ﴾ أي فقال: إني؛ لأن في الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي "أني" بفتح الـهمزة؛ أي أرسلناه بأني لكم نذير مبين. ولم يقل "إنه" لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: ﴿ وكتبنا لـه في الألواح من كل شيء ﴾ (الأعراف: ١٤٥) ثم قال: ﴿ فخذها بقوة ﴾ (الأعراف ١٤٥).

قولـه تعالى: ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي اتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومن قرأ "إني" بالكسر جعلـه معترضا في الكلام، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا إلا الله. ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فقال الملأ ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: الملأ الرؤساء؛ أي هم مليئون بما يقولون. وقد تقدم هذا في "البقرة" وغيرها. ﴿ ما نراك إلا بشرا ﴾ أي آدميا. ﴿ مثلنا ﴾ نصب على الحال. و"مثلنا" مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر:

يا رب مثلك في النساء غريرة

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ أراذل جمع أرذل وأرذل جمع رذل؛ مثل كلب وأكلب وأكالب. وقيل: والأراذل جمع الأرذل، كأساود جمع الأسود من الحيات. والرذل النذل؛ أرادوا اتبعك أخساؤنا وسقطنا وسفلتنا. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحياكة؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لـها في الديانة. قال النحاس: الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لـهم، والخسيسو الصناعات. وفي الحديث (أنهم كانوا حاكة وحجامين). وكان هذا جهلا منهم؛ لأنهم عابوا نبي الله ﷺ بما لا عيب فيه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والـهيئات، وهم يرسلون إلى الناس جميعا، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم.

قلت: الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء؛ كما قال هرقل لأبي سفيان: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم؛ فقال: هم أتباع الرسل[1]. قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير؛ والفقير خلي عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالب أحوال أهل الدنيا.

الثالثة: اختلف العلماء في تعيين السفلة على أقوال؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السفلة هم الذين يتقلسون، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات. وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم؛ قيل لـه: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه. وسئل علي رضي الله عنه عن السفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غلبوا؛ وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك ابن أنس رضي الله عنه: من السفلة؟ قال: الذي يسب الصحابة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (الأرذلون الحاكة والحجامون). يحيى بن أكثم: الدباغ والكناس إذا كان من غير العرب.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

الرابعة: إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفَلة، فقال: إن كنت منهم فأنت طالق؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذي فقال: إن امرأتي قالَت لي يا سفلة، فقلت: إن كنت سفلة فأنت طالق؛ قال الترمذي: ما صناعتك؟ قال: سماك؛ قال: سفلة والله، سفلة والله سفلة. قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك، وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قولـه تعالى: ﴿بادي الرأي ﴾أي ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو. إذا ظهر؛ كما قال:

فاليوم حين بدون للنظار

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدا لي أن أفعل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكون "بادي الرأي" من بدأ يبدأ وحذف الـهمزة. وحقق أبو عمرو الـهمزة فقرأ: "بادئ الرأي" أي أول الرأي؛ أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى ههنا بالـهمز وترك الـهمز. وانتصب على حذف "في" كما قال عز وجل: ﴿واختار موسى قومه ﴾(الأعراف: ١٥٥). ﴿وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ أي في اتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوته ﷺ. ﴿بل نظنكم كاذبين ﴾الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى:﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨)﴾

قولـه تعالى: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾أي على يقين؛ قالـه أبو عمران الجوني. وقيل: على معجزة؛ وقد تقدم في "الأنعام" هذا المعنى. ﴿وآتاني رحمة من عنده ﴾أي نبوة ورسالة؛ عن ابن عباس؛ (وهي رحمة على الخلق). وقيل: الـهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: بالإيمان والإسلام. ﴿فعميت عليكم ﴾أي عميت عليكم الرسالة والـهداية فلم تفهموها. يقال: عميت عن كذا، وعمي علي كذا أي لم أفهمه. والمعنى: فعميت الرحمة؛ فقيل: هو مقلوب؛ لأن الرحمة لا تعمى إنما يعمى عنها؛ فهو كقولك: أدخلت في القلنسوة رأسي، ودخل الخف في رجلي. وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي "فعميت" بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعلـه، أي فعماها الله عليكم؛ وكذا في قراءة أبي "فعماها" ذكرها الماوردي. ﴿أنلزمكموها ﴾قيل: شهادة أن لا إلـه إلا الله. وقيل: الـهاء ترجع إلى الرحمة. وقيل: إلى البينة؛ أي أنلزمكم قبولـها، وأوجبها عليكم؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول أن يرد عليهم. وحكى الكسائي والفراء ﴿أنلزمكموها ﴾بإسكان الميم الأولى تخفيفا؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد:

فاليوم أشرب غير مستحقب   إثما مـن الله ولا واغـل

وقال النحاس: ويجوز على قول يونس في غير القرآن: أنلزمكمها يجري المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول: أنلزمكم ذلك. ﴿ وأنتم لـها كارهون ﴾ أي لا يصح قبولكم لـها مع الكراهة عليها. قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ أي على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به أجرا أي "مالا" فيثقل عليكم. ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ أي ثوابي في تبليغ الرسالة. ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به، كما سألت قريش النبي ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، حسب ما تقدم في "الأنعام" بيانه؛ فأجابهم بقولـه: ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لـهم بلقاء الله عز وجل، ويحتمل أن يكون قالـه على وجه الاختصام؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي من طردهم. ﴿ ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾ في استرذالكم لـهم، وسؤالكم طردهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ﴾ قال الفراء: أي يمنعني من عذابه. ﴿ إن طردتهم ﴾ أي لأجل إيمانهم. ﴿ أفلا تذَكَّرون ﴾ أدغمت التاء في الذال. ويجوز حذفها فتقول: تَذكرون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ أخبر بتذللـه وتواضعه لله عز وجل، وأنه لا يدعي ما ليس لـه من خزائن الله؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل. ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدم هذا المعنى في "البقرة". ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذفت الـهاء والميم لطول الاسم. والدال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تزتري، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالا؛ لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أزريت عليه إذا عبته. وزريت عليه إذا حقرته. وأنشد الفراء:

يباعده الصديق وتزدريه   حليلتـه وينهـره الصغير

قولـه تعالى: ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ أي ليس لاحتقاركم لـهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم.

قولـه تعالى: ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿ إني إذاً لمن الظالمين ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدم ذكره. و "إذاً" ملغاة؛ لأنها متوسطة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجدل وهو شدة الفتل؛ ويقال للصقر أيضا أجدل لشدته في الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" بأشبع من هذا. وقرأ ابن عباس ﴿ فأكثرت جدلنا ﴾ ذكره النحاس. والجدل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أنجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه في الدارين ملوم. ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أي من العذاب. ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في قولك.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذبكم. ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي بفائتين. وقيل: بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملؤوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولا ينفعكم نصحي ﴾ أي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم. ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدم في "براءة" معنى النصح لغة.

قولـه تعالى: ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أي يضلكم. وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصي العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فرد الله عليهم بقولـه: ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾. وقد مضى هذا المعنى في "الفاتحة" وغيرها. وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيناه في "الأعراف" في إغواء الله تعالى إياه حيث قال: ﴿ فبما أغويتني ﴾ (الأعراف: ١٦) ولا محيص لـهم عن قول نوح عليه السلام: ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الـهادي والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا. وقيل: ﴿ أن يغويكم ﴾

يهلككم؛ لأن الإضلال يفضي إلى الهلاك. الطبري: ﴿ يغويكم ﴾ يهلككم بعذابه؛ حكي عن طيء أصبح فلان غاويا أي مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾. (مريم: ٥٩). ﴿ هو ربكم ﴾ فإليه الإغواء، وإليه الهداية. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ. افترى افتعل؛ أي اختلق القرآن من قبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: (هو من محاورة نوح لقومه) وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم. ﴿ قل إن افتريته ﴾ أي اختلقته وافتعلته، يعني الوحي والرسالة. ﴿ فعلي إجرامي ﴾ أي عقاب إجرامي، وإن كنت محقا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي. والإجرام مصدر أجرم؛ وهو اقتراف السيئة. وقيل المعنى: أي جزاء جرمي وكسبي. وجرم وأجرم بمعنى؛ عن النحاس وغيره. قال:

طريد عشيرة ورهين جرم   بما جرمت يدي وجنى لساني

ومن قرأ "أجرامي" بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جرم؛ وذكره النحاس أيضا. ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ "أنه" في موضع رفع على أنه اسم ما لم يسم فاعله. ويجوز أن يكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بـ "أنه". و"آمن" في موضع نصب بـ "يؤمن" ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، واستدامة كفرهم، تحقيقا لنزول الوعيد بهم. قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (نوح: ٢٦) الآيتين. وقيل: إن رجلا من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحا قال لأبيه: اعطني حجرا؛ فأعطاه حجرا، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾. ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ أي فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أي حزينا. والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزئته   فلم أبتئس والرزء فيه جليل

يقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه. والابتئاس حزن في استكانة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أي اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك. ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا وحيث نراك. وقال الربيع بن أنس: بحفظنا إياك حفظ من يراك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (بحراستنا)؛ والمعنى واحد؛ فعبر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها. ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى: ﴿ فنعم القادرون ﴾ (المرسلات: ٢٣) ﴿ فنعم

الماهدون﴾ ﴿ وإنا لموسعون﴾ (الذاريات: ٤٧). وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿ ولتصنع على عيني﴾ وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزه عن الحواس والتشبيه والتكييف؛ لا رب غيره. وقيل: المعنى "بأعيننا" أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه. وقيل: "بأعيننا" أي بعلمنا؛ قاله مقاتل: وقال الضحاك وسفيان: "بأعيننا" بأمرنا. وقيل: بوحينا. وقيل: بمعونتنا لك على صنعها. "ووحينا" أي على ما أوحينا إليك من صنعتها. ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويصنع الفلك﴾ أي وطفق يصنع. قال زيد بن أسلم: مكث نوح ﷺ مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها. وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال: بلغني أن قوم نوح ملؤوا الأرض، حتى ملؤوا السهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء فمكث نوح يغرس الشجر مائة عام لعمل السفينة، ثم جمعها ييبسها مائة عام، وقومه يسخرون؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك، حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان. وروي عن عمرو بن الحارث قال: عمل نوح سفينته ببقاع دمشق، وقطع خشبها من جبل لبنان. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لما استنقذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه. ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ "فاصنع الفلك" قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: "بلى فإن ذلك بعيني" فأخذ القدوم فجعله بيده، وجعلت يده لا تخطئ، فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجارا؛ فعملها في أربعين سنة.

وحكى الثعلبي وأبو نصر القشيري عن ابن عباس قال: (اتخذ نوح السفينة في سنتين). زاد الثعلبي: وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن اصنعها كجؤجؤ الطائر. وقال كعب: بناها في ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدوي: وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلمه كيف يصنعها. واختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما (كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعا؛ وكانت من خشب الساج). وكذا قال الكلبي وقتادة وعكرمة كان طولها ثلاثمائة ذراع، والذراع إلى المنكب. قاله سلمان الفارسي. وقال الحسن البصري: إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وحكاه الثعلبي في كتاب العرائس. وروى علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: (قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب، قال أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح قال فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه، وقد شاب؛ فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا بل مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت.

قال: أخبرنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير[1]. وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى). وقال الكلبي فيما حكاه النقاش: ودخل الماء فيها أربعة أذرع، وكان لها ثلاثة أبواب؛ باب فيه السباع والطير، وباب فيه الوحش، وباب فيه الرجال والنساء. ابن عباس جعلها ثلاث بطون؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب، والأوسط للطعام والشراب، وركب هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء، ثم دفنه بعد ببيت المقدس؛ وكان إبليس معهم في الكوثل. وقيل: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح: لا أحملكما؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء، فقالتا: احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحدا ذكرك؛ فمن قرأ حين يخاف مضرتهما ﴿سلام على نوح في العالمين﴾(الصافات: ٧٩) لم تضراه؛ ذكره القشيري وغيره. وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة). قوله تعالى: ﴿وكلما ﴾ظرف. ﴿مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾قال الأخفش والكسائي يقال: سخرت به ومنه. وفي سخريتهم منه قولان: أحدهما: أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجارا. الثاني: لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتا يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: (ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر)؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. ﴿إن تسخروا منا ﴾أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة. ﴿ فإنا نسخر منكم ﴾ غدا عند الغرق. والمراد بالسخرية هنا الاستجهال؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا.

قوله تعالى:﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾

قوله تعالى: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ تهديد، و"من" متصلة بـ "سوف تعلمون" و"تعلمون" هنا من باب التعدية إلى مفعول؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب. ويجوز أن تكون "من" استفهامية؛ أي أينا يأتيه العذاب؟. وقيل: "من" في موضع رفع بالابتداء و"يأتيه" الخبر، و"يخزيه" صفة لـ "عذاب". وحكى الكسائي: أن أناسا من أهل الحجاز يقولون: سو تعلمون؛ وقال من قال: "ستعلمون" أسقط الواو والفاء جميعا. وحكى الكوفيون: سف تعلمون؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿ويحل عليه ﴾أي يجب عليه وينزل به. ﴿عذاب مقيم ﴾أي دائم، يريد عذاب الآخرة.

---

(١)ضعيف، فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (40)﴾

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة: الأول: أنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنورا؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة؛ وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك. الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنورا من حجارة؛ وكان لحواء حتى صار لنوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك. وأنبع الله الماء من التنور، فعلمت به امرأته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور؛ فقال: جاء وعد ربي حقا. هذا قول الحسن؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضا.

الرابع: أنه طلوع الفجر، ونور الصبح؛ من قولهم: نور الفجر تنويرا؛ قاله علي بن أبي طالب ﷺ. الخامس: أنه مسجد الكوفة؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا؛ وقاله مجاهد. قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه علما لنوح، ودليلا على هلاك قومه. قال الشاعر وهو أمية:

فار تنورهم وجاش بماء صار فوق الجبال حتى علاها

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة. السابع: أنه العين التي بالجزيرة "عين الوردة" رواه عكرمة. وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: "عين وردة" وقال ابن عباس أيضا: (فار تنور آدم بالهند). قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا ﴾ (القمر: ١١ ـ ١٢). فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران الغليان. والتنور اسم أعجمي عربته العرب، وهو على بناء فعل؛ لأن أصل بنائه تنر، وليس في كلام العرب نون قبل راء. وقيل: معنى "فار التنور" التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم: حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب. والوطيس التنور. ويقال: فارت قدر القوم إذا اشتد حربهم؛ قال شاعرهم:

تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفور

قوله تعالى: ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ يعني ذكرا وأنثى؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان. وقرأ حفص ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ بتنوين "كل" أي من كل شيء زوجين. والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد: شيء معه آخر لا يستغني عنه. ويقال للاثنين: هما زوجان، في كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه؛ فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجا يقال: له زوجا نعل إذا كان له نعلان. وكذلك عنده زوجا حمام، وعليه زوجا قيود؛ قال الله تعالى: ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ (النجم: ٤٥). ويقال للمرأة هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها. وقد يقال للاثنين هما

زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجا؛ قال الله تعالى: ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ (الحج: ٥) أي من كل لون وصنف. وقال الأعشى:

وكل زوج من الديباج يلبسه   أبو قدامة محبو بذاك معا

أراد كل ضرب ولون. و﴿من كل زوجين﴾ في موضع نصب بـ "احمل". "اثنين" تأكيد. ﴿وأهلك﴾ أي واحمل أهلك. ﴿إلا من سبق﴾ "من" في موضع نصب بالاستثناء. ﴿عليه القول﴾ منهم أي بالهلاك؛ وهو ابنه كنعان وامرأته واعلة كانا كافرين. ﴿ومن آمن﴾ قال الضحاك وابن جريج: أي احمل من آمن بي، أي من صدقك؛ فـ "من" في موضع نصب بـ "احمل". ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: (آمن من قومه ثمانون إنسانا، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائن لـه. ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل). وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان. قال عطاء: ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث. وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعا. و"قليل" رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الاستثناء، لأن الكلام قبلـه لم يتم، إلا أن الفائدة في دخول "إلا" و"ما" لأنك لو قلت: آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها﴾ أمر بالركوب؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه. والركوب العلو على ظهر الشيء. ويقال: ركبه الدين. وفي الكلام حذف؛ أي اركبوا الماء في السفينة. وقيل: المعنى اركبوها. و"في" للتأكيد كقولـه تعالى: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ (يوسف: ٤٣) وفائدة "في" أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها. قال عكرمة: ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب، واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قتادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه: من كان صائما فليتم صومه، ومن لم يكن صائما فليصمه. وذكر الطبري في هذا حديثا عن النبي ﷺ: (أن نوحا ركب في السفينة أول يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أرست على الجودي، فصامه نوح ومن معه). وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطافت به سبعا، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينلـه غرق، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه.

قولـه تعالى: ﴿ بسم الله مُجراها ومُرساها﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها؛ فمجراها ومرساها في موضع رفع بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت، وأقيم "مجراها" مقامه. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: ﴿ بسم الله مَجريها ﴾ بفتح الميم و"مُرساها" بضم الميم. وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب ﴿ بسم الله مَجراها ومَرساها ﴾ بفتح الميم فيهما؛ على المصدر من جرت تجري جريا ومجرى، ورست رسوا ومرسى إذا ثبتت. وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي: ﴿ بسم الله مُجريها ومُرسيها﴾ نعت لله عز وجل في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ أي هو مجريها ومرسيها. ويجوز النصب على الحال. وقال الضحاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مجراها جرت، وإذا قال بسم الله مرساها رست. وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبد الله بن كريز عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال: (أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (الزمر: ٦٧) ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾)[١]. وفي هذه الآية دليل، على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل؛ كما بيناه في البسملة؛ والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ إن ربي لغفور رحيم﴾ أي لأهل السفينة. وروي عن ابن عباس قال: (لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالـها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا عل حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها سنوران فأكلا الفئرة. ولما حمل الأسد في السفينة قال: يا رب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغلـه؛ فأخذته الحمى؛ فهو الدهر محموم). قال ابن عباس: (وأول ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزة، وآخر ما حمل حمل الحمار)؛ قال: وتعلق إبليس بذنبه، ويداه قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعد، فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع أن يدخل، فصاح به نوح: ادخل ويلك فجعل يضطرب؛ فقال: ادخل ويلك وإن كان معك الشيطان، كلمة زلت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل. ثم إن نوحا رآه يغني في السفينة، فقال لـه: يا لعين ما أدخلك بيتي؟ قال: أنت أذنت لي؛ فذكر لـه؛ فقال لـه: قم فاخرج. قال: ما لك بد في أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر. ابن عباس: (إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل)؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات.

(١) فيه مروان بن سالم، متروك ورماه الساجي وغيره بالوضع، كما في "التقريب" (٢/ ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ الموج جمع موجة؛ وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضع خفض نعت للموج. وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا. ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ قيل: كان كافرا واسمه كنعان. وقيل: يام. ويجوز على قول سيبويه: ﴿ ونادى نوح ابنهُ ﴾ بحذف الواو من "ابنه" في اللفظ، وأنشد:

لـه زجل كأنه صوت حاد

فأما "ونادى نوح ابْنَهَ وكان" فقراءة شاذة، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعروة ابن الزبير. وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد "ابنها" فحذف الألف كما تقول: "ابنه"؛ فتحذف الواو. وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها ﴿ وكان في معزل ﴾ أي من دين أبيه. وقيل: عن السفينة. وقيل: إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا، وأنه ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال لـه: ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ وسيأتي. وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان في أول ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ عاصم: ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها. وأصل "يا بني" أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بنياه ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحاق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: ﴿ يا ويلتا ﴾ (هود: ٧٢) وكما قال الشاعر:

فيا عجبا من رحلـها المتحمل

فيريد يا بنيا، ثم تحذف الألف، لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبدا الله في التثنية. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال سآوي ﴾ أي أرجع وأنضم. ﴿ إلى جبل يعصمني ﴾ أي يمنعني "من الماء" فلا أغرق. ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار. وانتصب "عاصم" على التبرئة. ويجوز "لا عاصم اليوم" تكون لا بمعنى ليس. ﴿ إلا من رحم ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه، قاله الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل: ﴿ ماء دافق ﴾ (الطارق: ٦) أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطيء القيام رخيم الكلا م أمسى فؤادي به فاتنا

أي مفتونا. وقال آخر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المطعوم المكسو. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون "من" في موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أي إلا الله. وهذا اختيار الطبري. ويحسن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا "إلا" بمعنى "لكن" ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ يعني بين نوح وابنه. ﴿ فكان من المغرقين ﴾ قيل: إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال: يا أبت فار التنور، فقال له أبوه: ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ فما استتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق. وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصن فيه من الماء، فلما فار التنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك. وقيل: إن الجبل الذي آوى إليه "طور سيناء".

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ هذا مجاز لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تميز به. والذي قال إنه مجاز قال: لو فتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها، واشتمال المعاني فيها. وفي الأثر: إن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قط إلا بحفظ ملك موكل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملك. وذلك قوله تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ (الحاقة: ١١) فجرت بهم السفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. ويقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد يحمد؛ لغتان حكاهما الكسائي والفراء. والبالوعة الموضع الذي يشرب الماء. قال ابن العربي: التقى الماءان على أمر قد قدر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك

ويا سماء أقلعي وغيض الماء ﴾ وقيل: ميز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحارا.

قولـه تعالى: ﴿ وغيض الماء ﴾ أي نقص؛ يقال: غاض الشيء وغضته أنا؛ كما يقال: نقص بنفسه ونقصه غيره، ويجوز "غيض" بضم الغين. ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي أحكم وفرغ منه؛ يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام. ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير. والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان، كما هلكت الطير والسباع. ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالـهم. وحكي أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه؛ وكانت تحبه حبا شديدا، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء استوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي.[١]

قولـه تعالى: ﴿ واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكا لـهم. الجودي جبل بقرب الموصل؛ استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكرا لله تعالى؛ وقد تقدم هذا المعنى. وقيل: كان ذلك يوم الجمعة. وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت، وبقي الجودي لم يتطاول تواضعا لله، فاستوت السفينة عليه: وبقيت عليه أعوادها. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: (لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة). وقال مجاهد: تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالـها الغرق؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه. وقد قيل: إن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل.

سبحانه ثم سبحانا يعود لـه   وقبلنا سبح الجودي والجمد

ويقال: إن الجودي من جبال الجنة؛ فلـهذا استوت عليه. ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(مسألة): لما تواضع الجودي وخضع عز، ولما ارتفع غيره واستعلى ذل، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من تخشع، ويضع من ترفع؛ ولقد أحسن القائل:

وإذا تذللت الرقاب تخشعا[٢]   منا إليك فعزها في ذلـها

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبي ﷺ تسمى العضباء؛ وكانت لا تسبق؛ فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سبقت العضباء! فقال رسول الله ﷺ: (إن حقا على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه). وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما

---

(١) رواه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٣٤٢)، وصححه، وردّه الذهبي بقوله: وإسناده مظلم "موسى ليس بذاك".
(٢) في نسخة: تخضعاً.

تواضع أحد لله إلا رفعه الله). وقال ﷺ: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد). خرجه البخاري.

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة. ذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ لـه عن الحسن: أن نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ (العنكبوت: ١٤) وكان قد كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابرة وعتوا عتوا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشد مما لقي نوح، فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وقيذا، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: ﴿ رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ﴾ فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قولـه تعالى: ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لـهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ (نوح: ٧). وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون). وقال ابن عباس: (إن نوحا كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل معه ابنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال: يا أبت أمكني من العصا، فأمكنه فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة موضحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: "رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين" فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن).

قال: ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾؛ أي لا تحزن عليهم. ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر. قال: فغرس الساج عشرين سنة، وكف عن الدعاء، وكفوا عن الاستهزاء. وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها: فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعلـه على ثلاث صور؛ رأسه كرأس الديك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنبه كذنب الديك؛ واجعلـها مطبقة واجعل لـها أبوابا في جنبها، وشدها بدسر، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ابن عباس: (كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام)، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأول، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدواب.

قال الزهري: إن الله عز وجل بعث ريحا فحمل إليه من كل زوجين اثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم. وقال جعفر بن محمد: بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب بيديه على

الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة. وقال زيد بن ثابت: استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده في ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفا وبدا حياؤها. ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها؛ قال إسحاق: أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة، وجعل فيها من كل زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض. فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا، فلم يجد طينا ولا ترابا، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبرا فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ في قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد. وقال رسول الله ﷺ: (كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة). وذكر صاحب كتاب (العروس) وغيره: أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدجاج: أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها: أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبدا، أنت ينتفع بك أمتي؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه، ولذلك يقتل في الحل والحرم ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. وبعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سيناء فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بشراي منك أن تهب لي الطوق في عنقي، والخضاب في رجلي، وأسكن الحرم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة في رجليها، ودعا لها ولذريتها بالبركة. وذكر الثعلبي أنه بعث بعد الغراب التدرج وكان من جنس الدجاج؛ وقال: إياك أن تعتذر، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ أي دعاه. ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق؛ ففي الكلام حذف. ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ يعني الصدق. وقال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: "وأهلك" وترك قوله: ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ (هود: ٤٠) فلما كان عنده من أهله قال: ﴿ رب إن ابني من أهلي ﴾ يدل على ذلك قوله: ﴿ ولا تكن من الكافرين ﴾ أي لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنا في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه: ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ إلا وذلك عنده كذلك؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت. وقال الحسن: كان منافقا؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه. وعنه أيضا: كان ابن امرأته؛ دليله قراءة علي ﴿ ونادى نوح ابنها ﴾. ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ ابتداء وخبر. أي حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

الثانية: قوله تعالى: ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم؛ قاله سعيد بن جبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك؛ فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب. ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ أي من الكفر والتكذيب؛ واختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون "عمل" أي ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف؛ قاله الزجاج وغيره. قال:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

أي ذات إقبال وإدبار. وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال؛ أي إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح. قاله قتادة. وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه. وكان لغير رشدة، وقاله أيضا مجاهد. قال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال: ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر؛ فقلت له: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ ولا يختلف أهل الكتابين أنه ابنه؛ فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب! إنهم يكذبون. وقرأ: ﴿ فخانتاهما ﴾ (التحريم: ١٠). وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه، ولهذا قال: "فخانتاهما". وقال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط)، وأنه كان ابنه لصلبه. وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم، وأنه كان ابنه لصلبه. وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح: ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلا ثم قال: (لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا ﷺ أنه ابنه، وتقول إنه ليس ابنه! نعم كان ابنه؛ ولكن كان مخالفا في النية والعمل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾)؛ وهذا هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه ابنه. وقوله: ﴿ فخانتاهما ﴾ (التحريم: ١٠) يعني في الدين لا في الفراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التنور؛ فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور، فهذه خيانتها. وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله. والله أعلم. وقيل: الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا، كما في الخبر (أولادكم من كسبكم)[1]. ذكره القشيري.

الثالثة: في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين. وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال: فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات. وفيها أيضا دليل على أن الابن من

(١) "حسن صحيح" بنحوه في صحيح أبي داود (٣٠١٣).

الأهل لغة وشرعا، ومن أهل البيت؛ فمن وصى لأهلـه دخل في ذلك ابنه، ومن تضمنه منزلـه، وهو في عيالـه. وقـال تعالى في آية أخرى: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهلـه من الكرب العظيم ﴾(الصافات: ٧٥) فسمى جميع من ضمه منزلـه من أهلـه.

الرابعة: ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما: أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش. وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول: نرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر في كتاب "التمهيد". وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)[1] يريد الخيبة. وقيل: الرجم بالحجارة. وقرأ عروة بن الزبير. "ونادى نوح ابنها" يريد ابن امرأته، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه، وعن علي رضي الله عنه، وهي حجة للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لـها. والله أعلم.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قولـه تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثلـه أبدا ﴾ (النور: ١٧) أي يحذركم الله وينهاكم. وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فـ "قال" نوح: ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ الآية وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذللـه وتواضعه. ﴿وإلا تغفر لي ﴾ما فرط من السؤال. "وترحمني" أي بالتوبة. ﴿أكن من الخاسرين أي أعمالا. فقال: ﴿يا نوح اهبط بسلام منا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا ﴾أي قالت لـه الملائكة، أو قال الله تعالى لـه: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقد ابتلعت الماء وجفت. ﴿بسلام منا ﴾ أي بسلامة وأمن. وقيل: بتحية. ﴿وبركات عليك ﴾أي نعم ثابتة؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته. ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (نوح آدم الأصغر)، فجميع الخلائق الآن من نسلـه، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قتادة وغيره، حسـب ما تقـدم؛ وفي التنزيل ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾(الصافات: ٧٧). ﴿وعلى أمم ممن معك ﴾قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قولـه ﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾كل كافر إلى يوم القيامة؛ روي ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى ذرية أمم ممن معك، وذرية أمم سنمتعهم. وقيل: "من" للتبعيض، وتكون لبيان الجنس.

---

(٢)أخرجاه في الصحيحين.

"وأمم سنمتعهم" ارتفع و"أمم" على معنى وتكون أمم. قال الأخفش سعيد كما تقول: كلمت زيدا وعمرو جالس. وأجاز الفراء في غير القراءة وأمما، وتقديره: ونمتع أمما. وأعيدت "على" مع "أمم" لأنه معطوف على الكاف من "عليك" وهي ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره. وقد تقدم في "النساء" بيان هذا مستوفى في قوله تعالى: ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ (النساء: ١) بالخفض. والباء في قوله: "بسلام" متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي اهبط مسلما عليك. و"منا" في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. "وعلى أمم" متعلق بما تعلق به "عليك"؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف. و"من" في قوله: ﴿ ممن معك ﴾ متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم. و"معك" متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة "لمن" أي ممن استقر معك، أو آمن معك، أو ركب معك.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ أي تلك الأنباء، وفي موضع آخر "ذلك" أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك. ﴿ نوحيها إليك ﴾ أي لتقف عليها. ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان، والمجوس الآن ينكرونه. ﴿ من قبل هذا ﴾ خبر أي مجهولة عندك وعند قومك. ﴿ فاصبر ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح. وقيل: أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان (فإنه) على الجملة. ﴿ فاصبر ﴾ أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى العرب الكفار، كما صبر نوح على أذى قومه. ﴿ إن العاقبة ﴾ في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز. ﴿ للمتقين ﴾ عن الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ أي وأرسلنا، فهو معطوف على "أرسلنا نوحا". وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول: يا أخا تميم. وقيل: إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم؛ وقد تقدم هذا في "الأعراف" وكانوا عبدة الأوثان. وقيل: هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿ إرم ذات العماد ﴾ (الفجر: ٧). وعاد اسم رجل ثم استمر على قوم انتسبوا إليه. ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ بالخفض على اللفظ، و"غيره" بالرفع على الموضع،

و "غيره" بالنصب على الاستثناء. ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ أي ما أنتم في اتخاذكم إلـها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز.

قولـه تعالى: ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني ﴾ أي على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به فيثقل عليكم، أي ثوابي في تبليغ الرسالة. والفطرة ابتداء الخلق.

قولـه تعالى: ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ تقدم في أول السورة. ﴿ يرسل السماء ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة. ﴿ عليكم مدرارا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الـهاء في مفعال على النسب؛ وأكثر ما يأتي مفعال من أفعل، وقد جاء ههنا من فعل؛ لأنه من درت السماء تَدر وتَدُر فهي مدرار. وكان قوم هود ـ أعني عادا ـ أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن كما تقدم في "الأعراف". ﴿ ويزدكم ﴾ عطف على يرسل. ﴿ قوة إلى قوتكم ﴾ قال مجاهد: شدة على شدتكم. الضحاك: خصبا إلى خصبكم. علي بن عيسى: عزا على عزكم. عكرمة: ولدا إلى ولدكم. وقيل: إن الله حبس عنهم المطر وأعقم الأرحام ثلاث سنين فلم يولد لـهم ولد؛ فقال لـهم هود: إن آمنتم أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد؛ فتلك القوة. وقال الزجاج: المعنى يزدكم قوة في النعم. ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ﴾ أي حجة واضحة. ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ إصرارا منهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾ أي أصابك. ﴿ بعض آلـهتنا ﴾ أي أصنامنا. ﴿ بسوء ﴾ أي بجنون لسبك إياها، عن ابن عباس وغيره. يقال: عراه الأمر واعتراه إذا ألم به. ومنه ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ (الحج: ٣٦). ﴿ قال إني أشهد الله ﴾ أي على نفسي. ﴿ واشهدوا ﴾ أي

وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير؛ أي لتعرفوا ﴿ أني بريء مما تشركون ﴾ أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها. ﴿ فكيدوني جميعا ﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري. ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي لا تؤخرون. وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿ فكيدوني جميعا ﴾. وكذلك قال النبي ﷺ لقريش. وقال نوح عليه السلام: ﴿ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (يونس: ٧١) الآية.

قوله تعالى: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ أي رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿ ما من دابة ﴾ أي نفس تدب على الأرض؛ وهو في موضع رفع بالابتداء. ﴿ إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أي فلا تصلون إلى ضري. وكل ما فيه روح يقال له داب ودابة؛ والهاء للمبالغة. وقال الفراء: مالكها، والقادر عليها. وقال القتبي: قاهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته. وقال الضحاك: يحييها ثم يميتها؛ والمعنى متقارب. والناصية قصاص الشعر في مقدم الرأس. ونصوت الرجل أنصوه نصوا أي مددت ناصيته. قال ابن جريج: إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلة والخضوع؛ فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه في كلامهم. وقال الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" قوله تعالى: ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال العباد، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره في جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة في نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدرة عليهم يوم المقادير. وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)[1]. ولهذا قويت الرسل وصاروا من أولي العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم في العزم، ولذلك ما قوي هود النبي ﷺ حتى قال: ﴿فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا في جبهته بين عينيه، فسمي ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها ووصف ناصية أبي جهل فقال: ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ (العلق: ١٦) يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة؛ فعلى سبيل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ. والله أعلم. ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ قال النحاس:

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٤٣٨٠)، وهو عند مسلم بلفظ: "كتب الله . ." .

الصراط في اللغة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فإن تولوا ﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين. ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ بمعنى قد بينت لكم. ﴿ ويستخلف ربي قوما غيركم ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع لـه منكم يوحدونه ويعبدونه. "ويستخلف" مقطوع مما قبلـه فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قولـه: ﴿ فقد أبلغتكم ﴾. وروي عن حفص عن عاصم "ويستخلف" بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل: ﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ (الأعراف: ١٨٦). ﴿ ولا تضرونه شيئا ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم. ﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾ أي لكل شيء حافظ. "على" بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ أي عذابنا بهلاك عاد. ﴿ نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت لـه أعمال صالحة. وفي صحيح مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي ﷺ (لن ينجي أحدا منكم عملـه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه). وقيل: معنى ﴿ برحمة منا ﴾ بأن بينا لـهم الـهدى الذي هو رحمة. وكانوا أربعة آلاف. وقيل: ثلاثة آلاف. ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ أي عذاب يوم القيامة. وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في "الذاريات" وغيرها وسيأتي. قال القشيري أبو نصر: والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلي الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للمؤمنين إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وتلك عاد ﴾ ابتداء وخبر. وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف "عادا" فيجعله اسما للقبيلة. ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ أي كذبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿ وعصوا رسله ﴾ يعني هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه. ونظيره قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ (المؤمنون: ٥١) يعني النبي ﷺ وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع

ههنا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هودا والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل. ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ أي اتبع سقاطهم رؤساءهم. والجبار المتكبر. والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيد: العنيد والعنود والعاند والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عاند. وقال الراجز:

إني كبير لا أطيق العُنَّدا

قوله تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي ألحقوها. ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله: ﴿ ويوم القيامة ﴾. ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ﴾ قال الفراء: أي كفروا نعمة ربهم؛ قال: ويقال كفرته وكفرت به، مثل شكرته وشكرت له. ﴿ ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله. والبعد الهلاك والبعد التباعد من الخير. يقال: بعد يبعد بعدا إذا تأخر وتباعد. وبعد يبعد بعدا إذا هلك؛ قال:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة:

فلا تبعدن إن المنية منهل وكل امرئ يوما به الحال زائل

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وإلى ثمود ﴾ أي أرسلنا إلى ثمود ﴿ أخاهم ﴾ أي في النسب. ﴿ صالحا ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب "وإلى ثمود" بالتنوين في كل القرآن؛ وكذلك روي عن الحسن. واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذي قال أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حي؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة؛ بل الأمر على ضد ما قال عند سيبويه. والأجود عند سيبويه فيما لم يقل فيه بنو فلان الصرف، نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى. والتأنيث جيد بالغ حسن. وأنشد سيبويه في التأنيث:

غلب المساميح الوليد سماحة وكفى قريش المعضلات وسادها

الثانية: قـولـه تعالى: ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره ﴾ تقدم. ﴿ هو أنشـأكم من الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدم في "البقرة" و"الأنعام" وهم منه، وقيل: أنشأكم في الأرض. ولا يجوز إدغام الـهاء من "غيره" في الـهاء من "هو" إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج. ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها. قال مجاهد: ومعنى "استعمركم" أعمركم من قولـه: أعمر فلان فلانا داره؛ فهي لـه عمرى. وقال قتادة: أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون استفعل بمعنى أفعل؛ مثل استجاب بمعنى أجاب. وقال الضحاك: أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف. ابن عباس: (أعاشكم فيها). زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار. وقيل: المعنى ألـهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها.

الثالثة: قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة؛ والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب، قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمة استفعل في لسان العرب على معان: منها؛ استفعل بمعنى طلب الفعل كقولـه: استحملته أي طلبت منه حملانا؛ وبمعنى اعتقد، كقولـهم: استسهلت هذا الأمر اعتقدته سهلا، أو وجدته سهلا، واستعظمته أي اعتقدته عظيما ووجدته، ومنه استفعلت بمعنى أصبت؛ كقولـهم: استجدته أي أصبته جيدا: ومنها بمعنى فعل؛ كقولـه: قر في المكان واستقر؛ وقالـوا وقولـه: "يستهزئون" و"يستسخرون" منه؛ فقولـه تعالى: ﴿ استعمركم فيها ﴾ خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته واستسهلته؛ أي أصبته جيدا وسهلا؛ وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازا؛ ولا يصح أن يقال: إنه طلب من الله تعالى لعمارتها، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه، أما أنه يصح أن يقال: أنه استدعى عمارتها فإنه جاء بلفظ استفعل، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة.

قلت: لم يذكر استفعل بمعنى أفعل، مثل قولـه: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه

الرابعة: ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في "البقرة" في السكنى والرقبى. وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها ـ أنها تمليك لمنافع الرقبة حياة المعمر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم ابن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدم في "البقرة" حجة هذا القول. الثاني: أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حي وأحمد بن حنبل وابن شبرمة وأبي عبيد؛ قالوا: من أعـمر رجلا شـيئا حـياته فهو لـه حـياته؛ وبـعد وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسـول الله ﷺ قـال: (العمرى جائزة)[1] و(العمرى لمن وهبت

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٦)، ومسلم (١٦٢٥).

لـه)[1]. الثالث: إن قال عمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول: وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني؛ وبه قال الزهري وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روي عن مالك؛ وهو ظاهر قولـه في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المعمر؛ إذا انقرض عقب المعمر؛ إن كان المعمر حيا، وإلا فإلى من كان حيا من ورثته، وأولى الناس بميراثه. ولا يملك المعمر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العمرى المنفعة دون الرقبة. وقد قال مالك في الحبس أيضا: إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العمرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (أيما رجل أعمر رجلا عمرى لـه ولعقبه فقال قد أعطيتكها وعقبك ما بقي منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجل أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث) وعنه قال: إن العمرى التي أجاز رسول الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعقبك، فأما إذا قال: هي لك ما عشت فإنها ترجع إلى صاحبها؛ قال معمر: وبذلك كان الزهري يفتي.

قلت: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأن الله سبحانه قال: "واستعمركم" بمعنى أعمركم؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيا ظرف لـهما حياة وموتا. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العقب. وفي التنزيل: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾(الشعراء: ٨٤) أي ثناء حسنا. وقيل: هو محمد ﷺ قال: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾(الصافات: ٧٧) وقال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾(الصافات: ١١٣).

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿فاستغفروه ﴾أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام. ﴿ثم توبوا إليه ﴾أي ارجعوا إلى عبادته. ﴿إن ربي قريب مجيب ﴾أي قريب الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في "البقرة" عند قولـه: ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع ﴾القول فيه.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾أي كنا نرجو أن تكون فينا سيدا قبل هذا؛ أي قبل دعوتك النبوة. وقيل: كان صالح يعيب آلـهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: انقطع رجاؤنا منك. ﴿أتنهانا ﴾استفهام معناه الإنكار. ﴿أن نعبد ﴾أي عن أن نعبد. ﴿ما يعبد آباؤنا ﴾فأن في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿وإننا لفي شك ﴾وفي سورة "إبراهيم" "وإنا" والأصل وإننا؛ فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة. ﴿مما تدعونا ﴾الخطاب لصالح، وفي سورة إبراهيم ﴿تدعوننا ﴾(إبراهيم: ٩) لأن الخطاب للرسل

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٥)، ومسلم (١٦٢٥).

صلوات الله وسلامه عليهم﴿ إليه مريب﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة. قال الهذلي:

كنت إذا أتوته من غيب يشم عطفي ويبز ثوبي
كأنما أربته بريب

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾ تقدم معناه في قول نوح. ﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ استفهام معناه النفي؛ أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد. ﴿ فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفراء. والتخسير لهم لا له ﷺ؛ كأنه قال: غير تخسير لكم لا لي. وقيل: المعنى ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله﴾ ابتداء وخبر. ﴿ لكم آية﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه في "هذه". وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل ـ على ما طلبوا ـ على أنهم يؤمنون. وقيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة، فلما خرجت الناقة ـ على ما طلبوا ـ قال لهم نبي الله صالح: ﴿ هذه ناقة الله لكم آية﴾. ﴿ فذروها تأكل﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من "فذروها" لأنه أمر. ولا يقال: وذر ولا واذر إلا شاذا. وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه: استغنوا عنه بترك. وقال غيره: لما كانت الواو ثقيلة وكان في الكلام فعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحاق الزجاج: ويجوز رفع "تأكل" على الحال والاستئناف. ﴿ ولا تمسوها﴾ جزم بالنهي. ﴿ بسوء﴾ قال الفراء: بعقر. ﴿ فيأخذكم﴾ جواب النهي. ﴿ عذاب قريب﴾ أي قريب من عقرها.

قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فعقروها﴾ إنما عقرها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدم الكلام في عقرها في "الأعراف". ويأتي أيضا. ﴿ فقال تمتعوا﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا؛ أي بنعم الله عز وجل قبل العذاب. ﴿ في داركم﴾ أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال في دوركم. وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه؛ كقوله: ﴿ يخرجكم طفلا﴾ (غافر: ٦٧) أي كل

واحد طفلا. وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدم في "الأعراف" فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول، ثم احمرت في الثاني، ثم اسودت في الثالث، وهلكوا في الرابع؛ وقد تقدم في "الأعراف".

الثانية: استدل علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة وقد تقدم في "النساء" ما للعلماء في هذا.

قولـه تعالى: ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أي عـذابنا. ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ تقدم. ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ؛ أي من فضيحته وذلته. وقيل: الواو زائدة؛ أي نجيناهم من خزي يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع "لما" و"حتى" لا غير. وقرأ نافع والكسائي "يومئذ" بالنصب. الباقون بالكسر على إضافة "يوم" إلى "إذ" وقال أبو حاتم: حدثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ أدغم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في "يومئذ". قال النحاس: الذي يرويه النحويون: مثل سيبويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا: الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أي في اليوم الرابع صيح بهم فماتوا؛ وذكر لأن الصيحة والصياح واحد. قيل: صيحة جبريل. وقيل: صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة؛ وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا. وقال هنا: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ وقال في الأعراف ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ (الأعراف: ٧٨) وقد تقدم بيانه هناك. وفي التفسير: أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة؟ ! قالوا: فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعددهم، وكانوا فيما يقال اثني عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرها؛ فأدناها من رؤوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم. وجعل الماء يتفور من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك

الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لـهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا. ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ أي ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت.

قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام؛ وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لحا، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا. (وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام)؛ قالـه ابن عباس. الضحاك: كانوا تسعة. السدي: أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذو وضاءة وجمال بارع. "بالبشرى" قيل: بالولد. وقيل: بإهلاك قوم لوط. وقيل: بشروه بأنهم رسل الله عز وجل، وأنه لا خوف عليه. ﴿ قالوا سلاما ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول: قالوا خيرا. وهذا اختيار الطبري. وأما قولـه: ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ (الكهف: ٢٢) فالثلاثة اسم غير قول مقول. ولو رفعا جميعا أو نصبا جميعا ﴿ قالوا سلاما قال سلام ﴾ جاز في العربية. قيل: انتصب على المصدر. وقيل: ﴿ قالوا سلاما ﴾ أي فاتحوه بصواب من القول. كما قال: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (الفرقان: ٦٣) أي صوابا؛ فسلاما معنى قولـهم لا لفظه؛ قال معناه ابن العربي واختاره. قال: ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قالـه بعينه فقال مخبرا عن الملائكة: ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (الرعد: ٢٤) ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ (الزمر: ٧٣) وقيل: دعوا لـه؛ والمعنى سلمت سلاما. ﴿ قال سلام ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام. والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر. وجاز سلام على التنكير لكثرة استعمالـه، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم. وقرئ "سلم" قال الفراء: السلم والسلام بمعنى؛ مثل الحل والحلال.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسألـة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فما لبث أن جاء ﴾ "أن" بمعنى حتى، قالـه كبراء النحويين؛ حكاه ابن العربي. التقدير: فما لبث حتى جاء. وقيل: "أن" في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير: فما لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلما حذف حرف الجر بقي "أن" في محل النصب. وفي "لبث" ضمير اسم إبراهيم. و"ما" نافية؛ قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه؛ فأن في موضع رفع، ولا ضمير في "لبث"، و"ما" نافية؛ ويصح أن تكون "ما" بمعنى الذي، وفي "لبث" ضمير إبراهيم و﴿ أن جاء ﴾ خبر "ما" أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ. و"حنيذ" مشوي. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. يقال: حنذت الشاة أحنذها

حنذا أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ. وحنذت الفرس أحنذه حنذا، وهو أن تحضره شوطا أو شوطين ثم تظاهر عليه الجلال في الشمس ليعرق، فهو محنوذ وحنيذ؛ فإن لم يعرق قيل: كبا. وحنذ موضع قريب من المدينة. وقيل: الحنيذ السميط. ابن عباس وغيره: (حنيذ نضيج. وحنيذ بمعنى محنوذ)؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضيف أن يعجل قراه، فيقدم الموجود الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جدة، ولا يتكلف ما يضر به. والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وإبراهيم أول من أضاف على ما تقدم في "البقرة" وليست بواجبة عند عامة أهل العلم؛ لقوله ﷺ: (الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة)[١]. والجائزة العطية والصلة التي أصلها على الندب. وقال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)[٢]. وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا، فالضيافة مثله ـ والله أعلم ـ وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله ﷺ: (ليلة الضيف حق)[٣] إلى غير ذلك من الأحاديث. وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية. قال ابن العربي: وقد قال قوم: إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرد؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدري خرجه الأئمة، وفيه: (فاستضفناهم فأبوا أن يضيفونا فلدغ سيد ذلك الحي) الحديث. وقال: هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقا للام النبي ﷺ القوم الذين أبوا، ولبين لهم ذلك.

الثالثة: اختلف العلماء فيمن يخاطب بها؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية. وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة. قال سحنون: إنما الضيافة على أهل القرى، وأما الحضر فالفندق ينزل فيه المسافر (حكى اللغتين صاحب العين وغيره)[٤]. واحتجوا بحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدر)[٥]. وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم ابن أخي عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما انفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قال أبو عمر بن عبد البر. قال ابن العربي: الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات؛ ولا شك أن الضيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريبا فهي فريضة.

الرابعة: قال ابن العربي قال بعض علمائنا: كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياس في موضع النقل؛ من أين علم أنه قليل؟! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلّى الله عليهم وسلم؛ وعجل

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٥)، ومسلم.

(٢) أخرجة البخاري (٦١٣٦)، ومسلم.

(٣) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٣١٩٠).

(٤) ليست في نسخة.

(٥) موضوع، وانظر كلام المصنف عليه.

لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامسة: السنة إذا قدم للضيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم؛ وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم ﴿ نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يخب به   فأوجس القلب من قرطاسه جزعا

"خيفة" خوفا؛ أي فزعا. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا؛ فقالت الملائكة ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾.

السادسة: من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر. روي أن أعرابيا أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك؟ فقال له: أتنظر إلي نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟ ! والله لا أكلت معك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وللموت خير من زيارة باخل   يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾

السابعة: قوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ يقول: أنكرهم؛ تقول: نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وامرأته قائمة ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحاق: قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود "وامرأته قائمة وهو قاعد".

التاسعة: ﴿ فضحكت ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقا للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العرس عند طهورها   وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال آخر:

وضحكت الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: (ضحكت الكافورة ـ وهي قشرة الطلعة ـ إذا انشقت). وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجب؛ قال أبو ذؤيب:

فجاء بمزج لم ير الناس مثله هو الضحك إلا أنه عمل النحل

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية. وروي أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحاق. ويقال: كان إبراهيم ﷺ إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله: ﴿وامرأته قائمة﴾ أي قائمة في خدمتهم. ويقال: "قائمة" لروع إبراهيم ﴿فضحكت﴾ لقولهم: ﴿لا تخف﴾ سرورا بالأمن. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير؛ المعنى: فبشرناها بإسحاق فضحكت، أي ضحكت سرورا بالولد، وقد هرمت، والله أعلم أي ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها ـ أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رسل الله، فرح بذلك، فضحكت امرأته سرورا بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرت به فضحكت؛ قال النحاس: وهذا إن صح إسناده فهو حسن. والضحك انكشاف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلانا ضاحكا؛ أي مشرقا. وأتيت على روضة تضحك؛ أي مشرقة. وفي الحديث (إن الله سبحانه يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك). جعل انجلاءه عن البرق ضحكا؛ وهذا كلام مستعار. وروي عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي. "فضحَكت" بفتح الحاء؛ قال المهدوي: وفتح "الحاء" من "فضحكت" غير معروف. وضَحِك يضْحَك ضَحْكا وضِحْكا وضِحِكا وضَحِكا أربع لغات. والضُّحْكة المرة الواحدة، ومنه قول كُثيِّر:

غلقت لضحكته رقاب المال

قاله الجوهري.

العاشرة: روى مسلم عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أُسيد الساعدي رسول الله ﷺ في عرسه، فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهي العروس. قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت له تمرات من الليل في تور، فلما أكل سقته إياه. وأخرجه البخاري وترجم له "باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس". قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في

عرسها. وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهلـه على صالح إخوانه، ويستخدمهن لـهم. ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب. والله أعلم.

الحادية عشرة: ذكر الطبري أن إبراهيم ﷺ لما قدم العجل قالوا: لا نأكل طعاما إلا بثمن؛ فقال لـهم: "ثمنه أن تذكروا الله في أولـه وتحمدوه في آخره" فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلا. قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يسر الله للملائكة أن يتشكلوا في صفة الآدمي جسدا وهيئة أن ييسر لـهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلـهم في صفة الآدمي وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فجأة.

الثانية عشرة: ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم ﷺ كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه؛ فلقي يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال لـه إبراهيم: سم الله، قال الرجل لا أدري ما الله؟ فقال لـه: فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال لـه: يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فزعا يجر رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حتى تخبرني لم تردني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر؛ فقال: هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمى الله وأكل مؤمنا.

الثالثة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لـها ابن، وأيست لكبر سنها، فبشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا، فكان هذا بشارة لـها بأن ترى ولد ولدها.

الرابعة عشرة: ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر "يعقوب" بالنصب. ورفع الباقون؛ فالرفع على معنى: ويحدث لـها من وراء إسحاق يعقوب. ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في "من" كأن المعنى: وثبت لـها من وراء إسحاق يعقوب. ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون في موضع الحال؛ أي بشروها بإسحاق مقابلا لـه يعقوب. والنصب على معنى: ووهبنا لـها من وراء إسحاق يعقوب. وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون "يعقوب" في موضع جر على معنى: وبشرناها من وراء إسحاق بيعقوب. قال الفراء: ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت: مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرو كان قبيحا خبيثا؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو، كما فرقت بين الجار والمجرور؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يا ويلتا ﴾ قال الزجاج: أصلـها يا ويلتي؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخف من الياء والكسرة؛ ولـم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخف على أفواه النساء إذا

طرأ عليهن ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها ومن كون بعلها شيخا لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر. و﴿ أألد ﴾ استفهام معناه التعجب. ﴿ وأنا عجوز ﴾ أي شيخة. ولقد عجزت تعجز عجزا وعجزت تعجيزا؛ أي طعنت في السن. وقد يقال: عجوزة أيضا. وعجزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجيزتها عجزا وعجزا بضم العين وفتحها. قال مجاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة. وقال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين سنة. وقيل غير هذا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وهذا بعلي شيخا ﴾ "وهذا بعلي" أي زوجي. ﴿ شيخا ﴾ نصب على الحال، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة. "وهذا بعلي" ابتداء وخبر. وقال الأخفش: وفي قراءة ابن مسعود وأبي "وهذا بعلي شيخ" قال النحاس: كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا؛ وقائم خبر الابتداء. ويجوز أن يكون "هذا" مبتدأ "وزيد قائم" خبرين؛ وحكى سيبويه: هذا حلو حامض. وقيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: ابن مائة فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة. وقيل: إنها عرضت بقولها: ﴿ وهذا بعلي شيخا ﴾ أي عن ترك غشيانه لها. وسارة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهي بنت عم إبراهيم. ﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ لما قالت: ﴿ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ﴾ وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله، أي من قضائه وقدره، أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحاق. وبهذه الآية استدل كثير من العلماء على أن الذبيح إسماعيل، وأنه أسن من إسحاق؛ لأنها بشرت بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب. وسيأتي الكلام في هذا؛ وبيانه في "الصافات" إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ رحمة الله وبركاته ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ عليكم ﴾ . وحكى سيبويه "عليكم" بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت. وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد. ﴿ أهل البيت ﴾ نصب على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه. وقيل: على النداء.

الثالثة: هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدل، هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ ؛ ممن قال الله فيهم: ﴿ ويطهركم تطهيرا ﴾ (الأحزاب: ٣٣) وسيأتي.

الرابعة: ودلت الآية أيضا على أن منتهى السلام "وبركاته" كما أخبر الله عن صالحي عباده ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ . والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء

والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة. وروى مالك عن وهب بن كيسان أبي نعيم عن محمد بن عمرو ابن عطاء قال: كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس ـ وهو يومئذ قد ذهب بصره ـ من هذا؟ فقالوا اليماني الذي يغشاك، فعرفوه إياه، فقال: (إن السلام انتهى إلى البركة). وروي عن علي ﷺ أنه قال: دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي ﷺ في عصبة من أصحابه، فقلت: السلام عليكم؛ فقال: (وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك). قال: ودخلت الثانية؛ فقلت: السلام عليكم ورحمة الله فقال: (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك). فدخلت الثالثة فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: فقال: (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء)[1]. ﴿ إنه حميد مجيد﴾ أي محمود ماجد. وقد بيناهما في "الأسماء الحسنى".

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أي الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة:

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن صرد

﴿ وجاءته البشرى﴾ أي بإسحاق ويعقوب. وقال قتادة: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف. ﴿ يجادلنا ﴾ أي يجادل رسلنا، وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره. وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا: ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ (العنكبوت: ٣١) قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة ـ أو خمسة شك حميد ـ قالوا: لا. قال قتادة: نحوا منه؛ قال فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم. وقيل إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿ إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (العنكبوت: ٣٢). وقال عبد الرحمن بن سمرة: كانوا أربعمائة ألف. ابن جريج. وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف. ومذهب الأخفش والكسائي أن ﴿ يجادلنا ﴾ في موضع "جادلنا". قال النحاس: لما كان جواب "لما" يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه. وفيه جواب آخر: أن يكون ﴿ يجادلنا ﴾ في موضع الحال؛ أي أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفراء. ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ تقدم في "براءة"

---

(١) بمعناه في صحيح أبي داود (٤٣٢٧) من حديث عمران.

معنى ﴿ لأواه حليم ﴾ (التوبة: ١١٤) والمنيب الراجع؛ يقال: إذا رجع. وإبراهيم ﷺ كان راجعا إلى الله تعالى في أموره كلها. وقيل: الأواه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط. ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ أي عذابه لهم. ﴿ وإنهم آتيهم ﴾ أي نازل بهم. ﴿ عذاب غير مردود ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط ـ وهما تستقيان ـ بالملائكة ورأتا هيئة حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أبها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿ سيء بهم ﴾ أي ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضممت السين؛ لأن أصلها الضم، والأصل سوئ بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: "سي بهم" مخففا، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه؛ فإذا حمل على أكثر من طوقه ضاق عن ذلك، وضعف ومد عنقه؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع. وقيل: هو من ذرعه القيء أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ أي شديد في الشر. وقال الشاعر:

وإنك إلا ترض بكر بن وائل   يكن لك يوم بالعراق عصيب

وقال آخر:

يوم عصيب يعصب الأبطالا   عصب القوي السلم الطوالا

ويقال: عصيب وعصبصب على التكثير؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب بالشر عصابة، ومنه قيل: عصبة وعصابة أي مجتمعو الكلمة؛ أي مجتمعون في أنفسهم. وعصبة الرجل المجتمعون معه في النسب؛ وتعصبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أي مجتمع الخلق.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ في موضع الحال. "يهرعون" أي يسرعون. قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة؛ يقال: أهرع الرجل إهراعا أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى، وهو مهرع؛ قال مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى   تقودهـــم على رغم الأنوف

وقال آخر:

بمعجلات نحوه مهارع

وهذا مثل: أولع فلان بالأمر، وأرعد زيد. وزهي فلان. وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه. وقيل: أهرع أي أهرعه حرصه؛ وعلى هذا "يهرعون" أي يستحثون عليه. ومن قال بالأول قال: لم يسمع إلا أهرع الرجل أي أسرع؛ على لفظ ما لم يسم فاعلـه. قال ابن القوطية: هرع الإنسان هرعا، وأهرع: سبق واستعجل. وقال الـهروي يقال: هرع الرجل وأهرع أي استحث. قال ابن عباس وقتادة والسدي: ("يهرعون" يهرولون). الضحاك: يسعون. ابن عيينة: كأنهم يدفعون. وقال شمر ابن عطية: هو مشي بين الـهرولة والجَمَزَى. وقال الحسن: مشي بين مشيين؛ والمعنى متقارب. وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالـهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لـهم: إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ما رئي مثلـهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاءوا يهرعون إليه. ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا في حرث لـه. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لـهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لـهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملـهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض ـ وقد كان الله عز وجل قال للملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات ـ فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

قولـه تعالى: ﴿ ومن قبل ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل. وقيل: من قبل لوط. ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ أي كانت عادتهم إتيان الرجال. فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعا، وقال: ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ ابتداء وخبر. وقد اختلف في قولـه: ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ فقيل: كان لـه ثلاث بنات من صلبه. وقيل: بنتان؛ زيتا[1] وزعوراء؛ فقيل: كان لـهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه. وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتا لـه من عتبة بن أبي لـهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقالت فرقة ـ منهم مجاهد وسعيد بن جبير ـ أشار بقولـه: "بناتي" إلى النساء جملة؛ إذ نبي القوم أب لـهم؛ ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود. " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم". وقالت طائفة: إنـما

(١) في نسخة: رثيا.

كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا. وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

قوله تعالى: ﴿هن أطهر لكم﴾ ابتداء وخبر؛ أي أزوجكموهن؛ فهو أطهر لكم مما تريدون، أي أحل. والتطهر التنزه عما لا يحل. وقال ابن عباس: (كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته). وليس ألف "أطهر" للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجل، وإن لم يكن تفضيلاً؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه. وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد: اعل هبل اعل هبل؛ فقال النبي ﷺ لعمر: (قل الله أعلى وأجل)[1]. وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا. وقرأ العامة برفع الراء. وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو "هن أطهر" بالنصب على الحال. و"هن" عماد. ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون "هن" ههنا عمادا، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت. قال الزجاج: ويدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر. وقال غيره: يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قارنها.

قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي لا تهينوني ولا تذلوني. ومنه قول حسان:

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك ... ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق

مددت يمينا للنبي تعمدا ... ودميت فاه قطعت بالبوارق

ويجوز أن يكون من الخزاية، وهو الحياء، والخجل؛ قال ذو الرمة:

خزاية أدركته بعد جولته ... من جانب الحبل مخلوطا بها الغضب

وقال آخر:

من البيض لا تخزى إذا الريح ألصقت ... بها مرطها أو زايل الحلي جيدها

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد، لأنه في الأصل مصدر؛ قال الشاعر:

لا تعدمي الدهر شفار الجازر ... للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأول أكثر كقولك: رجال صوم وفطر وزور. وخزي الرجل خزاية؛ أي استحيا مثل ذل وهان. وخزي خزيا إذا افتضح؛ يخزى فيهما جميعا. ثم وبخهم بقوله: ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: "رشيد" أي ذو رشد. أو بمعنى راشد أو مرشد، أي صالح أو مصلح. ابن عباس: مؤمن. أبو مالك: ناه عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرشد؛ والرشد والرشاد الهدى والاستقامة. ويجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وكان ذلك في غزوة أحد.

قولـه تعالى: ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم، وكانت سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل لـه أبدا؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ وبعد ألا تكون هذه الخاصية. فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هن قصدنا، ولا لنا عادة تطلب ذلك. ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال لو أن لي بكم قوة ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة. ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ أي أنصارا وأعوانا. وقال ابن عباس: أراد الولد. و"أن" في موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: لو اتفق أو وقع. وهذا يطرد في "أن" التابعة لـ "لو". وجواب "لو" محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ أي ألجأ وأنضوي. وقرئ "أو آوي" بالنصب عطفا على "قوة" كأنه قال: "لو أن لي بكم قوة" أو إيواء إلى ركن شديد؛ أي وأن آوي، فهو منصوب بإضمار "أن". ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ بهم قبيح فعلـهم إلى قولـه هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إن ركنك لشديد. وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد) الحديث؛ وقد تقدم في "البقرة". وخرجه الترمذي وزاد (ما بعث الله بعده نبيا إلا في ثروة من قومه). قال محمد بن عمرو: والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت لـه الرسل: تنح عن الباب؛ فتنحى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾ (القمر: ٣٧). وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسور الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدم. وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقا، ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ﴾ لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرفوه بأنفسهم، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفت. ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ أي بمكروه ﴿ فأسر بأهلك ﴾ قرئ "فاسر" بوصل الألـف وقطـعها؛ لغتان فصـيحتان. قـال الله تعالـى: ﴿ والليل إذا يسر ﴾ (الفـجر: ٤) وقـال: ﴿ سبحان الذي أسرى ﴾ (الإسراء: ١) وقال النابغة: فجمع بين اللغتين:

أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد

وقال آخر:

حي النضـيرة ربـة الخـدر أسرت إليك ولـم تكن تسري

وقد قيل: "فأسر" بالقطع إذا سار من أول الليل، وسرى إذا سار من آخره؛ ولا يقال في النهار إلا سار. وقال لبيد:

إذا المـرء أسـرى ليلـة ظـن أنه قضى عملا والمرء ما عاش عامل

وقال عبد الله بن رواحة:

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجـلي عنـهم غيابات الكرى

﴿ بقطع من الليل ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل. الضحاك: ببقية من الليل. قتادة: بعد مضي صدر من الليل. الأخفش: بعد جنح من الليل. ابن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمة من الليل. وقيل: بعد هدء من الليل. وقيل: هزيع من الليل. وكلـها متقاربة؛ وقيل: إنه نصف الليل؛ مأخوذ من قطعه نصفين؛ ومنه قول الشاعر:

ونائحـة تنـوح بقطع ليل على رجـل بقارعة الصعيد

فإن قيل: السـرى لا يكـون إلا بالليل، فما معنى ﴿ بقطع من الليل ﴾؟ فالجواب: أنه لو لـم يقل: ﴿ بقطع من الليل ﴾ جاز أن يكون أولـه. ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد. ابن عباس: لا يتخلف منكم أحد. علي بن عيسى: لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع. ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالنصب؛ وهي القراءة الواضحة البينة المعنى؛ أي فأسر بأهلك إلا امرأتك. وكذا في قراءة ابن مسعود (فأسر بأهلك إلا امرأتك) فهو استثناء من الأهل. وعلى هذا لم يخرج بها معه. وقد قال الله عز وجل: ﴿ كانت من الغابرين ﴾ (الأعراف: ٨٣) أي من الباقين. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع على البدل من "أحد". وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال: لا يصح ذلك إلا برفع "يلتفت" ويكون نعتا؛ لأن المعنى يصير - إذا أبدلت وجزمـت - أن المرأة أبيح لـها الالتفات، وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا الحمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحلـه من العربية لا يجب أن يكون؛ والرفع على البدل لـه معنى صحيح، والتأويل لـه على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه: لا يخرج فلان؛ فلفظ النهي لفلان ومعناه للمخاطب؛ أي لا تدعه يخرج؛ ومثلـه قولك: لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه: انههم عن القيام إلا زيدا؛ وكذلك النهي للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال: أنهم لا

يلتفت منهم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك، وأن النهي عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك، وأن لوطا خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: وا قوماه! فأدركها حجر فقتلها. ﴿ إنه مصيبها ﴾ أي من العذاب، والكناية في "إنه" ترجع إلى الأمر والشأن؛ أي فإن الأمر والشأن والقصة. ﴿ مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ (العنكبوت: ٣١) قال لوط: الآن الآن. استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا: ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ وقرأ عيسى بن عمر ﴿ أليس الصبح ﴾ بضم الباء وهي لغة. ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع. وقال بعض أهل التفسير: إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر؛ وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت ابنتاه فلا يهولنك ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أي عذابنا. ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس: سدوم - وهي القرية العظمى - وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. مقاتل: أهلكت أربعة، ونجت ضعوه. وقيل: غير هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم، وقد تقدم في "الأعراف". وفي التفسير: أمطرنا في العذاب، ومطرنا في الرحمة. وأما كلام العرب فيقال: مطرت السماء وأمطرت: حكاه الهروي. واختلف في "السجيل" فقال النحاس: السجيل الشديد الكثير؛ وسجيل وسجين اللام والنون أختان. وقال أبو عبيدة: السجيل الشديد؛ وأنشد:

ضربا تواصى به الأبطال سجينا

قال النحاس: ورد عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال: هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به؟! قال النحاس: وهذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يرد من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا؛ لأنه لا يقال: حجارة من شديد؛ لأن شديدا نعت. وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل. وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحاق: إن سجيلا لفظة غير عربية عربت، أصلها سنج

وجيل. ويقال: سنك وكيل؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا. وقيل: هو من لغة العرب. وقال قتادة وعكرمة: السجيل الطين بدليل قوله ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ (الذاريات: ٣٣). وقال الحسن: كان أصل الحجارة طينا فشددت. والسجيل عند العرب كل شديد صلب. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقال ابن زيد: طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلا اسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوي؛ وحكاه الثعلبي عن أبي العالية؛ وقال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بـ "منضود". وعن عكرمة: أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة. وقيل: هي جبال في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (النور: ٤٣). وقيل: هو مما سجل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو في معنى سجين؛ قال الله تعالى: ﴿ وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم ﴾ (المطففين: ٨) قاله الزجاج واختاره. وقيل: هو فعيل من أسجلته أي أرسلته؛ فكأنها مرسلة عليهم. وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيته؛ فكأنه عذاب أعطوه؛ قال:

من يساجلني يساجل ماجدا   يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقال أهل المعاني: السجيل والسجين الشديد من الحجر والضرب؛ قال ابن مقبل:

ورجلة يضربون البيض ضاحية   ضربا تواصى به الأبطال سجينا

"منضود" قال ابن عباس: متتابع. وقال قتادة: نضد بعضها فوق بعض. وقال الربيع: نضد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا. وقال عكرمة: مصفوف. وقال بعضهم مرصوص؛ والمعنى متقارب. يقال: نضدت المتاع واللبن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونضيد ونضد؛ قال:

ورفعته إلى السجفين فالنضد

وقال أبو بكر الهذلي: معد؛ أي هو مما أعده الله لأعدائه الظلمة. ﴿ مسومة ﴾ أي معلمة، من السيما وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمي به، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض. وقال الفراء: زعموا أنها كانت بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها. وقال كعب: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر:

غــلام رماه الله بالحسن يافعا   له سيمياء لا تشق على البصر

و "مسومة" من نعت حجارة. و"منضود" من نعت "سجيل". وفي قوله: ﴿ عند ربك ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن. ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يرهب قريشا؛ المعنى: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجار الله منها ظالما بعد. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل) ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾. وفي رواية عنه ﷺ :(لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك). وقيل: المعنى ما هذه القرى

من الظالمين ببعيد؛ وهي بين الشام والمدينة. وجاء "ببعيد" مذكرا على معنى بمكان بعيد. وفي الحجارة التي أمطرت قولان: أحدهما. أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. الثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾أي وأرسلنا إلى مدين، ومدين هم قوم شعيب. وفي تسميتهم بذلك قولان: أحدهما: أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ فقيل: مدين والمراد بنو مدين. كما يقال مضر والمراد بنو مضر. الثاني: أنه اسم مدينتهم، فنسبوا إليها. قال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة؛ وقد تقدم في "الأعراف" هذا المعنى وزيادة. ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾تقدم. ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا؛ وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحوا له بغاية ما يقدرون؛ فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك، وبالوفاء نهيا عن التطفيف. ﴿إني أراكم بخير ﴾أي في سعة من الرزق، وكثرة من النعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصا. ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أي شديد حره. واختلف في ذلك العذاب؛ فقيل: هو عذاب النار في الآخرة. وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: غلاء السعر؛ روي معناه عن ابن عباس. وفي الحديث عن النبي ﷺ: (ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء) . وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا. والإيفاء الإتمام. "بالقسط" أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات. ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا. ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾بين أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض، وقد مضى في "الأعراف" زيادة لهذا، والحمد لله.

---

(١) جزء من حديث أخرجه بنحوه ابن ماجه والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٧٩٧٨).

قوله تعالى: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم؛ قال معناه الطبري، وغيره. وقال مجاهد: ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ يريد طاعته. وقال الربيع: وصية الله. وقال الفراء: مراقبة الله. ابن زيد: رحمة الله. قتادة والحسن: حظكم من ربكم خير لكم. وقال ابن عباس: رزق الله خير لكم. ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين. وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا. ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق. وقيل: أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك ﴾ وقرئ "أصَلاتُك" من غير جمع. ﴿ تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ "أن" في موضع نصب؛ قال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء. وروي أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك؛ ودل بهذا على أنهم كانوا كفارا. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السلمي والضحاك بن قيس "أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء" بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: "أو أن" على هذه القراءة معطوفة على "أن" الأولى. وروي عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حذف الدراهم. وقيل: معنى. ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه؟!. ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك. ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان: ٤٩) أي عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجون؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾. وقال سفيان بن عيينة: العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل؛ كما قيل للديغ سليم، وللفلاة مفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السب؛ وأحسن من هذا كله، ويدل ما قبله على صحته؛ أي إنك أنت الحليم الرشيد حقا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا! ويدل عليه. ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدل عليه.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كلـه يدل على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي ﷺ حين قال لـهم: (يا إخوة القردة) فقالوا: يا محمد ما علمناك جهولا!.

مسألة: قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعذبوا لأجلـه قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لـهم القراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس[1]؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها؛ وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس؛ ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قولـه تعالى: ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ (النمل: ٤٨) أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قالـه زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسألة: قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث العتقي: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا بموضع عذر؛ قال ابن العربي: أما قولـه: لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرة، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قولـه: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلأنه أمر بين لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك.

مسألة: إذا كان هذا معصية وفسادا ترد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك، ومر ابن المسيب برجل قد جلد فقال: ما هذا؟ قال رجل: يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النجيبي: كنت قاعدا عند عمر ابن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتي برجل يقطع الدراهم وقد شهد عليه فضربه وحلقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يقطع الدراهم؛ ثم أمر أن يرد إليه؛ فقال: إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدمت في ذلك فمن شاء فليقطع. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه، وأما حلقه فقد فعلـه عمر؛ وقد كنت أيام الحكم بين الناس أضرب وأحلق، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا لـه على المعصية، وطريقا

---

(١) "ضعيف" أخرجه أبو داود (٣٤٤٩).

إلى التجمل به في الفساد، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها، فإن الكسر إفساد الوصف، والقرض تنقيص للقدر، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء؛ فإن قيل: أليس الحرز أصلا في القطع؟ قلنا: يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرز لها، وحرز كل شيء على قدر حاله؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أدب، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة. قال ابن العربي: وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم، إلا أني كنت محفوفا بالجهال، فلم أجبن بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ورزقني منه رزقا حسنا ﴾ أي واسعا حلالا، وكان شعيب عليه السلام كثير المال، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلم والمعرفة، وفي الكلام حذف، وهو ما ذكرناه؛ أي أفلا أنهاكم عن الضلال! وقيل: المعنى ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أتبع الضلال؟ وقيل: المعنى ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف، وقد أغناني الله عنه. ﴿ وما أريد أن أخالفكم ﴾ في موضع نصب بـ "أريد". ﴿ إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به. ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أي ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: "ما استطعت" لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و"ما" مصدرية؛ أي إن أريد إلا الإصلاح جهدي واستطاعتي. ﴿ وما توفيقي ﴾ أي رشدي، والتوفيق الرشد. ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ أي اعتمدت. ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب. وقيل: إليه أرجع في الآخرة. وقيل: إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ يُجْرِمَنَّكُمْ ﴾. لا يدخلنكم في الجرم؛ كما تقول: آثمني أي أدخلني في الإثم. ﴿ شقاقي ﴾ في موضع رفع. ﴿ أن يصيبكم ﴾ في موضع نصب، أي لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم، قاله الحسن وقتادة. وقيل: لا يكسبنكم شقاقي إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم، قاله الزجاج. وقد تقدم معنى ﴿ يجرمنكم ﴾ في "المائدة" و"الشقاق" في "البقرة" وهو هنا بمعنى العداوة، قاله السدي، ومنه قول الأخطل:

ألا من مبلغ عني رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

وقال الحسن البصري: إضراري. وقال قتادة: فراقي. ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أي بمكان بعيد، فلذلك وحد البعيد. قال الكسائي: أي دورهم في دوركم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ تقدم. ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيناهما في كتاب "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى". قال الجوهري: وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته، والودود المحب، والوَد والوِد والوُد والمودة المحبة. وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيبا قال: (ذاك خطيب الأنبياء)[1].

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ أي ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضا عن سماعه، واحتقارا لكلامه؛ يقال: فقه يفقه إذا فهم فقها؛ وحكى الكسائي: فقه فقها وفقها إذا صار فقيها. ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قيل: إنه كان مصابا ببصره؛ قاله سعيد بن جبير وقتادة. وقيل: كان ضعيف البصر؛ قاله الثوري، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة[2]. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيفا؛ أي قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له ضرير؛ أي قد ضر بذهاب بصره؛ كما يقال له: مكفوف؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره. قال الحسن: معناه مهين. وقيل: المعنى ضعيف البدن؛ حكاه علي بن عيسى. وقال السدي: وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا. وقيل: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها. و"ضعيفا" نصب على الحال. ﴿ ولولا رهطك ﴾ رفع بالابتداء، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوى بهم؛ ومنه الراهطاء لجحر اليربوع؛ لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده. ومعنى ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى ﴿ لرجمناك ﴾ لشتمناك؛ ومنه قول الجعدي:

تراجمنا بمر القول حتى نصير كأننا فرسا رهان

والرجم أيضا اللعن؛ ومنه الشيطان الرجيم. ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٨)، وسكت عنه هو والذهبي.
(٢) وروي ذلك عن ابن عباس، كما أخرجه الحاكم في الموضع السابق، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال يا قوم أرهطي ﴾ "أرهطي" رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطي في قلوبكم ﴿ أعز عليكم من الله ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم. ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم من قتلي مخافة قومي يقال: جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وقد مضى في "البقرة"، ﴿ إن ربي بما تعملون ﴾ أي من الكفر والمعصية. ﴿محيط ﴾ أي عليم. وقيل: حفيظ.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون ﴾ تهديد ووعيد؛ وقد تقدم في "الأنعام". ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهلكه. و"من" في موضع نصب، مثل ﴿ يعلم المفسد من المصلح ﴾ (البقرة: ٢٢٠). ﴿ ومن هو كاذب ﴾ عطف عليها. وقيل: أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا. وقيل: في محل رفع؛ تقديره: ويخزي من هو كاذب. وقيل: تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره. وزعم الفراء أنهم إنما جاءوا بـ "هو" في "ومن هو كاذب" لأنهم لا يقولون من قائم؛ إنما يقولون: من قام، ومن يقوم، ومن القائم؛ فزادوا "هو" ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قوله:

من رسولي إلى الثريا بأني ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

﴿ وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة؛ فإني منتظر النصر والرحمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ قيل: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل. وأنث الفعل على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ فذكر على معنى الصياح. قال ابن عباس: ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب، أهلكهم الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم. ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ تقدم معناه. وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ ﴿ كما بعدت ثمود ﴾ بضم العين. قال النحاس: المعروف في اللغة إنما يقال

بعد يَبْعَدُ بعدا وبُعْداً إذا هلك. وقال المهدوي: من ضم العين من "بعدت" فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البعد؛ وبعدت تستعمل في الشر خاصة؛ يقال: بَعد يَبْعَد بَعَداً؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة، وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى؛ فَيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٦٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجة، وإزاحة كل علة "بآياتنا" أي بالتوراة. وقيل: بالمعجزات. ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي حجة بينة؛ يعني العصا. وقد مضى في "آل عمران" معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة. ﴿ إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلـها، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي بسديد يؤدي إلى صواب: وقيل: "برشيد" أي بمرشد إلى خير.

قوله تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قدمهم يقدمهم قدما وقدوما إذا تقدمهم. ﴿ فأوردهم النار ﴾ أي أدخلـهم فيها. ذكر بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلـهذا يعبر عن المستقبل بالماضي. ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أي بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك. والمورود الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ﴾ أي في الدنيا. ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هذا المعنى. ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة: رفدته أرفده رفدا؛ أي أعنته وأعطيته. واسم العطية الرفد؛ أي بئس العطاء والإعانة. والرفد أيضا القدح الضخم؛ قالـه الجوهري، والتقدير: بئس الرفد رفد المرفود. وذكر الماوردي: أن الرفد بفتح الراء القدح، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب؛ حكي ذلك عن الأصمعي؛ فكأنه ذم بذلك ما يسقونه في النار. وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار؛ قالـه الكلبي.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ "ذلك" رفع على إضمار مبتدأ، أي الأمر ذلك. وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبأ المتقدم من أنباء القرى نقصه عليك. ﴿منها قائم وحصيد ﴾ قال قتادة: القائم ما كان خاويا على عروشه، والحصيد ما لا أثر لـه. وقيل: القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قالـه ابن عباس. وقال مجاهد: قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعني محصودا كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر:

والناس في قسم المنية بينهم كالـزرع منه قائم وحصيد

وقال آخر:

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده

قال الأخفش سعيد: حصيد أي محصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مرضى ومراض؛ قال: يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى. ﴿وما ظلمناهم ﴾أصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدم في "البقرة" مستوفى. ﴿ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه ﴿فما أغنت ﴾أي دفعت. ﴿عنهم آلـهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾في الكلام حذف، أي التي كانوا يعبدون؛ أي يدعون. ﴿وما زادوهم غير تتبيب ﴾أي غير تخسير؛ قالـه مجاهد وقتادة. وقال لبيد:

فلقد بليت وكل صاحب جدة لبلـى يعـود وذاكـم التتبيب

والتباب الـهلاك والخسران؛ وفيه إضمار؛ أي ما زادتهم عبادة الأصنام، فحذف المضاف؛ أي كانت عبادتهم إياها قد خسرتهم ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى ﴾أي كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة. وقرأ عاصم الجحدري وطلحة بن مصرف ﴿وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى ﴾ وعن الجحدري أيضا "وكذلك أخذ ربك" كالجماعة "إذ أخذ القرى". قال المهدوي من قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذ أخذ ﴾فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم؛ والمعنى: وكذلك أخذ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أخذهم. وقراءة الجماعة على أنه مصدر؛ والمعنى: كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه؛ فإذ لما مضى؛ أي حين أخذ القرى؛ وإذا للمستقبل ﴿وهي ظالمة ﴾ أي وأهلـها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). ﴿إن أخذه أليم شديد ﴾أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة. وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺقال: (إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم

يفلته) ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى ﴾[1] الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

قولـه تعـالى: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي لعبرة وموعـظة. ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾، ﴿ ذلك يوم ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ مجموع ﴾ من نعته.

قولـه تعالى: ﴿ لـه الناس ﴾ اسم ما لم يسم فاعلـه؛ ولـهذا لم يقل مجموعون، فإن قدرت ارتفاع "الناس" بالابتداء، والخبر "مجموع لـه" فإنما لم يقل: مجموعون على هذا التقدير؛ لأن "لـه" يقوم مقام الفاعل. والجمع الحشر، أي يحشرون لذلك اليوم. ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي يشهده البر والفاجر؛ ويشهده أهل السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب "التذكرة" وبيناهما والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما نؤخره ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم. ﴿ إلا لأجل معدود ﴾ أي لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا. ﴿ يوم يأتي ﴾ وقرئ ﴿ يوم يأت ﴾ لأن الياء تحذف إذا كان قبلـها كسرة؛ تقول: لا أدر؛ ذكره القشيري. قال النحاس: قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج؛ وحذفها في الوقف، وروي أن أبيا وابن مسعود قرآ "يوم يأتي" بالياء في الوقف والوصل. وقرأ الأعمش وحمزة "يوم يأت" بغير ياء في الوقف والوصل، قال أبو جعفر النحاس: الوجه في هذا ألا يوقف عليه، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائي؛ قال: لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كما تحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين إحداهما: أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال لـه إنه مصحف عثمان ﷺ بغير ياء. والحجة الأخرى: أنه حكى أنها لغة هذيل؛ تقول: ما أدر؛ قال النحاس: أما حجته بمصحف عثمان ﷺ فشيء يرده عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان ﷺ فقيل لي ذهب؛ وأما حجته بقولـهم: "ما أدر" فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء.

كفـاك كـف ما تلـيق درهما   جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

أي تعطي. وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثلـه في كلام العرب. ﴿ لا تكلم نفس

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

إلا بإذنه ﴾ الأصل تتكلم؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا. وفيه إضمار؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه. وقيل: إن لـهم في الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين. فيقول لم قال: ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ و﴿ هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لـهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات: ٣٦). وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ (الصافات: ٢٧). وقال: ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ (النحل: ١١١). وقال: ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ (الصافات: ٢٤). وقال: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ (الرحمن: ٣٩). والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لـهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لـهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرا، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمي من يتكلم بلا حجة فيه لـه غير متكلم. وقال قوم: ذلك اليوم طويل، ولـه مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لـهم الكلام؛ فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه. ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي من الأنفس، أو من الناس؛ وقد ذكرهم في قولـه: ﴿ يوم مجموع لـه الناس ﴾. والشقي الذي كتبت عليه الشقاوة. والسعيد الذي كتبت عليه السعادة؛ قال لبيد:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال لما نزلت هذه الآية ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: (بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق لـه)(١). قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم في "الأعراف".

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ ابتداء. ﴿ ففي النار ﴾ موضع الخبر، وكذا ﴿ لـهم فيها زفير وشهيق ﴾ قال أبو العالية: الزفير من الصدر. والشهيق من الحلق؛ وعنه أيضا ضد ذلك. وقال الزجاج: الزفير من شدة الأنين، والشهيق من الأنين المرتفع جدا؛ قال: وزعم أهل اللغة من الكوفيين

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي(٢٤٨٦).

والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير في النهيق، والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار في النهيق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما عكسه؛ قال: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر:

حشرج في الجوف سحيلا أو شهق حتى يقال ناهق وما نهق

وقيل: الزفير إخراج النفس، وهو أن يمتلئ الجوف غما فيخرج بالنفس، والشهيق رد النفس وقيل: الزفير ترديد النفس من شدة الحزن؛ مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدته؛ والشهيق النفس الطويل الممتد؛ مأخوذ من قولهم: جبل شاهق؛ أي طويل. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين.

قوله تعالى: ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ﴾ "ما دامت" في موضع نصب على الظرف؛ أي دوام السماوات والأرض، والتقدير: وقت ذلك. واختلف في تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحاك: المعنى ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفي التنزيل: ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (الزمر: ٧٤). وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده؛ كقولهم: لا آتيك ما جن ليل، أو سال سيل، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السماوات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك. وإن كان قد أخبر بزوال السماوات والأرض. وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السماوات والأرض في الآخرة تردان إلى النور الذي أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبدا في نور العرش.

قوله تعالى: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء ليس من الأول؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة: الأولى: أنه استثناء من قوله: ﴿ ففي النار ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري وجابر رضي الله عنهما. وإنما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله: ﴿ ما طاب لكم ﴾ (النساء: ٣). وعن أبي نضرة عن رسول الله ﷺ: (إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية)[1]. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله: "فأما الذين شقوا" عاما في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من "خالدين"؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم. وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون)[2] وقد تقدم هذا المعنى في "النساء" وغيرها. الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق؛ أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من

(١)ضعيف لإرساله.
(٢)أخرجه البخاري (٦٥٥٩).

أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر. حكاه ابن الأنباري. الرابع: قال ابن مسعود: ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم.

قلت: وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل، وتجديد الخلق. الخامس: أن "إلا" بمعنى "سوى" كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلا زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي لي عليك. قيل: فالمعنى ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود. السادس: أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره، وأنت مقيم على ذلك الفعل؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران، فأحد القولين: ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ من مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدر مكثهم في الدنيا، والبرزخ، والوقوف للحساب. والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم.

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي، أي خالدين فيها مقدار دوام السماوات والأرض، وذلك مدة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه، وهو قوله سبحانه: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (إبراهيم: ٤٨) فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلد في النار بمقدار دوام السماوات والأرض؛ فإنما دامتا للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ (الدخان: ٣٩) فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأحدية؛ فمن لقيه موحدا لأحديته بقي في داره أبدا، ومن لقيه مشركا بأحديته إلها بقي في السجن أبدا؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا. وقد قيل: إن "إلا" بمعنى الواو، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو: الثامن: والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السماوات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ (البقرة: ١٥٠) أي ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

أي والفرقدان. وقال أبو محمد مكي: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون "إلا" بمعنى الواو، وقد مضى في "البقرة" بيانه. وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم

من النساء إلا ما قد سلف ﴾ (النساء: ٢٢) أي كما قد سلف، وهو: التاسع، العاشر: وهو أن قوله تعالى: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حد قوله تعالى: ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ (الفتح: ٢٧) فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك؛ فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى: ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ونحوه عن أبي عبيد قال: تقدمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقين في الدارين؛ فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدمت في الخلود، قال: وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ (الفتح: ٢٧) وقد علم أنهم يدخلونه حتما، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خيارا؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول: حادي عشر: وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم؛ وبيانه أن "ما" بمعنى "من" استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة. وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني؛ كأنه قال تعالى: ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ ألا يخلده فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمد ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمد ﷺ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء؛ كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سعدوا شقوا بدخول النار ثم سعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة.

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ بضم السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سعدوا أن الأول شقوا ولم يقل أشقوا. قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي "سعدوا" مع علمه بالعربية! إذ كان هذا لحنا لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سعد فلان وأسعده الله، وأسعد مثل أمرض؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم: مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به. وقال المهدوي: ومن ضم السين من "سعدوا" فهو محمول على قولهم: مسعود وهو شاذ قليل؛ لأنه لا يقال: سعده الله؛ إنما يقال: أسعده الله. وقال الثعلبي: "سعدوا" بضم السين أي رزقوا السعادة؛ يقال: سعد وأسعد بمعنى واحد وقرأ الباقون "سعدوا" بفتح السين قياسا على "شقوا" واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري: والسعادة خلاف الشقاوة؛ تقول: منه سعد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سلم فهو سليم، وسعد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه: مسعد، كأنهم استغنوا عنه بمسعود. وقال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: وقد ورد سعده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعد؛ فهذا يقوي قول الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان؛ لأنه مما لا يتعدى. ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع؛ من جذه يجذه أي قطعه؛ قال النابغة:

تجذ السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلا تك ﴾ جزم بالنهي؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال. ﴿ في مرية ﴾ أي في شك. ﴿ مما يعبد هؤلاء ﴾ من الآلهة أنها باطل. وأحسن من هذا: أي قل يا محمد لكل من شك ﴿ لا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ أن الله عز وجل ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم. ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية. الثاني: نصيبهم من العذاب؛ قاله ابن زيد. الثالث: ما وعدوا به من خير أو شر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾، الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر. قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدق به ومكذب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب، ولكن سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ أي إن كلا من الأمم التي عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد. واختلف القراء في قراءة ﴿ وإن كلا لما ﴾ فقرأ أهل الحرمين - نافع وابن كثير وأبو بكر معهم - ﴿ وإنْ كلا لَمَا ﴾ بالتخفيف، على أنها "إن" المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه: حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول: إن زيدا لمنطلق؛ وأنشد قول الشاعر:

كأنْ ظبية تعطو إلى وارق السلم

أراد كأنها ظبية فخفف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف "إن" المشددة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائي وقال: ما أدري على أي شيء قرئ ﴿ وإن كلا ﴾! وزعم الفراء أنه نصب "كلا" في قراءة من خفف بقوله: ﴿ ليوفينهم ﴾ أي وإن ليوفينهم كلا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه. وشدد الباقون "إن" ونصبوا بها "كلا" على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر "لما" بالتشديد. وخففها الباقون على معنى: وإن كلا ليوفينهم، جعلوا "ما" صلة. وقيل: دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم، وكلاهما

مفتوح ففصل بينهما بـ "ما". وقال الزجاج: لام "لما" لام "إن" و"ما" زائدة مؤكدة؛ تقول: إن زيدا لمنطلق، فإن تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك: إن الله لغفور رحيم، وقولـه: ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾. واللام في ﴿ ليوفينهم ﴾ هي التي يتلقى بها القسم، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المخففة، ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ "ما" و"ما" زائدة مؤكدة، وقال الفراء: "ما" بمعنى "مَن" كقولـه: ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ (النساء: ٧٢) أي وإن كلا لمن ليوفينهم، واللام في ﴿ ليوفينهم ﴾ للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن "ما" عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى "من". وقيل: ليست بزائدة، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد، وهي خبر "إن" و"ليوفينهم" جواب القسم، التقدير: وإن كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالـهم. وقيل: "ما" بمعنى "من" كقولـه: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ (النساء: ٣) أي من؛ وهذا كلـه هو قول الفراء بعينه. وأما من شدد "لما" وقرأ ﴿ وإن كلا لما ﴾ بالتشديد فيهما ـ وهو حمزة ومن وافقه ـ فقيل: إنه لحن؛ حكي عن محمد بن زيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقال: إن زيدا إلا لأضربنه، ولا لما لضربته. وقال الكسائي: الله أعلم بهذه القراءة؛ وما أعرف لـها وجها. وقال هو وأبو علي الفارسي: التشديد فيهما مشكل. قال النحاس وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال: الأول: أن أصلـها "لمن ما" فقلبت النون ميما، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت "لما" و"ما" على هذا القول بمعنى "من" تقديره: وإن كلا لمن الذين؛ كقولـهم:

وإني لَمَّا أصدر الأمر وجـهه   إذا هو أعيا بالسبيل مصادره

وزيّف الزجاج هذا القول، وقال: "من" اسم على حرفين فلا يجوز حذفه. الثاني: أن الأصل لمن ما، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإن كلا لمن خلق ليوفينهم. وقيل: "لما" مصدر "لم" وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف؛ فهي على هذا كقولـه: ﴿ وتأكلون التراث أكلا لما ﴾ (الفجر: ١٩) أي جامعا للمال المأكول؛ فالتقدير على هذا: وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالـهم توفية لما؛ أي جامعة لأعمالـهم جمعا، فهو كقولك: قياما لأقومن. وقد قرأ الزهري "لما" بالتشديد والتنوين على هذا المعنى. الثالث: أن "لما" بمعنى "إلا" حكى أهل اللغة: سألتك بالله لما فعلت؛ بمعنى إلا فعلت؛ ومثلـه قولـه تعالى: ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ (الطارق: ٤) أي إلا عليها؛ فمعنى الآية: ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القشيري: وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي لقولـه: ﴿ وإن كلا لما ﴾ حتى تقدر "إلا" ولا يقال: ذهب الناس لما زيد. الرابع: قال أبو عثمان المازني: الأصل وإن كلا لما بتخفيف "لما" ثم ثقلت كقولـه:

لقد خشيت أن أرى جدبا   في عامنا ذا بعدما أخصبا

وقال أبو إسحاق الزجاج: هذا خطأ، إنما يخفف المثقل؛ ولا يثقل المخفف. الخامس: قال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولـهم: لممت الشيء ألمه لما إذا جمعته؛ ثم بني منه فعلى، كما قرئ ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ (المؤمنون: ٤٤) بغير تنوين وبتنوين. فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحاق: القول الذي لا يجوز غيره عندي

أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى "ما" مثل: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ (الطارق: ٤) وكذا أيضا تشدد على أصلها، وتكون بمعنى "ما" و"لما" بمعنى "إلا" حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن "لما" يستعمل بمعنى "إلا" قلت: هذا القول الذي ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول صوابه "إن" فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أبي: ﴿وإن كل إلا ليوفينهم﴾ (هود: ١١١) وروي عن الأعمش "وإن كل لما" بتخفيف "إن" ورفع "كل" وبتشديد "لما". قال النحاس: وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها "إن" بمعنى "ما" لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة. ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أمته؛ قاله السدي. وقيل: "استقم" اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك. فتكون السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران منه. والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على امتثال أمر الله. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال: (قل آمنت بالله ثم استقم). وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع. ﴿ومن تاب معك﴾ أي استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته. قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال: (شيبتني هود وأخواتها)[1]. وقد تقدم في أول السورة. وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: (شيبتني هود). فقال: (نعم) فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال: (لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت). ﴿ولا تطغوا﴾ نهى عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد؛ ومنه "إنا لما طغى الماء". وقيل: أي لا تتجبروا على أحد.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به، قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم. ابن جريج: لا تميلوا إليهم. أبو العالية: لا

(١) "صحيح"، وقد سبق في أول السورة.

ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا الإدهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم.

الثانية: قرأ الجمهور: "تركنوا" بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو: هي لغة أهل الحجاز. وقرأ طلحة ابن مصرف وقتادة وغيرهما: "تركنوا" بضم الكاف؛ قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس. وجوز قوم ركن يركن مثل منع يمنع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ (الأنعام: ٦٨) الآية. وقد تقدم. وهذا هو الصحيح في معنى الآية؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة؛ وقد قال حكيم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتقية فقد مضى القول فيها في "آل عمران" و"المائدة". وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ فتمسكم النار ﴾ أي تحرقكم. بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع في النوائب؛ وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

وقال شيوخ الصوفية: إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا؛ قال ابن العربي: وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجبا لا نفلا، فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ طرفي النهار ﴾ قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر؛ واختاره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب؛ قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضا الطرف الثاني العصر وحده؛ وقاله قتادة والضحاك. وقيل: الطرفان الظهر والعصر. والزلف المغرب والعشاء والصبح؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة. وحكى الماوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق.

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٤٧٠٣).

قلت: وهذا الاتفاق ينقضه القول الذي قبلـه. ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب، وأنه ظاهر؛ قال ابن عطية: ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل. قال ابن العربي: والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب، وهما طرفا الليل! فقلب القوس ركوة، وحاد عن البرجاس غلوة؛ قال الطبري: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب، ولم يجمع معه على ذلك أحد.

قلت: هذا تحامل من ابن العربي في الرد؛ وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق ـ إلا من شذ ـ بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدل على صحة ما قالـه الطبري في الصبح، وتبقى عليه المغرب والرد عليه فيه ما تقدم. والله أعلم.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وزلفا من الليل ﴾ أي في زلف من الليل، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض؛ ومنه سميت المزدلفة؛ لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة. وقرأ ابن القعقاع وابن أبي إسحاق وغيرهما ﴿ وزلفا ﴾ بضم اللام جمع زليف؛ لأنه قد نطق بزليف، ويجوز أن يكون واحده ﴿ زلفة ﴾ لغة؛ كبسرة وبسر، في لغة من ضم السين. وقرأ ابن محيصن ﴿ وزلفا ﴾ من الليل بإسكان اللام؛ والواحدة زلفة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرة ودر وبرة وبر. وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضا ﴿ زلفى ﴾ مثل قربى. وقرأ الباقون ﴿ وزلفا ﴾ بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابي: الزلف الساعات، واحدها زلفة. وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العتمة؛ قالـه ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء. وقيل: المغرب والعشاء والصبح؛ وقد تقدم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعين.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين إلى أن الحسنات ههنا هي الصلوات الخمس، وقال مجاهد: الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر، قال ابن عطية: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقولـه ﷺ: (ما اجتنبت الكبائر)[1].

قلت: سبب النزول يعضد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليسر بن عمرو. وقيل: اسمه عباد؛ خلا بامرأة فقبلـها وتلذذ بها فيما دون الفرج. روى الترمذي عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض في ما شئت. فقال لـه عمر: لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلا فدعاه، فتلا عليه: ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ إلى آخر الآية؛ فقال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

رجل من القوم: هذا لـه خاصة؟ قال: (لا بل للناس كافة)[١] . قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وخرج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبي ﷺ فسألـه عن كفارتها فنزلت: ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال: (لك ولمن عمل بها من أمتي). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروي عن أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت: إن في البيت تمرا أطيب من هذا، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك لـه فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك لـه فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لـه فقال: (أخلفت غازيا في سبيل الله في أهلـه بمثل هذا)؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار. قال: وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ . قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها علي رسول الله ﷺ فقال أصحابه: يا رسول الله! ألـهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: (بل للناس عامة)[٢] . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره؛ وقد رُوِيَ أن النبي ﷺ أعرض عنه، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآيةَ فدعاه فقال لـه: (أشهدت معنا الصلاة)؟ قال: نعم؛ قال: (اذهب فإنها كفارة لما فعلت). وروي أن النبي ﷺ لما تلا عليه هذه الآية قال لـه: (قم فصل أربع ركعات)[٣] . والله أعلم. وخرج الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: (لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم، "إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين")[٤] .

الخامسة: دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب، فيهما الحد، وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا في ثوب واحد، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتي ما للعلماء في هذا في "النور" إن شاء الله تعالى.

السادسة: ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال: ﴿ أقم الصلاة ﴾ الآية. وقال: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ (الإسراء: ٧٨) الآية. وقال: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. ولـه الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ (الروم: ١٧ ـ ١٨). وقال: ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (طه: ١٣٠). وقال: ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ (الحج: ٧٧). وقال: ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

---

(١) وكذا أخرجه البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).

(٢) "حسن" انظر صحيح الترمذي (٢٤٨٩).

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، كما في "المجمع"، (٧/ ٣٩).

(٤) رواه الطبراني وفيه ملك بن يحيى بن عمرو البكري وهو ضعيف، المصدر السابق.

وقال: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا لـه وأنصتوا ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) على ما تقدم. وقال: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ (الإسراء: ١١٠) أي بقراءتك؛ وهذا كلـه مجمل أجمله في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جل ذكره: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ (النحل: ٤٤) فبيّن ﷺ مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجدات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري: (صلوا كما رأيتموني أصلي). ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة، على ما هو معلوم، ولم يمت النبي ﷺ حتى بين جـميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (المائدة: ٣).

قولـه تعالى: ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واصبر ﴾ أي على الصلاة؛ كقولـه: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ (طـه: ١٣٢). وقيل: المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى. ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعني المصلين.

قولـه تعالى: ﴿ فلولا كان ﴾ أي فـهلا كان. ﴿ من القرون من قبلكم ﴾ أي من الأمم التي قبلكم. ﴿ أولو بقية ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿ ينهون ﴾ قومهـم. ﴿ عـن الفسـاد في الأرض ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: ولولا ههنا للنفي؛ أي ما كان من قبلـكم؛ كقولـه: ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ (يونس: ٩٨) أي ما كانت. ﴿ إلا قليلا ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن قليلا. ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقولـه: ﴿ إلا قوم يونس ﴾. وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهـل الحـق. ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ أي أشركوا وعصوا. ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة ﴿ وكانوا مجرمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

قولـه تعالـى: ﴿ وما كان ربـك ليهلك القـرى ﴾ أي أهـل القـرى. ﴿ بظلـم ﴾ أي بشرك وكفر. ﴿ وأهلـها مصلحون ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)[1]. وقد تقدم. وقيل: المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلـها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلما لـهم ونقصا من حقهم، أي ما أهلك قوما إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف في ملكه؛ دليلـه قولـه: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ (يونس: ٤٤). وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

قولـه تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ قال سعيد بن جبير: على ملة الإسلام وحدها. وقال الضحاك: أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى. ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي على أديان شتى؛ قالـه مجاهد وقتادة. ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن من رحم ربك بالإيمان والـهدى فإنه لم يختلف. وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا غني وهذا فقـير. ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ بالقناعة؛ قالـه الحسـن. ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء ويمان: الإشارة للاختلاف، أي وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال: "ولذلك" ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل. وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ "ذلك" إلى شيئين متضادين؛ كقولـه تعالى: ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ (البقرة: ٦٨) ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ (الفرقان: ٦٧) وقال: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ (الإسراء: ١١٠) وكذلك قولـه: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ (يونس: ٥٨) وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولما ذكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضا قال: خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه. قال المهدوي: وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك، خلقهم. وقيل: هو متعلق بقولـه ﴿ ذلك يوم مجموع لـه الناس وذلك يوم مشهود ﴾ (هود: ١٠٣) والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلق بقولـه: ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ (هود: ١٠٥) أي للسعادة والشقاوة خلقهم.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٩٧٣).

قولـه تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ معنى ﴿ تمت ﴾ ثبت ذلك كما أخبر وقدر في أزلـه؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ "من" لبيان الجنس؛ أي من جنس الجنة وجنس الناس. "أجمعين" تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيّه ﷺ أنه يملأ جنته بقولـه: (ولكل واحدة منكما ملؤها). خرجه البخاري من حديث أبي هريرة[1] وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وكلا نقص عليك ﴾ "كلا" نصب بـ "نقص" معناه وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. وقال الأخفش: "كلا" حال مقدمة، كقولك: كلا ضربت القوم. ﴿ من أنباء الرسل ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتا ويقينا. وقال ابن عباس: ما نشد به قلبك. وقال ابن جريج: نصبر به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نطيب، والمعنى متقارب. و"ما" بدل من "كلا" المعنى: نقـص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ أي في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى وغيرهما؛ وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار. وقيل: خصها بالذكر تأكيدا وإن كان الحق في كل القرآن. وقال قتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوة. ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لـهذه السورة؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص. ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ تهديد ووعيد. ﴿ إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون ﴾ تهديد آخر، وقد تقدم معناه. ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ أي غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائن السماوات والأرض. وقال الضحاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السماوات والأرض نزول العذاب من السماء

(١) وكذا مسلم وغيره.

وطلوعه من الأرض. وقال أبو علي الفارسي: ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ أي علم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول: غبت في الأرض وغبت ببلد كذا. . ﴿ وإليه يرجع الأمر كلـه ﴾ أي يوم القيامة، إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص "يرجع" بضم الياء وبفتح الجيم؛ أي يرد. ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أي الجأ إليه وثق به. ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي يجازي كلا بعملـه. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: "يعملون" إذا لم يخاطب النبي ﷺ معهم؛ قال: بعضهم وقال: "تعملون" بالتاء لأنه خاطب النبي ﷺ وقال: قل لـهم ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾. وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة "هود" من قولـه: ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ إلى آخر السورة.

سورة يوسف

مقدمة السورة:

وهي مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها. وروي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة؛ وسيأتي. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿ نحن نقص عليك ﴾ (يوسف: ٣) فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو حدثتنا؛ فأنزل: ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾[1] (الزمر: ٢٣). قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل. قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الر ﴾ تقدم القول فيه؛ والتقدير هنا: تلك آيات الكتاب، على الابتداء والخبر. وقيل: "الر" اسم السورة؛ أي هذه السورة المسماة ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ يعني بالكتاب المبين القرآن المبين؛ أي المبين حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته. وقيل: أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنا أنزلنا القرآن عربيا؛ نصب "قرآنا" على الحال؛ أي مجموعا. و"عربيا" نعت لقوله "قرآنا". ويجوز أن يكون توطئة للحال، كما تقول: مررت بزيد رجلا صالحا، و"عربيا" على الحال، أي يقرأ بلغتكم يا معشر العرب. أعرب بين، ومنه (الثيب تعرب عن نفسها)[2]. ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه. وبعض العرب يأتي بأن مع "لعل" تشبيها بعسى. واللام في "لعل" زائدة للتوكيد؛ كما قال الشاعر:

يا أبتا علك أو عساكا

وقيل: ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من تدبره؛ فيعود معنى الشك إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عز وجل. وقيل: معنى "أنزلناه" أي أنزلنا خبر يوسف، قال النحاس: وهذا أشبه بالمعنى؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن خبر يوسف؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما في التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم. فكان هذا للنبي

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٥)، وصححه، وأقره الذهبي.
(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٠٨٤).

ﷺ - إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا قط ولا هو في موضع كتاب - بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتي فيه.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ نحن نقص عليك ﴾ ابتداء وخبره: ﴿ أحسن القصص ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصنا أحسن القصص. وأصل القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ (القصص: ١١) أي تتبعي أثره؛ فالقاص يتبع الآثار فيخبر بها. والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة. يقال: فلان حسن الاقتصاص للحديث أي جيد السياقة له. وقيل: القصص ليس مصدرا، بل هو في معنى الاسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أي مرجونا فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار. ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ أي بوحينا فـ "ما" مع الفعل بمنزلة المصدر. ﴿ هذا القرآن ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا، أو بدل منه، أو عطف بيان. وأجاز الفراء الخفض؛ قال: على التكرير؛ وهو عند البصريين على البدل من "ما". وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ، كأن سائلا سأله عن الوحي فقيل له: هو هذا القرآن. ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي من الغافلين عما عرفناكه.

مسألة: واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله في آخرها: ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ (يوسف: ١١١). وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ (يوسف: ٩٢). وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا. وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما. وقيل: "أحسن" هنا بمعنى أعجب. وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز؛ قيل: والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال: فما كان أمر الجميع إلا إلى خير.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إذ قال يوسف ﴾ "إذ" في موضع نصب على الظرف؛ أي اذكر لـهم حين قال يوسف. وقراءة العامة بضم السين. وقرأ طلحة بن مصرف "يؤسف" بالـهمز وكسر السين. وحكى أبو زيد: "يؤسف" بالـهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنه أعجمي؛ وقيل: هو عربي. وسئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيما ـ عن "يوسف" فقال: الأسف في اللغة الحزن؛ والأسيف العبد، وقد اجتمعا في يوسف؛ فلذلك سمي يوسف. ﴿ لأبيه يا أبت ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نكحة وهزأة؛ قال النحاس: إذا قلت ﴿ يا أبت ﴾ بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قولـه الوقف إلا بالـهاء، ولـه على قولـه دلائل: منها ـ أن قولك: "يا أبه" يؤدي عن معنى "يا أبي"؛ وأنه لا يقال: "يا أبت" إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: "يا أبتي" لأن التاء بدل من الياء فلا يجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: "يا أبت" فكسر دل على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال، كيف تكون الياء في النية وليس يقال: (يا أبتي)؟ وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر "يا أبت" بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا "يا أبتي" بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت "يا أبتا" فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء "يا أبت" بضم التاء. ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر، وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسما واحدا وأعربوهما بأخف الحركات. قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة ـ وهو رجل من أهل الكتاب ـ فسأل النبي ﷺ عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: (الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد لـه)[1]. قال ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبـوه. وقال قتادة أيضا: الشـمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه. ﴿ رأيتهم ﴾ توكيد. وقال: ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ فجاء مذكرا؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل. وقد تقدم هذا المعنى في قولـه: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ (الأعراف: ١٩٨). والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، وإن كان خارجا عن الأصل.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ فيه إحدى عشرة مسألة:

---

(١) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ١٤٦، ١٤٥).

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فيكيدوا لك كيدا ﴾ أي يحتالوا في هلاكك؛ لأن تأويلـها ظاهر؛ فربما يحملـهم الشـيطان على قصدك بسوء حينئذ. واللام في "لك" تأكيد. كقولـه: ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ (يوسف: ٤٣).

الثانية: الرؤيا حالة شريفة، ومنزلة رفيعة، قال ﷺ: (لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى لـه)[١]. وقال: (أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا)[٢]. وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[٣]، وروي (من سبعين جزءا من النبوة)[٤]. وروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (جزءا من أربعين جزءا من النبوة)[٥]. ومن حديث ابن عمر (جزء من تسعة وأربعين جزءا). ومن حديث العباس (جزء من خمسين جزءا من النبوة). ومن حديث أنس (من ستة وعشرين)[٦]. وعن عبادة بن الصامت (من أربعة وأربعين من النبوة)[٧]. والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قالـه ابن بطال. قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصح عند أهل الحديث (من ستة وأربعين). قال الطبري: والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قولـه: (إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة) فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحوالـه كان؛ وأما قولـه: (إنها من أربعين أو ستة وأربعين) فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق ﷺ أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة ـ إن شاء الله ـ جزء من أربعين جزءا من النبوة، ومن كانت حالـه في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزأين ما بين الأربعين إلى الستين لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع ـ والله أعلم ـ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه كانت رؤياه أصدق وإلى النبوة أقرب كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ (الإسراء: ٥٥).

---

(١) "صحيح" بنحوه في الإرواء (٨/ ١٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٣).
(٣) أخرجاه في الصحيحين من حديث أنس.
(٤) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (٣١٤٥).
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٠).
(٦) أخرجه الخطيب وغيره بلفظ: "..من خمسة وعشرين جزءا.."، وانظر الصحيحة (١٨٦٩).
(٧) ذكره ابن عبد البر في "التمهيد"، (١/ ٢٨١).

قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأسفاقسي عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: (جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ في النبوة ثلاثة وعشرين عاما ـ فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛ وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه "المعلم" واختاره القونوي في تفسيره من سورة "يونس" عند قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ (يونس: ٦٤). وهو فاسد من وجهين: أحدهما: ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين؛ وهو قول عروة والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل ـ الثاني: أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال ﷺ: (إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم...)[1] الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة؛ قال ﷺ: (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان)[2] وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن؛ ورؤيا بختنصر، التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام عاتكة، عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري "باب رؤيا أهل السجن": فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة؛ وقد تقدم في "الأنعام" أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحلم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٥)، ومسلم (٢٢٦١).

سميت ضغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[1]). قال: قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأي في المنام، رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائي علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن لله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال ﷺ في صحيح مسلم وغيره: (رأيت سوداء ثائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مهيعة فأولتها الحمى)[2]. و(رأيت سيفي قد انقطع صدره وبقرا تنحر فأولتهما رجل من أهل بيتي يقتل والبقر نفر من أصحابي يقتلون)[3]. و(رأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة)[4]. و(رأيت في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدي)[5]. إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولا فأولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾؟ فالجواب: أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتي عشرة سنة.

الثامنة: هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين العقيلي أن النبي ﷺ قال: (الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة). و(الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلا أو

---

(١) "صحيح" أخرجه ابن ماجه والبخاري في تاريخه وغيرهما، وانظر الصحيحة (١٨٧٠).
(٢) وكذا أخرجه البخاري (٧٠٣٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).
(٤) "صحيح" أخرجه أحمد في "المسند" (ج٥/٢٤٤٥ ـ ط الشيخ شاكر).
(٥) أخرجه البخاري (٤٣٧٥)، ومسلم (٢٢٧٤).

محبا أو ناصحا)[١] أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة: وفي هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب ـ عليه السلام ـ قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا؛ وقال النبي ﷺ: (استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود)[٢]. وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدم ويأتي.

العاشرة: روى البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة)[٣] وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدم في "يونس" في تفسير قوله تعالى: ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾ (يونس: ٦٤) أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاري مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

الحادية عشرة: روى البخاري عن أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٤٥٦).
(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٩٤٣).
(٣) متفق عليه، وقد سبق.

ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره)[١]. قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها؛ ألا ترى قول أبي قتادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل علي من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا. وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه). وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل)[٢]. قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض؛ وإنما هذا الأمر بالتحول، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه، وإذا تمضمض تفل وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة؛ وذلك السحر من الليل.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ و"ما" كافة. وقيل: "وكذلك" أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا. قال مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوة. والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وأصله من جبيت الشيء أي حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض؛ قاله النحاس. وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى؛ من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا. وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا ﷺ نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا. وقد قيل في تأويل قوله: ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوة، وهو المقصود بقوله: ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بالنبوة. وقيل: بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل: بإنجائك من كل مكروه. ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ﴾ بالخلة، وإنجائه من النار. ﴿ وإسحاق ﴾ بالنبوة. وقيل: من الذبح؛ قاله عكرمة. وأعلمه الله تعالى بقوله: ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوة؛ قاله جماعة من المفسرين. ﴿ إن ربك عليم ﴾ بما يعطيك. ﴿ حكيم ﴾ في فعله بك.

---

(١) وكذا أخرجه مسلم (٢٢٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ يعني من سأل عن حديثهم. وقرأ أهل مكة "آية" على التوحيد؛ واختار أبو عبيد "آيات" على الجمع؛ قال: لأنها خبر كثير. قال النحاس: و"آية" هنا قراءة حسنة، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ ـ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجه اليهود إليهم من المدينة يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عز وجل سورة "يوسف" جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبي ﷺ، بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليهما السلام الميت. "آيات" موعظة؛ وقيل: عبرة. وروي أنها في بعض المصاحف "عبرة". وقيل: بصيرة. وقيل: عجب؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب. قال الثعلبي في تفسيره: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ وقال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد لـه إخوته حتى يسجد لـه أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدم رد هذا القول. قال الله تعالى: ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ﴾ وأسماؤهم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد لـه من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالي وجاد وأشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت لـه يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا. قال السهيلي: وأم يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل: في اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ (النساء: ٢٣). وقد تقدم الرد على ما قالـه ابن زيد، والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه ﴾ "يوسف" رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يتلقى بها القسم؛ أي والله ليوسف. ﴿ وأخوه ﴾ عطف عليه. ﴿ أحب إلى أبينا منا ﴾ خبره، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا في كيده. ﴿ ونحن عصبة ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة. والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لـها من لفظها كالنفر والرهط. ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بيِّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا.

قوله تعالى: ﴿اقتلوا يوسف﴾ في الكلام حذف؛ أي قال قائل منهم: ﴿اقتلوا يوسف﴾ ليكون أحسم لمادة الأمر. ﴿أو اطرحوه أرضا﴾ أي في أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه "في":

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

قال النحاس: إلا أنه في الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدى الفعل إليه. والقائل قيل: هو شمعون، قاله وهب بن منبه. وقال كعب الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل؛ والله أعلم. والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه في أرض. ﴿يخل﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه: يخلص ويصفو. ﴿لكم وجه أبيكم﴾ فيقبل عليكم بكليته. ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف. ﴿قوما صالحين﴾ أي تائبين؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم. وقيل: ﴿صالحين﴾ أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (١٠)﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ابن عباس. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال: ﴿فلن أبرح الأرض﴾ (يوسف: ٨٠) الآية. وقيل: شمعون. ﴿وألقوه في غيابة الجب﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة ﴿في غيابة الجب﴾. وقرأ أهل المدينة ﴿في غيابات الجب﴾ واختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه، وأنكر الجمع لهذا. قال النحاس: وهذا تضييق في اللغة؛ "وغيابات" على الجمع يجوز من وجهين: حكى سيبويه سير عليه عشيانات وأصيلانات، يريد عشية وأصيلا، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا؛ فكذا جعل كل موضع مما يغيب غيابة. والآخر - أن يكون في الجب غيابات (جماعة). ويقال: غاب يغيب غيبا وغيابة وغيابا؛ كما قال الشاعر:

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث أنا ذاكما قد غيبتني غيابيا

قال الهروي: والغيابة شبه لجف أو طاق في البئر فويق الماء، يغيب الشيء عن العين. وقال ابن عزيز: كل شيء غيب عنك شيئا فهو غيابة. قلت: ومنه قيل للقبر غيابة؛ قال الشاعر:

فإن أنا يوما غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

والجب الركية التي لم تطو، فإذا طويت فهي بئر؛ قال الأعشى:

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

وسميت جبا لأنها قطعت في الأرض قطعا؛ وجمع الجب جببة وجباب وأجباب؛ وجمع بين الغيابة والجب لأنه أراد القوة في موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن؛ قاله وهب بن منبه. مقاتل: وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: ﴿ تلتقطه ﴾ بالتاء، وهذا محمول على المعنى؛ لأن بعض السيارة سيارة؛ وقال سيبويه: سقطت بعض أصابعه، وأنشد:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

وقال آخر:

أرى مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الـهلال

ولم يقل شرق ولا أخذت. والسيارة الجمع الذي يسيرون في الطريق للسفر؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حملـه إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطه من السيارة يحملـه إلى موضع بعيد؛ وكان هذا وجها في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربما لا يأذن لـهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم.

الثالثة: وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاً ولا آخراً؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، فكانت هذه زلة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله؛ وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة: قال ابن وهب قال مالك: طرح يوسف في الجب وهو غلام، وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنه كان صغيرا؛ والدليل عليه قولـه تعالى: ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ﴾ قال: ولا يلتقط إلا الصغير؛ وقولـه: ﴿ وأخاف أن يأكلـه الذئب ﴾ (يوسف: ١٣) وذلك أمر يختص بالصغار؛ وقولـهم: ﴿ أرسلـه معنا غدا يرتع ويلعب وإنا لـه لحافظون ﴾ (يوسف: ١٢).

الخامسة: الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللقيط واللقطة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ابن عرفة: الالتقاط وجود الشيء على غير طلب، ومنه قولـه تعالى: ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي يجده من غير أن يحتسبه. وقد اختلف العلماء في اللقيط؛ فقيل: أصلـه الحرية لغلبة الأحرار على العبيد؛ وروي عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر، وتلا ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ (يوسف: ٢٠) وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك؛ وهو قول عمر بن الخطاب، وكذلك روي عن علي وجماعة. وقال إبراهيم النخعي: إن نوى رقه فهو مملوك، وإن نوى الحسبة فهو حر. وقال مالك في موطئه: الأمر عندنا في المنبوذ أنه حر، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعي؛ واحتج بقوله ﷺ: (وإنما الولاء لمن أعتق)[1] قال: فنفى الولاء عن غير المعتق. واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لا يوالي أحدا، ولا يرثه أحد بالولاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين:

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

اللقيط يوالي من شاء، فمن ولاه فهو يرثه ويعقل عنه؛ وعند أبي حنيفة لـه أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقل عنه الذي والاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن لـه أن ينتقل عنه بولائه أبدا. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي ﷺ: المنبوذ حر، فان أحب أن يوالي الذي التقطه والاه، وإن أحب أن يوالي غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حر. قال ابن العربي: إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد، فقضى بالغالب، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم: يحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زي اليهود فهو يهودي، وإن وجد عليه زي النصارى فهو نصراني، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضي للقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يعلى عليه، وهو مقتضى قول أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبدا. لأني أجعلـه مسلما على كل حال، كما أجعلـه حرا على كل حال. واختلف الفقهاء في المنبوذ تدل البينة على أنه عبد؛ فقالت طائفة من أهل المدينة: لا يقبل قولـها في ذلك، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر: هو حر؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البينة في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تقبل البينة في ذلك وهو قول الشافعي والكوفي.

السادسة: قال مالك في اللقيط: إذا اتفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضل منه فلا شيء على الأب، والملتقط متطوع بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع، إلا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعي: كل من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق. وقال الشافعي: إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال، فإن لم يكن ففيه قولان: أحدهما ـ يستقرض لـه في ذمته. والثاني ـ يقسط على المسلمين من غير عوض.

السابعة: وأما اللقطة والضوال فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللقطة والضوال سواء في المعنى، والحكم فيهما سواء؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي، وأنكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام ـ أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان ـ وقال هذا غلط؛ واحتج بقولـه ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: (إن أمكم ضلت قلادتها)[1] فأطلق ذلك على القلادة.

الثامنة: أجمع العلماء على أن اللقطة ما لم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لـها فإنها تعرف حولا كاملا، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من ملتقطها إذا ثبت لـه أنه صاحبها، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلـها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمنه فإن ذلك لـه، وإن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها، فأي ذلك تخير كان ذلك لـه بإجماع؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول. وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها لـه أكلها.

---

(١) حديث الإفك أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

التاسعة: واختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلا. وقال في الشاة: (لك أو لأخيك أو للذئب)[١] يحضه على أخذها، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه. ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالة الإبل، والله أعلم. وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله. وقال المزني عن الشافعي: لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها؛ قال: وسواء قليل اللقطة وكثيرها.

العاشرة: روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن اللقطة فقال: (اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها) قال: فضالة الغنم يا رسول الله؟ قال: (لك أو لأخيك أو للذئب) قال: فضالة الإبل؟ قال: (ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها). وفي حديث أبي قال: (احفظ عددها ووعاءها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها) ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره[٢]. وأجمع العلماء أن عفاص اللقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له؛ قال ابن القاسم: يجبر على دفعها؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببينة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا، وهل يحلف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأول لأشهب، والثاني لابن القاسم، ولا تلزمه بينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نص الحديث؛ ولو كانت البينة شرطا في الدفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والعدد معنى؛ فإنه يستحقها بالبينة على كل حال؛ ولما جاز سكوت النبي ﷺ عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة. والله أعلم.

الحادية عشرة: نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط؛ وقول ابن القاسم أصح؛ لقوله عليه السلام: (احفظ على أخيك المؤمن ضالته).

الثانية عشرة: واختلف العلماء في النفقة على الضوال؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم: إن أنفق الملتقط على الدواب والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره؛ قال: وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالرهن. وقال الشافعي: إذا أنفق على الضوال من أخذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الربيع. وقال المزني عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دينا، وما ادعى قبل منه إذا كان مثله قصدا. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٨)، ومسلم (١٧٢٢).

(٢) وكذا أخرجه البخاري (٢٤٢٧).

الثالثة عشرة: ليس في قوله ﷺ في اللقطة بعد التعريف: (فاستمتع بها)[1] أو (فشأنك بها)[2] أو (فهي لك)[3] أو (فاستنفقها)[4] أو (ثم كلها) أو (فهو مال الله يؤتيه من يشاء)[5] على ما في صحيح مسلم وغيره، ما يدل على التمليك، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ: (فإن لم تعرف فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدها إليه) في رواية (ثم كلها فإن جاء صاحبها فأدها إليه) خرجه البخاري ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله؛ لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام: (فأدها إليه).

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب. ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب ﷺ وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي. قرأ يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهري ﴿ لا تأمنا ﴾ بالإدغام، وبغير إشمام وهو القياس؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ لا تأمننا ﴾ بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين - وروي عن الأعمش - "ولا تيمنا" بكسر التاء، وهي لغة تميم؛ يقولون: أنت تضرب؛ وقد تقدم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه. ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ أي في حفظه وحيطته حتى نرده إليك. قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: ﴿ أرسله معنا غدا ﴾ الآية؛ فحينئذ قال أبوهم: ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ (يوسف: ١٣) فقالوا حينئذ جوابا لقوله: ﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ الآية. ﴿ أرسله معنا غدا ﴾ إلى الصحراء. "غدا" ظرف، والأصل عند سيبويه غدو، وقد نطق به على الأصل؛ قال النضر بن شميل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غدوة، وكذا بكرة. ﴿ نرتع ونلعب ﴾ بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة. والمعروف من قراءة أهل مكة. "نرتع" بالنون وكسر العين. وقراءة أهل الكوفة. ﴿ يرتع ويلعب ﴾ بالياء وإسكان العين. وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين؛ القراءة الأولى من قول العرب رتع الإنسان والبعير إذا أكلا كيف شاءا؛ والمعنى: نتسع في الخصب؛ وكل مخصب راتع؛ قال:

---

(١) البخاري (٢٤٢٩).
(٢) متفق عليه، وقد سبق.
(٣) البخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢).
(٤) متفق عليه.
(٥) البخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢). واللفظ له.

فارعي فزارة لا هناك المرتع

وقال آخر:

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت فإنمـــا هـــي إقـــبال وإدبـــار

وقال آخر:

أكفرا بعد رد الموت عـني وبعد عطائك المائة الرتاعا

أي الراتعة لكثرة المرعـى. وروى معـمر عـن قتادة ﴿ ترتع ﴾ تسعى؛ قال النحاس: أخذه من قولـه: ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ لأن المعنى: نستبق في العدو إلى غاية بعينها؛ وكذا "يرتع" بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده ﷺ. و"يرتع" بكسر العين من رعي الغنم، أي ليتدرب بذلك ويترجّل؛ فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره. وقال القتبي "نرتع" نتحارس ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضا؛ من قولك: رعاك الله؛ أي حفظك. "ونلعب" من اللعب وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا "ونلعب" وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقيل: المراد باللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق؛ ولذلك لم ينكر يعقـوب قولـهم "ونلعب". ومنـه قولـه ﷺ: (فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك)[1]. وقرأ مجاهد وقتادة: "يرتع" على معنى يرتع مطيته، فحذف المفعول؛ "ويلعب" بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممن يلعب ﴿وإنا لـه لحافظون ﴾ من كل ما تخاف عليه. ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة. وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضرارا به.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ في موضع رفع؛ أي ذهابكم به. أخبر عن حزنه لغيبته. ﴿ وأخاف أن يأكلـه الذئب ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبي. وقيل: إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكأن يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكلـه، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة إخوته، لما تمالؤوا على قتلـه، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام. وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلـهم لـه، فكنى عنهم بالذئب مساترة لـهم؛ قال ابن عباس: فسماهم ذئابا. وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم لما أرسلـه معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى. والذئب مأخوذ من تذاءبت الريح إذا جاءت من كل وجه؛ كذا قال أحمد بن يحيى؛ قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وروى ورش عن نافع "الذيب" بغير همز، لما كانت الـهمزة ساكنة وقبلـها كسرة فخففها صارت ياء. ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي مشتغلون بالرعي.

---

(١)أخرجه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (١٤٦٦).

قولـه تعالى: ﴿ قالوا لئن أكلـه الذئب ونحن عصبة ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه. ﴿ إنا إذاً لخاسرون ﴾ أي في حفظنا أغنامنا؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا. وقيل: "لخاسرون" لجاهلون بحقه. وقيل: لعاجزون.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه ﴾ "أن" في موضع نصب؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجب. قيل في القصة: إن يعقوب عليه السلام لما أرسلـه معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظنه، وسلمه إلى روبيل وقال: يا روبيل إنه صغير، وتعلم يا بني شفقتي عليه؛ فإن جاع فأطعمه، وإن عطش فاسقه، وإن أعيا فاحملـه ثم عجل برده إلي. قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يشيعهم ميلا ثم رجع؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحملـه إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف؛ فاستغاث بروبيل وقال: (أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي علي، وأقرب الإخوة إلي، فارحمني وارحم ضعفي) فلطمه لطمة شديدة وقال: لا قرابة بيني وبينك، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال: يا أخي ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني، وارحم قلب أبيك يعقوب؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده؛ فرق قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبدا ما دمت حيا، ثم قال: يا إخوتاه إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصبي إلى أبيه، ونعاهده ألا يحدث والده بشيء مما جرى أبدا؛ فقال لـه إخوته: والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه، قال: فإن أبيتم إلا ذلك فههنا هذا الجب الموحش القفر، الذي هو مأوى الحيات والـهوام فألقوه فيه، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه، وإن انفلت على أيدي سيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد؛ فأجمع رأيهم على ذلك؛ فهو قول الله تعالى: ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ وجواب "لما" محذوف؛ أي فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه في الجب عظمت فتنتهم. وقيل: جواب "لما" قولـهم: ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ (يوسف: ١٧). وقيل: التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب. "أوحينا" والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ (الزمر: ٧٣) أي فتحت وقولـه: ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ (هود: ٤٠) أي فار. قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي انتحى؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ فلما أسلما وتلـه للجبين وناديناه ﴾ (الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٤) أي ناديناه. وفي قولـه: ﴿ وأوحينا إليه ﴾ دليل على نبوته في ذلك الوقت. قال الحسن ومجاهد والضحاك

وقتادة: أعطاه الله النبوة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء. وقال الكلبي: ألقي في الجب، وهو ابن ثماني عشرة سنة، فما كان صغيرا؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه. وقيل: كان وحي إلـهام كقولـه: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ (النحل: ٦٨). وقيل: كان مناما، والأول أظهر - والله أعلم - وأن جبريل جاءه بالوحي.

قولـه تعالى: ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه، وتبشيرا لـه بالسلامة. الثانـي: أنه أوحـى إليـه بالذي يصـنعون به؛ فعلى هذا يكون الوحي قبل إلقائه في الجب إنذارا لـه. ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قالـه ابن عباس ومجاهد. وقيل: "الـهاء" ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم. ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجب ما ذكره السدي وغيره أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارى به في هذا الجب، فإن مت كان كفني، وإن عشت أواري به عورتي؛ فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئا، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما. وكان ذلك الجب مأوى الـهوام؛ فقام على الصخرة وجعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقي في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحاق، ثم ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعلـه في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقي في الجب عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه. قال وهب: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابي؛ فقال لـه جبريل: يا يوسف كف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان؛ ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر سر كل ملأ، يا حي يا قيوم أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجا ومخرجا، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة: إلـهنا نسمع صوتا ودعاء، الصوت صوت صبي، والدعاء دعاء نبي. وقال الضحاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف

وهو في الجب فقال لـه: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب؟ فقال: نعم! فقال لـه: قل يا صانع كل مصنوع، ويا جابر كل كسير، ويا شاهد كل نجوى، ويا حاضر كل ملأ، ويا مفرج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، ايتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدا سواك؛ فرددها يوسف في ليلته مرارا؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجب.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء ﴾ أي ليلا، وهو ظرف يكون في موضع الحال؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار؛ فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا. قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكلـه الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ على ما يأتي بيانه إن شاء الله. وقال السدي وابن حبان: إنه لما قالوا أكلـه الذئب خر مغشيا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب؛ قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتحرك لـه عرق؛ فقال لـهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل؛ فقال: يا روبيل ألم آمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهدا؟ فقال: يا أبت كف عني بكاءك أخبرك؛ فكف يعقوب بكاءه فقال: يا أبت ﴿ إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكلـه الذئب ﴾.

الثانية: قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقالـه، لاحتمال أن يكون تصنعا؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبـين مـن بكـى ممن تباكى

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ نستبق ﴾ نفتعل من المسابقة. وقيل: أي ننتضل؛ وكذا في قراءة عبد الله "إنا ذهبنا ننتضل" وهو نوع من المسابقة؛ قالـه الزجاج. وقال الأزهري: النضال في السهام، والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القشيري أبو نصر: "نستبق" أي في الرمي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام. وقال السدي وابن حبان: "نستبق" نشتد جريا لنرى أينا أسبق. قال ابن العربي: المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب؛ وقد فعلـها ﷺ بنفسه

وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها؛ فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته؛ فقال لها: (هذه بتلك)[1].

قلت: وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لما رجعوا من ذي قرد إلى المدينة فسبقه سلمة؛ خرجه مسلم.

الثانية: وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق[2] بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني: أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث: ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها، وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة: وأما المسابقة بالنصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، وذكر الحديث. وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر)[3]. وثبت ذكر النصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي[4]؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ـ قال حميد: أو لا تكاد تسبق ـ فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: (حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه).

الرابعة: أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف، والحافر والنصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار. وقد زاد أبو البختري القاضي في حديث الخف والحافر والنصل "أو جناح" وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد روي عن مالك أنه قال: لا سبق إلا في الخيل والرمي، لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال: وسبق الخيل أحب إلينا من سبق الرمي. وظاهر الحديث يسوي بين السبق على النجب والسبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. وروي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤُول قوله؛ لأن حمله على العموم في كل شيء يؤدي إلى إجازة القمار، وهو محرم باتفاق.

الخامسة: لا يجوز السبق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السبق فيه إلا بغاية معلومة ورشق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خسقا أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سبق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئا معلوما؛ فمن سبق أخذه. وسبق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه،

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٢٢٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧٠).

(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (ح٧٤٩٨)، والإرواء (١٥٠٦).

(٤) "صحيح" انظر صحيح النسائي (٣٣٥٢) وما بعده.

وإن سبق هو صاحبه أخذه، وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه لـه، ولا يرجع إلى مالـه؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسبق الثالث: اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخلا بينهما محللا لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه؛ ولا شيء للمحلل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران ـ من أصحاب الشافعي ـ : وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولا جريه؛ وسمي محللا لأنه يحلل السبق للمتسابقين أو لـه. واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخلـه وهو يأمن أن يسبق فهو قمار)[1]. وفي الموطأ عن سعيد ابن المسيب قال: ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلل، فإن سبق أخذ السبق، وإن سبق لم يكن عليه شيء؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم. واختلف في ذلك قول مالك؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد، ثم قال: لا يجوز إلا بالمحلل؛ وهو الأجود من قولـه.

السادسة: ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها. وقال الشافعي: وأقل السبق أن يسبق بالـهادي أو بعضه؛ أو بالكفل أو بعضه. والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي.

السابعة: روي عن النبي ﷺ أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبق رسول الله ﷺ، وصلى أبو بكر وثلث عمر؛ ومعنى وصلى أبو بكر: يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله ﷺ، والصلوان موضع العجز.

قولـه تعالـى: ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لـها. ﴿ فأكله الذئب ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: ﴿ وأخاف أن يأكلـه الذئب ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه. ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق. ﴿ ولو كنا﴾ أي وإن كنا؛ قالـه المبرد وابن إسحاق. ﴿ صادقين ﴾ في قولنا؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر لـه منهم من قوة التهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتي بيانه. وقيل: ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولاتّهمتنا في هذه القضية، لشدة محبتك في يوسف؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٣٧٣)، والإرواء (١٥٠٤).

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ بدم كذب ﴾ قال مجاهد: كان دم سخلة أو جدي ذبحوه. وقال قتادة: كان دم ظبية؛ أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدم ذي كذب؛ مثل: ﴿ واسْأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢) والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر؛ يقال: هذا ضرب الأمير، أي مضروبه وماء سكب أي مسكوب، وماء غور أي غائر، ورجل عدل أي عادل.

وقرأ الحسن وعائشة: ﴿ بدم كدب ﴾ بالدال غير المعجمة، أي بدم طري؛ يقال للدم الطري الكدب. وحكي أنه المتغير؛ قالـه الشعبي. والكدب أيضا البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث؛ فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اختلاف اللونين.

الثانية: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التنييب؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم، وقال لـهم: متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قالـه ابن عباس وغيره؛ روى إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سخلة. وروى سفيان عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتم؛ لو كان الذئب أكلـه لخرق القميص. وحكى الماوردي أن في القميص ثلاث آيات: حين جاءوا عليه بدم كذب، وحين قد قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيرا.

قلت: وهذا مردود؛ فإن القميص الذي جاؤوا عليه بالدم غير القميص الذي قُد، وغير القميص الذي أتاه البشير به. وقد قيل: إن القميص الذي قُد هو الذي أتي به فارتد بصيرا، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى. وروي أنهم قالوا لـه: بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولـهم، فاتهمهم، فقال لـهم يعقوب: تزعمون أن الذئب أكلـه، ولو أكلـه لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه؟! فقالوا عند ذلك: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ عن الحسن وغيره؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتّهمتنا.

الثالثة: استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قالـه ابن العربي.

قولـه تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿١٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روي أن يعقوب لما قالوا لـه: ﴿ فأكلـه الذئب ﴾ قال لـهم: ألم يترك الذئب لـه عضوا فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوبا أشم فيه رائحته؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه: أروني

قميصه، فأروه فشمه وقبلـه، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا، فقال: والله الذي لا إلـه إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم منه؛ أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال: يا معشر ولدي! دلوني على ولدي؛ فإن كان حيا رددته إلي، وإن كان ميتا كفنته ودفنته، فقيل قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه؛ فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم؛ قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد لـه ذئبا، قال: فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاؤوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعلـه الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: أطلقوه؛ فأطلقوه، وتبصبص لـه الذئب؛ فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول لـه: ادن ادن؛ حتى ألصق خده بخده فقال لـه يعقوب: أيها الذئب! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزنا طويلا؟! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذي اصطفاك نبيا ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله! ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادني أولادك وأوثقوني، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش؛ فأطلقه يعقوب وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به. ﴿ بل سولت ﴾ أي زينت لكم. ﴿ أنفسكم أمرا ﴾ غير ما تصفون وتذكرون.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فصبر جميل ﴾ قال الزجاج: أي فشأني والذي أعتقده صبر جميل. وقال قطرب: أي فصبري صبر جميل. وقيل: أي فصبر جميل أولى بي؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف. ويروى أن النبي ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال: (هو الذي لا شكوى معه). وسيأتي لـه مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله. قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف "فصبرا جميلا" قال: وكذا قرأ الأشهب العقيلي؛ قـال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح. قال المبرد: ﴿ فصبر جميل ﴾ بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال رب عندي صبر جميل؛ قال: وإنما النصب على المصدر، أي فلأصبرن صبرا جميلا؛ قال:

شكا إلي جملي طول السرى   صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم؛ وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه؛ فكان يرفعهما بخرقة؛ فقيل لـه: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان؛ فأوحى الله إليه أتشكوني يا يعقوب؟! قال: يا رب! خطيئة أخطأتها فاغفر لي. ﴿ والله المستعان ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ على ما تصفون ﴾ أي على احتمال ما تصفون من الكذب.

الثالثة: قال ابن أبي رفاعة: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عليه السلام وهو نبي؛ حين قال لـه بنوه: ﴿ إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكلـه الذئب ﴾ قال: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ فأصاب هنا، ثم قالوا لـه: ﴿ إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ (يوسف: ٨١) قال: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ فلم يصب.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجاءت سيارة ﴾ أي رفقة مارة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران، إنما هو للرعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقي فيه يوسف. ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ فذكر على المعنى؛ ولو قال: فأرسلت واردها لكان على اللفظ، مثل "وجاءت". والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم؛ وكان اسمه ـ فيما ذكر المفسرون ـ مالك بن دعر، من العرب العاربة. ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسلـه؛ يقال: أدلى دلوه إذا أرسلـها ليملأها، ودلاها أي أخرجها: عن الأصمعي وغيره. ودلا ـ من ذات الواو ـ يدلو دلوا، أي جذب وأخرج، وكذلك أدلى إذا أرسل، فلما ثقل ردوه إلى الياء، لأنها أخف من الواو؛ قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء، اتباعا للمستقبل. وجمع دلو في أقل العدد أدل فإذا كثرت قلت: دُلِيّ ودِليّ؛ فقلبت الواو ياء، إلا أن الجمع بابه التغيير، وليفرق بين الواحد والجمع؛ ودلاء أيضا. ﴿ قَال يا بشرى هذا غلام ﴾ فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من صحيح مسلم: (فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن). وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحد وصفه؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية، وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن؛ فلما رآه مالك بن دعر قال: ﴿ يا بشراي هذا غلام ﴾ وهذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة؛ إلا ابن أبي إسحاق فإنه قرأ ﴿ يا بُشْرَيَّ هذا غلام ﴾ فقلب الألف ياء، لأن هذه الياء يكسر ما قبلـها، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا. وقرأ أهل الكوفة "يا بشرى" غير مضاف؛ وفي معناه قولان: أحدهما: اسم الغلام، والثاني: معناه يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك. قال قتادة والسدي: لما أدلى المدلي دلوه تعلق بها يوسف فقال: يا بشرى هذا غلام؛ قال قتادة: بشر أصحابه بأنه وجد عبدا. وقال السدي: نادى رجلا اسمه بشرى. قال النحاس: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل: ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ (الفرقان: ٢٧) وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿ يا ويلتى

ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ (الفرقان: ٢٨) وهو أمية بن خلف؛ قاله النحاس. والمعنى في نداء البشرى: التبشير لمن حضر؛ وهو أوكد من قولك تبشرت، كما تقول: يا عجباه! أي يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك، فاحضر؛ وهذا مذهب سيبويه، وكذا قال السهيلي. وقيل: هو كما تقول: وا سروراه! وأن البشرى مصدر من الاستبشار: وهذا أصح؛ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم؛ وعلى هذا يكون "بشراي" في موضع نصب، لأنه نداء مضاف؛ ومعنى النداء ههنا التنبيه، أي انتبهوا لفرحتي وسروري؛ وعلى قول السدي يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيد هذا غلام. ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك: يا رجلا، وقوله: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ (يس: ٣٠) ولكنه لم ينون "بشرى" لأنه لا ينصرف. ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين اشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. "بضاعة" نصب على الحال. قال مجاهد: أسره مالك بن دعر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرفقة، وقالوا لهم: هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة. وقال ابن عباس: أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم! هذا عبد لنا أبق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال: أنا أقر لكم بالعبودية، فأقر لهم فباعوه منهم. وقيل: إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لإخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا، وتنجو من القتل، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد!، قالوا: هو تربى في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدب بآدابنا؛ فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك: إن بعتموه مني اشتريته منكم؛ فباعوه منه؛ فذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وشروه ﴾ يقال: شريت بمعنى اشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر:

وشـــــريت بردا ليتني من بعد برد كنت هامه

أي بعت. وقال آخر:

فلما شـــراها فاضت العين عبرة وفي الصدر حزاز من اللوم حامز

﴿ بثمن بخس ﴾ أي نقص؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم؛ أي باعوه بثمن مبخوس، أي منقوص. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه. وقيل: إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجب فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة. وقيل: لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا: هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم. وقال قتادة: ﴿ بخس ﴾ ظلم. وقال الضحاك ومقاتل والسدي وابن

عطاء: "بخس" حرام. وقال ابن العربي: ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا؛ أو قالوا لأصحابهم: أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يعطوا عنه ثمنا وأن ما أخذوا فيه ربح كله.

قلت: قوله ـ وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ـ يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك؛ فدل على صحة ما قاله السدي وغيره؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه. وقال عكرمة والشعبي: قليل. وقال ابن حيان: زيف. وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرة؛ وقاله قتادة والسدي. وقال أبو العالية ومقاتل: اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين؛ وقاله مجاهد. وقال عكرمة: أربعين درهما؛ وما روي عن الصحابة أولى. و"بخس" من نعت "ثمن".

قوله تعالى: ﴿ دراهم معدودة ﴾ على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع درهام، وقد يكون اسما للجمع عند سيبويه، ويكون أيضا عنده على أنه مد الكسرة فصارت ياء، وليس هذا مثل مد المقصور؛ لأن مد المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهيم تنقاد الصياريف

﴿ معدودة ﴾ نعت؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عدا لا وزنا بوزن. وقيل: هو عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما كان دون الأوقية، وهي أربعون درهما.

الثانية: قال القاضي ابن العربي: وأصل النقدين الوزن؛ قال ﷺ: (لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى)[1]. والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار؛ فأما عينها فلا منفعة فيه، ولكن جرى فيها العد تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدا إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدم.

الثالثة: واختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا؟ وقد اختلفت الرواية في ذلك عن مالك: فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين، وهو الظاهر من قول مالك؛ وبه قال أبو حنيفة. وذهب ابن القاسم إلى أنها تتعين، وحكي عن الكرخي؛ وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعين فإذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

الرابعة: روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ: ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ وقد مضى القول فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨٨).

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيارة. وقيل: الواردة؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زوالـه عن أبيه لا مالـه، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

السادسة: في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازما؛ ولـهذا قال مالك: لو باع درة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درة وحسبتها مخشلبة لزمه البيع ولم يلتفت إلى قولـه. وقيل: ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي في حسنه؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعي نفوس القوم إليه إكراما لـه. وقيل: ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ لم يعلموا منزلته عند الله تعالى. وحكى سيبويه والكسائي: زهدت وزهدت بكسر الـهاء وفتحها.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالـهدى ﴾ (البقرة: ١٦) وقيل: إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن. قال الضحاك: هذا الذي اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السهيلي: واسمه قطفير. وقال ابن إسحاق: إطفير بن رويحب اشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماوردي. وقيل: كان اسمها زليخاء. وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهلـه؛ ذكره القشيري. وقد ذكر القولين في اسمها الثعلبي وغيره. وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة. وقيل: هو فرعون موسى؛ لقول موسى: ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ (غافر: ٣٤) وأنه عاش أربعمائة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في "غافر" بيانه. وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشترى يوسف من مالك ابن دعر بعشرين دينارا، وزاده حلة ونعلين. وقيل: اشتراه من أهل الرفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكا وعنبرا وحريرا وورقا وذهبا ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن؛ قالـه وهب بن منبه. وقال وهب أيضا وغيره: ولما اشترى مالك بن دعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا: هذا ما اشترى مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكا لـهم بعشرين درهما، وقد شرطوا لـه أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، نصركم الله وإن خذلتموني، رحمكم الله وإن لـم ترحموني؛ قالـوا: فألقت الأغنام ما

في بطونهـا دمـا عبيطـا لشدة هذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيدا مكبلا مسلسلا، فمر على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه ـ وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود ـ فألقى يوسف نفسه على قبر أمه فجعل يتمرغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه! ارفعي رأسك تري ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا؛ فرقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأملـه فإذا هو إياه، فركضه برجلـه في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا؛ فقال لـه: لا تفعل! والله ما هربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود: والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال لـه: يا يوسف غض صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلـها؟ قال: تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وارتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا؛ فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثا؟ ـ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قط مثل هذا ـ فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال لـه: ما أردت إلا هلاكنا ايتنا به، فأتاه به، فقال لـه: يا غلام لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظن بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلـها وأذهب الله عنه كآبة السفر، ورد عليه جمالـه، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قالـه ابن عباس على ما تقدم. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى.

قولـه تعالى: ﴿ أكرمي مثواه ﴾ أي منزلـه ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به؛ وقد تقدم في "آل عمران" وغيره. ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ أي يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ قال ابن عباس: كان حصورا لا يولد لـه، وكذا قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد لـه. فإن قيل: كيف قال ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ وهو ملكه، والولدية مع العبدية تتناقض؟ قيل لـه: يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبني؛ وكان التبني في الأمم معلوما عندهم، وكذلك كان في أول الإسلام، على ما يأتي بيانـه في "الأحزاب" إن شاء الله تعالى. وقـال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرس في يوسف فقال: ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ (القصص: ٢٦)، وأبو بكر حين استخلف عمر. قال ابن العربي: عجبا للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر والفراسة هي علم غريب على ما يأتي بيانه في سورة (الحجر) وليس

كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصديق إنما ولى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتي بيانه في "القصص". وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ الكاف في موضع نصب؛ أي وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب فكذلك مكنا له؛ أي عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد الذي الملك مستول عليه. ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب: ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾. وقيل: المعنى مكناه لنوحي إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿والله غالب على أمره﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أي لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له: كن فيكون. وقيل: ترجع إلى يوسف؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يطلعون على غيبه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب. وقيل: هو مجرى على ظاهره؛ إذ قد يطلع من يريد على بعض غيبه. وقيل: المعنى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر. وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿والله غالب على أمره﴾ حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يا أسفا على يوسف﴾ ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: ﴿إنا كنا خاطئين﴾ (يوسف: ٩٧) ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فغلب أمر الله فلم ينخدع، وقال: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾ (يوسف: ١٨) ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: ﴿استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (يوسف: ٢٩)، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بضع سنين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده﴾ "أشده" عند سيبويه جمع، واحده شدة. وقال الكسائي: واحده شد؛ كما قال الشاعر:

عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظلم

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقتادة: الأشد ثلاث وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأشد بلوغ الحلم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في "النساء" و"الأنعام" مستوفى. ﴿آتيناه حكما وعلما﴾

قيل: جعلناه المستولي على الحكم، فكان يحكم في سلطان الملك؛ أي وآتيناه علما بالحكم. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحكم النبوة، والعلم علم الدين؛ وقيل: علم الرؤيا؛ ومن قال: أوتي النبوة صبيا قال: لما بلغ أشده زدناه فهما وعلما. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك. وقال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ؛ يقول الله تعالى: كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرود والرياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رويد؛ يقال: فلان يمشي رويدا، أي برفق؛ فالمراودة الرفق في الطلب؛ يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه. والرود التأني؛ يقال: أرودني أمهلني. ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ غلق للكثير، ولا يقال: غلق الباب؛ وأغلق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبوابا وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

يقال: إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلى نفسها. ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أي هلم وأقبل وتعال؛ ولا مصدر له ولا تصريف. قال النحاس: فيها سبع قراءات؛ فمن أجل ما فيها وأصحه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ ﴿ هيتَ لك ﴾ قال فقلت: إن قوما يقرؤونها "هيتَ لك" فقال: إنما أقرأ كما علمت. قال أبو جعفر: وبعضهم يقول عن عبد الله ابن مسعود عن النبي ﷺ، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله: إنما أقرأ كما علمت يدل على أنه مرفوع، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي. قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا في القرآن؛ فإنما هو مثل قول أحدكم: هلم تعال. وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي ﴿ قالت هَيت لك ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وابن كثير ﴿ هَيتُ لك ﴾ بفتح الهاء وضم التاء؛ قال طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهن مفتوحة. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع ﴿ وقالت هيتَ لك ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ وقالت هيْتُ لك ﴾ بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة. وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ وابنَ عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿ وقالت هئتُ لك ﴾

بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة. وعن ابن عامر وأهل الشام: ﴿ وقالت هئتَ ﴾ بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء؛ قال أبو جعفر: ﴿ هئتَ لك ﴾ بفتح التاء لالتقاء الساكنينَ، لأنه صوت نحو مه وصه يجب ألا يعرب، والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية؛ أي قالت: دعائي لك، فلما حذفت الإضافة بني على الضم؛ مثل حيث وبعد. وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما: أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر. والآخر: أن يكون فعلا منَ هاء يهيء مثل جاء يجيء؛ فيكون المعنى في "هئت" أي حسنت هيئتك، ويكون "لك" من كلام آخر، كما تقول: لك أعني. ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأت لك؛ وكذلك من قرأ "هيت لك". وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة ـ معمر بن المثنى: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو: باطل؛ جعلها من تهيأت! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هذا؟! وقال الكسائي أيضا: لم تحك "هئت" عن العرب. قال عكرمة: "هئت لك" أي تهيأت لك وتزينت وتحسنت، وهي قراءة غير مرضية؛ لأنها لم تسمع في العربية. قال النحاس: وهي جيدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هاء الرجل يهاء ويهيء هيأة فهاء يهيء مثل جاء يجيء وهئت مثل جئت. وكسر الهاء في "هيت" لغة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها. قال الزجاج: أجود القراءات "هيت" بفتح الهاء والتاء؛ قال طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما … قال داع من العشيرة هيت

بفتح الهاء والتاء. وقال الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنـ … ـين أخا العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهله … سلم إليك فهيت هيتا

قال ابن عباس والحسن: "هيت" كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها. وقال السدي: معناها بالقبطية هلم لك. قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعال؛ قال أبو عبيد: فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم؛ وبه قال عكرمة. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء؛ قال الجوهري: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه؛ قال:

قد رابني أن الكري أسكتا … لو كان معنيا بها لهيتا

أي صاح؛ وقال آخر:

يحدو بها كل فتى هيات

قوله تعالى: ﴿ قال معاذ الله ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه؛ وهو مصدر، أي أعوذ بالله معاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب بالمصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررت بزيد مرور عمرو أي كمروري بعمرو. ﴿ إنه ربي ﴾ يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسدي. وقال الزجاج: أي إن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أرتكب ما حرمه. وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرحم صورني ربي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء

يبلى مني في قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربي. قالت: يا يوسف! ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت: يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربي. قالت: يا يوسف! القيطون فرشته لك فادخل معي، قال: القيطون لا يسترني من ربي. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذاً يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن هم بها.

وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه. واختلف العلماء في همه. ولا خلاف أن همها كان المعصية، وأما يوسف فهم بها ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ ولكن لما رأى البرهان ما هم؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ فإذاً في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه هم بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخاء بالمعصية وكانت مصرة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهروي في كتابه. قال جميل:

هممت بهم من بثينة لو بدا   شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

آخر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: هم بها تمنى زوجيتها. وقيل: هم بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها.

وقيل: إن هم يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القشيري أبو نصر، وابن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم. قال ابن عباس: حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله. وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ (يوسف: ٥٢) قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ (يوسف: ٥٣). قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دال على الإخلاص، وأعظم للثواب[1].

---

(١) هذا كله كذب وافتراء، لا يليق بمعصوم كنبي الله يوسف عليه السلام، قال ابن العربي: "قد تقصينا عن ذلك في كتاب الأنبياء من شرح المشكلين، وبينا أن الله سبحانه ما أخبر عنه أنه أتى في جانب القصة فعلا بجارحة، وإنما الذي منه الهم، وهو فعل القلب، فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثا، ويقولون: فعل، وفعل! والله إنما قال: هم بها، لا أقالهم ولا أقاتهم الله ولا عالهم". أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٢).

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكفل حسب ما يأتي بيانه في "ص" إن شاء الله تعالى. وجواب "لولا" على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به؛ ومثله ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ (التكاثر: ٥) وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاه الطبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشد تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن زلة الأنبياء حكما: زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف هم، وكان ذلك الهم حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد؛ وتناول الطعام اللذيذ؛ فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما.

قلت: هذا قول حسن؛ وممن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبيا في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكما وعلما، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكته ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة. وما روي من أنه قيل له: تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء. فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من هذا التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إليه ﴾ (يوسف: ١٥) يدل على أنه كان نبيا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبيا فلم يبق إلا أن يكون الهم الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه؛ ويكون قوله: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ (يوسف: ٥٣) - إن كان من قول يوسف - أي من هذا الهم، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكي به قبل وبرئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (يوسف: ٢٢) على ما تقدم بيانه؛ وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته؛ وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (قالت الملائكة

رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملـها فاكتبوها لـه بمثلـها وإن تركها فاكتبوها لـه حسنة إنما تركها من جراي). وقال ﷺ مخبرا عن ربه: (إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملـها كتبت حسنة)[١]. فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب لـه بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح: (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لـم تعمل أو تكلم به)[٢] وقد تقدم. قال ابن العربي: كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، ـ وأي إمام ـ يعرف بابن عطاء! تكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذاً يوسف هم وما تم؟ قال: نعم! لأن العناية من ثم. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤالـه، وجواب العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قولـه: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (يوسف: ٢٢) إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون لـه سببا للعصمة.

قلت: وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مصعب بن عثمان: إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها، فاشتاقته امرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكرها، فقالت: إن لـم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسف الصديق ﷺ جالسا فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم؟! فإن هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال؛ ولو قدرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية، فيكون محفوظا كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع في المقال والخطاب، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ "أن" في موضع رفع أي لولا رؤية برهان ربه والجواب محذوف. لعلم السامع؛ أي لكان ما كان. وهذا البرهان غير مذكور في القرآن؛ فروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أن زليخاء قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلـهي هذا أن يراني في هذه الصورة؛ فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل. وقـيل: رأى مكتوبا في سقف البيت ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (الإسراء: ٣٢). وقال ابن عباس: بدت كف مكتوب عليها ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ (الانفطار: ١٠) وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه. وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أناملـه؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير. وروى الأعمش عن مجاهد قال: حل سراويلـه فتمثل لـه يعقوب، وقال لـه: يا يوسف! فولى هاربا. وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال: مثل لـه يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أناملـه، قال مجاهد: فولد لكل واحد من أولاد

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي سعيد.

يعقوب اثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد لـه إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا.
وبالجملة: فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وامتنع عن المعصية.

قولـه تعالى: ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ الكاف من "كذلك" يجوز أن تكون رفعا، بأن يكون خبر ابتداء محذوف، التقدير: البراهين كذلك، ويكون نعتا لمصدر محذوف؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك. والسوء الشهوة، والفحشاء المباشرة. وقيل: السوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنى. وقيل: السوء خيانة صاحبه، والفحشاء ركوب الفاحشة. وقيل: السوء عقوبة الملك العزيز. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر "المخلصين" بكسر اللام؛ وتأويلـها الذين أخلصوا طاعة الله. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتأويلـها: الذين أخلصهم الله لرسالته؛ وقد كان يوسف عليه السلام بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلصا في طاعة الله تعالى، مستخلصا لرسالة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ واستبقا الباب ﴾ قال العلماء: وهذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا، هي لترده إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج.

قولـه تعالى: ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ أي من خلفه؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى أسفل القميص. والاستباق طلب السبق إلى الشيء؛ ومنه السباق.
والقد القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا؛ قال النابغة:

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا. وقال المفضل بن حرب: قرأت في مصحف "فلما رأى قميصه عط من دبر" أي شق. قال يعقوب: العط الشق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح.

وحـذفت الألف مـن "استبقا" في اللفـظ لسكونها وسكـون اللام بعدها؛ كما يقـال: جـاءني عبد الله في التثنية؛ ومن العرب من يقول: جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز، يجمع بين ساكنين؛ لأن الثاني مدغم، والأول حرف مد ولين. ومنهم من يقول: عبدا الله بإثبات الألف والـهمز، كما تقول في الوقف.

الثانية: في الآية دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قد القميص مقبلا ومدبرا، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جبذ من خلف تمزق من تلك الجهة، وإذا جبذ من قدام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب.

قولـه تعالى: ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب، وعني بالسيد الزوج، والقبط يسمون الزوج سيدا. يقال: ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كلـه بمعنى واحد؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت فـ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ أي زنى.

قولـه تعالى: ﴿ إلا أن يسجن ﴾ تقول: يضرب ضربا وجيعا. و﴿ ما جزاء ﴾ ابتداء، وخبره ﴿ أن يسجن ﴾. ﴿ أو عذاب أليم ﴾ عطف على موضع "أن يسجن" لأن المعنى: إلا السجن. ويجوز أو عذابا أليما بمعنى: أو يعذب عذابا أليما؛ قاله الكسائي.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ قال العلماء: لما برأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه ـ لأن من شأن المحب إيثار المحبوب ـ قال: ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه. قال نوف الشامي وغيره: كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية، فلما بغت به غضب فقال الحق.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ وشهد شاهد من أهلـها ﴾ لأنهما لما تعارضا في القول احتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلـها. أي حكم حاكم من أهلـها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة. وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة: الأول ـ أنه طفل في المهد تكلم؛ قال السهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ، وهو قولـه: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...)[1] وذكر فيهم شاهد يوسف. وقال القشيري أبو نصر: قيل فيه: كان صبيا في المهد في الدار وهو ابن خالتها؛ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (تكلم أربعة وهم صغار...)[2] فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول. الثاني ـ أن الشاهد قد القميص؛ رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال؛ وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لم تشقني؟ قال لـه: سل من يدقني. إلا أن قول الله تعالى بعد ﴿ من أهلـها ﴾ يبطل أن يكون القميص. الثالث ـ أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا بجني؛ قاله مجاهد أيضا، وهذا يرده قولـه تعالى: ﴿ من أهلـها ﴾. الرابع ـ أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدام صاحبه؛ فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، وليس فيه ذكر شاهد يوسف.
(٢) "ضعيف" أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٦-٤٩٧)، وانظر الضعيفة (٢/ ٢٧٢).

خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدي. قال السدي: كان ابن عمها؛ وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم. وروي عن ابن عباس ـ رواه عنه إسرائيل عن سماك عن عكرمة ـ قال: كان رجلا ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبي، ولكن كان رجلا حكيما. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف ﷺ تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث (تكلم أربعة وهم صغار) منهم صاحب يوسف، يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي ﷺ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي.

قلت: قد روي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جبير وهلال بن يساف والضحاك أنه كان صبيا في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. وسيأتي من تكلم في المهد من الصبيان في سورة (البروج) إن شاء الله.

الثالثة: إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالإمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها، وليست لـهم بينة فإن السلطان يتلوم لـهم في ذلك؛ فإن لـم يأت غيرهم دفعها إليهم. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل، لأن حروف الشرط ترد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يعلم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. ﴿ قد من قبل ﴾ فخبر عن "كان" بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

وكان طوى كشحا على مستكنة فـلا هــو أبداهــا ولـــم يتقدم

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق ﴿ من قبل ﴾ بضم القاف والباء واللام، وكذا "دبر" قال الزجاج: يجعلـهما غايتين كقبل وبعد؛ كأنه قال: من قبلـه ومن دبره، فلما حذف المضاف إليه ـ وهو مراد ـ صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية لـه. ويجوز "من قبل" "ومن دبر" بفتح

الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو "من قبل" "ومن دبر" مخففان مجروران.

قولـه تعالى: ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن ﴾ قيل: قال لـها ذلك العزيز عند قولـها: ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ (يوسف: ٢٥). وقيل: قالـه لـها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة، وقد تقدم في (الأنفال). ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ وإنما قال ﴿ عظيم ﴾ لعظم فتنتهن واحتيالـهن في التخلص من ورطتهن. وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول: ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (النساء: ٧٦) وقال: ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾)[1].

قولـه تعالى: ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ القائل هذا هو الشاهد. و"يوسف" نداء مفرد، أي يا يوسف، فحذف. ﴿ أعرض عن هذا ﴾ أي لا تذكره لأحد واكتمه. ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أقبل عليها فقال: وأنت استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ مثل: ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ (النمل: ٤٣) ﴿ وكانت من القانتين ﴾ (التحريم: ١٢). وقيل: إن القائل ليوسف أعرض ولـها استغفري زوجها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غيورا؛ فلذلك كان ساكنا. وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود. الثاني: أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفي بادرته وعفا عنها.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ ويقال: "نُسوة" بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضل والسلمي، والجمع الكثير نساء. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة انتشرت في أهل مصر فتحدث النساء. قيل: امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابه، وامرأة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ الفتى في كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة. ﴿ قد شغفها حبا ﴾ قيل: شغفها غلبها. وقيل: دخل حبه في شغافها؛ عن مجاهد وغيره. وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شغافها. وقال الحسن: الشغف باطن القلب. السدي وأبو

---

(١) فيه يحيى بن أبي كثير، وهو مدلس وقد عنعنه، ثم هو منكر المتن؛ لأن الله تعالى عندما وسم كيد الشيطان بالضعف لكونه مقابلاً بكيد الله ـ كما هو ظاهر في سياق الآية ـ فلذلك كان ضعيفاً، وكذلك في كيد النساء وصفه بالعظم؛ لأنه مقابل بكيد الرجال، فالسياق والسباق واللحاق من المقيدات. فانتبه.

عبيد: شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه. وقيل: هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبه إلى شغافها فغلب عليه؛ قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك داخـل دخول الشغاف تبتغيه الأصابع

وقد قيل: إن الشغاف داء؛ وأنشد الأصمعي للراجز:

يتبعها وهي لـه شغاف

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن "شعفها" بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبه قلبها؛ قال: وعلى الأول العمل. قال الجوهري: وشعفه الحب أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. وقد شعف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن "قد شعفها" قال: بطنها حبا. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب؛ لأن شعاف الجبال. أعاليها؛ وقد شغف بذلك شغفا بإسكان الغين إذا أولع به؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت امرئ القيس:

لتقتلـــني وقد شـــعفت فؤادهـــا كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

قال: فشبهت لوعة الحب وجواه بذلك. وروي عن الشعبي أنه قال: الشغف بالغين المعجمة حب، والشعف بالعين غير المعجمة جنون. قال النحاس: وحكي "قد شغفها" بكسر الغين، ولا يعرف في كلام العرب إلا "شغفها" بفتح الغين، وكذا "شعفها" أي تركها مَشعوفة. وقال سعيد بن أبي عروبة عن الحسن: الشغاف حجاب القلب، والشعاف سويداء القلب، فلو وصل الحب إلى الشعاف لماتت؛ وقال الحسن: ويقال إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فلصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب.

قولـه تعالى: ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في هذا الفعل. وقال قتادة: "فتاها" وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان ينفذ أمرها فيه. وقال مقاتل عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال: إن امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف فوهبه لـها، وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتخذه ولدا؛ قال: هو لك؛ فربته حتى أيفع وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف لـه وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله.

قولـه تعالى: ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أي بغيبتهن إياها، واحتيالـهن في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهن واستأمنتهن فأفشين سرها، فسمي ذلك مكرا. وقولـه: ﴿ أرسلت إليهن ﴾ في الكلام حذف؛ أي أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن ابن عباس: إن امرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لـها: افعلي؛ فاتخذت طعاما، ثم نجدت لـهن البيوت؛ نجدت أي زينت؛ والنجد ما ينجد به البيت من المتاع أي يزين، والجمع نجود عن أبي عبيد؛ والتنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها، ولا تتخلف منكن امرأة ممن سميت. قال وهب بن منبه: إنهن كن أربعين امرأة فجئن على كره منهن، وقد قال فيهن أمية بن أبي الصلت:

حـــتى إذا جئنــها قســـــرا ومهدت لـهن أنضادا وكبابا

ويروى: أنماطا. قال وهب بن منبه: فجئن وأخذن مجالسهن. ﴿ وأعتدت لـهن متكأ ﴾ أي هيأت لهن مجالس يتكئن عليها. قال ابن جبير: في كل مجلس جام فيه عسل وأترج وسكين حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير "متكا" مخففا غير مهموز، والمتك هو الأترج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المتكأ مثقلا هو الطعام، والمتك مخففا هو الأترج؛ وقال الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهارا وترى المتك بيننا مستعارا

وقد تقول أزد شنوءة: الأترجة المتكة؛ قال الجوهري: المُتْك ما تبقيه الخاتنة. وأصل المتك الزماورد. والمتكاء من النساء التي لم تخفض. قال الفراء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المتك مخففا الزماورد. وقال بعضهم: إنه الأترج؛ حكاه الأخفش. ابن زيد: أترجا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر:

فظلنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

أي أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: ﴿ واعتدت ﴾ من العتاد؛ وهو كل ما جعلته عدة لشيء. "متكأ" أصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلسا، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ، مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾؛ ودل على هذا الحذف ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يقطع بالسكاكين؛ كذا قال في كتاب "إعراب القرآن" له. وقال في كتاب "معاني القرآن" له: وروى معمر عن قتادة قال: "المتكأ" الطعام. وقيل: "المتكأ" كل ما أتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك. وحكى القتبي أنه يقال: اتكأنا عند فلان أي أكلنا، والأصل في "متكأ" موتكأ، ومثله متزن ومتعد؛ لأنه من وزنت، ووعدت ووكأت، ويقال: اتكأ يتكئ اتكاء. ﴿ كل واحدة منهن سكينا ﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكر ويؤنث، وأنشد الفراء:

فعيث في السنام غداة قر بسكين موثقة النصاب

الجوهري: والغالب عليه التذكير، وقال:

يرى ناصحا فيما بدا فإذا خلا فذلك سكين على الحلق حاذق

الأصمعي: لا يعرف في السكين إلا التذكير.

قوله تعالى: ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة، وكسرت التاء على الأصل. قيل: إنها قالت لـهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت لخادمها: إذا قلت لك ادع إيلا فادع يوسف؛ وإيل: صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شد مئزره، وحسر عن ذراعيه؛ فقالت للخادم: ادع لي إيلا؛ أي ادع لي الرب؛ وإيل بالعبرانية الرب؛ قال: فتعجب النسوة وقلن: كيف يجيء؟! فصعدت الخادم فدعت يوسف، فلما انحدر قالت لـهن: اقطعن ما معكن. ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ واختلف في معنى

"أكبرنه" فروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: أعظمنه وهبنه؛ وعنه أيضا أمنين وأمذين من الدهش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قارة صهلن وأكبرن المني المدفقا

وقال ابن سمعان عن عدة من أصحابه: إنهم قالوا أمذين عشقا؛ وهب بن منبه: عشقنه حتى مات منهن عشر في ذلك المجلس دهشا وحيرة ووجدا بيوسف. وقيل: معناه حضن من الدهش؛ قاله قتادة ومقاتل والسدي؛ قال الشاعر:

نأتي النساء على أطهارهن ولا نأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكن حضن من شدة إعظامهن له، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض. قال الزجاج: يقال أكبرنه، ولا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهري فقال: يجوز أكبرت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حيز الصغر إلى الكبر؛ قال: والهاء في "أكبرنه" يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية، وهذا مزيف، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأمثل منه قول ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أي أكبرن إكبارا، بمعنى حضن حيضا. وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أي أعظمن يوسف وأجللنه.

قوله تعالى: ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن منبه. سعيد بن جبير: لم يخرج عليهن حتى زينته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أنهن يقطعن الأترج؛ قال مجاهد: قطعنها حتى ألقينها. وقيل: خدشنها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حزا بالسكين، قال النحاس: يريد مجاهد أنه ليس قطعا تبين منه اليد، إنما هو خدش وحز، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده. وقال عكرمة: ﴿ أيديهن ﴾ أكمامهن، وفيه بعد. وقيل: أناملهن؛ أي ما وجدن ألما في القطع والجرح، أي لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهن.

قوله تعالى: ﴿ وقلن حاش لله ﴾ أي معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء. ﴿ وقلن حاشا لله ﴾ بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في "لله" عوضا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حاشاك وحاشا لك وحاش لك وحشا لك. ويقال: حاشا زيد وحاشا زيدا؛ قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صح أنها فعل لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

ولا أحاشي من الأقوام من أحد

وقال بعضهم: حاش حرف، وأحاشي فعل. ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابي: اللهم اغفر لي ولمن يسمع، حاشا الشيطان وأبا الأصبغ؛ فنصب بها.

وقرأ الحسن ﴿ وقلن حاش لله ﴾ بإسكان الشين، وعنه أيضا "حاش الإلـه". ابن مسعود وأبي: "حاش الله" بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حاشــا أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتم

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحشا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حشا فلان أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيد أي تنحى زيد من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قرف به، أو من أن يكون بشرا؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جر عند سيبويه، وعلى ما قال المبرد وأبو علي فعل.

قولـه تعالى: ﴿ ما هذا بشرا ﴾ قال الـخليل وسيبويه: "ما" بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيد قائما، و﴿ ما هذا بشرا ﴾ و﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ (المجادلة: ٢). وقال الكوفيون: لما حذفت الباء نصبت؛ وشرح هذا ـ فيما قال أحمد بن يحيى، ـ إنك إذا قلت: ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلـها، قال: وهذا قول الفراء، قال: ولم تعمل "ما" شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيد القمر؛ لأن المعنى كالقمر! فرد أحمد ابن يحيى بأن قال: الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون اسما. قال النحاس: لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفراء أجاز نصا ما بمنطلق زيد، وأنشد:

أمـا والله أن لو كنت حرا وما بالحر أنت ولا العتيق

ومنع نصا النصب؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز: ما فيك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون ما زيد منطلق بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا:

أتيـما تجـعلون إلــي ندا وما تيم لذي حسب نديد

الند والنديد والنديدة المثل والنظير. وحكى الكسائي أنها لغة تهامة ونجد. وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين: قال أبو إسحاق: وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله ﷺ أقوى وأولى.

قلت: وفي مصحف حفصة رضي الله عنها ﴿ ما هذا ببشر ﴾ ذكره الغزنوي. قال القشيري أبو نصر: وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة ملك؛ وقال الله تعالـى: ﴿ لقـد خـلقنا الإنســان في أحسن تقويم ﴾ (التين: ٤) والجمـع بين الآيتين أن قولـهن: ﴿حاش لله ﴾ تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي بعد يوسف عن هذا؛ وقولـهن: "لله" أي لخوفه، أي براءة لله من هذا؛ أي قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض. وقيل: المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، لفرط جمالـه. وقولـه: "لله" تأكيد لـهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما بلغهن قولـه تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين: ٤) فإنه من كتابنا. وقد ظن بعض الضعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهن

لوجب على الله أن يرد عليهن، ويبين كذبهن، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه، وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه ملك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم. . "إن هذا إلا ملك" أي ما هذا إلا ملك؛ وقال الشاعر:

فلست لأنسيٍّ ولكن لملأك   تنزل من جو السماء يصوب

وروي عن الحسن: (ما هذا بشرى) بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبدا مشترى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال: ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ (المائدة: ٩٦) أي مصيده، وشبهه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي مثله لا يثمن ولا يقوم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به: كقولك: ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل: هذا بألف. فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال: ما هذا مقدرا بشراء. وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه، ولأن مثل "بشرى" يكتب في المصحف بالياء.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها: ﴿ لمتنني فيه ﴾ أي بحبه، و"ذلك" بمعنى "هذا" وهو اختيار الطبري. وقيل: الهاء للحب، و"ذلك" عل بابه، والمعنى: ذلكن الحب الذي لمتنني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب. واللوم الوصف بالقبيح. ثم أقرت وقالت: ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي امتنع. وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: "استعصم" أي استعصى، والمعنى واحد. ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوما ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها. ﴿ وليكونن من الصاغرين ﴾ أي الأذلاء. وخط المصحف "وليكونا" بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله: "ليسجنن" بالنون لأنها مثقلة، وعلى "ليكونا" بالألف لأنها مخففة، وهي تشبه نون الإعراب في قولك: رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله: ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى:

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

أي أراد فاعبدن، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ أي دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس. "أحب إلي" أي أسهل علي وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق. وحكي أن يوسف عليه السلام لما قال: "السجن أحب إلي" أوحى الله إليه "يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبِ إلي، ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت". وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ: "السَّجن" بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سجنه سجنا. ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ أي كيد النسوان. وقيل: كيد النسوة اللاتي رأينه؟ فإنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز، وقلن له: هي مظلومة وقد ظلمتها. وقيل: طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تعذله في حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له: يا يوسف! اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال: يا رب كانت واحدة فصرن جماعة. وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لجأ:

تراءت كي تكيدك أم بشر   وكيد بالتبرج ما تكيد

قوله تعالى: ﴿ أصب إليهن ﴾ جواب الشرط، أي أمل إليهن، من صبا يصبو - إذا مال واشتاق - صبوا وصبوة؛ قال:

إلى هند صبا قلبي   وهند مثلها يصبي

أي إن لم تلطف بي في اجتناب المعصية وقعت فيها. ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ لما قال. ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ تعرض للدعاء، وكأنه قال: اللهم اصرف عني كيدهن؛ فاستجاب له دعاءه، ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى. ﴿ كيدهن ﴾ قيل: لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه. وقيل: يعني كيد النساء. وقيل: يعني كيد امرأة العزيز، على ما ذكر في الآية قبل؛ والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ثم بدا لهم ﴾ أي ظهر للعزيز وأهل مشورته ﴿ من بعد أن رأوا الآيات ﴾ أي علامات براءة يوسف - من قد القميص من دبر؛ وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف: أن يسجنوه كتمانا للقصة ألا تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها. وقيل: هي

البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم؛ والأول أصح. قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قولـه: ﴿ ثم بدا لـهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ قال: القميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات. وقيل: ألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفي إذا منعت من نظره، قال:

وما صبابة مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل

أو كادته رجاء أن يمل حبسه فيبذل نفسه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ لَيَسْجُنُنَّه ﴾ "يسْجُنُنَّه" في موضع الفاعل؛ أي ظهر لـهم أن يسجنوه؛ هذا قول سيبويه. قال المبرد: وهذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة، ولكن الفاعل ما دل عليه "بدا" وهو مصدر؛ أي بدا لـهم بداء؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه؛ كما قال الشاعر:

وحـق لمن أبو موسى أبوه يوقفه الذي نصب الجبالا

أي وحق الحق، فحذف. وقيل: المعنى ثم بدا لـهم رأي لم يكونوا يعرفونه؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلا عليه، وحذف أيضا القول؛ أي قالوا: ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمر؛ قالـه الفراء، وهو فعل مذكر لا فعل مؤنث؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يسجننانه؛ ويدل على هذا قولـه "لـهم" ولم يقل لـهن، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهن فغلب المذكر؛ قالـه أبو علي. وقال السدي: كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في "لـهم" للملك.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ حتى حين ﴾ أي إلى مدة غير معلومة؛ قالـه كثير من المفسرين. وقال ابن عباس: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبير: إلى ستة أشهر. وحكى الكيا أنه عنى ثلاثة عشر شهرا. عكرمة: تسع سنين. الكلبي: خمس سنين. مقاتل: سبع. وقد مضى في "البقرة" القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة. و"حتى" بمعنى إلى؛ كقولـه: ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ (القدر: ٥). وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف عليه السلام من همه بالمرأة. وكأن العزيز ـ وإن عرف براءة يوسف ـ أطاع المرأة في سجن يوسف. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين هم بها فسجن، وحين قال للفتى: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ (يوسف: ٤٢) فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال لإخوته: ﴿ إنكم لسارقون ﴾ (يوسف: ٧٠) فقالوا: ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ لـه من قبل ﴾[1] (يوسف: ٧٧).

الرابعة: أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز لـه إجماعا. فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده. وقد قال بعض

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وردّه الذهبي بقولـه: "وكذا قال وهو خبر منكر وخصيف ضعفه أحمد ومشاه غيره، ولم يخرجا لـه".

علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين. ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: ٧٨). وسيأتي بيان هذا في "النحل" إن شاء الله. وصبر يوسف، واستعاذ به من الكيد، فاستجاب لـه على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾

قولـه تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ "فتيان" تثنية فتى؛ وهو من ذوات الياء، وقولـهم: الفتو شاذ. قال وهب وغيره: حمل يوسف إلى السجن مقيدا على حمار، وطيف به "هذا جزاء من يعصي سيدته" وهو يقول: هذا أيسر من مقطعات النيران، وسرابيل القطران، وشراب الحميم، وأكل الزقوم. فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم؛ فجعل يقول لـهم: اصبروا وابشروا تؤجروا؛ فقالوا لـه: يا فتى ! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحاق، ابن خليل الله إبراهيم. وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن؛ فكان يعزي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كلـه، ويبكي حتى تبكي معه جدر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه؛ ثم قال لـه: يا يوسف! لقد أحببتك حبا لم أحب شيئا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولـم ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عمر فيهم فملوه، فدسوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسماه جميعا، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قولـه: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ وقد قيل: إن الخباز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال الساقي: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخباز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقي: اشرب! فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل؛ فأبى، فجرب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف. واسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبي عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأول، بالشين المعجمة. والآخر بالسين المهملة. وقال الطبري: الذي رأى أنه يعصر خمرا هو نبو، قال السهيلي: وذكر اسم الآخر ولم أقيده.

وقال "فتيان" لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمى فتى، صغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره الماوردي. وقال القشيري: ولعل الفتى كان اسما للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ (يوسف: ٣٠). ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه. ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله ﴾ ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ﴾ أي عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن إني أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطبري أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا)[1]. وقيل: إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا؛ وهذا قول ابن مسعود والسدي. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذبا، والآخر صادقا؛ قاله أبو مجلز. وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (من تحلم كاذبا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما)[2]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وعن علي عن النبي ﷺ قال: (من كذب في حلمه كلف يوم القيامة عقد شعيرة)[3]. قال: حديث حسن. قال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين؛ فقال لهما يوسف: ما لي أراكما مكروبين؟ قالا: يا سيدنا! إنا رأينا ما كرهنا؛ قال: فقصا علي، فقصا عليه؛ قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام. ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويداويهم، ويعزي الحزانى؛ قال الضحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له. وقيل: ﴿ من المحسنين ﴾ أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء. وقال ابن إسحاق: "من المحسنين" لنا إن فسرته، كما يقول: افعل كذا وأنت محسن. قال: فما رأيتما؟ قال الخباز: رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿ إني أراني أعصر خمرا ﴾ أي عنبا، بلغة عمان، قاله الضحاك. وقرأ ابن مسعود: (إني أراني أعصر عنبا). وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى. ﴿ أعصر خمرا ﴾ أي عنب خمر، فحذف المضاف. ويقال: خمرة وخمر وخمور، مثل تمرة وتمر وتمور.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ ﴾

---

(١) سبق.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٨٣)، وهو عند البخاري أيضا (٤٠٧٢).
(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٥٢٠).

قال لـهما يوسف: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ يعني لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويلـه قبل أن يأتيكما ﴾ لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: افعل! فقال لـهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف. وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك. ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتهتدوا، ولـهذا لم يعبر لـهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون ﴾ (يوسف: ٣٩) الآية كلـها، على ما يأتي. وقيل: علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليسعدا به. وقيل: إن يوسف كره أن يعبر لـهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالـهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في النوم ﴿ إلا نبأتكما ﴾ بتفسيره في اليقظة، قالـه السدي، فقالا لـه: هذا من فعل العرافين والكهنة، فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علمنيه ربي، إني لا أخبركما به تكهنا وتنجيما، بل هو بوحي من الله عز وجل. وقال ابن جريج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع لـه طعاما معروفا فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا ﴿ ترزقانه ﴾ أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره. ويحتمل يرزقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام؛ وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ لأنهم أنبياء على الحق. ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما ينبغي لنا. ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ "من" للتأكـيد، كقولك: ما جاءني من أحد. ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى. ﴿ وعلى الناس ﴾ أي على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك. وقيل: ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ إذ جعلنا أنبياء، ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان.

قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ أي يا ساكني السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط، أو متفرقون في العدد. ﴿ خير أم الله الواحد القهار ﴾ وقيل: الخطاب لـهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاما للحجة؛ أي آلـهة شتى لا تضر ولا تنفع. ﴿ خير أم الله الواحد القهار ﴾ الذي قهر كل شيء. نظيره: ﴿ الله خير أما يشركون ﴾ (النمل: ٥٩). وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإلـه لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلـهة.

قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء ﴾ بين عجز الأصنام وضعفها فقال: ﴿ ما تعبدون من دونه ﴾ أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لـها. ﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسميات؛ أي ما تعبدون إلا أصناما ليس لـها من الإلـهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات. وقال: ﴿ ما تعبدون ﴾ وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالـهما من الشرك. ﴿ إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة؛ والمعنى: سميتموها آلـهة من عند أنفسكم. ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد ابن جبير: ﴿ من سلطان ﴾ أي من حجة. ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ الذي هو خالق الكل. ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ تعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره. ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي القويم. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ﴾ أي قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك، قال: والله ما رأيت شيئا؛ قال: رأيت أو لم تر ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾. وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميرا والقبائـل من هـلال

قال النحاس: الذي عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناولـه فشرب، أو صب الماء في حلقه ومعنى أسقاه جعل لـه سقيا؛ قال الله تعالى: ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ (المرسلات: ٢٧).

الثانية: قال علماؤنا: إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العابر لـه أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته؛ فإن قيل: فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني رأيت كأني أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت، فقال لـه عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرا؛ فقال الرجل: ما رأيت شيئا؛ فقال لـه عمر: قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف؛ قلنا: ليست لأحد بعد عمر؛ لأن عمر كان محدثا، وكان إذا ظن ظنا كان وإذا تكلم به وقع، على ما ورد في أخباره؛ وهي كثيرة؛ منها: أنه دخل عليه رجل فقال لـه: أظنك كاهنا فكان كما ظن؛ خرجه البخاري. ومنها: أنه سأل رجلا عن اسمه فقال

لـه فيه أسماء النار كلـها، فقال لـه: أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال خرجه الموطأ. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في سورة "الحجر" إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وقال للذي ظن ﴾ "ظن" هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال: إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنا وربك يخلق ما يشاء؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قالـه للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع.

الثانية: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي سيدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب؛ قال الأعشى:

ربي كريم لا يكـــدر نعـمة وإذا تنوشد في المهارق أنشدا

أي اذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أني مظلوم محبوس بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يقل أحدكم اسق ربك أطعم ربك وضئ ربك ولا يقل أحدكم ربي وليقل سيدي مولاي ولا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي فتاتي غلامي). وفي القرآن: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ "إلى ربك" ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ (يوسف: ٢٣) أي صاحبي؛ يعني العزيز. ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربه يربه، فهو رب لـه. قال العلماء قوله ﷺ: (لا يقل أحدكم) (وليقل) من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم؛ ولأنه قد جاء عنه ﷺ: (أن تلد الأمة ربها)[1] أي مالكها وسيدها؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألا نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن. وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين: أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه، وإضافة لـه إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز. والثاني: أن المملوك يدخلـه من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية، فيحملـه ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن شعبان في "الزاهي": (لا يقل السيد عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربي ولا ربتي) وهذا محمول على ما ذكـرنا. وقيـل: إنما قـال ﷺ: (لا يقل العبد ربي وليقل سيدي) لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ واختلف في السيد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس ولا إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرب، فيحصل الفرق. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزا في شرع يوسف عليه السلام.

(١) أخرجه مسلم وغيره وقد سبق وهو حديث جبريل.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ الضمير في ﴿ فأنساه ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعقب باللبث. قال عبد العزيز بن عمير الكندي: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! ما لي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر ابن الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحييت إذ استغثت بالآدميين؟! وعزتي! لألبثنك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عني راض؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة. وروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول سجنه، وقال لـه: يا يوسف! من خلصك من القتل من أيدي أخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسألـه؟! قال: يا رب كلمة زلت مني! أسألك يا إلـه إبراهيم وإسحاق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال لـه جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين. وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿اذكرني عند ربك ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين)[1]. وقال ابن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ولو ذكر يوسف ربه لخلصه. وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: (لولا كلمة يوسف ـ يعني قولـه: "اذكرني عند ربك" ـ ما لبث في السجن ما لبث)[2] قال: ثم يبكي الحسن ويقول: نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس. وقيل: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطان ذكره لربه؛ وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقولـه تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ (يوسف: ٤٥) فدل على أن الناسي هو الساقي لا يوسف؛ مع قولـه تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الحجر: ٤٢) فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس لـه على الأنبياء سلطنة؟! قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما

(١) أخرجه ابن حبان (١٧٤٧)، وقال الحافظ ابن كثير في "البداية"، (١/ ٢٠٨): "هذا منكر من هذا الوجه..." انظر الصحيحة (٤/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن الحسن وهو البصري مرسلا، وكذا أحمد في "الزهد"، (ص٨٠). المصدر السابق (٤/ ٤٨٤).

يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال ﷺ : (نسي آدم فنسيت ذريته)[1].. وقال: (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون)[2] . وقد تقدم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ فلبث في السجن بضع سنين﴾ البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بضع وبضع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : (وكم البضع) فقال: ما بين الثلاث إلى السبع. فقال: (اذهب فزائد في الخطر)[3] . وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقطرب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يذكر العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها: سبع سنين، قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني: ـ اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث: أربع عشرة سنة، قاله الضحاك. وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال: مكث يوسف في السجن خمسا وبضعا. واشتقاقه من بضعت الشيء أي قطعته، فهو قطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حبس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله. قال وهب بن منبه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذب بختنصر بالمسخ سبع سنين. وقال عبد الله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عروبة: إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة.

الخامسة: في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلا فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة، وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهي يقين. والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بيّن فتأملوه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك، وممكن لك

(١) "صحيح" وهو جزء من حديث طويل، وانظر صحيح الجامع (٥٢٠٨).
(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٨٩٨).
(٣) "صحيح" بنحوه في صحيح الترمذي (٢٥٥١).

في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، في أثرهن سبع عجاف ـ أي مهازيل ـ وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كن عجافا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ فقص عليهم، فقال القوم: ﴿أضغاث أحلام﴾ (يوسف: ٤٤) قال ابن جريج قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة. وقال الهروي: قوله تعالى: ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخلاط أحلام. والضغث في اللغة الحزمة من الشيء كالبقل والكلأ وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك ببينة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿سبع بقرات سمان﴾ حذفت الهاء من "سبع" فرقا بين المذكر والمؤنث "سمان" من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبع بقرات سمانا، نعت للسبع، وكذا خضرا، قال الفراء: ومثله: ﴿سبع سماوات طباقا﴾ (نوح: ١٥). وقد مضى في سورة "البقرة" اشتقاقها ومعناها. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: المعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهي سني رخاء، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتنا مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر (يشبه بعضها بعضا)[1]. وفي خبر آخر في الفتن (كأنها صياصي البقر)[2] يريد لتشابهها، إلا أن تكون صفرا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلة والسنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلة والنبات. ﴿يأكلهن سبع عجاف﴾ من عجُف يعجُف، على وزن عظم يعظم، وروي عجف يعجَف على وزن حمد يحمد.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ جمع الرؤيا رؤى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا. ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في "للرؤيا" للتبيين، أي إن كنتم تعبرون، ثم بين فقال: للرؤيا قاله الزجاج.

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند"، (٥/ ٣٩١) من حديث حذيفة، وفيه: "يتبع بعضها بعضا تأتيكم مشتبهة. . .".
(٢) التخريج السابق.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤)﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ أضغاث أحلام﴾ قال الفراء: ويجوز ﴿ أضغاث أحلام﴾ قال النحاس: النصب بعيد، لأن المعنى: لم تر شيئا له تأويل، إنما هي أضغاث أحلام، أي أخلاط. وواحد الأضغاث ضغث، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضغث؛ قال الشاعر:

كضغث حلم غر منه حالمه

قوله تعالى: ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل. وقيل: نفوا عن أنفسهم علم التعبير. والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التي منها صحيحة ومنها باطلة، ولهذا قال الساقي: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله﴾ (يوسف: ٤٥) فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم ادعوا ألا تأويل لها. وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيرا، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، وعلى هذا أيضا فعندهم علم. و"الأحلام" جمع حلم، والحلم بالضم ما يراه النائم، تقول منه حلم بالفتح واحتلم، وتقول: حلمت بكذا وحلمته، قال:

فحلمتها وبنو رفيدة دونها لا يبعدن خيالها المحلوم

أصله الأناة، ومنه الحلم ضد الطيش؛ فقيل لما يرى في النوم حلم لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة.

الثانية: وفي الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أول ما تعبر، لأن القوم قالوا: ﴿ أضغاث أحلام﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسرها على سني الجدب والخصب، فكان كما عبر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبرت وقعت[(١)].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما﴾ يعني ساقي الملك. ﴿ وادكر بعد أمة﴾ أي بعد حين، عن ابن عباس وغيره؛ ومنه ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ (هود: ٨) وأصله الجملة من الحين. وقال ابن درستويه: والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ: وادكر بعد حين أمة، أو بعد زمن أمة، وما أشبه ذلك؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع؛ وكل جنس من الحيوان أمة؛ وفي الحديث: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها)[(٢)]. ﴿ وادكر﴾ أي تذكر حاجة يوسف، وهو قوله: "اذكرني عند ربك". وقرأ ابن عباس فيما روى عفان عن همام عن قتادة عن عكرمة عنه ـ ﴿ وادكر بعد أمة﴾ النحاس: المعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك ﴿ وادكر بعد أمه﴾ بفتح الهمزة وتخفيف الميم؛ أي بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يودي بالعقول

---

(١) معنى حديث أبي رزين عند أبي داود وابن ماجه، وانظر صحيح الجامع (٣٥٣٥).

(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٢٤٧١).

وعن شبيل بن عزرة الضبعي: ﴿ بعد أمه﴾ بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة؛ وهو مثل الأمه، وهما لغتان، ومعناهما النسيان؛ ويقال: أمه يأمه أمها إذا نسي؛ فعلى هذا﴿ وادكر بعد أمه﴾ ؛ ذكره النحاس؛ ورجل أمه ذاهب العقل. قال الجوهري: وأما ما في حديث الزهري (أمه) بمعنى أقر واعترف فهي لغة غير مشهورة. وقرأ الأشهب العقيلي ـ﴿ بعد إمة﴾ أي بعد نعمة؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة. ثم قيل: نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والخباز؛ فقوله:﴿ وادكر﴾ أي ذكر وأخبر. قال النحاس: أصل ادكر اذتكر؛ والذال قريبة المخرج من التاء؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة، والتاء مهموسة، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة؛ فصار اذدكر، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها. ثم قال:﴿ أنا أنبئكم بتأويله﴾ أي أنا أخبركم. وقرأ الحسن "أنا آتيكم بتأويله" وقال: كيف ينبئهم العلج؟! قال النحاس: ومعنى "أنبئكم" صحيح حسن؛ أي أنا أخبركم إذا سألت. "فأرسلون" خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهل مجلسه.

قوله تعالى:﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى:﴿ يوسف﴾ نداء مفرد، وكذا﴿ الصديق﴾ أي الكثير الصدق.﴿ أفتنا﴾ أي فأرسلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصديق! وسأله عن رؤيا الملك.﴿ لعلي أرجع إلى الناس﴾ أي إلى الملك وأصحابه.﴿ لعلهم يعلمون﴾ التعبير، أو﴿ لعلهم يعلمون﴾ مكانك من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما.

قوله تعالى:﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى:﴿ قال تزرعون﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له، فقال: السبع من البقرات السمان والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات؛ وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات؛ فذلك قوله:﴿ تزرعون سبع سنين دأبا﴾ أي متوالية متتابعة؛ وهو مصدر على غير المصدر، لأن معنى "تزرعون" تدأبون كعادتكم في الزراعة سبع سنين. وقيل: هو حال؛ أي دائبين. وقيل: صفة لسبع سنين، أي دائبة. وحكى أبو حاتم عن يعقوب "دأَبا" بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم، وهما لغتان، وفيه قولان، قول أبي حاتم: إنه من دئب. قال النحاس: ولا يعرف أهل اللغة إلا دأب. والقول الآخر ـ إنه حرك لأن فيه حرفا من حروف الحلق؛ قاله الفراء، قال: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة، أو هاء، أو عينا، أو غينا، أو حاء، أو خاء؛ وأصله العادة؛ قال:

كدأبك من أم الحويرث قبلـها

وقد مضى في "آل عمران" القول فيه. ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبلـه ﴾ قيل: لئلا يتسوس، وليكون أبقى؛ وهكذا الأمر في ديار مصر. ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ أي استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة؛ وهذا القول منه أمر، والأول خبر. ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا، وإن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون معنى: "تزرعون" أي ازرعوا.

الثانية: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ ليحصل لـهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين؛ وبسطه في أصول الفقه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ سبع شداد ﴾ يعني السنين المجدبات. ﴿ يأكلن ﴾ مجاز، والمعنى يأكل أهلـهن. ﴿ ما قدمتم لـهن ﴾ أي ما ادخرتم لأجلـهن؛ ونحوه قول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، ويُنام في الليل. وحكى زيد بن أسلم عن أبيه: أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقربه إلى رجل واحد فيأكل بعضه، حتى إذا كان يوم قربه لـه فأكله كله؛ فقال يوسف: هذا أول يوم من السبع الشداد. ﴿ إلا قليلا ﴾ نصب على الاستثناء. ﴿ مما تحصنون ﴾ أي مما تحبسون لتزرعوا؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: تحرزون. وقال قتادة: ﴿ تحصنون ﴾ تدخرون، والمعنى واحد؛ وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.

الثانية: هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن؛ فكيف إذا كانت آية لنبي. ومعجزة لرسول، وتصديقا لمصطفى للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله ـ جل جلاله ـ وبين عباده.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله. قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها إظهارا لفضله، وإعلاما لمكانه من العلم وبمعرفته. ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غوث الرجل قال

واغوثاه، والاسم الغوث والغُواث والغَواث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغياث؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. والغيث المطر؛ وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها؛ وغاث الله البلاد يغيثها غيثا، وغيثت الأرض تغاث غيثا، فهي أرض مغيثة ومغيوثة؛ فمعنى ﴿ يغاث الناس ﴾ يمطرون.
﴿ وفيه يعصرون ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدهن؛ ذكره البخاري. وروى حجاج عن ابن جريج قال: يعصرون العنب خمرا والسمسم دهنا، والزيتون زيتا. وقيل: أراد حلب الألبان لكثرتها؛ ويدل ذلك على كثرة النبات. وقيل: ﴿ يعصرون ﴾ أي ينجون؛ وهو من العصرة، وهي المنجاة. قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجاة، وكذلك العصرة؛ قال أبو زبيد:

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصره المنجود

والمنجود الفزع. واعتصرت بفلان وتعصرت أي التجأت إليه. قال أبو الغوث: ﴿ يعصرون ﴾ يستغلون؛ وهو من عصر العنب. واعتصرت ماله أي استخرجته من يده. وقرأ عيسى ﴿ تعصرون ﴾ بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه: تمطرون؛ من قول الله: ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾ (النبأ: ١٤) وكذلك معنى ﴿ تعصرون ﴾ بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: ائتوني به. ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ أي يأمره بالخروج. ﴿ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾ أي حال النسوة.
﴿ فاسأله ما بال النسوة ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة. ﴿ اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته عند الملك مما قذف به، وأنه حبس بلا جرم. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - قال - ولو لبثتُ في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول أجبت - ثم قرأ - ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ - قال - ورحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد إذ قال: "لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد" فما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه)[1]. وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم) إذ قال له ﴿ أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (البقرة: ٢٦٠) وروي عن النبي ﷺ أنه قال (يرحم الله

---

(١) "حسن" انظر صحيح الترمذي (٢٤٩٠).

أخي يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعي ولم ألتمس العذر). وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطبري (يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعا أن كان لحليما ذا أناة)[(١)]. وقال ﷺ: (لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر لـه حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب)[(٢)]. قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا، وطلبا لبراءة الساحة؛ وذلك أنه ـ فيما روي ـ خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته، ويحقق منزلته من العفة والخير؛ وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة؛ فلـهذا قال للرسول: ارجع إلى ربك وقل لـه ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل لـه يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجنت بحق أو بظلم؛ ونكب عن امرأة العزيز حسن عشرة، ورعاية لذمام الملك العزيز لـه. فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأي، لـه جهة أيضا من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن تارك الحزم في مثل هذه النازلة، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نتج لـه البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعلـه يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

قولـه تعالى: ﴿فاسألـه ما بال النسوة﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسألـه أن يتعرف ما بال النسوة. قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ـ وكان قد مات العزيز ـ فدعاهن فـ ﴿قال ما خطبكن﴾ أي ما شأنكن. ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهن. ﴿قلن حاش لله﴾ أي معاذ الله. ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ أي زنى. ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ لما رأت إقرارهن ببراءة يوسف، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرت هي أيضا؛ وكان ذلك لطفا من الله بيوسف. و﴿حصحص الحق﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن رجل عن أبي الزناد، وهذا إسناد ظاهر الضعف. كما في الصحيحة (٤ / ٤٨٥).

(٢) أخرجه الطبراني عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا، وهذا إسناد ضعيف جداً. كما في المصدر السابق (١٩٤٥).

أي تبين وظهر؛ وأصلـه حصص، فقيل: حصحص؛ كما قال: كبكبوا في كببوا، وكفكف في كفف؛ قاله الزجاج وغيره. وأصل الحص استئصال الشيء؛ يقال: حص شعره إذا استأصلـه جزا؛ قال أبو القيس بن الأسلت:

قد حصَّت البيضة رأسي فما أطعـم نوما غـير تهجـاع

وسنة حصَّاء أي جرداء لا خير فيها، قال جرير:

يأوي إليكم بلا من ولا جحـد من ساقه السنة الحصا والذيب

كأنه أراد أن يقول: والضبع، وهي السـنة الـمجدبة؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية؛ فمعنى ﴿ حصحص الحق ﴾ أي انقطع عن الباطل، بظهوره وثباته؛ قال:

ألا مـن مبلـغ عـني خداشـا فإنه كذوب إذا ما حصحص الحق ظالم

وقيل: هو مشتق من الحصة؛ فالمعنى: بانت حصة الحق من حصة الباطل. وقال مجاهد وقتادة: وأصلـه مأخوذ من قولـهم: حص شعره إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحصة من الأرض إذا قطعت منها. والحصحص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري. ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ وهذا القول منها ـ وإن لم يكن سأل عنه ـ إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسا ظن، ولا يخالطها شك. وشددت النون في﴿ خطبكن﴾ و﴿ راودتن﴾ لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر.

قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ اختلف فيمن قالـه، فقيل: هو من قول امرأة العزيز، وهو متصل بقولـها :﴿ الآن حصحص الحق﴾ أي أقررت بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة؛ ثم قالت: ﴿ وما أبرئ نفسي﴾ بل أنا راودته؛ وعلى هذا هي كانت مقرة بالصانع، ولـهذا قالت: ﴿ إن ربي غفور رحيم﴾ . وقيل: هو من قول يوسف؛ أي قـال يوسف: ذلك الأمـر الذي فعلته، مـن رد الرسـول ﴿ ليعلم﴾ العزيز﴿ أني لم أخنه بالغيب﴾ قالـه الحسن وقتادة وغيرهما. ومعنى "بالغيب" وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك، وقال: "ليعلم" على الغائب توقيرا للملك. وقيل: قالـه إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعد؛ قال ابن عباس: جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه؛ فقال يوسف: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي لم أخن سيدي بالغيب؛ فقال لـه جبريل عليه السلام: يا يوسف! ولا حين حللت الإزار، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿ وما أبرئ نفسي﴾ الآية. وقال السدي: إنما قالت لـه امرأة العزيز ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟! فقال يوسف: ﴿ وما أبرئ نفسي﴾ . وقيل: ﴿ ذلك ليعلم﴾ من قول العزيز؛ أي ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، وأني لم أغفل عن مجازاته على أمانته. ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ معناه: أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القشيري: فالظاهر أن قوله: ﴿ذلك ليعلم ﴾ وقوله: ﴿وما أبرئ نفسي ﴾ من قول يوسف.

قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدمناه من القول المختار في قوله: ﴿ وهم بها ﴾. قال أبو بكر الأنباري: من الناس من يقول: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ إلى قوله: ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ من كلام امرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها: ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ (يوسف: ٥١) وهذا مذهب الذين ينفون الهم عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال: من قوله: ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ (يوسف: ٥١) إلى قوله: ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ كلام متصل بعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه. وقال الحسن: لما قال يوسف ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ لأن تزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ (النجم: ٣٢) وقد بيناه في "النساء". وقيل: هو من قول العزيز؛ أي وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف. ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي مشتهية له. ﴿ إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ في موضع نصب بالاستثناء؛ و"ما" بمعنى من؛ أي إلا من رحم ربي فعصمه؛ و"ما" بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ (النساء: ٣) وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء؛ وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: (ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية) قالوا: يا رسول الله! هذا شر صاحب في الأرض. قال: (فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ لما ثبت للملك براءته مما نسب إليه؛ وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده، وتيقن حسن خلاله قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ فانظر إلى قول الملك أولا ـ حين تحقق علمه ـ "ائتوني به" فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ وروي عن وهب بن منبه قال: لما دعي يوسف وقف بالباب فقال: حسبي ربي من خلقه، عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره. ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخر له ساجدا؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿ إنك اليوم

لدينا مكين أمين﴾ قال لـه يوسف﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ﴾ (يوسف: ٥٥) بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر: (يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعملـه من ساعته ولكن أخر ذلك سنة). وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره؛ ثم سلم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمي إسماعيل، ثم دعا لـه بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا، فكلما تكلم الملك بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيت سبع بقرات سمان شهبا غرا حسانا، كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافها لبنا؛ فبينا أنت تنظر إليهن وتتعجب من حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه، وبدا أسه، فخرج من حمئه ووحلـه سبع بقرات عجاف شعث غبر مقلصات البطون، ليس لـهن ضروع ولا أخلاف، ، لـهن أنياب وأضراس، وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان فافترسنهن افتراس السباع، فأكلن لحومهن، ومزقن جلودهن، وحطمن عظامهن، ومشمشن مخهن؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل! ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلـهن! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء، وإلى جانبهن سبع يابسات ليس فيهن ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهن في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولـهن في الماء، إذ هبت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن؛ فصرن سودا مغبرات؛ فانتبهت مذعورا أيها الملك؛ فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعت منك! فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا في هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مدر لنبت، وأظهر الله فيه النماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبلـه تبني لـه المخازن العظام؛ فيكون القصب والسنبل علفا للدواب، وحبه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخمس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولـها، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض﴾ (يوسف: ٥٥) أي على خزائن أرضك؛ وهي جمع خزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، كقول النابغة:

لـهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غير كواذب

قولـه تعالى: ﴿ أستخلصه لنفسي﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قولـه: ﴿ ذلك ليعلـم أني لم أخنه بالغـيب﴾ جرى في السجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك ثم قال في مجلس آخر:

﴿ائتوني به ﴾(يوسف: ٥٠) تأكيدا ﴿أستخلصه لنفسي ﴾أي أجعله خالصا لنفسي، أفوض إليه أمر مملكتي؛ فذهبوا فجاءوا به؛ ودل على هذا قوله: ﴿فلما كلمه ﴾أي كلم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ ﴿قال ﴾الملك: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾أي متمكن نافذ القول، "أمين" لا تخاف غدرا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾قال سعيد بن منصور: سمعت مالك ابن أنس يقول: مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله: ﴿اجعلني على خزائن الأرض ﴾أي على حفظها، فحذف المضاف. ﴿إني حفيظ ﴾لما وليت ﴿عليم ﴾بأمره. وفي التفسير: إني حاسب كاتب؛ وأنه أول من كتب في القراطيس. وقيل: ﴿حفيظ ﴾لتقدير الأقوات ﴿عليم ﴾بسني المجاعات. قال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك عنه سنة).

قال ابن عباس: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكللا بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقة، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن زيد: كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصديق لا تلمني؛ فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف. وقال وهب بن منبه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعَميَ بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفف الناس، فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكانَ يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جمتك بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلي، وعمي بصري، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني،

وهذا جزاء المفسدين؛ فبكى يوسف بكاء شديدا، ثم قال لـها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئا؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولـها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزلـه فأرسل إليها رسولا: إن كنت أيما تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك! لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت لـه، فقال لـها: ألم يبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت، ثم زفت إليه، فقام يوسف يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالـها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالـها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراما ليوسف عليه السلام لما عف عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألـها؛ فقالت: يا نبي الله إن زوجي كان عنينا لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خفض عيش، في كل يوم يجدد الله لـهما خيرا، وولدت لـه ولدين؛ إفرائيم ومنشا. وفيما روي أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لـها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرة؟ فقالت لـه: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

الثانية: قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عملـه بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم. قال الماوردي: فإن كان المولي ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبلـه على قولين: أحدهما ـ جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعلـه لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لـهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالـهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغي فرعون موسى. الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعمالـه، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يجوز لأهلـه فعلـه من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهلـه، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة: ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون لـه أهلا؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول اللهﷺ : (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)[١] . وعن أبي بردة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبيﷺ يستاك، فقال: (ما تقول يا أبا موسى ـ أو يا عبد الله بن قيس). قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: (لن ـ أو ـ لا نستعمل على عملنا من أراده) وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضا وغيره؛ فالجواب: أولا: أن يوسفعليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقولـه ﷺ لعبد الرحمن: (لا تسأل الإمارة وأيضا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك)؛ وهذا معنى قولهﷺ : (وكل إليها) ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فر منها، ثم إفين ابتلي بها فيرجى لـه التخلص منها، وهو معنى قولـه: (أعين عليها).

الثاني: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبيﷺ : (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)[٢] ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿ إني حفيظ عليم﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قولـه تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم﴾ . الرابع: أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.

ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلـه، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضلـه؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حالـه، ولما يرجو من الظفر بأهلـه.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

---

(١) وأخرجه البخاري أيضا.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن مكنا له في الأرض؛ أي أقدرناه على ما يريد. وقال الكيا الطبري قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾(ص: ٤٤) وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر، والذي أداه من التمر إلى رسول الله ﷺوما قاله [١].

قلت: وهذا مردود على ما يأتي. يقال: مكناه ومكنا له، قال الله تعالى: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾(الأنعام: ٦). قال الطبري: استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريان يوسف على عمل إطفير وعزله؛ قال مجاهد: وأسلم على يديه. قال ابن عباس: ملكه بعد سنة ونصف. وروى مقاتل أن النبي ﷺقال: (لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لملك في وقته) [٢]. ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفراثيم ومنشا، ابني يوسف، ومن زعم أنها زليخاء قال: لم يتزوجها يوسف، وأنها لما رأته في موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا، فضمها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها؛ ذكره الماوردي؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب، وذكره الثعلبي؛ فالله أعلم. ولما فوض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبه الرجال والنساء، قال وهب والسدي وابن عباس وغيرهم: ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأهراء، فجمعت فيها في تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال: يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلط عليكم الجوع سبع سنين.

وقال بعض أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما: أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية. والثانية: أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعز إلى الغاية، فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع!! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي الجوع الجوع!! قال: فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها؛ معاشر الناس! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ابن عباس: لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف! الجوع الجوع!! فقال يوسف: هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أول سنة من سني القحط هلك فيها كل شيء أعدوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من

---

(١)أخرجه البخاري (٧٣٥٠).

(٢)ضعيف لإرساله.

يوسف؛ فباعهم أول سنة بالنقود، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه؛ وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى احتوى على الكل؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع، حتى ملكها كلها؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق في السنة السابعة بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له؛ فقال الناس: والله ما رأينا ملكا أجل ولا أعظم من هذا؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صنع ربي فيما خولني! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت، وإنما نحن لك تبع؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخول من خولك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء؛ وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستن بسنتي.

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار، حتى يذوق الملك طعم الجوع. فلا ينسى الجائعين؛ فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

قوله تعالى: ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ أي بإحساننا؛ والرحمة النعمة والإحسان.

قوله تعالى: ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي ثوابهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين؛ لصبره في الجب، وفي الرق، وفي السجن، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة. وقال الماوردي: واختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه. الثاني: أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه، وثوابه باق على حاله في الآخرة.

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متق؛ وأنشدوا:

أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوسا على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروج به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

وأنشد بعضهم:

إذا الحادثات بلغن النهى وكادت تذوب لهن المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهي يكون الفرج

والشعر في هذا المعنى كثير.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه ﴾ أي جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز. قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس، يجلس للناس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقا. ﴿ فعرفهم ﴾ يوسف ﴿ وهم له منكرون ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدة؛ وهي أربعون سنة. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر. وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيا بزي فرعون مصر؛ ويوسف رآهم على ما كان عهدهم في الملبس والحلية. ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه. وقيل: أنكروه لأمر خارق امتحانا امتحن الله به يعقوب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ يقال: جهزت القوم تجهيزا أي تكلفت لهم بجهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج؛ وجوز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده. قال السدي: وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا، وهم عشرة، فقالوا ليوسف: إن لنا أخا تخلف عنا، وبعيره معنا؛ فسألهم لم تخلف؟ فقالوا: لحب أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البرية فهلك؛ فقال لهم: أردت أن أرى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم وجه محبة أبيكم إياه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة، حتى يأتوا بأخيه بنيامين. وقال ابن عباس: قال يوسف للترجمان قل لهم: لغتكم مخالفة للغتنا، وزيكم مخالف لزينا، فلعلكم جواسيس؛ فقالوا: والله! ما نحن بجواسيس، بل نحن بنو أب واحد، فهو شيخ صديق؛ قال: فكم عدتكم؟ قالوا: كنا اثني عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها؛ قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا؛ قال: فمن يعلم صدقكم؟ قالوا: لا يعرفنا ههنا أحد، وقد عرفناك أنسابنا، فبأي شيء تسكن نفسك إلينا؟ فقال يوسف: ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ إن كنتم صادقين؛ فأنا أرضى بذلك.

قوله تعالى: ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ أي أتمه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم ويحتمل وجهين: أحدهما: أنه رخص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل. والثاني: أنه كال لهم بمكيال واف. ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد. الثاني: وهو محتمل؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النزل وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾أي فلا أبيعكم شيئا فيما بعد، لأنه قد وفاهم كيلـهم في هذه الحال. ﴿ولا تقربون ﴾أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب، ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون إليه؛ لأنه على العود حثهم. قال السدي: وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكلبي: إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجب أجملـهم قولا، وأحسنهم رأيا. و﴿تقربون ﴾في موضع جزم بالنهي، فلذلك حذفت منه النون وحذفت الياء؛ لأنه رأس آية؛ ولو كان خبرا لكان ﴿تقربون ﴾بفتح النون.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿قالوا سنراود عنه أباه ﴾أي سنطلبه منه، ونسألـه أن يرسلـه معنـا. ﴿وإنا لفاعلون ﴾أي لضامنون المجيء به، ومحتالون في ذلك.

مسألة: إن قيل: كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل لـه: عن هذا أربعة أجوبة: أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم لـه الثواب؛ فاتبع أمره فيه. الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام. الثالث: لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه. الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأول أظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وقال لفتيته ﴾هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم؛ وهي اختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما. وقرأ سائر الكوفيين "لفتيانه" وهو اختيار أبي عبيد؛ وقال: هـو في مصحف عبد الله كذلك. قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان؛ مثل الصبيان والصبية قال النحاس: "لفتيانه" مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لـهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. وكان هؤلاء الفتية يسوون جهازهم، ولـهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالـهم. ويجوز أن يكونوا أحرارا، وكانوا أعوانا لـه، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودنانير. وقال ابن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافر، ويسمى رحلا؛ قال ابن الأنباري: يقال للوعاء رحل، وللبيت رحل. وقال: ﴿لعلـهم يعرفونها ﴾لجواز ألا تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه. قيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضلـه، ويرغبوا في الرجوع إليه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ لأنه قال لـهم: ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولـهم. ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ أي قالوا عند ذلك: ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ والأصل نكتال؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم "نكتل" بالنون وقرأ سائر الكوفيين "يكتل" بالياء؛ والأول اختيار أبي عبيد، ليكونوا كلـهم داخلين فيمن يكتال؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع، لقولـه: ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾. ﴿ وإنا لـه لحافظون ﴾ من أن ينالـه سوء.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه!. ﴿ فالله خير حفظا ﴾ نصب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين ﴿ حافظا ﴾ على الحال. وقال الزجاج: على البيان؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية: حفظ الله لـه خير من حفظكم إياه. قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: ﴿ فالله خير حافظا ﴾ قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأردن عليك ابنيك كليهما بعدما توكلت علي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل. ﴿ ما نبغي ﴾ "ما" استفهام في موضع نصب؛ والمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا؟! وفّى لنا الكيل، ورد علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم. وقيل: هي نافية؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردت إلينا. وروي عن علقمة "ردت إلينا" بكسر الراء؛ لأن الأصل رددت؛ فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الراء. وقولـه: ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي نجلب لـهم الطعام؛ قال الشاعر:

بعثتك مائرا فمكثت حولا متى يأتي غياثك من تغيث

وقرأ السلمي بضم النون، أي نعينهم على الميرة. ﴿ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾ أي حمل بعير لبنيامين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تؤتون﴾ أي تعطوني. ﴿موثقا من الله﴾ أي عهدا يوثق به. قال السدي: حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يسلمونه؛ واللام في "لتأتنني" لام القسم. ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ قال مجاهد: إلا أن تهلكوا أو تموتوا. وقال قتادة: إلا أن تغلبوا عليه. قال الزجاج: وهو في موضع نصب. ﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ أي حافظ للحلف. وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآية أصل في جواز الحمالة بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء: هي جائزة إذا كان المتحمل به مالا. وقد ضعف الشافعي الحمالة بالوجه في المال؛ ولـه قول كقول مالك. وقال عثمان البتي: إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأرش الجراح، وكانت لـه في مال الجاني، إذ لا قصاص على الكفيل؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه. والصواب تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال، ولا تكون في حد أو تعزير، على ما يأتي بيانه:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لـها أربعة أبواب؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة؛ قالـه ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم.

الثانية: إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله ﷺ: (إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر)[(١)]. وفي تعوذه ﷺ: (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة)[(٢)] ما يدل على ذلك.

وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار فنزع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد قال فقال لـه عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه، فأتي رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلا وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: (علام يقتل أحدكم أخاه ألا

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٤١٤٤)، والصحيحة (١٢٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

بركت إن العين حق توضأ لـه) فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس؛ في رواية (اغتسل) فغسل لـه عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه؛ فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[١]. وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين؛ فرجع إلى منزلـه فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت لـه؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ؛ وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنّة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنّة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾(البقرة: ١٠٢). قال الأصمعي: رأيت رجلا عيونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال: أيتهن هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعا، المورى بها والمورى عنها. قال الأصمعي. وسمعته يقول: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني.

الثالثة: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قولـه ﷺ لعامر: (ألا بركت) فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يبرك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعة: العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الخامسة: من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به، ويكف أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه ينفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه ﷺ لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادسة: روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال: دُخِلَ على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: (ما لي أراهما ضارعين) فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نسترقي لـهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: (استرقوا لـهما فإنه لو سبق شيء القدر سبقته العين). وهذا الحديث منقطع، ولكنه محفوظ لأسماء ابنة عميس الخثعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح[٢]؛ وفيه أن الرقى مما يستدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه، أي تضعفه وتنحلـه؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (٢٨٢٨).
(٢) "صحيح" انظر الصحيحة (١٢٥٢).

السابعة: أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ أي من شيء أحذره عليكم؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر. ﴿ إن الحكم إلا لله﴾ أي الأمر والقضاء لله. ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ أي اعتمدت ووثقت. ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي من أبواب شتى. ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم. ﴿ إلا حاجة﴾ استثناء ليس من الأول. ﴿ في نفس يعقوب قضاها﴾ أي خاطر خطر بقلبه؛ وهو وصيته أن يتفرقوا؛ قال مجاهد: خشية العين، وقد تقدم القول فيه. وقيل: لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قالـه بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال: ولا معنى للعين هاهنا. ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قولـه تعالى: ﴿ وإنه﴾ يعني يعقوب. ﴿ لذو علم لما علمناه﴾ أي بأمر دينه. وقيل: ﴿ لذو علـم﴾ أي عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال قتادة: ضمه إليه، وأنزلـه معه. وقيل: أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفردا فضمه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، و﴿ قال﴾ لـه سرا من إخوته: ﴿ إني أنا أخوك فلا تبتئس﴾ أي لا تحزن﴿ بما كانوا يعملون﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾

قولـه تعالى: ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ﴾لما عرف بنيامين أنه يوسف قال لـه: لا تردني إليهم، فقال: قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمه، فأبى بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك: فقال: لا أبالي! فدس الصاع في رحلـه؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك. والتجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جهز على الجريح أي قتلـه، ونجز أمره. والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء لـه رأسان في وسطه مقبض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قالـه النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد:

نشرب الخمر بالصواع جهارا

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان صواع الملك شيئاً من فضة يشبه المكوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛ وكان للعباس واحد في الجاهلية، وسأل نافع بن الأزرق [1] ما الصواع؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لـه درمك في رأسه ومشارب وقدر وطباخ وصاع وديسق

وقال عكرمة: كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم. وقيل: إنما كان يكال به لعزة الطعام. والصاع يذكر ويؤنث؛ فمن أنثه قال: أصوع؛ مثل أدور، ومن ذكره قال أصواع؛ مثل أثواب. وقال مجاهد وأبو صالح: الصاع الطِّرْجهالة بلغة حمير. وفيه قراءات: "صواع" قراءة العامة؛ و"صوغ" بالغين المعجمة، وهي قراءة يحيى بن يعمر؛ قال: وكان إناء أصيغ من ذهب. "وصوع" بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا. "وصوع" بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبي. و"صياع" بياء بين الصاد والألف؛ قراءة سعيد بن جبير. "وصاع" بألف بين الصاد والعين؛ وهي قراءة أبي هريرة.

قولـه تعالى: ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾أي نادى مناد وأعلم. و﴿أذن ﴾ للتكثير؛ فكأنه نادى مرارا ﴿أيتها العير ﴾. والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال. قال مجاهد: كان عيرهم حميرا. قال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العير، كقولـه: ﴿واسأل القرية ﴾(يوسف: ٨٢) ويا خيل الله اركبي: أي يا أصحاب خيل الله، وسيأتي. وهنا اعتراضان: الأول: إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم براء وهو ـ الثاني ـ فالجواب عن الأول: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقده قال: ﴿يا أسفا على يوسف ﴾(يوسف: ٨٤) ولم يعرج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي؛ فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه في الجب، ثم باعوه؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم. جواب آخر ـ وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السراق؛ والمعنى: إن شيئاً

(١) في نسخة: مالك بن الأزرق.

لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. جواب آخر ـ وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي أو إنكم لسارقون؟ كقوله: ﴿ وتلك نعمة﴾ (الشعراء: ٢٢) أي أو تلك نعمة تمنها علي؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف عليه السلام الكذب.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾. البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين. وقيل: إنه الحمار، وهي لغة لبعض العرب؛ قاله مجاهد واختاره. وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال: ﴿ أيتها العير ﴾. والزعيم والكفيل والحميل والضمين والقبيل سواء والزعيم الرئيس. قال:

وإني زعيم إن رجعت مملكا   بسير ترى منه الفرانق أزورا

وقالت ليلى الأخيلية ترثي أخاها:

ومخرق عنه القميص تخاله   يوم اللقاء من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيته   تحت اللواء على الخميس زعيما

الثانية: إن قيل: كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له: حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوسق؛ فصح ضمانه، غير أنه كان بدل مال للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصح في شرعهم أو كان هذا جعالة، وبذل مال لمن كان يفتش ويطلب.

الثالثة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما: جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره؛ فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح. وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله: ﴿ ولمن جاء به حمل بعير﴾ وبهذا كله قال الشافعي.

الرابعة: متى قال الإنسان، من جاء بعبدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبي ﷺ قال: (من جاء بآبق فله أربعون درهما) ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. قال ابن خويز منداد ولهذا قال أصحابنا: إن كان ممن يفعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت: وخالفنا في هذا كله الشافعي.

الخامسة: الدليل الثاني: جواز الكفالة على الرجل؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف ﷺ، قال علماؤنا: إذا قال الرجل تحملت أو تكفلت أو ضمنت أو وأنا حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قبيل، أو هو لك عندي أو علي أو إلي أو قبلي فذلك كلـه حمالة لازمة، وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعي: إذا تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به إلى المطلوب؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه لـه ولم يأته به فكأنه فوته عليه، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال. واحتج الطحاوي للكوفيين فقال: أما ضمان المال بموت المكفول به فلا معنى لـه؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به.

السادسة: واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق: يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة؛ وهذا قول حسن. والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء. وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل، إلا أن يشترط المكفول لـه عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ واحتج ببراءة الميت من الدين، بضمان أبي قتادة[1]، وبنحوه قال أبو ثور.

السابعة: الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتا مستقرا؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر؛ لأن العبد إن عجز رق وانفسخت الكتابة؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر في أمره.

وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المدعي القصاص بينتي حاضرة كفلـه ثلاثة أيام؛ واحتج لـهم الطحاوي بما رواه حمزة بن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(١) حديث أبي قتادة في ضمانه الدين عن الميت في صحيح الترمذي (٨٥٥).

قولـه تعالى: ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلـهم الأكمة لئلا تعيث في زروع الناس. ثم قال: ﴿ وما كنا سارقين﴾ يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالـهم؛ أي فمن رد ما وجد فكيف يكون سارقا؟ !.

قولـه تعالى: ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿ جزاؤه من وجد في رحلـه فهو جزاؤه﴾ أي يستعبد ويسترق. ﴿ فجزاؤه﴾ مبتدأ، و﴿ من وجد في رحلـه﴾ خبره؛ والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد في رحلـه؛ فهو كناية عن الاستعباد؛ وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه. ﴿ كذلك نجزي الظالمين﴾ أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه. وقولـهم هذا قول من لم يسترب نفسه؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحلـه، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ؛ قالـه الحسن والسدي وغيرهما. مسألة: قد تقدم في سورة "المائدة" أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

قولـه تعالى: ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ إنما بدأ يوسف برحالـهم لنفي التهمة والريبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه. ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ يعني بنيامين؛ أي استخرج السقاية أو الصواع عند من يؤنث، وقال: ﴿ ولمن جاء به﴾ (يوسف: ٧٢) فذكّر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم، وظنوا الظنون كلـها، وأقبلـوا عليـه وقالـوا ويـلك يا بنيامـين! ما رأينـا كاليـوم قـط، ولـدت أمـك (راحيل) أخوين لصين! قال لـهم أخوهم: والله ما سرقته، ولا علم لي بمن وضعه في متاعي. ويروى أنهم قالوا لـه: يا بنيامين! أسرقت؟ قال: لا والله؛ قالوا: فمن جعل الصواع في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم. ويقال: إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تائبا من فعلـه ذلك؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم، وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ولا أخذ شيئا، فقال لـه إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا؛ ففتش فأخرج السقاية؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذن سرقهم برأيه؛ فيقال: إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوي ذلك قولـه تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف﴾ .

قولـه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴿٧٦﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ كدنا ﴾ معناه صنعنا؛ عن ابن عباس. القتبي: دبرنا. ابن الأنباري: أردنا؛ قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة   لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلا، خلافا لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخرمت التحليل.

الثانية: أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والـهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل لـه التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرق بين مجتمع، ولا أن يجمع بين متفرق. وقال مالك: إذا فوت من مالـه شيئا ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول، أخذا منه بقولـه ﷺ: (خشية الصدقة)[1]. وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى قولـه: (خشية الصدقة) إلا حينئذ. قال ابن العربي: سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفهري وغيره يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني صاحب عشرات آلاف دينار من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لـهم: كبرت سني، وضعفت قوتي، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحملـه الرجال على أعناقهم إلى دور بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا! إنما أملنا حياتك، وأما المال فأي رغبة لنا فيه ما دمت حيا؛ أنت ومالك لنا، فخذه إليك، ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرق؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخاري ﷺ في جامعه كتابا مقصوداً فقال: "كتاب الحيل".

قلت: وترجم فيه أبوابا منها: "باب الزكاة وألا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة". وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب لـه فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة ابن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس. الحديث؛ وفي آخره: (أفلح إن صدق) أو (دخل الجنة إن صدق). وقال بعض الناس: في عشرين ومائة بعير حقتان؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع لـه زبيبتان ويقول أنا كنزك) الحديث، قال المهلب: إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه؛ لأن النبي ﷺ لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قولـه: (أفلح إن صدق) أن من رام أن ينقض شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالـها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال في مالـه قرب حلول الحول إنما هو ما

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٩٥٥).

لم يرد بذلك الهرب من الزكاة؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه؛ وهو كمن فر من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين؛ فالوعيد متوجه عليه؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأي وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع! ؟ وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك في الآخرة.

الثالثة: قال ابن العربي: قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى: ﴿ وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه﴾ . دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وهم عظيم؛ وقوله تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف في الأرض﴾ قيل فيه: كما مكنا ليوسف ملك نفسه عن امرأة العزيز مكنا له ملك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره. قال الشفعوي: ومثله قوله عز وجل: ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث﴾ (ص: ٤٤) وهذا ليس حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد. قال الشفعوي: ومثله حديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر أنه أتى النبي ﷺ بتمر جنيب، الحديث؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه ﷺ أمره أن يبيع جمعا ويبتاع جنيبا من الذي باع منه الجمع أو من غيره. وقالت المالكية: معناه من غيره؛ لئلا يكون جنيبا بجمع، والدراهم ربا؛ كما قال ابن عباس: جريرة بجريرة والدراهم ربا.

قوله تعالى: ﴿ في دين الملك﴾ أي سلطانه، عن ابن عباس. ابن عيسى: عاداته، أي يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه؛ وهو استرقاق السراق. ﴿ إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تعلة وعذرا له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل، على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ نرفع درجات من نشاء﴾ أي بالعلم والإيمان. وقرئ﴿ نرفع درجات من نشاء﴾ بمعنى: نرفع من نشاء درجات؛ وقد مضى في "الأنعام" وقوله: ﴿ وفوق كل ذي علم عليم﴾ روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال: سبحان الله! وفوق كل ذي علم عليم؛ فقال ابن عباس: بئس ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم.

قوله تعالى: ﴿ ۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ اقتدى: أي اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق؛ وإنما قالوا ذلك ليبرؤوا من فعله، لأنه ليس من أمهم؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق. وقد اختلفوا في السرقة التي نسبوا إلى يوسف؛ فروي عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحاق كانت أكبر من يعقوب، وكانت صارت

إليها منطقة إسحاق لسنها؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسن، وهذا مما نسخ حكمه بشرعنا، وكان من سرق استعبد. وكانت عمة يوسف حضنته وأحبته حبا شديدا؛ فلما ترعرع وشب قال لـها يعقوب: سلمي يوسف إلي، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة؛ فولعت به، وأشفقت من فراقه؛ فقالت لـه: دعه عندي أياما أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن أصابها؛ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوا؛ فوجدت مع يوسف. فقالت: إنه والله لي سلم أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لـها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك؛ فأمسكته حتى ماتت؛ فبذلك عيره إخوته فـي قـولـهم: ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ لـه من قبل﴾ ومن ههنا تعلم يوسف وضع السقاية في رحل أخيه كما عملت به عمته. وقال سعيد بن جبير: إنما أمرته أن يسرق صنما كان لجده أبي أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغيرا للمنكر؛ فرموه بالسرقة وعيروه بها، وقاله قتادة. وفي كتاب الزجاج: أنه كان صنم ذهب. وقال عطية العوفي: إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق فخبأه فعيّروه بذلك. وقيل: إنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ابن عيسى وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قالـه الحسن.

قولـه تعالى: ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لـهم﴾ أي أسر في نفسه قولـهم﴿ إن يسرق فقد سرق أخ لـه من قبل﴾ قالـه ابن شجرة وابن عيسى. وقيل: إنه أسر في نفسه قولـه: ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ ثم جهر فقال: ﴿ والله أعلم بما تصفون﴾ . قالـه ابن عباس، أي أنتم شر مكانا ممن نسبتموه إلى هذه السرقة. ومعنى قولـه: ﴿ والله أعلم بما تصفون﴾ أي الله أعلم أن ما قلتم كذب، وإن كانت لله رضا. وقد قيل: إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن لـه أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته. وقولـهم: ﴿ إن لـه أبا شيخا كبيرا﴾ أي كبير القدر، ولم يريدوا كبر السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيء. ﴿ فخذ أحدنا مكانه﴾ أي عبدا بدلـه؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعلـه: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في استنزالـه. ويحتمل أن يكون قولـهم: ﴿ فخذ أحدنا مكانه﴾ حقيقة؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة؛ أي خذ أحدنا مكانه. حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جلية الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها ـ بمعنى إحضار المضمون فقط ـ

جائزة مع التراضي، غير لازمة إذا أبى الطالب؛ وأما الحمالة في مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، فلا يجوز إجماعا. وفي "الواضحة": إن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة، إلا في النفس. وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس. واختلف فيها عن الشافعي؛ فمرة ضعفها، ومرة أجازها.

قوله تعالى: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قال معاذ الله﴾ مصدر. ﴿أن نأخذ﴾ في موضع نصب؛ أي من أن نأخذ. ﴿إلا من وجدنا﴾ في موضع نصب بـ ﴿نأخذ﴾. ﴿متاعنا عنده﴾ أي معاذ الله أن نأخذ البريء بالمجرم ونخالف ما تعاقدنا عليه. ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ أي أن نأخذ غيره.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلما استيئسوا منه﴾ أي يئسوا؛ مثل عجب واستعجب، وسخر واستسخر. ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا وليس هو معهم. ﴿نجيا﴾ نصب على الحال من المضمر في ﴿خلصوا﴾ وهو واحد يؤدي عن جمع، كما في هذه الآية؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى: ﴿وقربناه نجيا﴾ (مريم: ٥٢) وجمعه أنجية؛ قال الشاعر:

إني إذا ما القوم كانوا أنجية ... واضطرب القوم اضطراب الأرشية

هناك أوصيني ولا توصي بيه

وقرأ ابن كثير: ﴿استايسوا﴾ ﴿ولا تايسوا﴾ ﴿إنه لا يايس﴾ "أفلم يايس" بألف من غير همز على القلب؛ قدمت الهمزة وأخرت الياء، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء - يأسا - والإياس ليس بمصدر أيس؛ بل هو مصدر أسته أوسا وإياسا أي أعطيته. وقال قوم: أيس ويئس لغتان؛ أي فلما يئسوا من رد أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس، يتناجون فيما عرض لهم. والنجي فعيل بمعنى المناجي.

قوله تعالى: ﴿قال كبيرهم﴾ قال قتادة: وهو روبيل، كان أكبرهم في السن. مجاهد: هو شمعون، كان أكبرهم في الرأي. وقال الكلبي: يهوذا؛ وكان أعقلهم. وقال محمد بن كعب وابن إسحاق: هو لاوى، وهو أبو الأنبياء. ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله﴾ أي

عهدا من الله في حفظ ابنه، ورده إليه. ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ "ما" في محل نصب عطفا على "أن" والمعنى: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم في يوسف؛ ذكره النحاس وغيره. و"من" في قولـه: ﴿ ومن قبل﴾ متعلقة بـ "تعلموا". ويجوز أن تكون "ما" زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما "من قبل" و﴿ في يوسف﴾ بالفعل وهو﴿ فرطتم﴾. ويجوز أن تكون "ما" والفعل مصدرا، و"من قبل" متعلقا بفعل مضمر؛ التقدير: تفريطكم في يوسف واقع من قبـل؛ فـما والفـعل فـي موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذي يتعلق به "من قبل". ﴿ فلن أبرح الأرض﴾ أي ألزمها، ولا أبرح مقيما فيها؛ يقال: برح براحا وبروحا أي زال، فإذا دخل النفي صار مثبتا. ﴿ حتى يأذن لي أبي﴾ بالرجوع فإني أستحي منه. ﴿ أو يحكم الله لي﴾ بالممر مع أخي فأمضي معه إلى أبي. وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب وآخذ أخي، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال: ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم﴾ (يوسف: ٦٦) ومن حارب وعجز فقد أحيط به.

وقال ابن عباس: وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره في صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه. وجاء في الخبر أن يهوذا قال لإخوته ـ وكان أشدهم غضبا ـ: إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا: بل أكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر، فبعث واحدا من إخوته فعدوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! لئن لم تخل معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقي في مدينتك حاملا إلا أسقطت ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب، فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا واشتد غضبه، وانتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، اقشعر جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره، من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجلـه تزلزلت وتهدم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكمل كلم ولدا لـه صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يمينا وشمالا لعلـه يرى أحدا من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرني منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردها أو ألقها فـي البحـر، ولا تحـدثن حـدثا؛ فـوالذي اتخـذ إبراهـيم خـليلا! لقد مســني كـف من نسـل يعــقوب. ثـم دخـلوا عـلى يوسف، وكان يوسف أشدهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركلـه برجلـه فدحا به من خلف الجدار ـ الركل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد ركلـه يركلـه؛ قاله الجوهري ـ ثم

أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه لجنبه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلـهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره وجلس على فراشه، وأمر بصواعه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخا لـهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! استر علينا ستر الله عليك، وامنن علينا من الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجب، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكلـه؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. ايتوني بالحدادين أقطع أيديهم وأرجلـهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حي لنكونن طوع يده، وترابا يطأ علينا برجلـه؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لـهم: اخرجوا عني! قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالا.

قوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨١)﴾

قولـه تعالى: ﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾ قالـه الذي قال: ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾. ﴿ فقولوا يا أبانا إن ابنك سَرَق ﴾ وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين ﴿ إن ابنك سُرِّقَ ﴾. النحاس: وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان قال حدثنا أحمد بن أبي سريج البغدادي قال: سمعت الكسائي يقرأ: ﴿ يا أبانا إن ابنك سُرِّق ﴾ بضم السين وتشديد الراء مكسورة؛ على ما لم يسم فاعلـه؛ أي نسب إلى السرقة ورمي بها؛ مثل خونته وفسقته وفجرته إذا نسبته إلى هذه الخلال. وقال الزجاج: "سرق" يحتمل معنيين: أحدهما: علم منه السرق، والآخر: اتهم بالسرق. قال الجوهري: والسرق والسرقة بكسر الراء فيهما هو اسم الشيء المسروق، والمصدر يسرق سرقا بالفتح.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا (٨١)﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب؛ كأنهم وقعت لـهم تهمة من قول بنيامين: دس هذا في رحلي من دس بضاعتكم في رحالكم؛ قال معناه ابن إسحاق. وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من دينك؛ قالـه ابن زيد. ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أي لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا نأخذه. وقال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسترق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظ أخانا فيما نطيق. وقال ابن عباس: يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حمير؛ وعنه: ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه. وقيل: ما دام بمرأى منا لم يجر خلل،

فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته. وقيل معناه: قد أخذت السرقة من رحله، ونحن أخرجناها وننظر إليها، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سرقوه ولم يسرق.

الثانية: تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا، فلا تسمع إلا ممن علم، ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخط ـ إذا تيقن أنه خطه أو خط فلان ـ صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه؛ قال الله تعالى: ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف: ٨٦) وقال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بخير الشهداء خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها)[1] وقد مضى في "البقرة".

الثالثة: اختلف قول مالك في شهادة المرور؛ وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن استوعب القول شهد في أحد قوليه، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهداه. والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب؛ وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه قد حصل المطلوب وتعين عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها والله أعلم.

الرابعة: إذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردت؛ لأنه ادعى باطلا فأكذبه العيان ظاهراً.

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير﴾ حققوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم. فقولهم: ﴿ واسأل القرية﴾ أي أهلها؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر. وقيل: قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل المعنى "واسأل القرية" وإن كانت جمادا، فأنت نبي الله، وهو ينطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه: ولا يجوز كلم هندا وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يشكل. والقول في العير كالقول في القرية سواء. ﴿ وإنا لصادقون﴾ في قولنا.

الثانية: في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد متكلم؛ وقد فعل هذا نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرا وهو قد خرج مع صفية يقلبها من المسجد: (على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي) فقالا: سبحان الله وكبّر عليهما فقال النبي: (إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا) رواه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٩).

الأولى: قولـه تعالى: ﴿قال بل سولت﴾ أي زينت. ﴿لكم أنفسكم﴾ أن ابني سرق وما سرق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿فصبر جميل﴾ أي فشأني صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بي على ما تقدم أول السورة.

الثانية: الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو مالـه أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جريج عن مجاهد في قولـه تعالى: ﴿فصبر جميل﴾ أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (من بث لم يصبر)[1]. وقد تقدم في "البقرة" أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطي على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فلـه مثل أجر يعقوب عليه السلام.

قولـه تعالى: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعا﴾ لأنه كان عنده أن يوسف عليه السلام لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حبس، فلما تمكن احتال في أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يدعوا الرسول يصل إليه وقال: "بهم" لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلف من أجل أخيه، وهو القائل: "فلن أبرح الأرض". ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي. ﴿الحكيم﴾ فيما يقضي.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وتولى عنهم﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تتام حزنه، وبلغ جهده، وجدد الله مصيبته لـه في يوسف فقال: ﴿يا أسفا على يوسف﴾ ونسي ابنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: ﴿يا أسفا على يوسف﴾ قال قتادة والحسن: والمعنى يا حزناه! وقال مجاهد والضحاك: يا جزعاه!؛ قال كُثَيِّر:

فيا أسفا للقلب كيف انصرافه وللنفس لما سليت فتسلت

والأسف شدة الحزن على ما فات. والنداء على معنى: تعال يا أسف فإنه من أوقاتك. وقال الزجاج: الأصل يا أسفي؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة. ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي؛ قاله مقاتل. وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب؛ وإنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلـهذا قال: ﴿من

(١) فيه مقاتل بن سليمان أبو الحسن البلخي كذبوه وهجروه ورمي بالتجسيم، كما في "التقريب"، (٢/ ٢٧٢).

الحزن ﴾. وقيل: إن يعقوب كان يصلي، ويوسف نائما معترضا بين يديه، فغط في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غط ثانية فالتفت إليه، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيطه؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: "انظروا إلى صفيي وابن خليلي قائما في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعزتي وجلالي! لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة، ليعلم العاملون أن من قام بين يدي يجب عليه مراقبة نظري".

الثانية: هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة - وإن لم يبطل - يدل على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد روى البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد). وسيأتي ما للعلماء في هذا في أول سورة "المؤمنون" موعبا إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قال النحاس: فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب - ﷺ وعلى نبينا - فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة: منها - أن يعقوب لما علم أن يوسف ﷺ حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك. وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك. والجواب الثالث: وهو أبينها - هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي وقال النبي ﷺ: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب)[1]. وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله: ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ (القلم: ٤٨) أي مملوء كربا. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ابن عباس: كظيم مغموم؛ قال الشاعر:

فإن أك كاظما لمصاب شاس   فإني اليوم منطلق لساني

وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: ذهبت عيناه من الحزن ﴿فهو كظيم﴾ قال: فهو مكروب. وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فهو كظيم﴾ قال: فهو كمد؛ يقول: يعلم أن يوسف حي، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كمد من ذلك. قال الجوهري: الكمد الحزن المكتوم؛ تقول منه كمد الرجل فهو كمد وكميد. النحاس. يقال فلان كظيم وكاظم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر:

فحضضت قومي واحتسبت قتالهم   والقوم من خوف المنايا كظم

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣).

قولـه تعالى: ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ أي قال لـه ولده: ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال الكسائي: فتأت وفتئت أفعل ذلك أي ما زلت. وزعم الفراء أن "لا" مضمرة؛ أي لا تفتأ، وأنشد:

فقلـت يمـين الله أبـرح قاعـــدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح؛ قال النحاس: والذي قال حسن صحيح. وزعم الخليل وسيبويه أن "لا" تضمر في القسم، لأنه ليس فيه إشكال؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا لـه لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعل كذا، وما فتئ وفتأ فهما لغتان، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر:

فما فَتِئتْ حتى كأن غبارها سرادق يوم ذي رياح ترفع

أي ما برحت فتفتأ تبرح. وقَال ابن عباس: تزال. ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ أي تالفا. وقال ابن عباس ومجاهد: دنفا من المرض، وهو ما دون الموت؛ قال الشاعر:

سرى همي فأمرضني وقدما زادني مرضا
كذاك الحـب قبل اليو م مما يورث الحرضا

وقال قتادة: هرما. الضحاك: باليا دائرا. محمد بن إسحاق: فاسدا لا عقل لك. الفراء: الحارض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحرض. ابن زيد: الحرض الذي قد رد إلى أرذل العمر. الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم. المؤرج: ذائبا من الـهم. وقال الأخفش: ذاهبا. ابن الأنباري: هالكا، وكلـها متقاربة. وأصل الحرض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الـهرم، عن أبي عبيدة وغيره؛ وقال العرجي:

إني امرؤ لج بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم

قال النحاس: يقال حرض حرضا وحرض حروضا وحروضة إذا بلِي وسقم، ورجل حارض وحرض؛ إلا أن حرضا لا يثنى ولا يجمع، ومثلـه قَمن وحري لا يثنيانِ ولا يجمعان. الثعلبي: ومن العرب من يقول حارض للمذكر، والمؤنثة حارضة؛ فَإذا وصف بهذا اللفظ ثنى وجمع وأنث. ويقال: حرض يحرض حراضة فهو حريض وحرض. ويقال: رجل محرض، وينشد:

طلبته الخيل يوما كاملا ولو الفته لأضحى محرضا

وقال امرؤ القيس:

أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا كإحراض بكر في الديار مريض

قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرضه الـهم إذا أسقمه، ورجل حارض أي أحمق. وقرأ أنس: "حُرْضا" بضم الحاء وسكون الراء، أي مثل عود الأشنان. وقرأ الحسن بضم الحاء والراء. قال الجوهري: الحَرَض والحُرُض الأشنان. ﴿ أو تكون من الـهالكين ﴾ أي الميتين، وهو قول الجميع؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه، وإن كانوا السبب في ذلك.

قولـه تعالى: ﴿ قال إنما أشكو بثي ﴾ حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ لـه أن يخفيها؛ وهو من بثثته أي فرقته، فسميت المصيبة بثا مجازا، قال ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

وقال ابن عباس: "بثي" همي. الحسن: حاجتي. وقيل: أشد الحزن، وحقيقته ما ذكرناه. ﴿ وحزني إلى الله ﴾ معطوف عليه، أعاده بغير لفظه. ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له. قاله ابن عباس. قتادة: إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظني به. وقيل: قال يعقوب لملك الموت هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فأكد هذا رجاءه. وقال السدي: أعلم أن يوسف حي، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحست نفس يعقوب أنه ولده فطمع، وقال: لعله يوسف. وقال: لا يكون في الأرض صديق إلا نبيء. وقيل: أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما في أول القصة، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه؛ وهو أظهر. والتحسس طلب الشيء بالحواس؛ فهو تفعل من الحس، أي اذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، واحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه. ويروى أن ملك الموت قال له: اطلبه من هاهنا! وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة، واحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها. ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله؛ قاله ابن زيد، يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة. وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله. ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس، وسيأتي في "الزمر" بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز ﴾ أي الممتنع. ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذف، أي فخرجوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا: ﴿ مسنا ﴾ أي أصابنا ﴿ وأهلنا الضر ﴾ أي الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحا في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط؛ والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول

يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ (يوسف: ٨٦) أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده؛ فأما الشكوى على غير مشك فهو السفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي؛ كما قال ابن دريد:

لا تحسبن يا دهر أني ضـــارع   لنكبة تعرقني عـــرق المدى
مارست ما لو هوت الأفلاك من   جوانب الـجو عليه ما شكا
لكنها نفـــثة مَصْـــدور إذا   جاش لغام من نواحـيها غما

قولـه تعالى: ﴿وجئنا ببضاعة﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء؛ تقول: أبضعت الشيء واستبضعته أي جعلته بضاعة؛ وفي المثل: كمستبضع التمر إلى هجر. "مزجاة" صفة لبضاعة؛ والإزجاء السوق بدفع؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا﴾ (النور: ٤٣) والمعنى أنها بضاعة تدفع؛ ولا يقبلـها كل أحد. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. اختلف في تعيينها هنا؛ فقيل: كانت قديدا وحيسا؛ ذكره الواقدي عن علي بن أبي طالب ﷺ. وقيل: خلق الغرائر والحبال؛ روي عن ابن عباس. وقيل: متاع الأعراب صوف وسمن؛ قال عبد الله بن الحارث. وقيل: الحبة الخضراء والصنوبر وهو البطم، حب شجر بالشام؛ يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، قالـه أبو صالح؛ فباعوها بدراهم لا تنفق في الطعام، وتنفق فيما بين الناس؛ فقالوا: خذها منا بحساب جياد تنفق من الطعام. وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابن عباس أيضا. وقيل: ليس عليها صورة يوسف، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف. وقال الضحاك: النعال والأدم؛ وعنه: كانت سويقا منخلا. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ (٨٨)﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا؛ هذا قول أكثر المفسرين. وقال ابن جريج: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ يريدون الكيل الذي كان قد كالـه لأخيهم. ﴿وتصدق علينا﴾ أي تفضل علينا بما بين سعر الجياد والرديئة. قالـه سعيد بن جبير والسدي والحسن: لأن الصدقة تحرم على الأنبياء. وقيل المعنى: ﴿تصدق علينا﴾ بالزيادة على حقنا؛ قالـه سفيان بن عيينة. قال مجاهد: ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد ﷺ. وقال ابن جريج: المعنى ﴿تصدق علينا﴾ برد أخينا إلينا. وقال ابن شجرة: ﴿تصدق علينا﴾ تجوز عنا؛ واستشهد بقول الشاعر:

تصدق علينا يا ابن عفان واحتسب   وأمـر عـلينا الأشـــعري لياليا

﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا من معاريض الكلام؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إن الله يجزيك بصدقتك، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لـهم إخراجه بالتأويل؛ قالـه النقاش وفي الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[1].

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (١٩٠٢).

الثانية : استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ؛ قال ابن القاسم وابن نافع قال مالك : قالوا ليوسف "فأوف لنا الكيل" فكان يوسف هو الذي يكيل، وكذلك الوزان والعداد وغيرهم، لأن الرجل إذا باع عدة معلومة من طعامه، وأوجب العقد عليه، وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه، إلا أن يبيع منه معينا - صبرة - أو ما لا حق توفية فيه - فخلى ما بينه وبينه، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية، وإن تلف فهو منه قبل التوفية.

الثالثة : وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضا ؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طيبة، فأنت الذي تدعي الرداءة فانظر لنفسك ؛ وأيضا فإن النفع يقع لـه فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذي يجب عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعا ؛ ألا ترى أن فرضاً عليه أن يفدي يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطاع على المقتص. وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة : يكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق علي ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا رب غيره ؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدق علي ؛ فقال الحسن : يا هذا! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبتغي الثواب ؛ أما سمعت قول الله تعالى : ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ قل : اللهم أعطني وتفضل علي.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قولـه تعالى : ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله : ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾(يوسف : ١٥) الآية. ﴿إذ أنتم جاهلون ﴾دليل على أنهم كانوا صغارا في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء ؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته ؛ ويدل على أنه حسنت حالـهم الآن ؛ أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال ؛ قال معناه ابن عباس والحسن ؛ ويكون قولـهم : ﴿وإن كنا لخاطئين ﴾على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قولـه تعالى : ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا : ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ فخضعوا لـه وتواضعوا رق لـهم، وعرفهم بنفسه، فقال : ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ فتنبهوا فقالوا : ﴿أئنك لأنت يوسف ﴾قالـه ابن إسحاق. وقيل : إن يوسف تبسم فشبهوه بيوسف واستفهموا. قال ابن عباس لما قال لـهم : ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾الآية، ثم تبسم يوسف - وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم - فشبهوه بيوسف، فقالوا لـه على جهة الاستفهام : ﴿أئنك لأنت يوسف ﴾. وعن ابن عباس أيضا : أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه

علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾. وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب رد ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر - أما بعد - فإنا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدي إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبي إسحاق بالذبح، ثم ابتلاني بولد كان لي أحب أولادي إلي حتى كف بصري من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله، واقشعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره فباح بالسر. وقرأ ابن كثير "إنك" على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: ﴿ وتلك نعمة ﴾ (الشعراء: ٢٢). ﴿ قال أنا يوسف ﴾ أي أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة. ﴿ قد من الله علينا ﴾ أي بالنجاة والملك. ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي يتق الله ويصبر على المصائب، وعن المعاصي. ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي الصابرين في بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ ابن كثير: ﴿ إنه من يتقي ﴾ بإثبات الياء؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل "من" بمعنى الذي، وتدخل "يتقي" في الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع "ويصبر". وقد يجوز أن تجزم "ويصبر" على أن تجعل "يتقي" في موضع جزم و"من" للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التي كانت في الياء على الأصل؛ كما قال:

ثم نادي إذا دخلت دمشقا   يا يزيد بن خالد بن يزيد

وقال آخر:

ألم يأتيك والأنباء تنمي   بما لاقت لبون بني زياد

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء في "إنه" كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ الأصل همزتان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، واسم الفاعل مؤثر، والمصدر إيثار. ويقال: أثرت التراب إثارة فأنا مثير؛ وهو أيضا على أفعل ثم أعل، والأصل أثير نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأثرت الحديث على فعلت فأنا آثر؛ والمعنى: لقد فضلك الله علينا، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي مذنبين من خطئ يخطأ إذا أتى الخطيئة، وفي ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس: كيف قالوا ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطؤوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطى المنهاج الذي عليه من الحق، حتى يقع في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي قال يوسف - وكان حليما موفقا: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ وتم الكلام. ومعنى "اليوم": الوقت. والتثريب التعيير والتوبيخ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا

لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله ﷺ: (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها)[1] أي لا يعيرها؛ وقال بشر:

فعفوت عنهم عفو مثرب   وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وقال الأصمعي: ثربت عليه وعربت عليه بمعنى إذا قبحت عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة، وحق الإخوة، ولكم عندي العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذ الناس بالبيت فقال: (الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ثم قال: (ماذا تظنون يا معشر قريش) قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم وقد قدرت؛ قال: (وأنا أقول كما قال أخي يوسف "لا تثريب عليكم اليوم")[2]، فقال عمر ﷺ: ففضت عرقا من الحياء من قول رسول الله ﷺ؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال استحييت من قولي. ﴿يغفر الله لكم﴾ مستقبل فيه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم. وأجاز الأخفش الوقف على "عليكم" والأول هو المستعمل؛ فإن في الوقف على "عليكم" والابتداء بـ "اليوم يغفر الله لكم" جزم بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وحي، وهذا بين. وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ؛ ألم تر قول يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ وقال يعقوب: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر:

تدعو هوازن والقميص مفاضة   فوق النطاق تشد بالأزرار

فتقديره: (والقميص) درع مفاضة. قاله النحاس. وقال ابن السدي عن أبيه عن مجاهد: قال لهم يوسف: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا﴾ قال: كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يرد على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحاق، وكان إسحاق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قصبة من فضة وعلّقه في عنق يوسف، لما كان يخاف عليه من العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي. وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسره، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدي. ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ لتتخذوا مصر دارا. قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة. وقد قيل: إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قد من دبره، ليعلم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في "الدر المنثور"، (٤/ ٦٤).

يعقوب أنه عصم من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روي مرفوعا من حديث أنس عن النبي ﷺ؛ ذكره القشيري والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال: فصل فصولا، وفصلته فصلا، فهو لازم ومتعد. ﴿ قال أبوهم ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده: ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقي: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾. قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال الحسن: مسيرة عشر ليال؛ وعنه أيضا مسيرة شهر. وقال مالك بن أنس ﷺ: إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان ﷺ طرفه. وقال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فعند ذلك قال: "إني لأجد" أي أشم؛ فهو وجود بحاسة الشم. ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لولا أن تسفهون؛ ومنه قول النابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك لـه   قم في البرية فاحددها عن الفند

أي عن السفه. وقال سعيد بن جبير والضحاك: لولا أن تكذبون. والفند الكذب. وقد أفند إفنادا كذب؛ ومنه قول الشاعر:

هل فى افتخار الكريم من أود   أم هل لقول الصدق من فند

أي من كذب. وقيل: لولا أن تقبحون؛ قالـه أبو عمرو، والتفنيد التقبيح قال الشاعر:

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي   فليس ما فات من أمري مردود

وقال ابن الأعرابي: ﴿ لولا أن تفندون ﴾ لولا أن تُضعفوا رأيي؛ وقالـه ابن إسحاق. والفند ضعف الرأي من كبر. وقول رابع: تضللون، قالـه أبو عبيدة. وقال الأخفش: تلومونني؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي. وقال الحسن وقتادة ومجاهد أيضا: تهرمون؛ وكلـه متقارب المعنى، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي؛ يقال: فنده تفنيدا إذا أعجزه، كما قال:

أهلكني باللوم والتفنيد

ويقال: أفند إذا تكلم بالخطأ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي، كما قال النابغة:

. . . . فاحددها عن الفند

أي امنعها عن الفساد في العقل، ومن ذلك قيل: اللوم تفنيد؛ قال الشاعر:

يا عاذلي دعا الملام وأقصرا   طال الـهوى وأطلتما التفنيدا

ويقال: أفند فلانا الدهر إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مقبل:

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه   إذا كلف الإفناد بالناس أفندا

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب. وقال ابن عباس وابن زيد: لفي خطئك الماضي من حب يوسف لا تنساه. وقال سعيد بن جبير: لفي جنونك القديم. قال الحسن: وهذا عقوق. وقال قتادة وسفيان: لفي محبتك القديمة. وقيل: إنما قالوا هذا؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات. وقيل: إن الذي قال لـه ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر. وقيل: قال لـه ذلك من كان معه من أهلـه وقرابته. وقيل: بنو بنيه وكانوا صغارا؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ﴾ أي على عينيه. ﴿ فارتد بصيرا ﴾ "أن" زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به ملطخا بالدم؛ قاله ابن عباس. وعن السدي أنه قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة. وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال لـه: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يثيبه به؛ فقال: والله ما أصبت عندنا شيئا؛ وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليك سكرات الموت.

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلت هذه الآية على جواز البذل والـهبات عند البشائر. وفي الباب حديث كعب بن مالك ـ الطويل ـ وفيه: "فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته" وذكر الحديث، وقد تقدم بكمالـه في قصة الثلاثة الذين خلفوا، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس لـه غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به. وهو دليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح. ومن هذا الباب جواز حذاقة الصبيان، وإطعام الطعام فيها، قد نحر عمر بعد حفظه سورة "البقـرة" جزورا. والله أعلم. ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ذكرهم قولـه: ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ (يوسف: ٨٦).

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ في الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدل على أن الذي قال لـه: ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهلـه لا ولده، فإنهم كانوا غيبا، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق. والله أعلم. وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلالـه.

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو مالـه أو غير ذلك ظالما لـه ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل لـه ويخبره بالمظلمة وقدرها ؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لـها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من كانت لـه مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان لـه عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن لـه حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) قال المهلب فقولـه ﷺ : (أخذ منه بقدر مظلمته) يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبينة ، والله أعلم .

قولـه تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ قال ابن عباس : أخر دعاءه إلى السحر . وقال المثنى ابن الصباح عن طاوس قال : سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الحفظ ـ من كتاب الترمذي ـ عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال : ـ بأبي أنت وأمي ـ تفلت هذا القرآن من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال لـه رسول الله ﷺ : (أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت في صدرك) قال : أجل يا رسول الله! فعلمني ؛ قال : (إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ يقول حتى تأتي ليلة الجمعة)[1] وذكر الحديث . وقال : قال أيوب بن أبي تميمة السختياني عن سعيد بن جبير قال : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشعبي قال : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ أي أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربي ؛ وذكر سنيد بن داود قال : حدثنا هشيم قال حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن عمه قال : كنت آتي المسجد في السحر فأمر بدار ابن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لي ، فلقيت ابن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولـهن في السحر فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقولـه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ أي قصرا كان لـه هناك . ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهلـه وولده جميعا ؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أي ضم ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله لـه أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت لـه ، قالـه الحسن ؛ وقد تقدم في "البقرة" أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قولـه تعالى : ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ قال ابن جريج : أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب ابن جريج إلى أنهم قد

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣٥٧٠) ، وقال : "حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم" .

دخلوا مصر فكيف يقول: ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله ﴾. وقيل: إنما قال: ﴿ إن شاء الله ﴾ تبركا وجزما. ﴿ آمنين ﴾ من القحط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه.

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال قتادة: يريد السرير، وقد تقدمت محامله؛ وقد يعبر بالعرش عن الملك والملك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذبياني:

عروش تفانوا بعد عزٍّ وأمنة

وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وخروا له سجدا ﴾ الهاء في "خروا له" قيل: إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى: وخروا شكرا لله سجدا؛ ويوسف كالقبلة لتحقيق رؤياه، وروي عن الحسن؛ قال النقاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ (يوسف: ٤). وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعر جلده وقال: ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة. وقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد: أربعون سنة؛ قال عبد الله بن شداد: وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا. وقال قتادة: خمس وثلاثون سنة. وقال السدي وسعيد بن جبير وعكرمة: ست وثلاثون سنة. وقال الحسن وجسر بن فرقد وفضيل بن عياض: ثمانون سنة. وقال وهب بن منبه: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب. وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة. وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة، ثم توفي عليه السلام وقيل: أقام عنده ثماني عشرة سنة. وقال بعض المحدثين: بعضا وأربعين سنة؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله. وقال ابن إسحاق: ثماني عشرة سنة، والله أعلم.

الثانية: قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن: في قوله: ﴿ وخروا له سجدا ﴾ ـ قال: لم يكن سجودا، لكنه سنة كانت فيهم، يومئون برؤوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثوري والضحاك وغيرهما: كان سجودا كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن خرورا على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك

كلـه في شرعنا، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

قلت: هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم لـه وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر لـه؛ وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نكبوا عن السير، وأعرضوا عن السنن. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: (لا)؛ قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضا؟ قال: (لا). قلنا: أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال (نعم)[1]. خرجه أبو عمر في "التمهيد" فإن قيل: فقد قال رسـول الله ﷺ: (قوموا إلى سيدكم وخيركم)[2] ـ يعني سعد بن معاذ ـ قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة؛ وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجز عونه على ذلك؛ لقولـه ﷺ: (من سره أن يتمثل لـه الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار)[3]. وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجه أكرم عليهم من وجه رسول الله ﷺ، وما كانوا يقومون لـه إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك.

الثالثة: فإن قيل: فما تقول في الإشارة بالإصبع؟ قيل لـه: ذلك جائز إذا بعد عنك، لتعين لـه به وقت السلام، فإن كان دانيا فلا؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد؛ لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من تشبه بغيرنا فليس منا). وقال: (لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة)[4]. وإذا سلم فإنه لا ينحني، ولا أن يقبل مع السلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون على أفعالـهم التي أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم؛ قال النبي ﷺ: (لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرتها)[5] فهذا مثلـه. ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال: (تصافحوا يذهب الغل)[6] وروى غالب التمار عن الشعبي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا؛ فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدل

---

(١) "حسن" انظر الصحيحة (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٢)، ومسلم (١٧٦٨).

(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٩٥٧).

(٤) "حسن" انظر صحيح الجامع (٥٤٣٤).

(٥) "ضعيف" انظر الضعيفة (٣٤٦).

(٦) "ضعيف" لإرسالـه، وانظر الإرواء (٦/ ٤٦).

عليه معنى ما في الموطأ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما في الدين، ولا منقولا نقل السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها، والدأب عليها والمحافظة؛ وهو ما رواه البراء بن عازب قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: (نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما)[1].

قولـه تعالى: ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ﴾ ولم يقل من الجب استعمالا للكرم؛ لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقولـه: ﴿ لا تثريب عليكم ﴾.

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذكر الجفا في وقت الصفا جفا، وهو قول صحيح دل عليه الكتاب. وقيل: لأن في دخوله السجن كان باختياره بقولـه: ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ (يوسف: ٣٣) وكان في الجب بإرادة الله تعالى لـه. وقيل: لأنه كان في السجن مع اللصوص والعصاة، وفي الجب مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المنة في النجاة من السجن كانت أكبر، لأنه دخلـه بسبب أمرهم به؛ وأيضا دخلـه باختياره إذ قال: ﴿ رب السجن أحب إلي ﴾ فكان الكرب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضا: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ (يوسف: ٤٢) فعوقب فيه.

قولـه تعالى: ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواش وبرية؛ وقيل: كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية. وقيل: إنه كان خرج إلى بدا، وهو موضع؛ وإياه عنى جميل بقولـه:

وأنت التي حببت شغبا إلى بدا إلي وأوطاني بلاد سواهما

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل. يقال: بدا القوم بدوا إذا أتوا بدا، كما يقال: غاروا غورا أي أتوا الغور؛ والمعنى: وجاء بكم من مكان بدا؛ ذكره القشيري، وحكاه الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس. ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قالـه ابن عباس. وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرما منه. ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي رفيق بعباده. وقال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحـهم من حيث لا يحتسبون؛ كقولـه: ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾ (الشورى: ١٩). وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق. قال قتادة، لطف بيوسف بإخراجه من السجن، وجاءه بأهلـه من البدو، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان. ويروى أن يعقوب لما قدم بأهلـه وولده وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون ـ واسمه الريان ـ أن يأذن لـه في تلقي أبيه يعقوب؛ وأخبره بقدومه فأذن لـه، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٥٧٧٧)، والصحيحة (٥٢٥).

يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمنع من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ابن عباس: فالبكاء أربعة، بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذي أقر عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عكرمة عن ابن عباس. وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا. وقال الربيع بن خيثم: دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب بن منبه دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهرمى والزمنى؛ وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة، وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق بالشام ففعل، ثم انصرف إلى مصر. قال سعيد بن جبير: نقل يعقوب ﷺ في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عيصو، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، من فعل ذلك منهم؛ وولد يعقوب وعيصو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ قال قتادة: لم يتمن الموت أحد؛ نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام؛ حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل. وقيل: إن يوسف لم يتمن الموت، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام؛ أي إذا جاء أجلي توفني مسلما؛ وهذا قول الجمهور. وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يتمنى الموت إلا ثلاث: رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه، أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل. وثبت في الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد متمنيا فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي) رواه مسلم[١]. وفيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل

(١) وكذا أخرجه البخاري (٥٦٧١).

أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عملـه وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا)[1]. وإذا ثبت هذا فكيف يقال: إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل؟ هذا بعيد! إلا أن يقال: إن ذلك كان جائزا في شرعه؛ أما أنه يجوز تمني الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها، وخوف ذهاب الدين، على ما بيناه في كتاب "التذكرة". "ومن" من قولـه: "من الملك" للتبعيض، وكذلك قولـه: ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ لأن ملك مصر ما كان كل الملك، وعلم التعبير ما كان كل العلوم. وقيل: "من" للجنس كقولـه: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ (الحج: ٣٠) وقيل: للتأكد. أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث.

قولـه تعالى: ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو رب، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يا رب! ويجوز أن يكون نداء ثانيا. والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدم هذا المعنى في "البقرة" مستوفى؛ عند قولـه: ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ (البقرة: ١١٧) وزدناه بيانا في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ﴿ أنت وليي ﴾ أي ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿ توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتوفاه الله ـ طاهرا طيبا ﷺ ـ بمصر، ودفن في النيل في صندوق من رخام؛ وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه؛ كل يحب أن يدفن في محلتهم، لما يرجون من بركته؛ واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل من حيث مفرق الماء بمصر، فيمر عليه الماء، ثم يتفرق في جميع مصر، فيكونوا فيه شرعا ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل: ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائه لدعوته: ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام. وعن الحسن قال: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة، ثم جمع لـه شملـه فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة؛ وكان لـه من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة، زوجة أيوب؛ في قول ابن لـهيعة. قال الزهري: وولد لإفرائيم ـ بن يوسف ـ نون بن إفرائيم، وولد لنون يوشع؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذي كان معه صاحب أمره، ونبأه الله في زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبيا، وهو الذي افتتح أريحا، وقتل من كان بها من الجبابرة، واستوقفت لـه الشمس حسب ما تقدم في "المائدة". وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا، قبل موسى بن عمران. وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذي طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه، والعالم هو الذي خرق السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قالـه ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

قولـه تعالى: ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ نوحيه إليك ﴾ خبر ثان. قال الزجاج: ويجوز أن يكون "ذلك" بمعنى الذي! ﴿ نوحيه إليك ﴾ خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب ﴿ نوحيه إليك ﴾ أي نعلمك بوحي هذا إليك. ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي مع إخوة يوسف ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ في إلقاء يوسف في الجب. ﴿ وهم يمكرون ﴾ أي بيوسف في إلقائه في الجب. وقيل: ﴿ يمكرون ﴾ بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم؛ أي ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلية للنبي ﷺ؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حرص يحرص، مثل: ضرب يضرب. وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد. والحرص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما تسألـهم عليه من أجر ﴾ "من" صلة؛ أي ما تسألـهم جعلا. ﴿ إن هو ﴾ أي ما هو؛ يعني القرآن والوحي. ﴿ إلا ذكر ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿ للعالمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض ﴾. قال الخليل وسيبويه: هي "أي" دخل عليها كاف التشبيه وبنيت معها، فصار في الكلام معنى كم، وقد مضى في "آل عمران" القول فيها مستوفى. ومضى القول في آية "السماوات والأرض" في "البقرة". وقيل: الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملـها. وقرأ عكـرمة وعمرو بن فائد "والأرض" رفعـا ابتداء، وخـبره. ﴿ يمرون عليها ﴾. وقـرأ السـدي ﴿ والأرض ﴾ نصبا بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على "السماوات". وقرأ ابن مسعود: ﴿ يمشون عليها ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلـها، وهم يعبدون الأوثان؛ قالـه الحسن ومجاهد وعامر الشعبي وأكثر المفسرين. وقال عكرمة هو قولـه: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (الزخرف: ٨٧) ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون لـه أندادا؛ وعن الحسن أيضا: أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ؛ فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباري. وقال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضا أنهم النصارى. وعنه أيضا أنهم المشبهة، آمنوا مجملا وأشركوا مفصلا. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ أي

باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضا. وقال عطاء: هذا في الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء؛ بيانه: ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ (يونس: ٢٢) الآية. وقولـه: ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ﴾ (يونس: ١٢) الآية. وفي آية أخرى: ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ (فصلت: ٥١). وقيل: معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الـهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلـهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب.

قلت: وقد يقع في هذا القول والذي قبلـه كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقيل: نزلت هذه الآية في قصة الدخان؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان في سني القحط قالوا: ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ (الدخان: ١٢) فذلك إيمانهم، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قولـه: ﴿ إنكم عائدون ﴾ (الدخان: ١٥) والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى: ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ أي إلا وهم عائدون إلى الشرك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ قال ابن عباس: مجللة. وقال مجاهد: عـذاب يغشـاهم؛ نظـيره. ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلـهم ﴾ (العنكبوت: ٥٥). وقال قتادة: وقيعـة تقـع لـهم. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿ أو تأتيهم الساعة ﴾ يعني القيامة. ﴿ بغتة ﴾ نصب على الحال؛ وأصلـه المصدر. وقال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولـهم: وقع أمر بغتة وفجأة؛ قال النحاس: ومعنى "بغتة" إصابة من حيث لم يتوقع. ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وهو توكيد. وقولـه: "بغتة" قال ابن عباس: تصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم، كما قال: ﴿ تأخذهم وهم يخصمون ﴾ (يس: ٤٩) على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ ابتداء وخبر؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسنتي ومنهاجي؛ قالـه ابن زيد. وقال الربيع: دعوتي، مقاتل: ديني، والمعنى واحد؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدي إلـى الجـنة. ﴿ على بصيرة ﴾ أي على يقين وحق؛ ومنه: فلان مستبصر بهذا. "أنا" توكيد. ﴿ ومن اتبعني ﴾ عطف على المضمر. ﴿ وسبحان الله ﴾ أي قل يا محمد: "وسبحان الله". ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ هذا رد على القائلين: ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ (الأنعام: ٨) أي أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جني ولا ملك؛ وهذا يرد ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: (إن في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم موسى ومريم)[١]. وقد تقدم في "آل عمران" شيء من هذا. ﴿ من أهل القرى ﴾ يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن: لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن. وقال قتادة: ﴿ من أهل القرى ﴾ أي من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم. وقال العلماء: من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا؛ وإنما قالوا آدميا تحرزا؛ من قوله: ﴿ يعوذون برجال من الجن ﴾ (الجن: ٦) والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم فيعتبروا. ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ ابتداء وخبره. وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، وبارحة الأولى؛ قال الشاعر:

ولو أقوت عليك ديار عبس عرفت الذل عرفان اليقين

أي عرفانا يقينا؛ واحتج الكسائي بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فمعناه: عند صلاة الفريضة الأولى؛ وإنما سميت الأولى لأنها أول ما صلي حين فرضت الصلاة، وأول ما أظهر؛ فلذلك قيل لها أيضا الظهر. والتقدير: ولدار الحال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة؛ أي هي خير للمتقين. وقرئ: ﴿ وللدار الآخرة ﴾. وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم. ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه. ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي

---

(١) لا يصح، وقد سبق.

الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب. ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ أي يئسوا من إيمان قومهم. ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم كذبوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم، لا أن القوم كذبوا، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك؛ فيكون "وظنوا" على بابه في هذا التأويل. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردي وعاصم وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف؛ أي ظن القوم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب، ولم يصدقوا. وقيل: المعنى ظن الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفي رواية عن ابن عباس؛ ظن الرسل أن الله أخلف ما وعدهم. وقيل: لم تصح هذه الرواية؛ لأنه لا يظن بالرسل هذا الظن، ومن ظن هذا الظن لا يستحق النصر؛ فكيف قال: ﴿ جاءهم نصرنا ﴾؟! قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد إن صحت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم؛ وفي الخبر: (إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به)[1]. ويجوز أن يقال: قربوا من ذلك الظن؛ كقولك: بلغت المنزل، أي قربت منه.

وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال: كانوا بشرا فضعفوا من طول البلاء، ونسوا وظنوا أنهم أخلفوا؛ ثم تلا: ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ (البقرة: ٢١٤). وقال الترمذي الحكيم: وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعدما وعد الله النصر، لا من تهمة بوعد الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت عليهم المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه. وقال المهدوي عن ابن عباس: ظنت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ (البقرة: ٢٦٠) الآية. والقراءة الأولى أولى. وقرأ مجاهد وحميد - ﴿ قد كذبوا ﴾ بفتح الكاف والذال مخففا؛ على معنى: وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا، لما رأوا من تفضل الله عز وجل في تأخير العذاب. ويجوز أن يكون المعنى: ولما أيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا. وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال قلت: أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة: كذبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل! لعمري! لقد استيقنوا بذلك؛ فقلت لها: ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ قولان: أحدهما: جاء الرسل نصر الله؛ قاله مجاهد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٧) بنحوه.

الثاني: جاء قومهم عذاب الله؛ قاله ابن عباس. ﴿ فننجي من نشاء ﴾ قيل: الأنبياء ومن آمن معهم. وروي عن عاصم ﴿ فنجي من نشاء ﴾ بنون واحدة مفتوحة الياء، و"من" في موضع رفع، اسم ما لم يسم فاعله؛ واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة. وقرأ ابن محيصن ﴿ فنجا ﴾ فعل ماض، و"من" في موضع رفع لأنه الفاعل، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول. ﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ أي عذابنا. ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ أي الكافرين المشركين.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ أي في قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو في قصص الأمم. ﴿ عبرة ﴾ أي فكرة وتذكرة وعظة. ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي العقول. وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة، وتوفي أخوه عيصو معه في يوم واحد، وقبرا في قبر واحد؛ فذلك قوله: ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ إلى آخر السورة. ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ أي ما كان القرآن حديثا يفترى، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى. ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي ولكن كان تصديق، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذي بين يديه أي ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن. ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام. ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾.

سورة الرعد

مقدمة السورة:

سورة الرعد مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل: ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ (الرعد: ٣١) (إلى آخرهما).

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾

قوله تعالى: ﴿ المر تلك آيات الكتاب ﴾ تقدم القول فيها. ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك. ﴿ من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون: إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه. "والذي" في موضع رفع عطفا على "آيات" أو على الابتداء، و"الحق" خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جرا على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع "الحق" على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحق؛ كقوله تعالى: ﴿ وهم يعلمون الحق ﴾ (البقرة: ١٤٦ - ١٤٧) يعني ذلك الحق. قال الفراء: وإن شئت جعلت "الذي" خفضا نعتا للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق؛ ومنه قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

يريد: إلى الملك القرم بن الهمام، ليث الكتيبة. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

قوله تعالى: ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ الآية. لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هذا المعنى. وفي قوله: ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ قولان: أحدهما: أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قتادة وإياس ابن معاوية وغيرهما. الثاني: لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال ابن عباس: لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العمد قدرته التي يمسك بها السماوات والأرض، وهي غير مرئية لنا؛ ذكره الزجاج. وقال ابن عباس أيضا: هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغزنوي. والعمد جمع عمود؛ قال النابغة:

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قولـه تعالى: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ تقدم الكلام فيه. ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مذلل للخالق. ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلـهما التي ينتهيان إليـها لا يجـاوزانها. وقيل: معنى الأجـل المسمى أن القمر يقطع فلكه في شهر، والشمـس في سـنة. ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يصرفه على ما يريد. ﴿ يفصل الآيات ﴾ أي يبينها؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولـهذا قال: ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ لما بين آيات السماوات بين آيات الأرض؛ أي بسط الأرض طولا وعرضا. ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالا ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها، أي تثبت؛ والإرساء الثبوت؛ قال عنترة:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

وقال جميل:

أحبها والذي أرسى قواعده حبا إذا ظـهرت آياتـه بطنا

وقال ابن عباس وعطاء: أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس.

مسألة: في هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة، ورد على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها؛ وزعم ابن الراوندي أن تحت الأرض جسما صعادا كالريح الصعادة؛ وهي منحدرة فاعتدل الـهاوي والصعادي في الجرم والقوة فتوافقا. وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها. وقولـه تعالى: ﴿ وأنهارا ﴾ أي مياها جارية في الأرض، فيها منافع الخلق. ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ بمعنى صنفين. قال أبو عبيدة: الزوج واحد، ويكون اثنين. الفراء: يعني بالزوجين ها هنا الذكر والأنثى؛ وهذا خلاف النص. وقيل: معنى "زوجين" نوعان، كالحلو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسـود، والصغير والكبير. ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامرا، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ متجاورات ﴾ أي قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتمر؛ فيكون البعض حلوا، والبعض حامضا؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه نبه سبحانه بقولـه: ﴿ تسقى بماء واحد ﴾ على أن ذلك كلـه ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل لـه الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته؛ جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

الثالثة: ذهبت الكفرة ـ لعنهم الله ـ إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لا بد لـه من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به، لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مخصص خصصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ واستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ وجناتٌ من أعناب ﴾ قرأ الحسن "وجنات" بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قولـه: ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾. ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على "كل" التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون "جنات" بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ بالرفع. ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نسقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على "كل" حسب ما تقدم في "وجنات". وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما "صنوان" بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صنو، وهي النخلات والنخلتان، يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلا؛ نظيرها قنوان، واحدها قنو وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان. والصنو المثل؛ ومنه قول النبي ﷺ: (عم الرجل صنو أبيه)[1]. ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٣).

العلم والحلـم خلتا كرم للمرء زين هما اجتمعا

صنوان لا يستتم حسنهما إلا بجـمع ذا وذاك معا

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم؛ أبوهم واحد؛ قالـه النحاس والبخاري. وقرأ عاصم وابن عامر: ﴿ يسقى ﴾ بالياء، أي يسقى ذلك كلـه. وقرأ الباقون بالتاء، لقولـه: ﴿ جنات ﴾ واختاره أبو حـاتم وأبو عبيـدة؛ قال أبو عمـرو: والتأنيث أحسـن؛ ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ ولم يقل بعضه. وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما "ويُفَضِّل" بالياء ردا علـى قولـه: ﴿ يدبر الأمر ﴾ (الرعد: ٢) و﴿ يفصل ﴾ (الرعد: ٢) و﴿ يغشي ﴾ (الرعد: ٣) الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي ﷺ: (الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ حتى بلغ قولـه: ﴿ يسقى بماء واحد ﴾)[١] و"الأكل" الثمر. قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسي والدقل. وروي مرفوعا من حديث أبي هريرة (أن رسول الله ﷺ قال في قولـه تعالى: ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال: الفارسي والدقل والحلو والحامض)[٢] ذكره الثعلبي. قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلـهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر:

الناس كالنبت والنبت ألوان منها شجر الصندل والكافور والبان

ومنها شجر ينضح طول الدهر قطران

قوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لعلامات لمن كان لـه قلب يفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٥) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإن تعجب فعجب قولـهم ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السماوات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولـهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد لـه من مغير فهو محل التعجب؛ ونظم الآية يدل على الأول والثاني؛ لقولـه: ﴿ أئذا كنا ترابا ﴾ أي أنبعث إذا كنا

---

(١) أورده بنحوه الـهيثمي في "المجمع"، (٩/ ١٠٠)، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفه ومن اختلف فيه".

(٢) "حسن" انظر صحيح الترمذي (٢٤٩٣).

ترابا؟ !. ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقرئ "إنا". و"الأغلال" جمع غل؛ وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي يغلون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ (غافر: ٧١) إلى قوله: ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ (غافر: ٧٢). وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (الأنفال: ٣٢). قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: ﴿ قبل الحسنة ﴾ أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات. ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ العقوبات؛ الواحدة مثلة. ورُويَ عن الأعمش أنه قرأ "المثلات" بضم الميم وإسكان الثاء؛ وهذا جمع مثلة، ويجوز "المثلات" تبدلَ من الضمة فتحة لثقلها، وقيل: يؤتى بالفتحة عوضا من الهاء. وروي عن الأعمش أنه قرأ "المثلات" بفتح الميم وإسكان الثاء؛ فهذا جمع مثلة، ثم حذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحده مثلة، نحو صَدُقَة وصُدُقة؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا، واحدها على لغتهم مثلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غرفة وغرفات، والفعل منه مثلت به أمثل مثلا، بفتح الميم وسكون الثاء.

قوله تعالى: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾. ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ إذا أصروا على الكفر. وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ قال رسول الله ﷺ: (لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحداً عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل أحد)[1].

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويقول الذين كفروا لولا ﴾ أي هلا ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾. لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي معلم. ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾ فيه ثمان مسائل:

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في "التفسير"، (٢/٥٠٢)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا، ومع إرساله فيه علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف.

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدم في سورة "الأنعام" أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك لـه؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس) الحديث. وفيه (لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله). واختلف العلماء في تأويل قولـه: ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ فقال قتادة: المعنى ما تسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملـها كان ذلك نقصانا في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص؛ وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض انقطاع دم الحيض. "وما تزداد" بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليلـه الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع؛ قالـه ابن القصار. وذكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا إلى عمر ﷺ فعرضه على القافة، فألحقه القافة بهما، فعلاه عمر بالدرة، وسأل نسوة من قريش فقال: انظرن ما شأن هذا الولد؟ فقلن: إن الأول خلا بها وخلاها، فحاضت على الحمل، فظنت أن عدتها انقضت؛ فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني؛ فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم. احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملـها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية.

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل؛ ذكره الدارقطني. وقالت جميلة بنت سعد ـ أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد ـ إن أكثره ثلاث سنين. وعن الشافعي أربع سنين؛ وروي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروي عنه لا حد لـه، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه. وعن الزهري ست وسبع. قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعلـه إلى سبع؛ والشافعي: مدة الغاية منها أربع سنين. والكوفيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد

ابن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها. قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لـها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرف من أمر النساء وبالله التوفيق. روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملـها على سنتين قدر ظل المغزل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟ ! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين. وذكره عن المبارك ابن مجاهد قال: مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل. وروى أيضا قال: بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلـها بها غلاما، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك امرأتك، فذهب الرجل، فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعد قطط، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قطعت سراره؛ وروي أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إني غبت عن امرأتي سنتين فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال: ابني ورب الكعبة! ؛ فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لـهلك عمر. وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سني. ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أمه سنتين، وقيل: ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم ابن حيان هرما لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. وذكر الغزنوي أن الضحاك ولد لسنتين، وقد طلعت سنه فسمي ضحاكا. وقال عباد بن العوام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمر به طير فقال: كش.

السادسة: قال ابن خويز منداد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر ما أظهره لنا، ووجد ظاهرا في النساء نادرا أو معتادا؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لما لـم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهن.

السابعة: قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكي، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل في الرحم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا

تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زحل، فيقلبه ببرده؛ فيا ليتني تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم! ما بال المرجع بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره؟ الله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة! .

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: "بمقدار" قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. وقال قتادة: في الرزق والأجل. والمقدار القدر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وما هم عليه، ولم يقدح ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدله. و﴿ الكبير ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿ المتعال ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ إسرار القول: ما حدث به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسره الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و"منكم" يحتمل أن يكون وصفا لـ "سواء" التقدير: سرّ من أسر وجهر من جهر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق "بسواء" على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سر من أسر منكم وجهر من جهر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. وقيل: "سواء" أي مستو، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿ ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ أي يستوي في علم الله السر والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقطرب: المستخفي بالليل الظاهر؛ ومنه خفيت الشيء وأخفيته أي أظهرته؛ وأخفيت الشيء أي استخرجته؛ ومنه قيل للنباش: المختفي. وقال امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما ... خفاهن ودق من عشي مجلب

والسارب المتواري، أي الداخل سربا؛ ومنه قولهم: انسرب الوحشي إذا دخل في كناسه. وقال ابن عباس: "مستخف" مستتر، "وسارب" ظاهر. مجاهد: "مستخف" بالمعاصي، "وسارب" ظاهر. وقيل: معنى "سارب" ذاهب؛ قال الكسائي: سرب يسرب سربا وسروبا إذا ذهب؛ وقال الشاعر:

وكل أناس قاربوا قيد فحلـهم ونحـن خلعنا قيده فهو سارب

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السارب الذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر:

أني سربت وكنت غير سروب

وقال القتبي: ﴿ سارب بالنهار ﴾ أي منصرف في حوائجه بسرعة؛ من قولـهم: انسرب الماء. وقال الأصمعي: خل سربه أي طريقه.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لـه معقبات ﴾ أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: "معقبات" والملائكة ذكران لأنه جمع معقبة؛ يقال: ملك معقب، وملائكة معقبة، ثم معقبات جمع الجمع. وقرأ بعضهم ـ ﴿ لـه معاقيب من بين يديه ومن خلفه ﴾. ومعاقيب جمع معقب؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة وقيل: أنث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسابة وعلامة وراوية؛ قاله الجوهري وغيره. والتعقب العود بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾(النمل: ١٠) أي لم يرجع؛ وفي الحديث: (معقبات لا يخيب قائلـهن ـ أو ـ فاعلهن)[(١)] فذكر التسبيح والتحميد والتكبير. قال أبو الـهيثم: سمين ﴿ معقبات ﴾ لأنهن عادت مرة بعد مرة، فعل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب. والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض؛ فإذا انصرفت ناقة دخلـت مكانها أخـرى. وقولـه: ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار.

قولـه تعالى: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والـهوام والأشياء المضرة، لطفا منه به، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه؛ قالـه ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي فقال: احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك؛ فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة؛ وعلى هذا، ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أي بأمر الله وبإذنه؛ فـ "من" بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل: "من" بمعنى عن؛ أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم؛ وهذا قول الحسن؛ تقول: كسوته عن عري ومن عري؛ ومنه قولـه عز وجل: ﴿ أطعمهم من جوع ﴾(قريش: ٤) أي عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحل به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٦).

فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن؛ قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن. وملائكة العذاب من أمر الله؛ وخصهم بأن قال: ﴿ من أمر الله ﴾ لأنهم غير معاينين؛ كما قال: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ (الإسراء: ٨٥) أي ليس مما تشاهدونه أنتم. وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، لـه معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه. وهو مروي عن مجاهد وابن جريج والنخعي؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال ابن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عملـه؛ فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقوالـه وأفعالـه. ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الـهاء في "لـه" لله عز وجل، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول.

وقيل: ﴿ لـه معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ يعني به النبي ﷺ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول في قولـه: ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ﴾ (الرعد: ٧) أي سواء منكم من أسر القول ومن جهر به في أنه لا يضر النبي ﷺ، بل لـه معقبات يحفظونه ﷺ؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ (الرعد: ٧) أي يحفظون الـهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع: أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لـهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لـم يغنوا عنهم من الله شيئا؛ قاله ابن عباس وعكرمة؛ وكذلك قال الضحاك: هو السلطان المتحرس من أمر الله، المشرك. وقد قيل: إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى، ذكره الماوردي. قال المهدوي: ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه. وقيل: سواء من أسر القول ومن جهر به فلـه حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ؛ قال القشيري: وهذا لا يمنع الرب من الإمهال إلى أن يحق العذاب؛ وهو إذا غير هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة؛ فكأنه الذي يحل العقوبة بنفسه؛ فقولـه: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أي من امتثال أمر الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماوردي: ومن قال بهذا القول ففي تأويل قولـه: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ وجهان: أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قالـه الضحاك. الثاني: يحفظونه من الجن والهوام المؤذية، ما لم يأت قدر؛ ـ قالـه أبو أمامة وكعب الأحبار ـ فإذا جاء المقدور خلوا عنه؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ وروي عن ابن عباس، واختاره النحاس، واحتج بقول النبي ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) الحديث، رواه الأئمة.

وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ: (معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه) فهذا قد بين المعنى. وقال كنانة العدوي: دخل عثمان رضي الله عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: (ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال

يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه فبئس القرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (ق: ١٨) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قاسم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل)[١]. ذكره الثعلبي. قال الحسن: المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. واختيار الطبري: أن المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء وخلفهم؛ والهاء في "له" لهن؛ على ما تقدم. وقال العلماء رضوان الله عليهم: إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين: أحدهما: قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره. والآخر: قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ: وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا ﴾ أي هلاكا وعذابا، ﴿ فلا مرد له ﴾ وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ أي ملجأ؛ وهو معنى قول السدي. وقيل: من ناصر يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمن من وال

ووال وولي كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٢/ ٥٠٥)، وعزاه إلى ابن جرير، وقال: "غريب جداً".
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٩٨)، و مسلم (٢٨٨٠).

قولـه تعالى: ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴾ أي بالمطر. "السحاب" جمع، والواحدة سحابة، وسحب وسحائب في الجمع أيضا. ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ قد مضى في "البقرة" القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أي يريكم البرق في السماء خوفا للمسافر؛ فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والـهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿ أذى من مطر ﴾ (النساء: ١٠٢) وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصب؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما. وقال الحسن: خوفا من صواعق البرق، وطمعا في غيثه المزيل للقحط. "وينشئ السحاب الثقال" قال مجاهد: أي بالماء. "ويسبح الرعد بحمده" من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يسبح الرعد بدليل خلق الحياة فيه؛ ودليل صحة هذا القول قولـه: ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ فلو كان الرعد ملكا لدخل في جملة الملائكة. ومن قال إنه ملك قال: معنى. ﴿ من خيفته ﴾ من خيفة الله؛ قالـه الطبري وغيره. قال ابن عباس: إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم من على يمينه ومن على يساره، لا يشغلـهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرعد ملك يسوق السحاب، وإن بخار الماء لفي نقرة إبهامه، وإنه موكل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر، وإنه يسبح الله؛ فإذا سبح الرعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سبحت لـه. وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي يُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد. وقيل: إنه ملك جالس على كرسي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف ملك وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله.

قولـه تعالى: ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهودي قال للنبي ﷺ: أخبرني! من أي شيء ربك؛ أمن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته. وقيل: نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن: (كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي ﷺ نفرا يدعونه إلى الله ورسولـه والإسلام فقال لـهم: أخبروني عن رب محمد ما هو، ومم هو، أمن فضة أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال: أجيب محمدا إلى رب لا يعرفه! فبعث النبي ﷺ إليه مرارا وهو يقول مثل هذا؛ فبينا النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي ﷺ فاستقبلـهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالـوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ. ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾[(١)] . ذكره الثعلبي عن الحسن؛ والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي. وقيل: نزلت الآية في

---

(١) مرسل، وأخرجه الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٢٠٤) من وجه آخر عن ثابت عن أنس مرفوعاً. وفي سنده علي بن أبي شارة، وهو ضعيف كما قال الـهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٤٢).

أربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطفيل؛ قال ابن عباس: (أقبل عامر بن الطفيل وأربد ابن ربيعة العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا يا رسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك؛ فقال: دعه فإن يرد الله به خيرا يهده) فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ فقال: (لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين). قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: (ليس ذاك إلي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء). قال: أفتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال: (لا). قال: فما تجعل لي؟ قال: (أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها في سبيل الله). قال: أوليس لي أعنة الخيل اليوم؟ قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أومأ إلى أربد: إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه واضربه بالسيف، فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه؛ فاخترط أربد من سيفه شبرا ثم حبسه الله، فلم يقدر على سله، ويبست يده على سيفه؛ وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته؛ وولى عامر هاربا وقال: يا محمد! دعوت ربك على أربد حتى قتلته؛ والله لأملأنها عليك خيلا جردا، وفتيانا مردا؛ فقال عليه السلام: (يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة) يعني الأوس والخزرج؛ فنزل عامر بيت امرأة سلولية؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أصحر لي محمد وصاحبه ـ يريد ملك الموت ـ لأنفذتهما برمحي؛ فأرسل الله ملكا فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غدة عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: (غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره)[1]. ورثى لبيد بن ربيعة أخاه أربد فقال:

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمـ ـنا وقام الخصوم في كبد
أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والأسد
فجعني الرعد والصواعق بالفا رس يوم الكريهة النجد

وفيه قال:

إن الرزية لا رزية مثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكب
يا أربد الخير الكريم جدوده أفردتني أمشي بقرن أعضب

وأسلم لبيد بعد ذلك رضي الله عنه.

مسألة: روى أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تأخذ الصاعقة ذاكرا لله عز وجل)[2].
وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلي ديته)[3]. وذكر الخطيب من

---

(١) أورده بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٤٢، ٤١) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط والكبير.. وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف".

(٢) فيه أبان وهو ابن أبي عياش وهو متروك كما في "التقريب"، (١/ ٣١).

(٣) ذكره ابن كثير في "البداية"، (١/ ٣٩) من طريق ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه. قلت: فيه رجل مبهم لم يسم، وليث هو ابن أبي سليم ضعيف.

حديث سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال: كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب ﷺ فإذا بردة قد أصابت أنفه فأثرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال: بردة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولها؟ وقد تقدم هذا المعنى في "البقرة".

قوله تعالى: ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى: من أي شيء هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جريج: جدال أربد فيما هم به من قتل النبي ﷺ. ويجوز أن يكون، ﴿وهم يجادلون في الله﴾ حالا، ويجوز أن يكون منقطعا. وروى أنس (أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله: أخبرني عن إلهك هذا؟ أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه)؛ فقال: (ارجع إليه فادعه) فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وهم يجادلون في الله﴾[1] ﴿وهو شديد المحال﴾ قال ابن الأعرابي: "المحال" المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد ﴿وهو شديد المحال﴾ أي النقمة. وقال الأزهري: "المحال" أي القوة والشدة. والمحل: الشدة؛ الميم أصلية، وماحلت فلانا محالا أي قاويته حتى يتبين أينا أشد. وقال أبو عبيد: "المحال" العقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: "المحال" الجدال؛ يقال: ماحل عن أمره أي جادل. وقال القتيبي: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد وملاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ومفعل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مزود ومحول ومحور، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرج - ﴿وهو شديد المحال﴾ بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول، ذكر هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولا عن ابن الأعرابي؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها؛ وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الحول، قاله ابن عباس أيضا. وثالثها: شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها: شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها: شديد الغضب، قاله وهب بن منبه. وسابعها: شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضا. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيدة معمر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نبع يهتز في غصن المجـ ـد كثير الندى شديد المحال

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

وقال آخر:

ولبس بَيْنَ أقوام فكل أعد له الشغازب والمحالا

وقال عبد المطلب:

لاهُمَّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحا لهم عدوا محالك

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ (١٤)﴾

قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق﴾ أي لله دعوة الصدق. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: لا إله إلا الله. وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق. وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه. كما قال: ﴿ضل من تدعون إلا إياه﴾ (الإسراء: ٦٧)؛ قال الماوردي: وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿والذين يدعون من دونه﴾ يعني الأصنام والأوثان. ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء. ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها: أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد. الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس. الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه. وزعم الفراء أن المراد بالماء ههنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي وبئري ذو حفرت وذو طويت

قال علي ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه، ومعنى ﴿إلا كباسط﴾ إلا كاستجابة باسط كفيه "إلى الماء" فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله: ﴿ليبلغ فاه﴾ متعلقة بالبسط، وقوله: ﴿وما هو ببالغه﴾ كناية عن الماء؛ أي وما الماء ببالغ فاه. ويجوز أن يكون "هو" كناية عن الفم؛ أي ما الفم ببالغ الماء. ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك، وقيل: إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلا؛ كما قال: ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾ (الأعراف: ٣٧) وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كرها بالسيف. وعن قتادة أيضا: يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كرها ما فيه من الخضوع وأثر الصنعة. وقال ابن زيد: ﴿ طوعا ﴾ من دخل في الإسلام رغبة، و"كرها" من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل: "طوعا" من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و"كرها" من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى "والأرض" وبعض من في الأرض. قال القشيري: وفي الآية مسلكان: أحدهما: أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفراء. وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصا وإيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويمرنوا عليه. والمسلك الثاني: وهو الصحيح ـ إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به. والثاني: وهو الحق ـ أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾(الإسراء: ٤٤) وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة.

قوله تعالى: ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ﴾ (النحل: ٤٨) قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره. وقال ابن الأنباري: يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القشيري: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أي مالت. و"الآصال" جمع أصل، والأصل جمع أصيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله   وأقعد في أفيائه بالأصائل

و"ظلالهم" يجوز أن يكون معطوفا على "من" ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالهم سجد بالغدو والآصال و"بالغدو" يجوز أن يكون مصدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوي كونه جمعا مقابلة الجمع الذي هو الآصال به.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل من رب السماوات والأرض قل الله ﴾ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ قل من رب السماوات والأرض ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو. ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ﴾ هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ معنى؛ دليله قوله: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ (الزمر: ٣٨) أي فإذا اعترفتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلا فقال: ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مثل لما عبدوه من دون الله، والبصير مثل الله تعالى: ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي "يستوي" بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث "الظلمات" ليس بحقيقي. الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و﴿ الظلمات والنور ﴾ مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء. والآية رد على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿ وهو الواحد ﴾ قبل كل شيء. ﴿ القهار ﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد. قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سلهم عن خالق السماوات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإن عجز الجماد وعجز كل مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم، وإذا تقرر هذا وبان أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له؟! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ ضرب مثلا للحق والباطل؛ فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل، على ما نبيّنه. قال مجاهد: ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال: بقدر ملئها. وقال ابن جريج: بقدر صغرها وكبرها. وقرأ الأشهب العقيلي والحسن "بقدرها" بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدر لـها. والأودية جمع الوادي؛ وسمي واديا لخروجه وسيلانه؛ فالوادي على هذا اسم للماء السائل. وقال أبو علي: ﴿ فسالت أودية ﴾ توسع؛ أي سال ماؤها فحذف، قال: ومعـنى "بقدرها" بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. ﴿ فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ أي طـالعا عـاليا مرتفعا فوق الماء؛ وتم الكلام؛ قاله مجاهد. ثم قال: ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ وهو المثل الثاني. ﴿ ابتغاء حلية ﴾ أي حلية الذهب والفضة. ﴿ أو متاع زبد مثلـه ﴾ قال مجاهد: الحديد والنحاس والرصاص. وقولـه: ﴿ زبد مثلـه ﴾ أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السـيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبث في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايلـه تراب الأرض. وقولـه: ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ قال مجاهد: جمودا. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أجفأت القدر إذا غلت حتى ينصب زبدها، وإذا جمد في أسفلـها. والجفاء ما أجفاه الوادي أي رمى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ "جفالا" قال أبو عبيدة: يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته. ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصافي. وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلالـه، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث. وقيل: المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب؛ فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحـسب سـعتها وضـيقها. قال ابن عباس: ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ قال: قرآنا، ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال: الأودية قلوب العباد. قال صاحب "سوق العروس" إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء. ومثل القلوب بالأودية، ومثل المحكم بالصافي، ومثل المتشابه بالزبد. وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعها، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجد في الوادي باقيا، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية، والأخلاق الزكية؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص، "يوقدون" بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقولـه: ﴿ ينفع الناس ﴾ فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء لقولـه في أول الكلام: ﴿ أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ (الرعد: ١٦) الآية. وقولـه: ﴿ في النار ﴾ متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الـهاء التي في

"عليه" التقدير: ومما توقدون عليه ثابتا في النار أو كائناً. وفي قوله: ﴿في النار﴾ ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق "في النار" بـ "يوقدون" من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله: ﴿في النار﴾ غير مقيد. وقوله: ﴿ابتغاء حلية﴾ مفعول له. "زبد مثله" ابتداء وخبر؛ أي زبد مثل زبد السيل. وقيل: إن خبر "زبد" قوله: "في النار" الكسائي: "زبد" ابتداء، و"مثله" نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو ﴿مما يوقدون﴾. ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ أي كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بينات. تم الكلام.

قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨)﴾

قوله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿الحسنى﴾ لأنها في نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غدا. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾ أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعا﴾ أي من الأموال. ﴿ومثله معه﴾ ملك لهم. ﴿لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره في "آل عمران" ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ (آل عمران: ١٠)، ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ (آل عمران: ٩١) حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فرقد السبخي: قال لي إبراهيم النخعي: يا فرقد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء. ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿وبئس المهاد﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩)﴾

قوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وروي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله. والمراد بالعمى عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب. ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠)﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم الجنس؛ أي بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي. وقولـه: ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهدا لم ينقضوه. قال قتادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، هو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم. وقال القفال: هو ما ركب في عقولـهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية: روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال: (كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك حتى قالـها ثلاثا؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ـ قال: لا تسألوا الناس شيئا). قال: ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط ـ سوطه فما يسأل أحدا أن يناولـه[1] إياه. قال ابن العربي: من أعظم المواثيق في الذكر ألا يسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله ﷺ ألا يسألوا أحدا شيئا، الحديث؛ فقال أبو حمزة: رب! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا؛ قال: فخرج حاجا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق؛ فلما حل في قعره قال: أستغيث لعل أحدا يسمعني. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله! لا تكلمت بحرف للبشر، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سد هذا البئر؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله! لا أخرج منها أبدا؛ ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدت من يراك؟ فسكت وتوكل، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدي فأقلني في مرة واحدة إلى فم البئر؛ فخرجت فلم أر أحدا؛ فسمعت هاتفا يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى ... فأغنيتني بالعلم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالعلم حتى كأنما ... تخبرني بالغيب أنك في كف
أراني وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كيف الحياة مع الحتف

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (١٤٤٥).

قال ابن العربي: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا. قال أبو الفرج الجوزي: سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة، واستئجاره دليلا، واستكتامه ذلك الأمر، واستتاره في الغار، وقوله لسراقة: (اخف عنا)[١] . فالتوكل الممدوح لا ينال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطلها مدعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل، وردا لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثوري وغيره، لأنه قد دل على طريقة السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. وقال أبو الفرج: ولا التفات إلى قول أبي حمزة: "فجاء أسد فأخرجني" فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿ ويخشون ربهم ﴾ قيل: في قطع الرحم. وقيل: في جميع المعاصي. ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نوقش الحساب عذب[٢] . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: معنى. ﴿ يصلون ما أمر الله به ﴾ الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن: هو صلة محمد ﷺ . ويحتمل رابعا: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ ﴿ ويخشون ربهم ﴾ فيما أمرهم بوصله، ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ قيل: "الذين" مستأنف؛ لأن "صبروا" ماض فلا ينعطف على "يوفون". وقيل: هو من وصف من تقدم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان "الذين" يتضمن الشرط، والماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ الذين يوفون ﴾ ثم قال: ﴿ والذين صبروا ﴾ ثم

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وهو حديث الهجرة.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (١٠٣) وفي غير موضع، ومسلم (٢٨٧٦).

عطف عليه فقال: ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عمران الجوني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ يعني الزكاة المفروضة، عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في "البقرة" وغيرها. ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السيئ من الأعمال، قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جويبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القتبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ (هود: ١١٤) ومنه قوله ﷺ لمعاذ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[١].

قوله تعالى: ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عني بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ أي لهم جنات عدن؛ فـ "جنات عدن" بدل من "عقبى" ويجوز أن تكون تفسيرا لـ﴿ عقبى الدار ﴾ أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن ﴿ عقبى الدار ﴾ حدث و﴿ جنات عدن ﴾ عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون "جنات عدن" خبر ابتداء محذوف. و﴿ جنات عدن ﴾ وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القشيري أبو نصر عبد الملك. وفي صحيح البخاري: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) فيحتمل أن يكون "جنات" كذلك إن صح فذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصرا يقال له عدن، حوله البروج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و﴿ عدن ﴾ مأخوذ من عدن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة "الكهف" إن شاء الله تعالى. ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على ﴿ أولئك ﴾ المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع في "يدخلونها" وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم، أي من كان صالحا، لا

---

(١) "حسن" أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وانظر صحيح الجامع (٩٧).

يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع "من" نصبا على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم. وقال ابن عباس: هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية. قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال، والمعنى: أن النعمة غدا تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ أي بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم. ﴿ سلام عليكم ﴾ أي يقولون: سلام عليكم؛ فأضمر القول، أي قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية. ﴿ بما صبرتم ﴾ أي بصبركم؛ فـ"ما" مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في "بما" متعلقة بمعنى. ﴿ سلام عليكم ﴾ ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي هذه الكرامة بصبركم، أي على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عمران الجوني. وقيل: على الجهاد في سبيل الله؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: (المجاهدون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[1]. وقال محمد ابن إبراهيم: (كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: (كان النبي ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أتى فرضة الشعب يقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[2]. ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: ﴿ بما صبرتم ﴾ عن فضول الدنيا. وقيل: "بما صبرتم" على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: ﴿ بما صبرتم ﴾ عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعا ـ ﴿ بما صبرتم ﴾ عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين ﷺ أنهما قالا: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند"، (٢/١٦٨) في مسند عبد الله بن عمرو، وقال الشيخ شاكر (٦٥٧٠): "إسناده صحيح".

(٢) ذكره ابن كثير في "البداية"، (٤/٤٥)، وعزاه إلى البيهقي من طريق عباد بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا. وعباد لين الحديث كما في التقريب (١/٤٢٣).

لـهم الملائكة: ﴿ سلام عليكم بما صبرتم﴾ . ﴿ فنعم عقبى الدار﴾ أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا اسم، و"الدار" هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: ﴿ فنعم عقبى الدار﴾ الجنة عن النار. وعنه: ﴿ فنعم عقبى الدار﴾ الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر ما لـهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولـهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿ ويقطعون ما أمر الله بهِ أن يوصل﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿ ويفسدون في الأرض﴾ أي بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿ أولئك لـهم اللعنة﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة. ﴿ ولـهم سوء الدار﴾ أي سوء المنقلب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص: والله الذي لا إلـه إلا هو! إنهم الحرورية.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم. "ويقدر" أي يضيق؛ ومنه ﴿ ومن قدر عليه رزقه﴾ (الطلاق: ٧) أي ضيق. وقيل: "يقدر" يعطي بقدر الكفاية. ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على ﴿ ويفسدون في الأرض﴾ . وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي في جنبها. ﴿ إلا متاع﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقصعة والسكرجة. وقال مجاهد: شيء قليل ذاهب؛ من متع النهار إذا ارتفع؛ فلا بد لـه من زوال. ابن عباس: زاد كزاد الراعي. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يستمتع بها منها. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، ﴿ ولـهم سوء الدار﴾ ثم ابتدأ. ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع ويضيق.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي ﷺبالآيات. ﴿قل إن الله ﴾عز وجل ﴿يضل من يشاء ﴾أي كما أضلكم بعدما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها. ﴿ويهدي إليه من أناب ﴾أي من رجع. والـهاء في "إليه" للحق، أو للإسلام، أو لله عز وجل؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿الذين آمنوا ﴾ "الذين" في موضع نصب، لأنه مفعول؛ أي يهدي الله الذين آمنوا. وقيل بدل من قولـه: ﴿من أناب ﴾فهو في محل نصب أيضا. ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال: أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قتادة وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئن بذكر فضلـه وإنعامه؛ كما تَوْجل بذكر عدلـه وانتقامه وقضائه. وقيل: "بذكر الله" أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة.

قولـه تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أي قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه. وقيل: ﴿بذكر الله ﴾أي بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعد الله. وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لـهم ﴾ابتداء وخبره. وقيل: معناه لـهم طوبى، فـ"طوبى" رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير: جعل لـهم طوبى، ويعطف عليه ﴿وحسن مآب ﴾على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب. وذكر عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البكالي عن عتبة بن عبد السلمي قال: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسألـه عن الجنة وذكر الحوض) فقال (فيها فاكهة)؟ قال: (نعم شجرة تدعى طوبى) قال: يا رسول الله! (أي شجر أرضنا تشبه)؟ قال (لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها). قال: يا رسول الله! (فما عظم أصلـها!) قال: (لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحطت بأصلـها حتى تنكسر ترقوتها هرما)[1]. وذكر الحديث، وقد كتبناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب "التذكرة"، والحمد لله. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا معمر عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لـها طوبى؛ يقول الله تعالى لـها: تفتقي لعبدي عما شاء؛ فتفتق لـه عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته

---

(١) أورده الـهيثمي في "المجمع"، (١٠/٤١٣)، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط واللفظ لـه وفي الكبير وأحمد باختصار عنهما وفيه عامر بن زيد البكالي وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجالـه ثقات".

كما شاء، وتفتق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النجائب والثياب. وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال: ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبي ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقاله ابن عباس: ﴿ طوبى لهم ﴾ فرح لهم وقرة عين؛ وعنه أيضا أن "طوبى" اسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جبير. الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند؛ قال القشيري: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين. وقال قتادة: ﴿ طوبى لهم ﴾ حسنى لهم. عكرمة: نعمى لهم. إبراهيم النخعي: خير لهم، وعنه أيضا كرامة من الله لهم. الضحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طوبى فعلى من الطيب؛ أي العيش الطيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب. وقال الزجاج: طوبى فعلى من الطيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طيبى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسر وموقن.

قلت: والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبي في تفسيره؛ وذكر أيضا المهدوي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة)[1] ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي. وقال ابن عباس: "طوبى" شجرة في الجنة أصلها في دار علي، وفي دار كل مؤمن منها غصن. وقال أبو جعفر محمد بن علي: (سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ طوبى لهم وحسن مآب ﴾) قال: (شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة) ثم سئل عنها مرة أخرى فقال: (شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة). فقيل له: (يا رسول الله! سئلت عنها فقلت: (أصلها في داري وفروعها في الجنة) ثم سئلت عنها فقلت: (أصلها في دار علي وفروعها في الجنة) فقال النبي ﷺ: (إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد) وعنه ﷺ: (هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مدلى فيها غصن منها) ﴿ وحسن مآب ﴾ آب إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن. وقيل: شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله. ﴿ لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ يعني القرآن. ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصلح، فقال النبي ﷺ

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ١١١)، وعزاه إلى ابن جرير.

لعلي: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب؛ اكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي ﷺ لعلي: (اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم؛ فقال: (لا ولكن اكتب ما يريدون)[١] فنزلت. وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: ﴿اسجدوا للرحمن﴾ (الفرقان: ٦٠) ﴿قالوا وما الرحمن﴾ فنزلت. ﴿قل﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم. ﴿هو ربي لا إله إلا هو﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته؛ وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عليه توكلت﴾ واعتمدت ووثقت. ﴿وإليه متاب﴾ أي مرجعي غدا، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت، رضا بقضائه، وتسليما لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحجر ويقول: (يا الله يا رحمن) فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل. ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ (الإسراء: ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ هذا متصل بقوله: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ (يونس: ٢٠). وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبد الله: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع؛ فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأحي لنا قصب جدك، أو من شئت أنت من موتانا نسأله؛ أحق ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾[٢] الآية؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازا، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري، وهو حديث صلح الحديبية، وليس فيه ذكر النزول.

(٢) أورده الهيثمي في "المجمع"، (٧/٤٣) مختصرًا عن ابن عباس، وقال: "رواه الطبراني وفيه قابوس بن أبي ظبيان وهو ضعيف وقد وثق.

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

يعني لهان علي؛ هذا معنى قول قتادة؛ قال: لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزجاج: ﴿ولو أن قرآنا﴾ إلى قوله: "الموتى" لما آمنوا، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ (الأنعام: ١١١) إلى قوله: ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ (الأنعام: ١١١). ﴿بل لله الأمر جميعا﴾ أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أفلم ييئس الذين آمنوا﴾ قال الفراء قال الكلبي: "ييأس" بمعنى يعلم، لغة النخع؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح. وقيل: هو لغة هوازن؛ أي أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبينوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النصري:

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ييسرونني من الميسر، وقد تقدم في "البقرة" ويروى يأسرونني من الأسر. وقال رباح بن عدي:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

في كتاب الرد "أني أنا ابنه" وكذا ذكره الغزنوي: ألم يعلم؛ والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات. وقيل: هو من اليأس المعروف؛ أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات طمعا في إيمان الكفار. وقرأ علي وابن عباس: ﴿أفلم يتبين الذين آمنوا﴾ من البيان. قال القشيري: وقيل لابن عباس المكتوب ﴿أفلم ييئس﴾ قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار "ييئس". قال أبو بكر الأنباري: روي عن عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ - "أفلم يتبين الذين آمنوا" وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة؛ وهو باطل عن ابن عباس، لأن مجاهدا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه: أفلم يتبين؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛ وأما سقوطه يبطل القرآن، ولزوم أصحابه البهتان. ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾ "أن" مخففة من الثقيلة، أي أنه لو يشاء الله ﴿لهدى الناس جميعا﴾ وهو يرد على القدرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم؛ وعتوهم؛ ويقال: قرعه أمر إذا أصابه، والجمع قوارع؛ والأصل في القرع الضرب؛ قال:

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القواقيز أفواه الأباريق

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو من أسر أو جدب، أو غير ذلك من العذاب والبلاء؛ كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين. وقال عكرمة عن ابن عباس: القارعة النكبة. وقال ابن عباس أيضا وعكرمة: القارعة الطلائع والسرايا التي كان ينفذها رسول الله ﷺ لهم ﴿ أو تحل ﴾ أي القارعة. ﴿ قريبا من دارهم ﴾ قاله قتادة والحسن. وقال ابن عباس: أو تحل أنت قريبا من دارهم. وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة. ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: نزلت بمكة؛ أي تصيبهم القوارع، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحل قريبا من دارهم، أو تحل بهم محاصرا لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولقلاع خيبر، ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم. وقال الحسن: وعد الله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في "البقرة" ومعنى الإملاء في "آل عمران" أي سخر بهم، وأزري عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي فكيف رأيتم ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمور الخلق؛ كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: ﴿ أفمن هو قائم ﴾ أي عالم؛ قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رجال من قريش أعزة سرقتم ثياب البيت والله قائم

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس. وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك. ﴿ وجعلوا ﴾ حال؛ أي أو قد جعلوا، أو عطف على "استهزئ" أي استهزؤوا وجعلوا؛ أي سموا ﴿ لله شركاء ﴾ يعني أصناما جعلوها آلهة. ﴿ قل سموهم ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿ سموهم ﴾ أي بينوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يسمون: اللات والعزى ومناة وهبل. ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ "أم" استفهام توبيخ، أي أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم

في المعنى؛ لأن قوله: ﴿ سموهم ﴾ معناه: ألهم أسماء الخالقين. ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾؟. وقيل: المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه. ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم؛ فإذا سموهم اللات والعزى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكا. وقيل: "أم تنبئونه" عطف على قوله: "أفمن هو قائم" أي أفمن هو قائم، أم تنبئون الله بما لا يعلم؛ أي أنتم تدعون لله شريكا، والله لا يعلم لنفسه شريكا؛ أفتنبئونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم ادعوا له شركاء في الأرض. ومعنى. ﴿ أم بظاهر من القول ﴾: الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قتادة: معناه بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر:

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أي باطل. وقال الضحاك: بكذب من القول. ويحتمل خامسا ـ أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ أي دع هذا! بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل: استدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس ومجاهد ـ ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ مسمى الفاعل، وعلى قراءة الجماعة فالذي زين للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكرا؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا. ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ أي صدهم الله؛ وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقون بالفتح؛ أي صدوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله: ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ (الأنفال: ٤٧) وقوله: ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ (الفتح: ٢٥). وقراءة الضم أيضا حسنة في "زين" و"صدوا" لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة ـ "وصِدوا" بكسر الصاد؛ وكذلك. ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ (يوسف: ٦٥) بكسر الراء أيضا علىَ ما لم يسم فاعله؛ وأصلها صددوا ورددت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿ ومن يضلل الله ﴾ بخذلانه. ﴿ فما له من هاد ﴾ أي موفق؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقوله: ﴿ ومن يضلل الله ﴾ فكذلك قوله: "وصدوا". ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء؛ وكذلك "وال" و"واق"؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاض ووال وهاد، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين. وقرئ "فما له من هادي" و"والي" و"واقي" بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردت الياء فصار هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نداء قاض: يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي للمشركين الصادين: بالقتل والسبي والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ أي أشد؛ من قولك: شق علي كذا يشق. ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و "من" زائدة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ اختلف النحاة في رفع "مثل" فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الجنة. وقال الخليل: ارتفع الابتداء وخبره ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ (الفتح: ٢٩) وقال: ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ (النحل: ٦٠) أي الصفة العليا؛ وأنكره أبو علي وقال: لم يسمع مثل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبهك؛ قال: ويفسد أيضا من جهة المعنى؛ لأن مثلا إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها. وقال الزجاج: مثل الله عز وجل لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علي فقال: لا يخلو المثل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جنة، فجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث؛ والجنة غير حدث؛ فلا يكون الأول الثاني. وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (الشورى: ١١): أي ليس هو كشيء. وقيل التقدير: صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنة ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود؛ قاله مقاتل. ﴿ أكلها دائم ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر: (إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى) وقد بيناه في "التذكرة". ﴿ وظلها ﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول؛ وهذا رد على الجهمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى. ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سلام وسلمان، والذين جاؤوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن؛ وقالـه مجاهد وابن زيد. وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم. وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليـلا في أول مـا أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فلـه الأسماء الحسنى ﴾ (الإسراء: ١١٠) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إلـه واحد فأصبح اليوم يدعو إلـهين، الله والرحمن! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب؛ فنزلت: ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ (الأنبياء: ٣٦) ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ (الرعد: ٣٠) ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾. ﴿ ومن الأحزاب ﴾ يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض. ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على "أعبد". وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك لـه، وأتبرأ عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومـن اعتقد التشـبيه كاليهود. ﴿ إليه أدعو ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس. ﴿ وإليه مآب ﴾ أي أرجع في أموري كلها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزلـه على محمد ﷺ، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا، أي بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كلـه؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿ بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿ ولا واق ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ أي جعلناهم بشرا يقصون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال ﷺ: (تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم)[١] الحديث. وقد تقدم في "آل عمران" وقال: (من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الثاني)[٢]. ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله ﷺ عليهما الجنة فقال: (من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة ما بين لحييه وما بين رجليه) خرجه الموطأ وغيره[٣]. وفي صحيح البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج؛ فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني). خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبين. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ؛ ولو أجاز له ذلك لاختصينا، وقد تقدم في "آل عمران" الحض على طلب الولد والرد على من جهل ذلك. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبي أن يخرج الله مني من يكاثر به النبي ﷺ النبيين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول: (عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأحسن أخلاقا وأنتق أرحاما وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)[٤] يعني بقوله: (أنتق أرحاما) أقبل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رميا. وخرج أبو داود عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال (لا) ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)[٥]. صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك.

قوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات ـ ما تقدم ذكره في هذه السورة ـ فأنزل الله ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حظر ومعناه النفي؛ لأنه لا يحظر

---

(١) "حسن صحيح" بنحوه في صحيح أبي داود (١٨٠٥).
(٢) "حسن" انظر صحيح الجامع (٦١٤٨).
(٣) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٦٥٩٣).
(٤) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٦٥٩٣).
(٥) "صحيح" وقد سبق.

على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿لكل أجل كتاب﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. ﴿لكل نبأ مستقر﴾ (الأنعام: ٦٧)؛ بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: لما ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجبار في إصبعه خاتما، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيء من حلي الرجال، قال: فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لكل أجل كتاب﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به. "ويثبت" ما يشاء؛ أي يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محوا، أي أذهبت أثره. "ويثبت" أي ويثبته؛ كقوله: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ (الأحزاب: ٣٥) أي والذاكرات الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم "ويثبت" بالتخفيف، وشدد الباقون؛ وهي قراءة ابن عباس، واختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ (إبراهيم: ٢٧). وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: (يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت)[(١)]. وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلق والخُلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ الذي لا يتغير منه شيء. قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ: توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي. وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء؛ فإنك: تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أم الكتاب. وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

---

(١) أورده الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٤٣)، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن جابر اليمامي وهو ضعيف من غير تعمد كذب".

وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب". وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لـها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلـها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقد تقدم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من سره أن يبسط لـه رزقه وينسأ لـه أثره فليصل رحمه). ومثلـه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب) فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت. والآخر: يؤخر أجلـه المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدل لـه، كما قال: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب". وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أحب أن يمد الله في عمره وأجلـه ويبسط لـه في رزقه فليتق الله وليصل رحمه) كيف يزاد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله عز وجل: ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ﴾ (الأنعام: ٢). فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني: يعني المسمى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقولـه تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلـهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف: ٣٤) فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يحكم الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس.

وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي ﷺ. ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كلـه، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدلـه، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدثنا بكر بن سهل، قال حدثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، "يمحو الله ما يشاء" يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، "ويثبت" ما يشاء فلا يبدلـه، "وعنده أم الكتاب" يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جبير أيضا: يغفر ما يشاء ـ يعني ـ من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عكرمة: يمحو ما يشاء ـ يعني بالتوبة ـ جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات قال تعالى: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ﴾ (الفرقان: ٧٠)

الآية. وقال الحسن: "يمحو الله ما يشاء" من جاء أجله، "ويثبت" من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضا: ينسى الحفظة من الذنوب ولا ينسى. وقال السدي: "يمحو الله ما يشاء" يعني: القمر، "ويثبت" يعني: الشمس؛ بيانه قوله: ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ (الإسراء: ١٢) وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم؛ يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه؛ بيانه قوله: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ الآية (الزمر: ٤٢). وقال علي بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ (يس: ٣١) ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ (المؤمنون: ٣١) فيمحو قرنا، ويثبت قرنا. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله؛ فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبي والماوردي عن ابن عباس. وقيل: يمحو الله ما يشاء ـ يعني الدنيا ـ ويثبت الآخرة. وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء، وقد تقدم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان. وقال ابن عباس: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء، لها دفتان من ياقوتة حمراء، لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء. وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: (إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء)[1]. والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما، وهو الثابت؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب، وهو الممحو، والله أعلم. وقال الغزنوي: وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدل. "وعنده أم الكتاب" أي أصل ما كتب من الآجال وغيرها. وقيل: أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه: كن كتابا، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذكر؛ دليله قوله تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) وهذا يرجع معناه إلى الأول؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في " التفسير"، (٢/ ٥٢٠) من طريق الليث بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء مرفوعًا. قلت: زيادة بن محمد هو الأنصاري منكر الحديث كما في التقريب (١/ ٢٧١).

قولـه تعالى: ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ "ما" زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقولـه: ﴿لـهم عذاب في الحياة الدنيا﴾(الرعد: ٣٤) وقولـه: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾(الرعد: ٣١) أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أي التبليغ؛ ﴿وعلينا الحساب﴾ أي الجزاء والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أو لم يروا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أنا نأتي الأرض﴾ أي نقصدها. ﴿ننقصها من أطرافها﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: "ننقصها من أطرافها" موت علمائها وصلحائها. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف؛ وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم؛ ولكن هذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى. وقال مجاهد أيضا وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين؛ وروي ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد: نقصانها خرابها وموت أهلـها. وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عمير عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال: ذهاب فقهائها وخيار أهلـها. قال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا؛ تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاه المهدوي عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه، روى سفيان عن منصور عن مجاهد، "ننقصها من أطرافها" قال: موت الفقهاء والعلماء؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس. وقال عكرمة والشعبي: هو النقصان وقبض الأنفس. قال أحدهما: ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك. وقال الآخر: لضاق عليك حش تتبرز فيه. قيل: المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى: أو لم تر قريش هلاك من قبلـهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك؛ وروي ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج. وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلـها. وقيل: نقصها بجور ولاتها.

قلت: وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلـها والجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿والله يحكـم لا معقب لحكمه﴾ أي ليس يتعقـب حكمـه أحـد بنقص ولا تغير. ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب، ولا عقد بنان؛ حسب ما تقدم في "البقرة" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلـهم ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لـهم وكفروا بهم. ﴿فلله المكر جميعا ﴾ أي هو مخلوق لـه مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه. وقيل: فللـه خير المكر؛ أي يجازيهـم به. ﴿يعلـم مـا تكسب كل نفس ﴾ من خير وشـر، فيجازي عليه. ﴿وسيعلم الكفار ﴾ كذا قراءه نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقون: "الكفار" على الجمع. وقيل: عني به أبو جهل. ﴿لمن عقبى الدار ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾ قال قتادة: هم مشركو العرب؛ أي لـست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقول؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك. ﴿قل كفى بالله ﴾ أي قل لـهم يا محمد: "كفى بالله" أي كفى الله ﴿شهيدا بيني وبينكم ﴾ بصدقي وكذبكم. "ومن عنده علم الكتاب" وهذا إحجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب ـ من آمن منهم ـ في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري والنجاشي وأصحابه، قالـه قتادة وسعيد بن جبير. وروى الترمذي عن ابن أخي عبد الله ابن سلام قال: لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال لـه عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرتك؛ قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي من داخل؛ قال فخرج عبدالله بن سلام إلى الناس فقال: أيها الناس! إنه كان اسمي في الجاهلية فلان، فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في. ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثلـه فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (الأحقاف: ١٠) ونزلت في. "قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" الحديث. وقد كتبناه بكمالـه في كتاب "التذكرة". وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وكـان اسمه في الجاهليـة حصين فسمـاه النبي ﷺ عبد الله. وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير "ومن عنده علم الكتاب"؟ قال: هو عبد الله بن سلام.

قلت: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وابن سلام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي. وقال القشيري: وقال ابن جبير السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضحاك: هو الله تعالى؛ وكانوا يقرؤون "ومن عنده علم الكتاب" وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سلام وسلمان؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. وروي

عن النبي ﷺ أنه قرأ "ومن عنده علم الكتاب" وإن كان في الرواية ضعف، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك ـ "ومن عنده" بكسر الميم والعين والدال "علم الكتاب" بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاءَ: قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب ﷺ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية. وقيل: جميع المؤمنين، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما من قال إنه علي فعوّل على أحد وجهين: إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي ﷺ: (أنا مدينة العلم وعلي بابها)[1] وهو حديث باطل؛ النبي ﷺ مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط، على قدر منازلهم في العلوم. وأما من قال إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي ﷺ بصدقه.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن. وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعوّل على حديث الترمذي؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ يعني قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان. قال النحاس: وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(١) "موضوع" وانظر ضعيف الجامع (١٤١٦).

سورة إبراهيم

مقدمة السورة:

سورة إبراهيم مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنيتين وقيل: ثلاث، نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا﴾(إبراهيم: ٢٨) إلى قوله: ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾(إبراهيم: ٣٠).

قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾

قوله تعالى: ﴿الر كتاب أنزلناه إليك﴾ تقدم معناه. ﴿لتخرج الناس﴾ أي بالكتاب، وهو القرآن، أي بدعائك إليه. ﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور. وقيل: من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين، والمعنى متقارب. ﴿بإذن ربهم﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم، والباء في "بإذن ربهم" متعلقة بـ "تخرج" وأضيف الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر الهادي. ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ هو كقولك: خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو، لأنهما شيء واحد؛ والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه. وقيل: "العزيز" الذي لا يغلبه غالب. وقيل: "العزيز" المنيع في ملكه وسلطانه. "الحميد" أي المحمود بكل لسان، والممجد في كل مكان على كل حال. وروى مقسم عن ابن عباس قال: كان قوم آمنوا بعيسى ابن مريم، وقوم كفروا به، فلما بعث محمد ﷺ آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي ملكا وعبيدا واختراعا وخلقا. وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما: "الله" بالرفع على الابتداء "الذي" خبره. وقيل: "الذي" صفة، والخبر مضمر؛ أي الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على كل شيء. الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت؛ كقولك: مررت بالظريف زيد. وقيل: على البدل من "الحميد" وليس صفة؛ لأن اسم الله صار كالعلم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض. وكان يعقوب إذا وقف على "الحميد" رفع، وإذا وصل خفض على النعت. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على "وما في الأرض". ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ قد تقدم معنى الويل في "البقرة" وقال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة. "من عذاب شديد" أي من جهنم.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا ﴾ أي يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ "الذين" في موضع خفض صفة لـهم. وقيل: في موضع رفع خبر ابتداء مضمر، أي هم الذين وقيل: "الذين يستحبون" مبتدأ وخبره. "أولئك". وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصد عن سبيل الله - أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قالﷺ: (إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)[1] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. وقيل: "يستحبون" أي يلتمسون الدنيا من غير وجهها، لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته. "ويبغونها عوجا" أي يطلبون لـها زيغا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكر وتؤنث. والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائما؛ وبفتح العين في كل ما كان قائما، كالحائط والرمح ونحوه؛ وقد تقدم في "آل عمران" وغيرها. ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ أي ذهاب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول ﴾ أي قبلك يا محمد ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ أي بلغتهم، ليبينوا لـهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم لـه ما جاء به النبيﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ (سبأ: ٢٨). وقالﷺ: (أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه)[2]. وقالﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار). خرجه مسلم، وقد تقدم. ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ رد على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على "ليبين" لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصب في "يضل" لأن الإرسال صار سببا للإضلال؛ فيكون كقولـه: ﴿ ليكون لـهم عدوا وحزنا ﴾ (القصص: ٨) وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم؛ فصار كأنه سبب لكفرهم ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تقدم معناه.

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٣٥٧٧) بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري بمعناه (٣٣٥).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أي بحجتنا وبراهيننا؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات. ﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا ﷺ أول السورة: ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ وقيل: "أن" هنا بمعنى أي، كقوله تعالى: ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ (ص: ٦) أي امشوا.

قوله تعالى: ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أي قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم؛ وقاله أبي بن كعب ورواه مرفوعا؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم، وقد تسمى النعم الأيام؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها. قال ابن زيد: يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبري: وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم، أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بينا موسى ؑ في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه)[1] وذكر حديث الخضر؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرفق للقلوب، المقوي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة. ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في التذكير بأيام الله ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات. ﴿ لكل صبار ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿ شكور ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ـ ثم تلا هذه الآية ـ ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾).[2] ونحوه عن الشعبي موقوفا. وتوارى الحسن البصري عن الحجاج سبع سنين، فلما بلغه موته قال: اللهم قد أمته فأمت سنته، وسجد شكرا، وقرأ: "إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور". وإنما خص بالآيات كل صبار شكور؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال: ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ (النازعات: ٤٥) وإن كان منذرا للجميع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

تقدم معناه في "البقرة" مستوفى والحمد لله.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، واللفظ لأحمد.

(٢) "ضعيف جداً" وانظر الضعيفة (٦٢٥).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله؛ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. و"تأذن" وأذن بمعنى أعلم؛ مثل أوعد وتوعد؛ روي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان، لأنه إعلام؛ قال الشاعر:

فلم نشعر بضوء الصبح حتى سمعنا في مجالسنا الأذينا

وكان ابن مسعود يقرأ: "وإذ قال ربكم" والمعنى واحد. ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي. ابن عباس: لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب، والمعنى متقارب في هذه الأقوال؛ والآية نص في أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم في "البقرة" ما للعلماء في معنى الشكر. وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألا تتقوى بنعمه على معاصيه. وحكي عن داود عليه السلام أنه قال: أي رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة مجددة منك علي. قال: يا داود الآن شكرتني. قلت: فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم. وألا يصرفها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي وهو يأكل:

أنالك رزقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقه

فلم تشكر لنعمته ولكن قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة، وخنقته العبرة. وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد.
﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ أي جحدتم حقي. وقيل: نعمي؛ وعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من "إن" للشهرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني. (الحميد) أي المحمود.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال:

ألم يأتيك والأنباء تنمي

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله؛ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله في كتابه. وقوله: ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعرف نسبهم إلا الله، والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض؛ ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد

روي عن النبي ﷺ لما سمع النسابين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم زادوا فقال: (كذب النسابون إن الله يقول: ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾)[1]. وقد روي عن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل. وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: "لا يعلمهم إلا الله"، كذب النسابون. ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلالات. ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد؛ وقرأ: ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ (آل عمران: ١١٩). وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أن اسكت، تكذيبا له، وردا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى: "فردوا أيديهم في أفواههم" قال: عضوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر:

لو أن سلمى أبصرت تخددي ودقة في عظم ساقـــي ويدي
وبعد أهلي وجفاء عـــودي عضت من الوجد بأطراف اليد

وقد مضى هذا المعنى في "آل عمران" مجودا، والحمد لله. وقال مجاهد وقتادة: ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل معناه: أومأوا للرسل أن يسكتوا. وقال مقاتل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم. وقيل: رد الرسل أيدي القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيدي هنا النعم؛ أي ردوا نعم الرسل بأفواههم، أي بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نعم؛ والمعنى: كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و"في" بمعنى الباء؛ يقال: جلست في البيت وبالبيت؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض. وقال أبو عبيدة: هو ضرب مثل؛ أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد رد يده في فيه. وقاله الأخفش أيضا. وقال القتبي: لم نسمع أحدا من العرب يقول: رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به؛ وإنما المعنى: عضوا على الأيدي حنقا وغيظا؛ لقول الشاعر:

تردون في فيه غش الحسو د حتى يعض علي الأكفا

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه. وقال آخر:

قـد أفـنى أناملـه أزمـــة فأضحى يعض علي الوظيفا

وقالوا: ـ يعني الأمم للرسل: ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أي بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقروا أنهم أرسلوا. ﴿ وإنا لفي شك ﴾ أي في ريب ومرية. ﴿ مما تدعوننا إليه ﴾ من التوحيد.

---

(١) "موضوع" انظر الضعيفة (١١١).

قولـه تعالى: ﴿ مريب ﴾ أي موجب للريبة؛ يقال: أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكا؛ أي نظن أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالت رسلـهم أفي الله شك ﴾ استفهام معناه الإنكار؛ أي لا شك في الله؛ أي في توحيده؛ قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويحتمل وجها ثالثا: أفي قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها؛ يدل عليه قولـه: ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا لـه. ﴿ يدعوكم ﴾ أي إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قال أبو عبيد: "من" زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع. وقيل: "من" للبدل وليست بزائدة ولا مبعضة؛ أي لتكون المغفرة بدلا من الذنوب. ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿ قالوا إن أنتم ﴾ أي ما أنتم. ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ في الـهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. ﴿ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة؛ وكان محالا منهم؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قولــه تعالى: ﴿ قالت لـهم رسلـهم إن نـحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي في الصورة والـهيئة كما قلتم. ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ أي يتفضل عليه بالنبوة. وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والـهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

قلت: وهذا قول حسن، وقد خرج الطبري من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذر: يا عم أوصني؛ قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: (ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يلـهمهم ذكره)[1]. ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ أي بحجة وآية. ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا؛ أي

---

(١) جزء من حديث أورده الـهيثمي في "المجمع"، (٢/ ٢٣٧، ٢٣٦)، وقال: "رواه البزار وفيه حسين بن عطاء ضعفه أبو حاتم وغيره، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: يخطئ ويدلس".

لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله ﴾ "ما" استفهام في موضع رفع بالابتداء، و"لنا" الخبر؛ وما بعدها في موضع الحال؛ التقدير: أي شيء لنا في ترك التوكل على الله. ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته. ﴿ ولنصبرنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه: والله لنصبرن ﴿ على ما آذيتمونا ﴾ به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا. ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ﴾ اللام لام قسم؛ أي والله لنخرجنكم. ﴿ أو لتعودن ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبري وغيره. قال ابن العربي: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإن "أو" على بابها من التخيير؛ خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ (الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧) وقد تقدم هذا المعنى في "الأعراف" وغيرها. ﴿ في ملتنا ﴾ أي إلى ديننا، ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ أي مقامه بين يدي يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل. والمقام مصدر كالقيام؛ يقال: قام قياما ومقاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة؛ و"ذلك لمن خاف مقامي" أي قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (الرعد ٣٣) وقال الأخفش: "ذلك لمن خاف مقامي" أي عذابي، "وخاف وعيد" أي القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ واستفتحوا ﴾ أي واستنصروا؛ أي أذن للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى في "البقرة". ومنه الحديث: إن النبي ﷺ كان يستفتح

بصعاليك المهاجرين[1]، أي يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية. وروي عن ابن عباس. وقيل قال الرسول: (إنهم كذبوني فافتح بيني وبينهم فتحا) وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا، عن ابن عباس أيضا؛ نظيره ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ (العنكبوت: ٢٩) ﴿ ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ (الأعراف: ٧٧). ﴿ وخاب كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا؛ هكذا هو عند أهل اللغة؛ ذكره النحاس. والعنيد المعاند للحق والمجانب لـه، عن ابن عباس وغيره؛ يقال: عند عن قومه أي تباعد عنهم. وقيل: هو من العند، وهو الناحية وعاند فلان أي أخذ في ناحية معرضا؛ قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلوني وسطا إني كبير لا أطيق العندا

وقال الـهروي: قولـه تعالى: ﴿ جبار عنيد﴾ أي جائر عن القصد؛ وهو العنود والعنيد والعاند؛ وفي حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال: إنه عرق عاند. قال أبو عبيد: هو الذي عند وبغى كالإنسان يعاند؛ فهذا العرق في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شمر: العاند الذي لا يرقأ. وقال عمر يذكر سيرته: أضم العنود؛ قال الليث: العنود من الإبل الذي لا يخالطها إنما هو في ناحية أبدا؛ أراد من هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفت به إليها. وقال مقاتل: العنيد المتكبر. وقال ابن كيسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العنود والعنيد الذي يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها؛ تقول العرب: شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق. وقيل: العنيد العاصي. وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إلـه إلا الله.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أي متكبر. وقيل: إن المراد به في الآية أبو جهل؛ ذكره المهدوي. وحكى الماوردي في كتاب "أدب الدنيا والدين" أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج لـه قولـه عز وجل: ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده.

قوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ من ورائه جهنم﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم، أي من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) أخرجه البغوي في "شرح السنة"، وإسناده ضعيف كما قال الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة (٥٢٤٧).

أي بعد الله جل جلالـه؛ وكذلك قولـه تعالى: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي من بعده؛ وقولـه تعالى: ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ (البقرة: ٩١) أي بما سواه؛ قالـه الفراء. وقال أبو عبيد: بما بعده: وقيل: "من ورائه" أي من أمامه، ومنه قول الشاعر:

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا بادي

وقال آخر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقال لبيد:

ليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تُحنَى عليها الأصابع

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿ كان وراءهم ملك ﴾ (الكهف: ٧٩) أي أمامهم، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي قطرب وغيرهما. وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أي سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه. وقال النحاس: في قوله "من ورائه جهنم" أي من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى؛ أي استتر. وقال الأزهري: إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد، وقالـه أبو عبيدة أيضا، واشتقاقهما مما توارى واستتر، فجهنم توارى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى، حكاه ابن الأنباري وهو حسن.

قولـه تعالى: ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي من ماء مثل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أي مثل الأسد، وهو تمثيل وتشبيه. وقيل: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: هو غسالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وقيل: هو من ماء كرهته تصد عنه، فيكون الصديد مأخوذا من الصد. وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قولـه: ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال: (يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره) يقول الله: ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد: ١٥) ويقول الله: ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾[1] (الكهف: ٢٩) خرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعلـه أن يكون أخا عبد الله بن بسر.

قوله تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يتجرعه ﴾ أي يتحساه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته. ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرعه بمعنى. وساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا إذا كان سلسا سهلا، وأساغه الله إساغة. و"يكاد" صلة؛ أي يسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿ وما كادوا

(١) "ضعيف" كما قال الشيخ الألباني في تعليقه على "المشكاة"، (٥٦٨٠).

يفعلون ﴾ (البقرة: ٧١) أي فعلوا بعد إبطاء، ولـهذا قال: ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ (الحج: ٢٠) فهذا يدل على الإساغة. وقال ابن عباس: يجيزه ولا يمر به. ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال ابن عباس: أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشمالـه، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه، كقول: ﴿ لـهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ (الزمر: ١٦). وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التي في كل مكان من جسده. وقال الضحاك: إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتا، وهي من أعظم الموت. وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة؛ إما حية تنهشه؛ أو عقرب تلسعه، أو نار تسفعه، أو قيد برجليه، أو غل في عنقه، أو سلسلة يقرن بها، أو تابوت يكون فيه، أو زقوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب، وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه مات موتات، فإذا دنا منه مات موتات، فإذا شرب منه مات موتات؛ فذلك قولـه: ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾. قال الضحاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق روحه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة؛ ونظيره قولـه: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ (طه: ٧٤). وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً كل واحد منها كألم الموت. وقيل:

قولـه تعالى: ﴿ وما هو بميت ﴾ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقولـه تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ (فاطر: ٣٦) وبذلك وردت السنة؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما، والله أعلم. ﴿ ومن ورائه ﴾ أي من أمامه. ﴿ عذاب غليظ ﴾ أي شديد متواصل الآلام غير فتور؛ ومنه قولـه: ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ (التوبة: ١٢٣) أي شدة وقوة. وقال فضيل ابن عياض في قول الله تعالى: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ قال: حبس الأنفاس.

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالـهم كرماد ﴾ اختلف النحويون في رفع "مثل" فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يتلى عليكم أو يقص "مثل الذين كفروا بربهم" ثم ابتدأ فقال: "أعمالـهم كرماد" أي كمثل رماد ﴿ اشتدت به الريح ﴾. وقال الزجاج: أي مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالـهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المثل، التقدير: والذين كفروا بربهم أعمالـهم كرماد. وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوي، والثاني القشيري والثعلبي ويجوز أن يكون مبتدأ كما

يقال: صفة فلان أسمر؛ فـ "مثل" بمعنى صفة. ويجوز في الكلام جر "أعمالـهم" على بدل الاشتمال من "الذين" واتصل هذا بقولـه: "وخاب كل جبار عنيد" والمعنى: أعمالـهم محبطة غير مقبولة. والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى. وفي وصف اليوم بالعصوف ثلاثة أقاويل: أحدها: أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به؛ لأن الريح تكون فيه، فجاز أن يقال: يوم عاصف، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، والبرد والحر فيهما. والثاني: أن يريد "في يوم عاصف" الريح؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر:

إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مر ذكره؛ ذكرهما الـهروي. والثالث: أنه من نعت الريح؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل: جحر ضب خرب؛ ذكره الثعلبي والماوردي. وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر "في يوم عاصف". ﴿لا يقدرون﴾ يعني الكفار. ﴿مما كسبوا على شيء﴾ يريد في الآخرة؛ أي من ثواب ما عملوا من البر في الدنيا، لإحباطه بالكفر. ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي الخسران الكبير؛ وإنما جعلـه كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾ الرؤية هنا رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي - "خالق السماوات والأرض". ومعنى "بالحق" ليستدل بها على قدرته. ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها الناس؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه ﴿يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ أفضل وأطوع منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أي منيع متعذر.

قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وبرزوا لله جميعا﴾ أي برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة. والبروز الظهور. والبراز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه امرأة برزة أي تظهر للناس؛ فمعنى، "برزوا" ظهروا من

قبورهم. وجاء بلفظ؛ الماضي ومعناه الاستقبال، واتصل هذا بقولـه: "وخاب كل جبار عنيد" أي وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لا يسترهم عنه ساتر. "لله" لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿ فقال الضعفاء﴾ يعني الأتباع﴿ للذين استكبروا﴾ وهم القادة. ﴿ إنا كنا لكم تبعا﴾ يجوز أن يكون تبع مصدرا؛ التقدير: ذوي تبع. ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحرس، وخادم وخدم، وراصد ورصد، وباقـر وبقر. ﴿ فهل أنتم مغنون﴾ أي دافعون﴿ عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي شيئا، و"من" صلة؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع. ﴿ قالوا لو هدانا الله لـهديناكم﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لـهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لـهديناكم إليها. وقيل؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه. ﴿ سواء علينا﴾ هذا ابتداء خبره "أجزعنا" أي: ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي من مهرب وملجأ. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حاص فلان عن كذا أي فر وزاغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا؛ والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هلم فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص")[1]. وقال محمد بن كعب القرظي: ذكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلم فلنصبر؛ فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا؛ فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا: "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص" أي منجى، فقام إبليس عند ذلك فقال: "إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم" يقول: لست بمغن عنكم شيئا "وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل" الحديث بطولـه، وقد كتبناه في كتاب (التذكرة) بكماله.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٢)﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيبا في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا. ومعنى: "لما قضي الأمر" أي حصل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في "مريم" عليها السلام. ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق﴾ يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة

---

(١) أورده الـهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٤٣)، وقال: "رواه الطبراني وفيه أنس بن أبي القاسم. . . . وبقية رجالـه ثقات".

ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم. وروى ابن المبارك من حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: (فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور مجلسي من أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم نحيبهم ويقول عند ذلك: "إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم" الآية)(١). "وعد الحق" هو إضافة الشيء إلى نعته كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحق أو وعدكم وعد الوعد الحق فصدقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي من حجة وبيان؛ أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم في الدنيا، ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ أي أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. "إلا أن دعوتكم" هو استثناء منقطع؛ أي لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختياركم، ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ وقيل: "وما كان لي عليكم من سلطان أي على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن دعوتكم فاستجبتم لي؛ وهذا على أنه خطب العاصي المؤمن والكافر الجاحد؛ وفيه نظر؛ لقوله: "لما قضي الأمر" فإنه يدل على أنه خطب الكفار دون العاصين الموحدين؛ والله أعلم. ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ إذا جئتموني من غير حجة. ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي بمغيثكم ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ أي بمغيثي. والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمصرخ هو المغيث. قال سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع   وكان الصراخ له قرع الظنابيب

وقال أمية بن أبي الصلت:

ولا تجزعوا إني لكم غير مصرخ   وليس لكم عندي غناء ولا نصر

يقال: صرخ فلان أي استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة. واصطرخ بمعنى صرخ. والتصرخ تكلف الصراخ. والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث؛ تقول منه: استصرخني فأصرخته. والصريخ صوت المستصرخ. والصريخ أيضا الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهري. وقراءة العامة "بمصرخي" بفتح الياء. وقرأ الأعمش وحمزة "بمصرخي" بكسر الياء. والأصل فيها بمصرخين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل: هواي وعصاي، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل: غلامي وغلامتي، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة. وقال الفراء: قراءة حمزة وهم منه، وقل من سلم منهم عن خطأ. وقال الزجاج: هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف. وقال قطرب: هذه لغة بني

---

(١) ذكره بتمامه السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ١٤٠)، وعزاه إلى ابن المبارك في "الزهد"، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر بسند ضعيف عن عقبة مرفوعاً.

يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياء. القشيري: والذي يغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو رديء، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح. ﴿ إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ "ما" بمعنى المصدر. وقال ابن جريج: إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيت الله. الثوري: كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾. وفي هذه الآيات رد على القدرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ انظر إلى قول المتبوعين: "لو هدانا الله لهديناكم" وقول إبليس: "إن الله وعدكم وعد الحق" كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار؛ كما قال في موضع آخر: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ﴾ (الملك: ٨) إلى قوله: ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ (الملك: ١١) واعترافهم في دركات لظى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا؛ قال الله عز وجل: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ (التوبة: ١٠٢) و"عسى" من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ أي في جنات لأن دخلت لا يتعدى؛ كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوي. ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا. وقراءة الجماعة "أدخل" على أنه فعل مبني للمفعول. وقرأ الحسن "وأدخل" على الاستقبال والاستئناف. ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: ﴿ بإذن ربهم ﴾ ولم يقل: بإذني تعظيما وتفخيما. ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ تقدم في "يونس". والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا ﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسر ذلك المثل فقال: ﴿ كلمة طيبة ﴾ التمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن. وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة الإيمان. عطية العوفي والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه. وقال مجاهد أيضا وعكرمة: الشجرة النخلة؛ فيجز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في

قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبهه بالنخلة في المنبت، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة، وثواب الله له بالثمر. وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمان عروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذي في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها). ويجوز أن يكون المعنى: أصل النخلة ثابت في الأرض؛ أي عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية. وخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: أتي رسول الله ﷺ بقناع فيه رطب، فقال: (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ـ قال ـ هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ـ قال ـ هي الحنظل)[١]. وروي عن أنس قوله وقال: وهو أصح. وخرج الدارقطني عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت﴾ فقال رسول الله ﷺ: (أتدرون ما هي) فوقع في نفسي أنها النخلة. قال السهيلي ولا يصح فيها ما روي عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند؛ لما صح عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر (إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي ـ ثم قال ـ هي النخلة) خرجه مالك في "الموطأ" من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فإنه أسقطه من روايته. وخرجه أهل الصحيح[٢] وزاد فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوي رحلة؛ عن النبي ﷺ قال: (وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة). فبين معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغزنوي عنه ﷺ: (مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به). وقال: (كلوا من عمتكم)[٣] يعني النخلة خُلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شبهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تلقح قال النبي ﷺ: (خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة)[٤] والإبار اللقاح وسيأتي في سورة "الحجر" بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فضلت قطعة طين فصورها بيده وغرسها في جنة عدن. قال النبي ﷺ: (أكرموا عمتكم) قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: (النخلة)[٥]. ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قال الربيع: "كل حين" غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه "تؤتي أكلها كل حين" قال: هو شجرة جوزة الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبه

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي في "التفسير"، (٣١١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١).
(٣) موضوع.
(٤) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات، كما في "المجمع"، (٥/ ٢٥٨).
(٥) "موضوع" انظر الضعيفة (٢٦٣).

عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلـها في أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلـها. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه حـينا وحـينا تراجع

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعملـه وقولـه وتسبيحه عال مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلـها، من الرطب والبسر والبلح والزهو والتمر والطلع. وفي رواية عن ابن عباس: إن الشجرة شجرة في الجنة تثمر في كل وقت. و(مثلا) مفعول بـ"ضرب"، "وكلمة" بدل منه، والكاف في قولـه: (كشجرة) في موضع نصب على الحال من "كلمة" التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة

الثانية: قولـه تعالى: ﴿تؤتي أكلـها كل حين﴾ لما كانت الأشجار تؤتي أكلـها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين؛ ولـهذا قلنا: من حلف ألا يكلم فلانا حينا، ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة. وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقولـه تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ (الإنسان: ١) قيل في "التفسير": أربعون عاما. وحكى عكرمة أن رجلا قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حر، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها فقلت: إن من الحين حينا لا يدرك، قولـه: ﴿وإن أدري لعلـه فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ (الأنبياء: ١١١) فأرى أن تمسك ما بين صرام النخلة إلى حملـها، فكأنه أعجبه؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره. وقد مضى ما للعلماء في الحين في "البقرة" مستوفى والحمد لله. ﴿ويضرب الله الأمثال﴾ أي الأشباه ﴿للناس لعلـهم يتذكرون﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾

الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا: أنها شجرة لم تخلق على الأرض. وقيل: هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا. وقيل: الكمأة أو الطحلبة. وقيل: الكشوث، وهي شجرة لا ورق لـها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهم كشوث فلا أصل ولا ورق

﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ اقتلعت من أصلـها؛ قالـه ابن عباس؛ ومنه قول لقيط:

هو الجلاء الذي يجتثّ أصلكم فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا

وقال المؤرج: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما. وجثه قلعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أي ليس لـها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿ما لـها من قرار﴾ أي من أصل في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة لـه ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد لـه قول طيب ولا عمل صالح. وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة في قولـه تعالى: ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة﴾ قال: لا إلـه إلا الله "كشجرة طيبة" قال: المؤمن، "أصلـها

ثابت" لا إلـه إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ "ومثل كلمة خبيثة" قال: الشرك، "كشجرة خبيثة" قال: المشرك؛ "اجتثت من فوق الأرض ما لـها من قرار" أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه. وقيل: يرجع المثل إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ قال ابن عباس: هو لا إلـه إلا الله. وروى النسائي عن البراء قال: "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة" نزلت في عذاب القبر؛ يقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد، فذلك قولـه: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾[1].

قلت: وقد جاء هكذا موقوفا في بعض طرق مسلم عن البراء أنه قولـه، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء عن النبي ﷺ؛ وذكر البخاري؛ حدثنا جعفر بن عمر، قال حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: (إذا أقعد المؤمن في قبره أتاه آت ثم يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قولـه "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة"). وقد بينا هذا الباب في كتاب (التذكرة) وبينا هناك من يفتن في قبره ويسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأملـه هناك. وقال سهل بن عمار: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلت لـه: ما فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري ملكان فظان غليظان، فقالا: ما دينك ومن ربك ومن نبيك؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت: ألمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة؟! فذهبا وقالا: أكتبت عن حريز بن عثمان؟ قلت نعم! فقالا: إنه كان يبغض عليا فأبغضه الله. وقيل: معنى، "يثبت الله" يديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذي نصرا

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاء لـهم على القول الثابت. وقال القفال وجماعة: "في الحياة الدنيا" أي في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا، "وفي الآخرة" أي عند الحساب؛ وحكاه الماوردي عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا المساءلة في القبر، وبالآخرة المساءلة في القيامة: ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ أي عن حجتهم في قبورهم كما ضلوا في الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري؛ فيقول: لا دريت ولا تليت[2]؛ وعند ذلك يضرب بالمقامع على ما ثبت في الأخبار؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب (التذكرة). وقيل: يمهلـهم حتى يزدادوا ضلالا في الدنيا. ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف

---

(١) "صحيح" انظر صحيح النسائي (١٩٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٤).

مساءلة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت قال عمر: يا رسول الله أيكون معي عقلي؟ قال: (نعم) قال: كفيت إذاً؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ﴾ أي جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمدا ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم؛ عن ابن عباس وعلي وغيرهما. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر. قال أبو الطفيل: سمعت عليا ﷺ يقول: هم قريش الذين نحروا يوم بدر. وقيل: نزلت في الأفجرين من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر؛ قاله علي ابن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وقول رابع: أنهم متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه حين لطم فجعل لـه عمر القصاص بمثلـها، فلم يرض وأنف فارتد متنصرا ولحق بالروم في جماعة من قومه؛ عن ابن عباس وقتادة. ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال:

تنصرت الأشراف من عار لطمة   وما كان فيها لو صبرت لـها ضرر
تكنفني منها لجاج ونخـــوة   وبعت لـها العين الصحيحة بالعور
فيا ليتني أرعى المخاض ببلـــدة   ولم أنكر القول الـذي قالـه عــمر

وقال الحسن: إنها عامة في جميع المشركين. ﴿ وأحلوا قومهم ﴾ أي أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر. "وأحلوا قومهم" أي الذين اتبعوهم. ﴿ دار البوار ﴾ قيل: جهنم؛ قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر؛ قاله علي بن أبي طالب ومجاهد. والبوار الـهلاك؛ ومنه قول الشاعر:

فلم أر مثلـهم أبطال حرب   غداة الحرب إذ خيف البوار

قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ جهنم يصلونها ﴾ بين أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على "دار البوار" لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن "دار البوار" فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هي جهنم، أو بما عاد من الضمير في "يصلونها" لحسن الوقف على "دار البوار". ﴿ وبئس القرار ﴾ أي المستقر.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجعلوا لله أندادا ﴾ أي أصناما عبدوها؛ وقد تقدم في "البقرة". ﴿ ليضلوا عن سبيلـه ﴾ أي عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ (الحج: ٩) ومثلـه في "لقمان" و"الزمر" وضمها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيلـه، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم، أي عاقبتم إلى الإضلال والضلال؛ فهذه لام العاقبة. ﴿ قل تمتعوا ﴾ وعيد لـهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع. ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ﴾ أي إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿ يقيموا الصلاة ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدر، تقول: أطع الله يدخلك الجنة؛ أي إن أطعته يدخلك الجنة؛ هذا قول الفراء. وقال الزجاج: "يقيموا" مجزوم بمعنى اللام، أي ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دل على الغائب بـ "قل". قال: ويحتمل أن يقال: "يقيموا" جواب أمر محذوف؛ أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة. ﴿وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ يعني الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره. وقال الجمهور: السر ما خفي والعلانية ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إن السر التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مجودا عند قوله: ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ (البقرة: ٢٧١). ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ تقدم أيضا في سورة البقرة، و"خلال": جمع خلة كقلة وقلال. قال:

فلست بمقلي الخلال ولا قالي

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق. ﴿ وأنزل من السماء ﴾ أي من السحاب. ﴿ ماء فأخرج به من الثمرات ﴾ أي من الشجر ثمرات ﴿رزقا لكم ﴾. ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ تقدم معناه في "البقرة". ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالا لأمر الله، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران؛ روي معناه عن ابن عباس. ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ (القصص: ٧٣).

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أي أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا؛ فحذف؛ عن الأخفش. وقيل: المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه فحذف، فلم نسأله

شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿ سرابيل تقيكم الحر﴾ (النحل: ٨١) على ما يأتي. وقيل: "من" زائدة؛ أي آتاكم كل ما سألتموه. وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما "وآتاكم من كلٍّ" بالتنوين "ما سألتموه" وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه؛ كالشمس والقمر وغيرهما. وقيل: من كل شيء ما سألتموه أي الذي ما سألتموه. ﴿ وإن تعدوا نعمة الله ﴾ أي نعم الله. ﴿ لا تحصوها ﴾ ولا تطيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ نعم لا تحصى وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟! ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص؛ قال ابن عباس: أراد أبا جهل. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ يعني مكة وقد مضى في "البقرة". ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي اجعلني جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله: (بني) بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما. وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. وقرأ الجحدري وعيسى "واجنبني" بقطع الألف والمعنى واحد؛ يقال: جنبت ذلك الأمر؛ وأجنبته وجنبته إياه فتجانبه واجتنبه أي تركه. وكان إبراهيم التيمي يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" كما عبدها أبي وقومي.

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل. ﴿ فمن تبعني﴾ في التوحيد. ﴿ فإنه مني﴾ أي من أهل ديني. ﴿ ومن عصاني﴾ أي أصر على الشرك. ﴿ فإنك غفور رحيم﴾ قيل: قال هذا قبل أن يعرفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به. وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيان: "ومن عصاني" فيما دون الشرك.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: روى البخاري عن ابن عباس: (أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل؛ اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد؛ وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما

هنالك ؛ ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت لـه ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت لـه: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا؛ ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ﴾ (إبراهيم: ٣٧) حتى بلغ "يشكرون" وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، (ففعلت ذلك سبع مرات)؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (فذلك سعي الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا) قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لـها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهلـه؛ وذكر الحديث بطولـه.

مسألة: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعيالـه بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقولـه في الحديث: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه وأمته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كلـه بوحي من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية.

الثانية: لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل الملك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء، وفي الصحيح: أن أبا ذر ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذر: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكني، وما أجد على كبدي سخفة جوع؛ وذكر الحديث[1]. وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ماء زمزم لما شرب لـه إن شربته تشتفي به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهي هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل)[1]. وروي أيضا عن عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب

(١) أخرجه مسلم وغيره.
(١) "ضعيف" أخرجه الدارقطني (٢٧١٣).

من زمزم قال: اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. قال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت نيته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذبا، ولا يشربه مجربا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجربين. وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلت الطواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني، فجعلت أعتصر حتى آذاني، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلعت منه، فذهب عني إلى الصباح. وروي عن عبد الله بن عمرو: إن في زمزم عينا في الجنة من قبل الركن.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ ومن ذريتي ﴾ "من" في قوله تعالى: ﴿ من ذريتي ﴾ للتبعيض أي أسكنت بعض ذريتي؛ يعني إسماعيل وأمه، لأن إسحاق كان بالشام. وقيل: هي صلة؛ أي أسكنت ذريتي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روي قبل الطوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة". أضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره، ووصفه بأنه محرم، أي يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع واستحلال. وقيل: محرم على الجبابرة، وأن تنتهك حرمته، ويستخف بحقه، قاله قتادة وغيره. وقد مضى القول في هذا في "المائدة".

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ خصها من جملة الدين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: (خمس صلوات كتبهن الله على العباد)[2]. الحديث. واللام في "ليقيموا الصلاة" لام كي؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ"أسكنت" ويصح أن تكون لام أمر، كأنه رغب إلى الله أن يأتمنهم وأن يوفقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى "ربنا ليقيموا الصلاة" أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه. وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي ﷺ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة)[3]. قال الإمام الحافظ أبو عمر: وأسند هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير وجوده، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه، وكان ثقة. قال ابن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين يقول: حبيب المعلم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال: سمعت أبي يقول: حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه! وسئل أبو زرعة الرازي عن حبيب المعلم فقال: بصري ثقة.

قلت: وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البستي في المسند الصحيح له، فالحديث صحيح وهو

---

(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (١٢٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

الحجة عند التنازع والاختلاف. والحمد لله. قال أبو عمر: وقد روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجهني عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجهني الكوفي ثقة، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم. وروى عنه شعبة والثوري ويحيى بن سعيد. وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو؛ عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه)(١). وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة الرازي، وأخذ عنه ابن وضاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به. فإن كان حفظ فهما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم. وروى محمد بن وضاح، حدثنا يوسف بن عدي عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل). قال أبو عمر: وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من ألهم رشده، ولم تمل به عصبيته. وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ على ما في هذا الباب. وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لهما في كل بلد إلا مكة فإنها تصلى في المسجد الحرام. وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدرداء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعي. وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروي مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال: يا رب هذه أحب إليك أن تعبد فيها؟ قال: بل مكة. والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك؛ فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة.

قوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإن فؤادا قادني بصبابة إليك على طول المدى لصبور

وقيل: جمع وفد، والأصل أوفدة، فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكأنه قال: واجعل وفودا من الناس تهوي إليهم؛ أي تنزع؛ يقال: هوي نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويا فهي هاوية إذا عدت عدوا شديدا كأنها في هواء بئر، وقوله: ﴿تهوي إليهم﴾ مأخوذ منه. قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فهم المسلمون؛ فقوله: ﴿تهوي إليهم﴾ أي تحن إليهم، وتحن إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد "تهوَى إليهم" أي تهواهم وتجلهم. ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه: (فجاء إبراهيم بعدما تزوج

(١) "صحيح" أخرجه أحمد وابن ماجه وغيرهما، وانظر الإرواء (١١٢٩).

إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألـهم عن عيشهم وهيئتهم) فقالت: (نحن بشر، نحن في ضيق وشدة؛ فشكت إليه)، قال: (فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي لـه يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا) فقال: (هل جاءكم من أحد)! قالت: (نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء): قالت: (أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك)؛ قال: (ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على امرأته فسألـها عنه) فقالت: (خرج يبتغي لنا). قال: (كيف أنتم؟ وسألـها عن عيشهم وهيئتهم) فقالت: (نحن بخير وسعة وأثنت على الله). قال: (ما طعامكم)؟ قالت: (اللحم). قال: (فما شرابكم)؟ قالت: (الماء). قال: (اللهم بارك لـهم في اللحم والماء). قال النبي ﷺ: (ولم يكن لـهم يومئذ حب ولو كان لـهم دعا لـهم فيه).

قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث. وقال ابن عباس: قول إبراهيم "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم" سأل أن يجعل الله الناس يهوون السكنى بمكة، فيصير بيتا محرما، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جرهم. ففي البخاري ـ بعد قولـه: وإن الله لا يضيع أهلـه ـ وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شمالـه، وكذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم قافلين من طريق كذا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء؛ فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء؛ فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلـهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شب الغلام، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته؛ الحديث.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨)﴾

قولـه تعالى: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي، ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذي زرع. ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ قال الله: ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩)﴾

أي على كبر سني وسن امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد لـه إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة. وإسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق بعد عشر ومائة سنة. ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها. ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أي عبادتي كما قال: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ (غافر: ٦٠). وقال ﷺ: (الدعاء مخ العبادة)[١] وقد تقدم في "البقرة". ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين ﴾ قيل: استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه. قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير، "رب اغفر لي ولوالدي" يعني أباه. وقيل: استغفر لـهما طمعا في إيمانهما. وقيل: استغفر لـهما بشرط أن يسلما. وقيل: أراد آدم وحواء. وقد روي أن العبد إذا قال: اللهم اغفر لي ولوالدي وكان أبواه قد ماتا كافرين انصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحاق. وكان إبراهيم النخعي يقرأ: "ولولدي" يعني ابنيه، وقيل: وكذلك قرأ يحيى بن يعمر، ذكره الماوردي والنحاس ﴿ وللمؤمنين ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمد ﷺ. وقيل: "للمؤمنين" كلـهم وهو أظهر. ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم؛ أي اصبر كما صبر إبراهيم، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالـهم، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مهران: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. ﴿ إنما يؤخرهم ﴾ يعني مشركي مكة يمهلـهم ويؤخر بهم. وقراءة العامة "يؤخرهم" بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقولـه ﴿ ولا تحسبن الله ﴾. وقرأ الحسن والسلمي وروي عن أبي عمرو أيضا "نؤخرهم" بالنون للتعظيم. ﴿ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، قالـه الفراء. يقال: شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه أي سما وطمح من هول ما يرى. قال ابن عباس: تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الـهواء لشدة الحيرة فلا يرمضون.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وضعف إسناده الشيخ الألباني في تخريج المشكاة (٢٢٣١).

قوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين؛ قالـه الحسن وقتادة وسعيد بن جبير؛ مأخوذ من أهطع يهطع إذا أسرع ومنه قولـه تعالى: ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ (القمر: ٨) أي مسرعين. قال الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع؛ أي ناظرين من غير أن يطرفوا؛ قالـه ابن عباس، وقال مجاهد والضحاك: "مهطعين" أي مديمي النظر. وقال النحاس: والمعروف في اللغة أن يقال: أهطع إذا أسرع؛ قال أبو عبيد: وقد يكون الوجهان جميعا يعني الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المهطع الذي لا يرفع رأسه. ﴿ مقنعي رءوسهم ﴾ أي رافعي رءوسهم ينظرون في ذل. وإقناع الرأس رفعه؛ قاله ابن عباس ومجاهد. قال ابن عرفة والقتبي وغيرهما: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه؛ ومنه الإقناع في الصلاة وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. وقيل: ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوي؛ ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقالـه المبرد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا كأنما أبصـر شـيئا أطمعا

وقال الشماخ يصف إبلا:

يباكرن العضاه بمقنعات نواجذهن كالحدأ الوقيع

يعني: برءوس مرفوعات إليها لتتناولـهن. ومنه قيل: مقنعة لارتفاعها. ومنه قنع الرجل إذا رضي؛ أي رفع رأسه عن السؤال. وقنع إذا سأل أي أتى ما يتقنع منه؛ عن النحاس. وفم مقنع أي معطوفة أسنانه إلى داخل. ورجل مقنع بالتشديد؛ أي عليه بيضة؛ قالـه الجوهري. ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طرف الرجل يطرف طرفا إذا أطبق جفنه على الآخر، فسمي النظر طرفا لأنه به يكون. والطرف العين. قال عنترة:

وأغض طرفي ما بدت جارتي حـتى يواري جارتي مأواها

وقال جميل:

وأقصر طرفي دون جمل كرامة لجمل وللطرف الذي أنا قاصره

قولـه تعالى: ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي لا تغني شيئا من شدة الخوف. ابن عباس: خالية من كل خير. السدي: خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد: خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هواء؛ وقال ابن عباس: والـهواء في اللغة المجوف الخالي؛ ومنه قول حسان:

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

وقال زهير يصف صغيرة الرأس:

كأن الرجل منها فوق صعل مـن الظلمان جؤجؤه هواء

فارغ أي خال؛ وفي التنزيل: ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا﴾ (القصص: ١٠) أي من كل شيء إلا من هم موسى. وقيل: في الكلام إضمار؛ أي ذات هواء وخلاء.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وأنذر الناس﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة. ﴿ يوم يأتيهم العذاب﴾ وهو يوم القيامة؛ أي خوفهم ذلك اليوم. وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿ فيقول الذين ظلموا﴾ أي في ذلك اليوم﴿ ربنا أخرنا﴾ أي أمهلنا. ﴿ إلى أجل قريب﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة. ﴿ نجب دعوتك﴾ أي إلى الإسلام﴿ ونتبع الرسل﴾ فيجابوا: ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ يعني في دار الدنيا. ﴿ ما لكم من زوال﴾ قال مجاهد: هو قسم قريش أنهم لا يبعثون. ابن جريج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ (النحل: ٣٨). "ما لكم من زوال" فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة؛ أي لا تبعثون ولا تحشرون؛ وهذا قول مجاهد. الثاني: "ما لكم من زوال" أي من العذاب. وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا، يقولون: ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (غافر: ١١) فيجيبهم الله ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ (غافر: ١٢) ثم يقولون: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون﴾ (السجدة: ١٢) فيجيبهم الله تعالى: ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ (السجدة: ١٤) ثم يقولون: ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ فيجيبهم الله تعالى﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ فيقولون: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾ (فاطر: ٣٧) فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ (فاطر: ٣٧). ويقولون: ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين﴾ (المؤمنون: ١٠٦) فيجيبهم الله تعالى: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ (المؤمنون: ١٠٨) فلا يتكلمون بعدها أبدا؛ خرجه ابن المبارك في (دقائقه) بأطول من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب (التذكرة)ـ وزاد في الحديث﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال. وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ (إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٥) قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ (المؤمنون: ١٠٨) فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض وأطبقت عليهم؛ قال: فحدثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله: ﴿ هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ (المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾

قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعدما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي "ونبين لكم" بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي؛ وليناسب قوله: ﴿كيف فعلنا بهم ﴾. وقراءة الجماعة، "وتبين" وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿وقد مكروا مكرهم ﴾أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾"إن" بمعنى "ما" أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ "وإن" بمعنى "ما" في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾(يونس: ٩٤). الثالث: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا ﴾(الأنبياء: ١٧) أي ما كنا. الرابع: ﴿قل إن كان للرحمن ولد ﴾(الزخرف: ٨١). الخامس: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾(الأحقاف: ٢٦). وقرأ الجماعة "وإن كان" بالنون. وقرأ عمرو بن علي وابن مسعود وأبي "وإن كاد" بالدال. والعامة على كسر اللام في "لتزول" على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً. وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائي "لتزول" بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية "وإن" مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم؛ أي ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه؛ قال الطبري: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنباري: ولا حجة على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدثناه أحمد بن الحسين: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علي بن أبي طالب ﷺيقول: إن جبارا من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم من في السماوات، فعمد إلى فراخ نسور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى اشتدت وعضلت واستعلجت أمر بأن يتخذ تابوت يسع فيه رجلين؛ وأن يجعل فيه عصا في رأسها لحم شديد حمرته، وأن يستوثق من أرجل النسور بالأوتاد؛ وتشد إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحب له في التابوت وأثار النسور، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبار لصاحبه: افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: أرى الجبال كأنها ذباب، فقال: أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبار لصاحبه: افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بعدا، فقال: نكس العصا فنكسها، فانقضت النسور. فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدة كادت الجبال تزول عن مراتبها

منها؛ قال: فسمعت عليا رضي الله عنه يقرأ "وإن كان مكرهم لتزول" بفتح اللام الأولى من "لتزول" وضم الثانية. وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه، وأن الجبار هو النمرود الذي حاج إبراهيم في ربه، وقال عكرمة: كان معه في التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال: كفيت نفسك إلـه السماء. قال عكرمة: تلطخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر في الـهواء معلق. وقيل: طائر من الطير أصابه السهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن ينكس اللحم، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأن الساعة قد قامت، فذلك قولـه: ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾. قال القشيري: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال. وذكر الماوردي عن ابن عباس: أن النمرود بن كنعان بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة، وجعل طولـه خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعا، وصعد منه مع النسور، فلما علم أنه لا سبيل لـه إلى السماء اتخذه حصنا، وجمع فيه أهلـه وولده ليتحصن فيه. فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصرح عليهم فهلكوا جميعا، فهذا معنى "وقد مكروا مكرهم" وفي الجبال التي عنى زوالـها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض. الثاني: الإسلام والقرآن، لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال. وقال القشيري: "وعند الله مكرهم" أي هو عالم بذلك فيجازيهم أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف. "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" بكسر اللام؛ أي ما كان مكرهم مكرا يكون لـه أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مثل لأمر النبي ﷺ. وقيل: "وإن كان مكرهم" في تقديرهم "لتزول منه الجبال" وتؤثر في إبطال الإسلام. وقرئ "لتزول منه الجبال" بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أي كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله ﷺ، وهو كقولـه تعالى: ﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ (نوح: ٢٢) والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسلـه ﴾ اسم الله تعالى و"مخلف" مفعولا تحسب؛ و"رسلـه" مفعول "وعده" وهو على الاتساع، والمعنى: مخلف وعده رسلـه؛ قال الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه   وسـائره باد إلى الشمس أجمـع

قال القتبي: هو من المقدم الذي يوضحه التأخير، والمؤخر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك: مخلف وعده رسلـه، ومخلف رسلـه وعده. ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ أي من أعدائه. ومن أسمائه المنتقم وقد بيناه في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى".

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ أي اذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبلـه. وقيل: هو صفة لقولـه: ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ (إبراهيم: ٤١). واختلف في كيفية تبديل

الأرض، فقال كثير من الناس: إن تبدل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالـها، ومد أرضها؛ ورواه ابن مسعود ﷺ؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب، قال حدثني ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث. وروي مرفوعا من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (تبدل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها) ذكره الغزنوي. وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قالـه ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالـها، فمرة كالمهل ومرة كالدهان؛ حكاه ابن الأنباري؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبينا في كتاب (التذكرة) وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي ﷺ. روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك؛ وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: (في الظلمة دون الجسر). وذكر الحديث. وخرج عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قولـه: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات" فأين الناس يومئذ؟ قال: (على الصراط). خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرجه الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة، قال: هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنص على أن السماوات والأرض تبدل وتزال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر. وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد). وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال: تبدل خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ﴾ (الأنبياء: ٨). وقال ابن مسعود: إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال علي ﷺ: تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ أي من قبورهم، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وترى المجرمين ﴾ وهم المشركون. ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة. ﴿ مقرنين ﴾ أي مشدودين ﴿ في الأصفاد ﴾ وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صفدته صفدا أي قيدته والاسم الصفد، فإذا أردت التكثير قلت: صفدته تصفيدا؛ قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

أي مقيدينا. وقال حسان:

من كل مأسور يشد صفاده صقر إذا لاقى الكريهة حام

أي غلـه، وأصفدته إصفادا أعطيته. وقيل: صفدته وأصفدته جاريان في القيد والإعطاء جميعا؛ قال النابغة:

فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد

فالصفد العطاء؛ لأنه يقيد ويعبد، قال أبو الطيب:

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

قيل: يقرن كل كافر مع شيطان في غل، بيانه قولـه: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الصافات: ٢٢) يعني قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي.

قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ سرابيلـهم من قطران ﴾ أي قمصهم، عن ابن دريد وغيره، واحدها سربال، والفعل تسربلت وسربلت غيري؛ قال كعب بن مالك:

تلقاكم عصب حول النبي لـهم من نسج داود في الـهيجا سرابيل

"من قطران" يعني قطران الإبل الذي تهنأ به؛ قالـه الحسن. وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم. وفي الصحيح: أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب[1]. وروي عن حماد أنهم قالوا: هو النحاس. وقرأ عيسى بن عمر: "قطران" بفتح القاف وتسكين الطاء. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء؛ ومنه قول أبي النجم:

جون كأن العرق المنتوحا لبسه القطران والمسوحا

وقراءة رابعة: "من قطرآن" رويت عن ابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب؛ والقطر النحاس والصفر المذاب؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ آتوني أفرغ عليه قطرا ﴾ (الكهف: ٩٦). والآن: الذي قد انتهى إلى حره؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ وبين حميم آن ﴾. (الرحمن: ٤٤). ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ أي تضرب ﴿ وجوههم النار ﴾ فتغشيها.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴾ أي بما كسبت. ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ أي هذا الذي أنزلنا إليك بلاغ؛ أي تبليغ وعظـة. ﴿ ولينذروا به ﴾ أي ليخوفوا عقاب الله عز وجل، وقرئ "ولينذروا" بفتح الياء والذال، يقال: نذرت بالشيء

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

أنذر إذا علمت به فاستعددت لـه، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليـس، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك: سرني أن نذرت بالشيء. ﴿ وليعلموا أنما هو إلـه واحد ﴾ أي وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿ وليذكر أولو الألباب ﴾ أي وليتعظ أصحاب العقول. وهذه اللامات في "ولينذروا" "وليعلموا" "وليذكر" متعلقة بمحذوف، التقدير: ولذلك أنزلناه. وروى يمان بن رئاب أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ. وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم؛ قيل: وأين هو؟ قال قولـه تعالى: "هذا بلاغ للناس ولينذروا به" إلى آخرها.

تم تفسير سورة إبراهيم ﷺ والحمد لله.

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾
تقدم معناه. و"الكتاب" قيل فيه: إنه اسم لجنس الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين. وقيل: الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين.

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

"رب" لا تدخل على الفعل، فإذا لحقتها "ما" هيأتها للدخول على الفعل تقول: ربما قام زيد، وربما يقوم زيد. ويجوز أن تكون "ما" نكرة بمعنى شيء، و"يود" صفة له؛ أي رب شيء يود الكافر. وقرأ نافع وعاصم "ربما" مخفف الباء. الباقون مشددة، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخففون ربما؛ قال الشاعر:

ربما ضربة بسيف صقيلٍ بين بصرى وطعنة نجلاء

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها. وحكي فيها: رُبَّمَا ورُبَمَا، ورُبَّتَمَا ورُبَتَمَا، بتخفيف الباء وتشديدها أيضا. وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير؛ أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ قاله الكوفيون. ومنه قول الشاعر:

ألا ربما أهدت لك العين نظرة قصاراك منها أنها عنك لا تجدي

وقال بعضهم: هي للتقليل في هذا الموضع؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها؛ لشغلهم بالعذاب، والله أعلم. وقال: "ربما يود" وهي إنما تكون لما وقع؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان. وخرج الطبراني أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ناسا من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار - ثم قرأ رسول الله ﷺ - "ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين")[1]. قال الحسن: إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة ومأواهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين. وقال الضحاك: هذا التمني إنما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ تهديد لهم. ﴿ ويلههم الأمل ﴾ أي يشغلهم عن الطاعة. يقال: ألهاه عن كذا أي شغله. ولهي هو عن الشيء يلهى. ﴿ فسوف يعلمون ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا. وهذه الآية منسوخة بالسيف.

---

(١) رواه الطبراني وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك. قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد فلا يستحق الترك فقد حدث عنه "أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات - كما في "المجمع"، (٧/ ٤٥).

الثانية: في مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا)[1]. وطول الأمل داء عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء. وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل). ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: (يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويبنون مشيدا ويأملون بعيدا، فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد):

يا ذا المؤمل أمالا وإن بعدت ... منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنى تفوز بما ترجوه ويك وما ... أصبحت في ثقة من نيل أدناها

وقال الحسن: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل). وصدق رضي الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾

أي أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

"من" صلة؛ كقولك: ما جاءني من أحد. أي لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدم قبله. ونظيره قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف: ٣٤).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

قاله كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه. و"لوما" تحضيض على الفعل كلولا وهلا. وقال الفراء: الميم في "لوما" بدل من اللام في لولا. ومثله استولى على الشيء واستومى عليه، ومثله خالمته وخاللته، فهو خلمي وخلي؛ أي صديقي. وعلى هذا يجوز "لوما" بمعنى الخبر، تقول: لوما زيد لضرب عمرو. قال الكسائي: لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام.

---

(١) رواه البزار وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف. كما في "المجمع"، (١٠/ ٢٢٦).

قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَري

يريد لولا الحياء. وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد. وأنشد أهل اللغة على ذلك:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

أي هلا تعدون الكمي المقنعا.

قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ واختاره أبو عبيد. وقرأ أبو بكر والمفضل "ما تُنَزَّل الملائكة". الباقون "ما تَنَزَّل الملائكة" وتقديره: ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا، وقد شدد التاء البزي، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله: ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ (القدر: ٤). ومعنى "إلا بالحق" إلا بالقرآن. وقيل بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن: إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا. ﴿وما كانوا إذاً منظرين ﴾أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة. وقيل: المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعد ذلك لم ينظروا. وأصل "إذاً" إذ أن ـ ومعناه حينئذ ـ فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿الذكر ﴾يعني القرآن. ﴿وإنا له لحافظون ﴾من أن يزاد فيه أو ينقص منه. قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تنقص منه حقا؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال في غيره: ﴿ بما استحفظوا ﴾ (المائدة: ٤٤)، فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا. أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني قال: قرئ على الشيخة العالمة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزيني قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطوماري حدثنا الحسين بن فهم قال: سمعت يحيى بن أكثم يقول: كان للمأمون ـ وهو أمير إذ ذاك ـ مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت

أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل. قال قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ (المائدة: ٤٤)، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع. وقيل: "وإنا له لحافظون" أي لمحمد ﷺ من أن يتقول علينا أو نتقول عليه. أو "وإنا له لحافظون" من أن يكاد أو يقتل. نظيره ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة: ٦٧). و"نحن" يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و"نزلنا" الخبر. والجملة خبر "إن". ويجوز أن يكون "نحن" تأكيدا لاسم "إن" في موضع نصب، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

المعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا، فحذف. والشيع جمع شيعة وهي الأمة، أي في أممهم؛ قاله ابن عباس وقتادة. الحسن: في فرقهم. والشيعة: الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة. فكأن الشيع الفرق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أو يلبسكم شيعا ﴾ (الأنعام: ٦٥). وأصله مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار ـ كما تقدم في "الأنعام". ـ وقال الكلبي: إن الشيع هنا القرى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تسلية للنبي ﷺ؛ أي كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذلك نسلكه ﴾ أي الضلال والكفر والاستهزاء والشرك. ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ من قومك؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي كما سلكناه في قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: نسلك التكذيب. والسلك: إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط. يقال: سلكه يسلكه سلكا وسلوكا، وأسلكه إسلاكا. وسلك الطريق

سلوكا وسلكا وأسلكه دخلـه، والشيء في غيره مثلـه، والشيء كذلك والرمح، والخيط في الجوهر؛ كلـه فعل وأفعل. وقال عدي بن زيد:

وقد سلكوك في يوم عصيب

والسلك (بالكسر) الخيط. وفي الآية رد على القدرية والمعتزلة. وقيل: المعنى نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به. وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذي عليه أكثر أهل التفسير، وهو ألزم حجة على المعتزلة. وعن الحسن أيضا: نسـلك الذكـر إلزاما للحجة؛ ذكـره الغزنوي. ﴿ وقد خلت سنة الأولين﴾ أي مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الـهلاك. وقيل: "خلت سنة الأولين" بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقال: ظل يفعل كذا، أي يفعلـه بالنهار. والمصدر الظلول. أي لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات؛ كما قالوا للقرآن المعجز: إنه سحر. ﴿ يعرجون﴾ من عرج يعرج أي صعد. والمعارج المصاعد. أي لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره. وقيل: الضمير في "عليهم" للمشركين. وفي "فظلوا" للملائكة، تذهب وتجيء. أي لو كشف لـهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا في السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة لـه؛ عن ابن عباس وقتادة. ومعنى﴿ سكرت﴾ سدت بالسحر؛ قالـه ابن عباس والضحاك. وقال الحسن: سحرت. الكلبي: أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضا عميت. قتادة: أخذت. وقال المؤرج: دير بنا من الدوران؛ أي صارت أبصارنا سكرى. جويبر: خدعت. وقال أبو عمرو بن العلاء: "سكرت" غشيت وغطيت. ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمس عليها مغفر وجعلت عين الحرور تسكر

وقال مجاهد: "سكرت" حبست. ومنه قول أوس بن حجر:

فصرت على ليلة ساهره فليست بطلق ولا ساكره

قلت: وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك: منعت. قال ابن عزيز: "سكرت أبصارنا" سدت أبصارنا؛ هو من قولك، سكرت النهر إذا سددته. ويقال: هو من سكر الشراب، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكر. وقرأ ابن كثير "سكرت" بالتخفيف، والباقون بالتشديد. قال ابن الأعرابي: سكرت ملئت. قال المهدوي: والتخفيف والتشديد في "سكرت" ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدي عن معناه. والمعروف أن "سكر" لا يتعدى. قال أبو علي: يجوز أن يكون سمع متعديا في البصر. ومن قرأ "سكرت" فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيلـه. وقد قيل: إنه بالتخفيف (من) سكر الشراب، وبالتشديد أخذت،

ذكرهما الماوردي. وقال النحاس: والمعروف من قراءة مجاهد والحسن "سكرت" بالتخفيف. قال الحسن: أي سحرت وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال: سحرت أبصارهم إذا غشيها سمادير حتى لا يبصروا. وقال الفراء: من قرأ "سكرت" أخذه من سكور الريح. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة. والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السكر في الشراب. وهذا قول حسن؛ أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله. وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته. والبروج: القصور والمنازل. قال ابن عباس: أي جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر؛ أي منازلهما. وأسماء هذه البروج: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب. وقالوا: الفلك اثنا عشر برجا، كل برج ميلان ونصف. وأصل البروج الظهور ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها. وقد تقدم هذا المعنى في النساء. وقال الحسن وقتادة: البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها. وقيل: الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح، يعني السبعة السيارة. وقال قوم: "بروجا"؛ أي قصورا وبيوتا فيها الحرس، خلقها الله في السماء. فالله أعلم. ﴿وزيناها ﴾يعني السماء؛ كما قال في سورة الملك: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾(الملك: ٥). ﴿للناظرين ﴾للمعتبرين والمتفكرين.

قوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾

أي مرجوم. والرجم الرمي بالحجارة. وقيل: الرجم اللعن والطرد. وقد تقدم. وقال الكسائي: كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم. وزعم الكلبي أن السماوات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سماوات إلى مبعث رسول الله ﷺ، فحفظ جميعها بعد بعثه وحرست منهم بالشهب. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما قال ابن عباس: (وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة، فيزيدون عليها تسعا فيحدثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فإذا رأوا شيئا مما قالوه صدقوهم فيما جاءوا به، فلما ولد عيسى ابن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺمنعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب؛ على ما يأتي).

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع. وقيل، هو متصل، أي إلا ممن استرق السماع. أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره؛ إلا من استرق

السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾(الشعراء: ٢١٢). وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم؛ ذكره الحسن وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ أتبعه: أدركه ولحقه. شهاب: كوكب مضيء. وكذلك شهاب ثاقب. وقوله: ﴿بشهاب قبس﴾(النمل: ٧) بشعلة نار في رأس عود؛ قاله ابن عزيز. وقال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفرية مسوم في سواد الليل منقضب

وسمي الكوكب شهابا لبريقه، يشبه النار. وقيل: شهاب لشعلة من نار، قبس لأهل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه. قال ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب، فيأتي أصحابه وهو يلتهب فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا، فيحدثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل. فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان، صدقوهم بكل ما جاءوا به من كذبهم. وسيأتي هذا المعنى مرفوعا في سورة "سبأ" إن شاء الله تعالى.

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا. فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل. وقال الحسن وطائفة: يقتل؛ فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما: أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره الماوردي.

قلت: والقول الأول أصح على ما يأتي بيانه في "الصافات". واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون: نعم. وقيل: لا، وإنما ذلك بعد المبعث. وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة "الجن" إن شاء الله تعالى. وفي "الصافات" أيضا. قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسيل. ولا يبعد أن يقال: انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبي ﷺ. وقال العلماء: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان. ويجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى. والشهاب في اللغة النار الساطعة. وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال: لما بعث النبي ﷺ رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل، فأتوا عبد ياليل بن عمرو الثقفي فقالوا: إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم. فقال

ـهم ـ وكان رجلا أعمى ـ : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التي تعرف فهي عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث. فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف، فقالوا: هذا من حدث. فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والأرض مددناها ﴾ هذا من نعمه أيضا، ومما يدل على كمال قدرته. قال ابن عباس: بسطناها على وجه الماء؛ كما قال: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (النازعات: ٣٠) أي بسطها. وقال: ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ (الذاريات: ٤٨). وهو يرد على من زعم أنها كالكرة. وقد تقدم. ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها. ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ أي مقدر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير. وإنما قال "موزون" لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء. قال الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة عندي لكل مخاصم ميزانه

وقال قتادة: موزون يعني مقسوم. وقال مجاهد: موزون معدود؛ ويقال: هذا كلام موزون؛ أي منظوم غير منتثر. فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن. وقد قال الله عز وجل في الحيوان: ﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾ (آل عمران: ٣٧). والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد. وقيل: "أنبتنا فيها" أي في الجبال "من كل شيء موزون" من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير، حتى الزرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا. روي معناه عن الحسن وابن زيد. وقيل: أنبتنا في الأرض الثمار مما يكال ويوزن. وقيل: ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له. ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء). ومنه قول جرير:

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب

والأصل معيشة على مفعلة (بتحريك الياء). وقد تقدم في الأعراف. وقيل: إنها الملابس؛ قاله الحسن. وقيل: إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة. قال الماوردي: وهو الظاهر. ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد. وعنه أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم: ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ (الإسراء: ٣١) ولفظ "من" يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غلب من يعقل. أي جعلنا لكم فيها معايش وعبيدا وإماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم. فـ "من" على هذا التأويل في موضع نصب؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: أراد به الوحش. قال سعيد: قرأ علينا منصور "ومن لستم له برازقين" قال: الوحش. فـ "من" على هذا تكون لما لا يعقل؛ مثل ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ (النور: ٤٥)

الآية. وهي في محل خفض عطفا على الكاف والميم في قولـه: "لكم". وفيه قبح عند البصريين؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر؛ مثل مررت به وبزيد. ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر. كما قال:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والأيام من عجب

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" وسورة "النساء".

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ أي وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعني المطر المنزل من السماء، لأن به نبات كل شيء. قال الحسن: المطر خزائن كل شيء. وقيل: الخزائن المفاتيح، أي في السماء مفاتيح الأرزاق؛ قالـه الكلبي. والمعنى واحد. ﴿ وما ننزلـه إلا بقدر معلوم ﴾ أي ولكن لا ننزلـه إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال: ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ (الشورى: ٢٧). وروي عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان المطر في البحار والقفار.

والخزائن جمع الخزانة، وهو الموضع الذي يستر فيه الإنسان مالـه والخزانة أيضا مصدر خزن يخزن. وما كان في خزانة الإنسان كان معدا لـه. فكذلك ما يقدر عليه الرب فكأنه معد عنده؛ قالـه القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قولـه تعالى: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه". والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقولـه: "وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج" وقولـه: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ (الحديد: ٢٥). وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ قراءة العامة "الرياح" بالجمع. وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرض سباسب وثوب أخلاق. وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ "لواقح" وهي جمع. ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أي تقلـه وتصرفه ثم تمريه فتستدره، أي تنزلـه؛ قال الله تعالى: ﴿ حتى إذا أقلت سحابا ثقالا ﴾ (الأعراف: ٥٧) أي حملت. وناقة لاقح ونوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لواقح بمعنى ملقحة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لقحت بخير. وقيل: ذوات لقح، وكل ذلك

صحيح؛ أي منها ما يلقح الشجر؛ كقولـهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضا، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لقحت الناقة (بالكسر) لقحا ولقاحا (بالفتح) فهي لاقح. وألقحها الفحل أي ألقى إليها الماء فحملته؛ فالرياح كالفحل للسحاب. قال الجوهري: ورياح لواقح ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدوي عن أبي عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمع ملقحة وملقح، ثم حذفت زوائده. وقيل: هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللقاح على النسب. ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملا. والعرب تقول للجنوب: لاقح وحامل، وللشمال حائل وعقيم. وقال عبيد بن عمير: يرسل الله المبشرة فتقم الأرض قما، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقيل: الريح الملاقح التي تحمل الندى فتمجه في السحاب، فإذا اجتمع فيه صار مطرا. وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس)[1]. وروي عنه ﷺ أنه قال: (ما هبت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غدقة). وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها؛ فالصبا تهيجه، والدبور تلقحه، والجنوب تدره، والشمال تفرقه.

الثانية: روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك ـ واللفظ لأشهب ـ قال مالك: قال الله تعالى: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح﴾ فلقاح القمح عندي أن يحبب ويسنبل، ولا أدري ما ييبس في أكمامه، ولكن يحبب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه. ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت، وليس ذلك بأن تورد. قال ابن العربي: إنما عول مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبلـه؛ لأنه سمي باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث (نهى النبي ﷺ عن بيع الحب حتى يشتد)[2]. قال ابن عبد البر: الإبار عند أهل العلم في النخل التلقيح، وهو أن يؤخذ شيء من طلع (ذكور) النخل فيدخل بين ظهراني طلع الإناث. ومعنى ذلك في سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها. والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير، وفيما لا يذكر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسقط ما يسقط. وحد ذلك في الزرع ظهوره من الأرض؛ قالـه مالك. وقد روي عنه أن إباره أن يحبب. ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حالـه، أن حكمه حكم ما أبر؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها في الحب. فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعا لـه. كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح في جواز بيعه.

الثالثة: روى الأئمة كلـهم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ابتاع نخلا بعد أن تؤبر فثمرتها للذي باعها إلا أن يشترط المبتاع. ومن ابتاع عبدا فمالـه للذي باعه إلا أن يشترطه المبتاع). قال علماؤنا: إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول في البيع إلا بالشرط؛ لأنه عين موجودة

---

(١) ذكره ابن كثير (٢/ ٥٤٩) وعزاه إلى ابن جرير، وضعف إسناده.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٩)، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي.

يحاط بها أمن سقوطها غالبا. بخلاف التي لم تؤبر؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لـها وجود، فلم يجز للبائع اشتراطها ولا استثناؤها؛ لأنها كالجنين. وهذا هو المشهور من مذهب مالك. وقيل: يجوز استثناؤها؛ هو قول الشافعي.

الرابعة: لو اشتري النخل وبقي الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طيبها على مشهور قول مالك، ويرى لـها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد. وعنه في رواية: لا يجوز. وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث. وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها.

الخامسة: ومما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاقح؛ والملاقح الفحول من الإبل، الواحد ملقح. والملاقح أيضا الإناث التي في بطونها أولادها، الواحدة ملقحة (بفتح القاف). والملاقيح ما في بطون النوق من الأجنة، الواحدة ملقوحة؛ من قولـهم: لقحت؛ كالمحموم من حم، والمجنون من جن. وفي هذا جاء النهي. وقد روي عن النبي ﷺ: أنه (نهى عن المجر وهو بيع ما في بطون الإناث[1]. ونهى عن المضامين والملاقيح). قال أبو عبيد: المضامين ما في البطون، وهي الأجنة. والملاقيح ما في أصلاب الفحول. وهو قول سعيد بن المسيب وغيره. وقيل بالعكس: إن المضامين ما في ظهور الجمال، والملاقيح ما في بطون الإناث. وهو قول ابن حبيب وغيره. وأي الأمرين كان، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز. وذكر المزني عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما في البطون لبعض الأعراب:

منيتي ملاقحا في الأبطن تنتج ما تلقح بعد أزمن

وذكر الجوهري على ذلك شاهدا قول الراجز:

إنا وجدنا طرد الـهوامل خيرا من التأنان والمسائل

وعدة العام وعام قابل ملقوحة في بطن ناب حامل

قولـه تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء﴾ أي من السحاب. وكل ما علاك فأظلك يسمى سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿ ماء﴾ أي قطرا. "فأسقيناكموه" أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. وقيل: سقى وأسقى بمعنى. وقيل بالفرق، وقد تقدم. ﴿ وما أنتم لـه بخازنين﴾ أي ليست خزائنه عندكم؛ أي نحن الخازنون لهذا الماء نتزلـه إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا. ومثلـه ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ (الفرقان: ٤٨)، ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ (المؤمنون: ١٨). وقال سفيان: لستم بمانعين المطر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي الأرض ومن عليها، ولا يبقى شيء سوانا. نظيره ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (مريم: ٤٠). فملك كل شيء لله تعالى. ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت الدعاوى، فكان الله وارثا من هذا الوجه. وقيل: الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام. فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قولـه: ﴿ وإن ربك هو يحشرهم﴾ (الحجر: ٢٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (٥/ ٣٤١)، وفي سنده موسى بن عبيدة الربذي ضعيف.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (٢٤) ﴾
فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ فيه ثمان تأويلات الأول: "المستقدمين" في الخلق إلى اليوم، و"المستأخرين" الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما. الثاني: "المستقدمين" الأموات، و"المستأخرين" الأحياء؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثالث: "المستقدمين" من تقدم أمة محمد، و"المستأخرين" أمة محمد ﷺ؛ قاله مجاهد. الرابع: "المستقدمين" في الطاعة والخير، و"المستأخرين" في المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتادة أيضا. الخامس: "المستقدمين" في صفوف الحرب، و"المستأخرين" فيها؛ قاله سعيد بن المسيب. السادس: "المستقدمين" من قتل في الجهاد، و"المستأخرين" من لم يقتل، قاله القرظي. السابع: "المستقدمين" أول الخلق، و"المستأخرين" آخر الخلق، قاله الشعبي. الثامن: "المستقدمين" في صفوف الصلاة، و"المستأخرين" فيها بسبب النساء. وكل هذا معلوم لله تعالى؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة. إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية؛ لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: "كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل "ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين[(١)]". وروي عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس. وهو أصح.

الثانية: هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأول؛ قال النبي ﷺ: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا)[(٢)]. فإذا جاء الرجل عند الزوال فنزل في الصف الأول مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب في الفضل: أول الوقت، والصف الأول، ومجاورة الإمام. فإن جاء عند الزوال فنزل في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأول، فقد حاز فضل أول الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة. فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأول دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أول الوقت وفضل الصف الأول، وفاته مجاورة الإمام. فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأول فقد فاته فضيلة أول الوقت، وحاز فضيلة الصف الأول ومجاورة الإمام. وهكذا. ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي كما قال ﷺ: (لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنهى)[(٣)] الحديث. فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته، فإن نزلها غيره أخر وتقدم هو إلى الموضع؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع، كالمحراب هو موضع الإمام تقدم أو تأخر؛ قاله ابن العربي.

---

(١) "صحيح" انظر الصحيحة (٢٤٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤).
(٣) أخرجه مسلم في "الصلاة"، (٤٣٢).

قلت: وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه: تأخر يا فلان، تقدم يا فلان؛ ثم يتقدم فيكبر. وقد روي عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليخر ساجدا فيغفر لمن خلفه. وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك، ويذكر أنه وجده كذلك في التوراة. ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وسيأتي في سورة "الصافات" زيادة بيان لـهذا الباب إن شاء الله تعالى.

الثالثة: وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة، فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال؛ فإن القيام في نحر العدو، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدم إليه أفضل، ولا خلاف فيه ولا خفاء به. ولم يكن أحد يتقدم في الحرب بين يدي رسول الله ﷺ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وإن ربك هو يحشرهم ﴾أي للحساب والجزاء. ﴿إنه حكيم عليم ﴾تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ﴾يعني آدم عليه السلام. ﴿من صلصال ﴾أي من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار؛ عن أبي عبيدة. وهو قول أكثر المفسرين. وأنشد أهل اللغة:

كعدو المصلصل الجوال

وقال مجاهد: هو الطين المنتن؛ واختاره الكسائي. قال: وهو من قول العرب: صل اللحم وأصل إذا أنتن ـ مطبوخا كان أو نيئا ـ يصل صلولا. قال الحطيئة:

ذاك فتـى يبـذل ذا قـدره لا يفسد اللحم لديه الصلول

وطين صلال ومصلال؛ أي يصوت إذا نقرته كما يصوت الحديد. فكان أول ترابا، أي متفرق الأجزاء ثم بل فصار طينا؛ ثم ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنونا؛ أي متغيرا، ثم يبس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور. وقد مضى في "البقرة" بيان هذا. والحمأ: الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه: حمئت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها. وحمئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتها. وأحمأتها إحماء ألقيت فيها الحمأة؛ عن ابن السكيت. وقال أبو عبيدة: الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة. والجمع حمء، مثل تمرة وتمر. والحمأ المصدر، مثل الـهلع والجزع، ثم سمي به. والمسنون المتغير. قال ابن عباس: (هو التراب المبتل المنتن، فجعل صلصالا كالفخار). ومثلـه قول مجاهد وقتادة، قالا: المنتن المتغير؛ مـن قولـهم: قد أسـن الماء إذا تغير؛ ومنه ﴿يتسنه ﴾(البقرة: ٢٥٩) و ﴿ماء غير آسن ﴾(محمد: ١٥). ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

سقت صداي رضابا غير ذي أسن كالمسـك فت على ماء العناقـيد

وقال الفراء: هو المتغير، وأصلـه من قولـهم: سننت الحجر على الحجر إذا حككته به. وما يخرج من الحجرين يقال لـه السنانة والسنين؛ ومنه المسن. قال الشاعر:

ثم خاصرتها إلى القبة الحمـ ـراء تمشـي في مـرمـر مسـنون

أي محكوك مملس. حكي أن يزيد بن معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبد الرحمن بن حسان يشبب بابنتك. فقال معاوية: وما قال؟ فقال: قال:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزت مـن جـوهـر مكنون

فقال معاوية: صدق! فقال يزيد: (إنه يقول):

وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون

فقال: صدق! فقال: أين قولـه: ثم خاصرتها... البيت. فقال معاوية: كذب. وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته. والسن الصب. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: (المسنون الرطب)؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب. النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنه يقال: سننت الشيء أي صببته. قال أبو عمرو بن العلاء: ومنه الأثر المروي عن عمر أنه كان يسن الماء على وجهه ولا يشنه. والشن (بالشين) تفريق الماء، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق. وقال سيبويه: المسنون المصور. أخذ من سنة الوجه وهو صورته. وقال ذو الرمة:

تريـك سـنة وجـه غير مقرفـة ملساء ليس بها خال ولا ندب

وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم؛ من قولـهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. وقد قيل: إن الصلصال للتراب المدقق؛ حكاه المهدوي. ومن قال: إن الصلصال هو المنتن فأصلـه صلال، فأبدل من إحدى اللامين الصاد. و"من حمإ" مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك: أخذت هذا من رجل من العرب.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والجان خلقناه من قبل﴾ أي من قبل خلق آدم. وقال الحسن: يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم‏ عليه السلام. وسمي جانا لتواريه عن الأعين. وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك). ﴿ من نار السموم﴾ قال ابن مسعود: (نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم). وقال ابن عباس: (السموم الريح الحارة التي تقتل). وعنه (أنها نار لا دخان لـها)، والصواعق تكون منها، وهي نار تكون بين السماء والحجاب. فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت. فالـهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب. وقال الحسن: نار السموم نار دونها حجاب،

والذي تسمعون من انغطاط السحاب صوتها. وعن ابن عباس أيضا قال: (كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لـهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ـ قال ـ : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار).

قلت: هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثلـه لا يقال من جهة الرأي. وقد خرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم). فقولـه: (خلقت الملائكة من نور) يقتضي العموم. والله أعلم. وقال الجوهري: مارج من نار نار لا دخان لـها خلق منها الجان. والسموم الريح الحارة تؤنث؛ يقال منه: سم يومنا فهو يوم مسموم، والجمع سمائم. قال أبو عبيدة: (السموم بالنهار وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار). القشيري: وسميت الريح الحارة سموما لدخولـها في مسام البدن.

قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة﴾ تقدم في "البقرة". ﴿ إني خالق بشرا من صلصال﴾ من طين ﴿ فإذا سويته﴾ أي سويت خلقه وصورته. ﴿ ونفخت فيه من روحي﴾ النفخ إجراء الريح في الشيء. والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما؛ كقولـه: (أرضي وسمائي وبيتي وناقة الله وشهر الله). ومثلـه "وروح منه" وقد تقدم في "النساء" مبينا. وذكرنا في كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التي تدل على أن الروح جسم لطيف، وأن النفس والروح اسمان لمسمى واحد. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد: فإذا ركبت فيه الحياة. ﴿ فقعوا لـه ساجدين﴾ أي خروا لـه ساجدين. وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة. ولله أن يفضل من يريد؛ ففضل الأنبياء على الملائكة. وقد تقدم في "البقرة" هذا المعنى. وقال القفال: كانوا أفضل من آدم، وامتحنهم بالسجود لـه تعريضا لـهم للثواب الجزيل. وهو مذهب المعتزلة. وقيل: أمروا بالسجود لله عند آدم، وكان آدم قبلة لـهم.

قوله تعالى:﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٣١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود؛ لقوله: ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ (الأعراف: ١٢) وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام؛ كما تقدم في "البقرة" بيانه. ثم قيل: كان من الملائكة؛ فهو استثناء من الجنس. وقال قوم: لم يكن من الملائكة؛ فهو استثناء منقطع. وقد مضى في "البقرة" هذا كلـه مستوفى. وقال ابن عباس: الجان أبو الجن وليسوا شياطين. والشياطين ولد إبليس؛ لا يموتون إلا مع إبليس. والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر. فآدم أبو الإنس. والجان أبو الجن. وإبليس أبو الشياطين؛ ذكره الماوردي. والذي تقدم في "البقرة" خلاف هذا،

فتأملـه هناك .

الثانية : الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان علي دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة. ويستوي في ذلك المكيلات والموزونات والمقدرات. وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قبل. فأما إذا استثنى المقومات من المكيلات أو الموزونات، والمكيلات من المقومات، مثل أن يقول: علي عشرة دنانير إلا ثوبا، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء، ويلزم المقر جميع المبلغ. وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح، ويلزم المقر جملة ما أقر به. والدليل لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما﴾ (الواقعة : ٢٥ ـ ٢٦) فاستثنى السلام من جملة اللغو . ومثلـه "فسجد الملائكة كلـهم أجمعون . إلا إبليس" وإبليـس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (الكهف : ٥٠) وقال الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس   إلا اليعافير وإلا العيس

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثلـه قول النابغة :

حلفت يمينا غير ذي مثنوية   ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال يا إبليس ما لك﴾ أي ما المانع لك. ﴿ ألا تكون مع الساجدين﴾ أي في ألا تكون. ﴿ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾ بين تكبره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدم في "الأعراف" بيانه. ﴿ قال فاخرج منها﴾ أي من السماوات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة. ﴿ فإنك رجيم﴾ أي مرجوم بالشهب. وقيل: ملعون مشئوم. وقد تقدم هذا كلـه مستوفى في البقرة والأعراف. ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ أي لعنتي، كما في سورة "ص".

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب لـه دعاء؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه؛ كفعل

الآيس من السلامة. وأراد بسؤالـه الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿ فإنك من المنظرين﴾ يعني من المؤجلين. ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم﴾ قال ابن عباس: (أراد به النفخة الأولى)، أي حين تموت الخلائق. وقيل: الوقت المعلوم الذي استأثر الله بعلمه، ويجهلـه إبليس. فيموت إبليس ثم يبعث؛ قال الله تعالى: ﴿ كل من عليها فان﴾ (الرحمن: ٢٦). وفي كلام الله تعالى لـه قولان: أحدهما: كلمه على لسان رسولـه.

الثاني: كلمه تغليظا في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لـهم في الأرض﴾ تقدم معنى الإغواء والزينة في الأعراف. وتزيينه هنا يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلـهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة. ومعنى: ﴿ ولأغوينهم أجمعين﴾ أي لأضلنهم عن طريق الـهدى. وروى ابن لـهيعة عبد الله عن دراج أبي السمح عن أبي الـهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لـهم ما استغفروني)[1].

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام؛ أي الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباقون بكسر اللام؛ أي الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء. حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال: (الذي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قال عمر بن الخطاب: معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة. الحسن: "علي" بمعنى إلي. مجاهد والكسائي: هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تهدده: طريقك علي ومصيرك إلي. وكقولـه: ﴿ إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر: ١٤). فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بعملـه، يعني طريق العبودية. وقيل: المعنى علي أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان. وقيل: بالتوفيق والـهداية. وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء وحميد ويعقوب "هذا صراط علي مستقيم" برفع "علي" وتنوينه؛ ومعناه رفيع مستقيم، أي رفيع في الدين والحق. وقيل: رفيع أن ينال، مستقيم أن يمال.

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه.. والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي "أبي يعلى" كما في "المجمع"، (١٠/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) ﴾
فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾قال العلماء: يعني على قلوبهم. وقال ابن عيينة: أي في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفوي ويضيقه عليهم. وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.

قلت: لعل قائلا يقول: قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقولـه: ﴿فأزلـهما الشيطان ﴾(﴿البقرة: ٣٦)، وعن جملة من أصحاب نبيه بقولـه: ﴿إنما استزلـهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾(آل عمران: ١٥٥) فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس لـه سلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمانهم، ولا يلقيهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيلـه التوبة وتمحوه الأوبة. ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول؛ على ما تقدم في "البقرة" بيانه. وأما أصحاب النبي ﷺفقد مضى القول عنهم في آل عمران. ثم إن قولـه سبحانه: "ليس لك عليهم سلطان" يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فعل ببلال، إذ أتاه يهديه كما يهدى الصبي حتى نام، ونام النبي ﷺوأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ فقال لـهم النبي ﷺ (ليس في النوم تفريط) [1]ففرج عنهم. ﴿إلا من اتبعك من الغاوين ﴾أي الضالين المشركين. أي سلطانه على هؤلاء؛ دليلـه ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(النحل: ١٠٠).

الثانية: وهذه الآية والتي قبلـها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل؛ مثل أن يقول: عشرة إلا درهما. أو يقول: عشرة إلا تسعة. وقال أحمد بن حنبل: لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه. وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح. ودليلنا هذه الآية، فإن فيها استثناء "الغاوين" من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾يعني إبليس ومن اتبعه. ﴿لـها سبعة أبواب ﴾أي أطباق، طبق فوق طبق ﴿لكل باب ﴾أي لكل طبقة ﴿منهم جزء مقسوم ﴾أي حظ معلوم. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغنوي قال: سمعت حطان بن عبد الله الرقاشي يقول سمعت عليا ﷺيقول: هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا: هي مثل أبوابنا. قال: لا، هي هكذا بعضها فوق بعض، ـ زاد الثعلبي: ووضع إحدى يديه على الأخرى: وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلـها جهنم، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الـهاوية، وكل باب أشد حرا من الذي يليه سبعين مرة.

---

(١)اصلـه في الصحيحين.

قلت: كذا وقع هذا التفسير. والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. قال الضحاك: في الدرك الأعلى المحمديون، وفي الثاني النصارى، وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة. قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾(النساء: ١٤٥) ـ وقد تقدم في النساء ـ، وقال: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾(غافر: ٤٦). وقسم معاذ بن جبل ﷺالعلماء السوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه في كتاب (التذكرة) وروى الترمذي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتي)[1] قال: حديث غريب.

وقال أبي بن كعب: (لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية. وقال وهب بن منبه: بين كل بابين مسيرة سبعين سنة، كل باب أشد حرا من الذي فوقه بسبعين ضعفا، وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة. وروى سلام الطويل عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺفي قول الله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفوا غيظهم بغضب الله، وجزء صيروا رغبتهم بحظهم من الله، وجزء عتوا على الله. ذكره الحليمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) له، وقال: فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثنوية. والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلها أو لا إله لهم، ويشكون في شريعته أنها من عنده أم لا. والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه، وهم الدهرية. والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي؛ لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه. والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه، المعذبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم. والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى. والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون. والله أعلم بما أراد رسوله ﷺإن ثبت الحديث. ويروى أن سلمان الفارسي ﷺلما سمع هذه الآية "وإن جهنم لموعدهم أجمعين" فر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى رسول الله ﷺفسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي؛ فأنزل الله تعالى ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾(الحجر: ٤٥). وقال بلال: كان النبي ﷺيصلي في مسجد المدينة وحده، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله ﷺهذه الآية "لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم" فخرت الأعرابية مغشيا عليها، وسمع النبي ﷺ وجبتها فانصرف ودعا بماء فصب على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال النبي ﷺ: (يا هذه ما

(١) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وقال الشيخ شاكر في تخريج المسند (٥٦٨٩): "إسناده صحيح".

لك)؟ فقالت: أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقولـه من تلقاء نفسك؟ فقال: (يا أعرابيه، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل) فقالت: كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها؟ قال: (يا أعرابية، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالـهم) فقالت: والله إني امرأة مسكينة، ما لي مال، وما لي إلا سبعة أعبد، أشهدك يا رسول الله، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى. فأتاه جبريل فقال. "يا رسول الله، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلـها وفتح لـها أبواب الجنة كلـها".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦)﴾

قولـه تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون ﴾أي الذين اتقوا الفواحش والشرك. "في جنات" أي بساتين. "وعيون" هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل. وأما العيون المذكورة في سورة "الإنسان": الكافور والزنجبيل والسلسبيل، وفي "المطففين": التسنيم، فيأتي ذكرها وأهلـها إن شاء الله. وضم العين من "عيون" على الأصل، والكسر مراعاة للياء، وقرئ بهما - ﴿ادخلوها بسلام آمنين ﴾قراءة العامة "ادخلوها" بوصل الألف وضم الخاء، من دخل يدخل، على الأمر. تقديره: قيل ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية ورويس عن يعقوب "ادخلوها" بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول، من أدخل. أي أدخلـهم الله إياها. ومذهبهم كسر التنوين في مثل ﴿برحمة ادخلوا الجنة ﴾(الأعراف: ٤٩) وشبهه؛ إلا أنهم ههنا ألقوا حركة الـهمزة على التنوين؛ إذ هي ألف قطع، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان. "بسلام" أي بسلامة من كل داء وآفة. وقيل: بتحية من الله لـهم. "آمنين" أي من الموت والعذاب والعزل والزوال.

قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾

قال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لـهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم؛ ونحوه عن علي رضي الله عنه. وقال علي بن الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعلي والصحابة، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل. والقول الأول أظهر، يدل عليه سياق الآية. وقال علي ﷺ: (أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء). والغل: الحقد والعداوة؛ يقال منه: غل يغل. ويقال من الغلول وهو السرقة من المغنم: غل يغل. ويقال من الخيانة: أغل يغل. كما قال:

جزى الله عنا حمزة ابنة نوفل جـزاء مغل بالأمانة كاذب

وقد مضى هذا في آل عمران. ﴿إخوانا على سرر متقابلين ﴾أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلا

وتحابيا؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد. وقيل: "متقابلين" قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالود. وسرر جمع سرير. مثل جديد وجدد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهد للسرور. والأول أظهر. قال ابن عباس: (على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر)، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة. "وإخوانا" نصب على الحال من "المتقين" أو من المضمر في "ادخلوها"، أو من المضمر في "آمنين"، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم في "صدورهم". ﴿لا يمسهم فيها نصب ﴾أي إعياء وتعب. ﴿وما هم منها بمخرجين ﴾دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول، وأن أهلها فيها باقون. أكلها دائم؛ ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾(ص: ٥٤).

قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية وزان قوله ﷺ (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. وقد تقدم في الفاتحة. وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجي، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض. وجاء في الحديث أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: (أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار) فشق ذلك عليهم فنزلت الآية [(١)]. ذكره الماوردي والمهدوي. ولفظ الثعلبي عن ابن عمر قال: اطلع علينا النبي ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال: (ما لكم تضحكون لا أراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقرى فقال لنا: (إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لم تقنط عبادي من رحمتي ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم *وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾. فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها) [(٢)].

قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ضيف إبراهيم: الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط. وقد تقدم ذكرهم. وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد. وسمي الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك. وقد مضى من حكم الضيف في "هود" ما يكفي والحمد لله. ﴿إذ دخلوا عليه ﴾جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد

---

(١) رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. كما في "المجمع"، (٧/ ٤٦).
(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ١٨٩) وعزاه إلى ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً.

والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر. ضافه وأضافه أماله؛ ومنه الحديث (حين تضيف الشمس للغروب)، وضيفوفة السهم، والإضافة النحوية. ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أي سلموا سلاما. ﴿ قال إنا منكم وجلون﴾ أي فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرب العجل ورآهم لا يأكلون، على ما تقدم في هود. وقيل: أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام. ﴿ قالوا لا توجل﴾ أي قالت الملائكة لا تخف. ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم﴾ أي حليم؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق. ﴿ قال أبشرتموني على أن مسني الكبر ﴾ "أن" مصدرية؛ أي على مس الكبر إياي وزوجتي، وقد تقدم في هود وإبراهيم، حيث يقول: ﴿ فبم تبشرون﴾ استفهام تعجب. وقيل: استفهام حقيقي. وقرأ الحسن "توجل" بضم التاء. والأعمش "بشرتموني" بغير ألف، ونافع وشيبة "تبشرون" بكسر النون والتخفيف؛ مثل، "أتحاجوني" وقد تقدم تعليله. وقرأ ابن كثير وابن محيصن "تبشرون" بكسر النون مشددة، تقديره تبشرونني، فأدغم النون في النون. الباقون "تبشرون" بنصب النون بغير إضافة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قالوا بشرناك بالحق﴾ أي بما لا خلف فيه، وأن الولد لا بد منه. ﴿ فلا تكن من القانطين﴾ أي من الآيسين من الولد، وكان قد أيس من الولد لفرط الكبر. وقراءة العامة "من القانطين" بالألف. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب "من القنطين" بلا ألف. وروي عن أبي عمرو. وهو مقصور من "القانطين". ويجوز أن يكون من لغة من قال: قنط يقنط؛ مثل حذر يحذر. وفتح النون وكسرها من "يقنط" لغتان قرئ بهما. وحكي فيه "يقنط" بالضم. ولم يأت فيه "قنط يقنط" (و) من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين، فأخذ في الماضي بلغة من قال: قنَط يقنِط، وفي المستقبل بلغة من قال: قنط يقنَط؛ ذكره المهدوي.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. يعني أنه استبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: لما علم أنهم ملائكة ـ إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد ـ قال: فما خطبكم؟ والخطب الأمر الخطير. أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به. ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي مشركين ضالين. وفي الكلام إضمار؛ أي أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم. ﴿ إلا آل

لوط ﴾ أتباعه وأهل دينه. ﴿ إنا لمنجوهم ﴾ وقرأ حمزة والكسائي "لمنْجُوهم" بالتخفيف من أنجى. الباقون: بالتشديد من نجى، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاء التخليص. ﴿ إلا امرأته ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك. وقد تقدمت قصة قوم لوط في "الأعراف" وسورة "هود" بما فيه كفاية. ﴿ قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين في العذاب. والغابر: الباقي. قال:

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج

الأغبار بقايا اللبن. وقرأ أبو بكر والمفضل "قَدَرنا" بالتخفيف هنا وفي النمل، وشدد الباقون. الهروي: يقال قدَّر وقدَر، بمعنى.

الثانية: لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي؛ فإذا قال رجل: له علي عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفي، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة. وكذلك لو قال: علي خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث. وكذلك إذا قال: لفلان علي عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثاني راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر. والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير. فقوله سبحانه: "إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته" فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال: "إلا امرأته" فاستثناها من آل لوط، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا. وهكذا الحكم في الطلاق، لو قال لزوجته: أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت اثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهي الثلاث. وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون ﴾ أي لا أعرفكم. وقيل: كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه؛ فهذا هو الإنكار. ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أي يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب. ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ أي بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي في هلاكهم. ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ تقدم في "هود". ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أي كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب. ﴿ ولا يلتفت منكم

أحد﴾ نهوا عن الالتفات ليجدوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح. وقيل: المعنى لا يتخلف. ﴿ وامضوا حيث تؤمرون﴾ قال ابن عباس (يعني الشام). مقاتل. يعني صفد، قرية من قرى لوط. وقد تقدم. وقيل: إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال لـه اليقين، وإنما سمي اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم، فقال لجبريل: من أين يخسف بهم؟ قال: (من هاهنا) وحد لـه حدا، وذهب جبريل، فلما جاء لوط. جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم: (أيقنت بالله) فسمي اليقين.

قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

قولـه تعـالى: ﴿ وقضينا إليه ﴾ أي أوحينا إلى لـوط. ﴿ ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ نظيره﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ (الأنعام: ٤٥)﴿ مصبحين﴾ أي عند طلوع الصبح. وقد تقدم. ﴿ وجاء أهل المدينة﴾ أي أهل مدينة لوط﴿ يستبشرون﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم في ركوب الفاحشة. ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي ﴾ أي أضيافي. ﴿ فلا تفضحون ﴾ أي تخجلون. ﴿ واتقوا الله ولا تخزون﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والـهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والخجل. وقد تقدم في هود. ﴿ قالوا أو لـم ننهك عن العالمين﴾ أي عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة. وكانوا يقصدون بفعلـهم الغرباء؛ عن الحسن. وقد تقدم في الأعراف. وقيل: أو لم ننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ أي فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام. وقد تقدم بيان هذا في هود.

قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بن العربي: قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمدﷺ تشريفا لـه، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون.

قلت: وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلالـه بمدة حياة محمدﷺ . وأصلـه ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه وبقائك يا محمد. وقيل وحياتك. وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحد غير محمدﷺ ؛ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربي: "ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتي ضعفيه من شرف لمحمدﷺ ؛ لأنه أكرم على الله منه؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم

وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع. ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر لـه ذكر لغير ضرورة".

قلت: ما قالـه حسن؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمدﷺ كلاما معترضا في قصة لوط. قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره: ويحتمل أن يقال: يرجع ذلك إلى قوم لوط، أي كانوا في سكرتهم يعمهون. وقيل: لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتي قالت الملائكة: يا لوط، "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" ولا يدرون ما يحل بهم صباحا. فإن قيل: فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؛ فما في هذا؟ قيل لـه: ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضلـه على ما يدخل في عداده، فكذلك نبيناﷺ يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداده. والعمر والعمر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال. وتقول: عمرك الله، أي أسأل الله تعميرك. و"لعمرك" رفع بالابتداء وخبره محذوف. المعنى لعمرك مما أقسم به.

الثانية: كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري؛ لأن معناه وحياتي. قال إبراهيم النخعي: يكره للرجل أن يقول لعمري؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال. ونحو هذا قال مالك: إن المستضعفين من الرجال والمؤنثين يقسمون بحياتك وعيشك، وليس من كلام أهل الذكران، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل في غيره. وقال ابن حبيب: ينبغي أن يصرف "لعمرك" في الكلام لـهذه الآية. وقال قتادة: هو من كلام العرب. قال ابن العربي: وبه أقول، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال ورد القسم إليه.

قلت. القسم بـ "لعمرك ولعمري" ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير.

قال النابغة:

لعمري وما عمري علي بهين   لقد نطقت بطلا على الأقارع

آخر:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد

آخر:

أيها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان

آخر:

إذا رضيت علي بنو قشير   لعمر الله أعجبني رضاها

وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يقال لله عمر، وإنما هو تعالى أزلي. ذكره الزهراوي.

الثالثة: قد مضى الكلام فيما يحلف به وما لا يجوز الحلف به في "المائدة"، وذكرنا هناك قول أحمد ابن حنبل فيمن أقسم بالنبيﷺ لزمته الكفارة. قال ابن خويز منداد: من جوز الحلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة؛ إلا أنه من قصد الكذب كان

ملوما؛ لأنه في الباطن مستخف بما وجب عليه تعظيمه. قالوا: وقوله تعالى "لعمرك" أي وحياتك. وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وعلى مذهب مالك معنى قوله: "لعمرك" و ﴿التين والزيتون﴾(التين: ١) ﴿والطور. وكتاب مسطور﴾ (الطور: ١ ـ ٢) ﴿والنجم إذا هوى﴾(النجم: ١) ﴿والشمس وضحاها﴾(الضحى. ١) ﴿لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد. ووالد وما ولد﴾(البلد: ١ ـ ٣) كل هذا معناه: وخالق التين والزيتون، وبرب الكتاب المسطور، وبرب البلد الذي حللت به، وخالق عيشك وحياتك، وحق محمد؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق. قال ابن خويز منداد: ومن جوز اليمين بغير الله تعالى تأول قوله ﷺ: (لا تحلفوا بآبائكم)[1] وقال: إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم: (للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية). ومالك حمل الحديث على ظاهره. قال ابن خويز منداد: واستدل أيضا من جوز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي ﷺ حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال: احلف لي بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ وكذلك بالحرم والمشاعر العظام، والركن والمقام والمحراب وما يتلى فيه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤)﴾

قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ نصب على الحال، أي وقت شروق الشمس. يقال: أشرقت الشمس أي أضاءت، وشرقت إذا طلعت. وقيل: هما لغتان بمعنى. وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس. مثل أصبحوا وأمسوا، وهو المراد في الآية. وقيل: أراد شروق الفجر. وقيل: أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس، فكان تمام الهلاك عند ذلك. والله أعلم. و"الصيحة" العذاب. وتقدم ذكر ﴿سجيل﴾(هود: ٨٢).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿للمتوسمين﴾ روى الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: (للمتفرسين)[2] وهو قول مجاهد. وروى أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ـ ثم قرأ ـ ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾)[3]. قال: هذا حديث غريب. وقال مقاتل وابن زيد: للمتوسمين للمتفكرين. الضحاك: للناظرين. قال الشاعر:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا إلي عريفهم يتوسم

وقال قتادة: للمعتبرين. قال زهير:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦).
(٢) هذا من كلام الإمام الترمذي نقلا عن بعض أهل العلم، كما في صحيح الترمذي عقب حديث (٢٥٠٠).
(٣) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، وذكره الشوكاني في "الفوائد المجموعة"، (٧٢٥).

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، والمعنى متقارب. وروى الترمذي الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسم)(١). قال العلماء: التوسم تفعل من الوسم، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسم ذلك فيه؛ ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ:

إني توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابت البصر

آخر:

توسمته لما رأيت مهابة عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها. وتوسم الرجل طلب كلأ الوسمي. وأنشد:

وأصبحن كالدوم النواعم غدوة على وجهة من ظاعن متوسم

وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك. وأصل التوسم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر. زاد غيره: وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا. روى نهشل عن ابن عباس "للمتوسمين" قال: لأهل الصلاح والخير. وزعمت الصوفية أنها كرامة. وقيل: بل هي استدلال بالعلامات، ومن العلامات ما يبدو ظاهرا لكل أحد وبأول نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر. قال الحسن: المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار؛ فهذا من الدلائل الظاهرة. ومثله قول ابن عباس: (ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه). وروي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارا، وقال الآخر: بل حدادا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارا وأنا اليوم حداد. وروي عن جندب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به. فقلنا له: كأنك عرضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حروريا؛ فكان رأس الحرورية، واسمه مرداس. وروي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتيان البصرة إن لم يحدث، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه. وقال لأيوب: هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن. وروي عن الشعبي أنه قال لداود الأزدي وهو يماريه: إنك لا تموت حتى تكوى في رأسك، وكان كذلك. وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل عليه قوم من مذحج فيهم الأشتر، فصعد فيه النظر وصوبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا؛ فكان منه في الفتنة ما كان. وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان: (يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنى فقال له

---

(١) "حسن" وانظر الصحيحة (١٦٩٣).

أنس: أوحيا بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا! ولكن برهان وفراسة وصدق). ومثله كثير عن الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين.

الثانية: قال أبو بكر بن العربي: "إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس. وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام، جريا على طريق إياس بن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاسي صنف جزءا في الرد عليه، كتبه لي بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإنها ﴾ يعني قرى قوم لوط. ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام. ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي لعبرة للمصدقين. ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر. والأيكة: الغيضة، وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك. ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل. قال النابغة:

تجلو بقادمتي حمامة أيكة بردا أسف لثاته بالإثمد

وقيل: الأيكة اسم القرية. وقيل اسم البلدة. وقال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم، بمنزلة بكة من مكة. وتقدم خبر شعيب وقومه. ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمر عليهما.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

الحجر ينطلق على معان: منها حجر الكعبة. ومنها الحرام؛ قال الله تعالى: ﴿ وحجرا محجورا ﴾ (الفرقان: ٥٣) أي حراما محرما. والحجر العقل؛ قال الله تعالى: ﴿ لذي حجر ﴾ (الفجر: ٥) والحجر حجر القميص؛ والفتح أفصح. والحجر الفرس الأنثى. والحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا، أي المدينة؛ قاله الأزهري. قتادة: وهي ما بين مكة وتبوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود. الطبري: هي أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح. وقال: ﴿ المرسلين ﴾ وهو صالح وحده، ولكن من كذب نبيا فقد كذب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد في الأصول فلا يجوز التفريق بينهم. وقيل: كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين أيضا. والله أعلم

روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عجنا واستقينا. فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين. وفي الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل

العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تردها الناقة. وروي أيضا عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم)(١) ثم زجر فأسرع.

قلت: ففي هذه الآية التي بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف في بعضها الفقهاء، فأولها: كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع. وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة)(٢).

مسألة: أمر النبي ﷺ بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله. وقال (اعلفوه الإبل). قلت: وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به. وثانيها: قال مالك: إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم؛ إذ لا تكليف عليها؛ وكذلك قال في العسل النجس: إنه يعلفه النحل. وثالثها: أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحمر الإنسية يوم خيبر؛ فدل على أن لحم الحمر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس. وقد أمر رسول الله ﷺ بكسب الحجام أن يعلف الناضح والرقيق، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس. قال الشافعي: ولو كان حراما لم يأمره أن يطعمه رقيقه؛ لأنه متعبد فيه كما تعبد في نفسه. ورابعها: في أمره ﷺ بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال: تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليهم. وخامسها: أمره ﷺ أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأول دليلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم. هذا، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض؛ كما قال كثير:

أحب لحبها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما تلك الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها: منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال: لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب. قال ابن العربي: فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)(٣) فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة فيها. وقد روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) سيأتي بعد قليل.

(٣) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

الحمام وفي معاطن الإبل وفوق بيت الله [(١)]. وفي الباب عن أبي مرثد وجابر وأنس: حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تكلم في زيد بن جبيرة من قبل حفظه. وقد زاد علماؤنا: الدار المغصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذي فيه تماثيل، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة. قال ابن العربي: ومن هذه المواضع ما منع لحق الغير، ومنه ما منع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز في المدونة. وذكر أبو مصعب عنه الكراهة. وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة، وبين مقبرة المسلمين والمشركين؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحجر. وقال مالك في المجموعة: لا يصلي في أعطان الإبل وإن فرش ثوبا؛ كأنه رأى لها علتين: الاستتار بها ونفارها فتفسد على المصلي صلاته، فإن كانت واحدة فلا بأس؛ كما كان النبي ﷺ يفعل؛ في الحديث الصحيح. وقال مالك: لا يصلي على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة. وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل، وفي الدار المغصوبة، فإن فعل أجزأه. وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزئ. قال ابن العربي: وذلك عندي بخلاف الأرض. فإن الدار لا تدخل إلا بإذن، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك.

قلت: الصحيح - إن شاء الله - الذي يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة. وما روي من قوله ﷺ: (إن هذا واد به شيطان)[(٢)] وقد رواه معمر عن الزهري فقال: واخرجوا عن الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة[(٣)]. وقول علي: نهاني رسول الله ﷺ أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة[(٤)]. وقوله ﷺ حين مر بالحجر من ثمود: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين)[(٥)] ونهيه عن الصلاة في معاطن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها. قال الإمام الحافظ أبو عمر: المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متيقنة تمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلال من اعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة، وكل ما روي في هذا الباب من النهي عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله ﷺ: (جعلت لي الأرض كلها مسجدا وطهورا)[(٦)]، وقوله ﷺ مخبرا أن ذلك من فضائله ومما خص به،

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وانظر الإرواء (٢٨٧).
(٢) بنحوه في صحيح مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة.
(٣) انظر صحيح أبي داود (٤٢١).
(٤) "ضعيف" أخرجه البيهقي في "الكبرى"، (٢/ ٤٥١).
(٥) سبق.
(٦) سبق.

وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص. قال ﷺ: (أوتيت خمسا [١] - وقد روي ستا، وقد روي ثلاثا وأربعا، وهي تنتهي إلى أزيد من تسع، قال فيهن - لم يؤتهن أحد قبلي بعثت إلى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب وجعلت أمتي خير الأمم وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت الشفاعة وبعثت بجوامع الكلم وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت في يدي وأعطيت الكوثر وختم بي النبيون) [٢] رواه جماعة من الصحابة. وبعضهم يذكر بعضها، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره، وهي صحاح كلها. وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيا ثم كان نبيا قبل أن يكون رسولا؛ وكذلك روي عنه. وقال: (ما أدري ما يفعل بي ولا بكم) ثم نزلت: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ (الفتح: ٢). وسمع رجلا يقول: يا خير البرية؛ فقال: (ذاك إبراهيم) [٣] وقال: (لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى) [٤] وقال: (السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام) [٥] ثم قال بعد ذلك كله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) [٦]. ففضائله ﷺ لم تزل تزداد إلى أن قبضه الله؛ فمن ههنا قلنا: إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة. وبقوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا) أجزنا الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس. وقال ﷺ لأبي ذر: (حيثما أدركتك الصلاة فصل فإن الأرض كلها مسجد) ذكره البخاري ولم يخص موضعا من موضع.

وأما من احتج بحديث ابن وهب قال: أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر، حديث الترمذي الذي ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبيرة وأنكروه عليه، ولا يعرف هذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة. وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحلواني عن سعيد بن أبي مريم عن الليث، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها. وقد روي عن علي بن أبي طالب قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة. وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن علي هو سعيد بن عبد الرحمن الغفاري، بصري ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن علي، ومن دونه مجهولون لا يعرفون. قال أبو عمر: وفي الباب عن علي من قوله غير مرفوع حديث حسن الإسناد، رواه الفضل بن دكين قال: حدثنا المغيرة بن أبي الحر الكندي قال حدثني أبو العنبس حجر بن عنبس قال: خرجنا مع علي إلى الحرورية، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل، قلنا: يا أمير المؤمنين أمسيت، الصلاة الصلاة؛ فأبى أن يكلم أحدا. قالوا: يا أمير المؤمنين، قد أمسيت. قال بلى، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها. والمغيرة بن أبي الحر كوفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥)، ومسلم (٥٢٣)، بلفظ: "أعطيت خمسا..".
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).
(٤) أخرجاه في الصحيحين.
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨)، بلفظ: "الكريم ابن الكريم...".
(٦) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) وغيره.

ثقة؛ قاله يحيى بن معين وغيره. وحجر بن عنبس من كبار أصحاب علي. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام)[١]. قال الترمذي: رواه سفيان الثوري عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلا، وكأنه أثبت وأصح. قال أبو عمر: فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا. ولسنا نقول كما قال بعض المتحلين لمذهب المدنيين: إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإن قال: المقبرة بالألف واللام؛ فغير جائز أن يرد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول، ولا دل عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر. ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين: إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك، وقد جل رسول الله ﷺ أن يتكلم بما لا معنى له. أو يكون من أجل أنها بقعة سخط، فلو كان كذلك ما كان رسول الله ﷺ ليبني مسجده في مقبرة المشركين وينبشها ويسويها ويبني عليها، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث. وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيّنه ﷺ ولم يهمله؛ لأنه بعث مبينا. ولو ساغ لجاهل أن يقول: مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول: حمام كذا؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام. وكذلك قوله: المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال: مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز.

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز. وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة. وقد تقدم هذا في سورة "براءة". ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛ لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة. وقد وردت السنة باتخاذ البيع والكنائس مساجد. روى النسائي عن طلق بن علي قال: خرجنا وفدا إلى النبي ﷺ فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا، وذكر الحديث. وفيه: (فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم واتخذوها مسجدا)[٢]. وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم[٣]. وقد تقدم في "براءة". وحسبك بمسجد النبي ﷺ الذي أسس على التقوى مبنيا في مقبرة المشركين[٤]؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها. وممن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأصحابهم. وعند الثوري لا يعيد. وعند الشافعي أجزأه إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة في ذلك،

---

(١) "صحيح" أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وانظر الإرواء (١/ ٣٢٠).
(٢) "صحيح" انظر صحيح النسائي (٦٧٧).
(٣) "ضعيف" أخرجه أبو داود (٤٥٠).
(٤) أخرج ذلك البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

ولحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا) [١]، ولحديث أبي مرثد الغنوي عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) [٢]. وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد، ولا حجة فيهما؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا. ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خطل القول الذي لا يشتغل بمثله، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر.

وثامنها: الحائط يلقى فيه النتن والعذرة ليكرم فلا يصلى فيه حتى يسقى ثلاث مرات، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الحائط يلقى فيه العذرة والنتن قال: (إذا سقي ثلاث مرات فصل فيه). وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلقى فيها العذرات وهذا الزبل، أيصلى فيها؟ فقال: إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيها. رفع ذلك إلى النبي ﷺ اختلفا في الإسناد [٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ أي بآياتنا. كقوله: ﴿ آتنا غداءنا ﴾ (الكهف: ٦٢) أي بغدائنا. والمراد الناقة، وكان فيها آيات جمة: خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا. ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة، كالبئر وغيره. ﴿فكانوا عنها معرضين ﴾ أي لم يعتبروا.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ﴾ النحت في كلام العرب: البري والنجر. نحته ينحته (بالكسر) نحتا أي براه. والنحاتة البراية. والمنحت ما ينحت به. وفي التنزيل ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ (الصافات: ٩٥) أي تنجرون وتصنعون. فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم. ﴿آمنين ﴾ أي من أن تسقط عليهم أو تخرب. وقيل: آمنين من الموت. وقيل: من العذاب. ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي في وقت الصبح، وهو نصب على الحال. وقد تقدم ذكر الصيحة في هود والأعراف. ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من الأموال والحصون في الجبال، ولا ما أعطوه من القوة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٢).
(٣) أخرجه الدارقطني (٨٦٩).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي للزوال والفناء. وقيل: أي لأجازي المحسن والمسيء؛ كما قال: ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ (النجم: ٣١). ﴿ وإن الساعة لآتية﴾ أي لكائنة فيجزى كل بعمله. ﴿ فاصفح الصفح الجميل﴾ مثل﴿ واهجرهم هجرا جيلا﴾ (المزمل: ١٠) أي تجاوز عنهم يا محمد، واعفُ عفوا حسنا؛ ثم نسخ بالسيف. قال قتادة: نسخه قوله: ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ (النساء: ٩١). وأن النبيﷺ قال لهم: (لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة)؛ قاله عكرمة ومجاهد. وقيل: ليس بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم. والصفح: الإعراض؛ عن الحسن وغيره. ﴿ إن ربك هو الخلاق﴾ أي المقدر للخلق والأخلاق. ﴿ العليم﴾ بأهل الوفاق والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ اختلف العلماء في السبع المثاني؛ فقيل: الفاتحة؛ قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروي عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى. وقد تقدم في تفسير الفاتحة. وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ : (الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني)[1] . قال: هذا حديث حسن صحيح. وهذا نص، وقد تقدم في الفاتحة. وقال الشاعر:

نشـــــدتكم بمنزل القرآن أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس: (هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معا؛ إذ ليس بينهما التسمية). روى النسائي حدثنا علي بن حجر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿ سبعا من المثاني﴾ قال: السبع الطول، وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها. وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، ولم ينزل من الطول شيء إذ ذاك. وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداﷺ وإن لم ينزل عليه بعد. وممن قال إنها السبع الطول: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال جرير:

جزى الله الفرزدق حين يمسي مضيعا للمفـــصل والمثاني

وقيل: المثاني القرآن كله؛ قال الله تعالى: ﴿ كتابا متشابها مثاني﴾ (الزمر: ٢٣). هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس. وقيل له: مثاني؛ لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه. وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول اللهﷺ :

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٤٩٨).

فقد كان نورا ساطعا يهتدى به يخـــص بتنزيل المثاني المعظم

أي القرآن. وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نعم وأنباء قرون؛ قالـه زياد بن أبي مريم. والصحيح الأول لأنه نص. وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبي ﷺ وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده.

قولـه تعالى: ﴿ والقرآن العظيم﴾ فيه إضمار تقديره: وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام. وقد تقدم في الفاتحة. وقيل: الواو مقحمة، التقدير: ولقد آتيناك سبعا من المثاني القرآن العظيم. ومنه قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الـهمام ولـيث الكتيبة فـي المزدحم

وقد تقدم عند قولـه: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ (البقرة: ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ لا تمدن عينيك﴾ المعنى: قد أغنيتك بالقرآن عما في أيدي الناس؛ فإنه ليس منا من لم يتغن بالقرآن؛ أي ليس منا من رأى أنه ليس يغنى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى. يقال: إنه وافى سبع قوافل من البصرة وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها البر والطيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تمدن أعينكم إليها. وإلى هذا صـار ابن عيينة، وأورد قولـه ﷺ: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[١] أي من لم يستغن به. وقد تقدم هذا المعنى في أول الكتاب. ومعنى﴿ أزواجا منهم﴾ أي أمثالا في النعم، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى، فهم أزواج.

الثانية: هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه. ومثلـه﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ (طه: ١٣١) الآية. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: (حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة)[٢]. وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغل بالنساء، جبلة الآدمية وتشوف الخلقة الإنسانية، ويحافظ على الطيب، ولا تقر لـه عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى. ويرى أن مناجاته أحرى من ذلك وأولى. ولم يكن في دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان في دين عيسى، وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمي، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم. ورأى القراء[٣] والمخلصون من الفضلاء

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (١٣٠٤).
(٢) "حسن صحيح" انظر صحيح النسائي (٣٦٨٠).
(٣) في نسخة (الفراء).

الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسماوات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام، واضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال ﷺ: (يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن)(١).

قوله تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا. وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه. وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب. ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه. ويقال: فلان خافض الجناح، أي وقور ساكن. والجناحان من ابن آدم جانباه؛ ومنه ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ (طه: ٢٢) وجناح الطائر يده. وقال الشاعر:

وحسبك فتية لزعيم قوم يمد على أخي سقم جناحا

أي تواضعا ولينا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

في الكلام حذف؛ أي إني أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ (فصلت: ١٣). وقيل: الكاف زائدة، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١) وقيل: أنذرتكم مثل ما أنزلنا بالمقتسمين. وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمين، أي من العذاب وكفيناك المستهزئين، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى.

واختلف في "المقتسمين" على أقوال سبعة: الأول: قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعي النبوة؛ فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن. وسموا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، فأماتهم الله شر ميتة، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكما على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبي ﷺ قال: صدق أولئك.

الثاني: قال قتادة: هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا، وبعضه سحرا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين. الثالث: قال ابن عباس: (هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه). وكذلك قال عكرمة: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه السورة لك. وهو القول الرابع. الخامس: قال قتادة: قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه. السادس: قال زيد بن أسلم: المراد قوم صالح، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين؛ كما قال تعالى: ﴿تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ (النمل: ٤٩).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) وفي غير موضع.

السابع: قال الأخفش: هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها. وقيل: إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه ابن الحجاج؛ ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

هذه صفة المقتسمين. وقيل: هو مبتدأ وخبره "لنسألنهم". وواحد العضين عضة، من عضيت الشيء تعضية أي فرقته؛ وكل فرقة عضة. وقال بعضهم: كانت في الأصل عضوة فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا: عزين في جمع عزة، والأصل عزوة. وكذلك ثبة وثبين. ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: (آمنوا ببعض وكفروا ببعض). وقيل: فرقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا. عضوته أي فرقته. قال الشاعر ـ هو رؤبة ـ:

وليس دين الله بالمعضى

أي بالمفرق. ويقال: نقصانه الهاء وأصله عضهة؛ لأن العضه والعضين في لغة قريش السحر. وهم يقولون للساحر: عاضه وللساحرة عاضهة. قال الشاعر:

أعوذ بربي مــن النافثا ت في عُقَد العاضه المُعْضه

وفي الحديث: لعن رسول الله ﷺ العاضهة والمستعضهة، وفسر: الساحرة والمستسحرة. والمعنى: أكثروا البهت على القرآن ونوعوا الكذب فيه، فقالوا: سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترى، إلى غير ذلك. ونظير عضة في النقصان شفة، والأصل شفهة. كما قالوا: سنة، والأصل سنهة، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهي للتأنيث. وقيل: هو من العضه وهي النميمة. والعضيهة البهتان، وهو أن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه. يقال عضهه عضها رماه بالبهتان. وقد أعضهت أي جئت بالبهتان. قال الكسائي: العضة الكذب والبهتان، وجمعها عضون؛ مثل عزة وعزون؛ قال تعالى: "الذين جعلوا القرآن عضين". ويقال: عضوه أي آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي، فأحبط كفرهم إيمانهم. وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العضاة، وهي شجر الوادي ويخرج كالشوك.

قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ أي لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا. وفي البخاري: وقال عدة من أهل العلم في قوله: "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون" عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد روي مرفوعا، روى الترمذي الحكيم قال: حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في قوله: "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون" قال: (عن قول لا إله إلا الله)[1] قال أبو

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، (٣/ ٩٥) من حديث أنس من طريق أخرى، وقال: "غريب من حديث داود وليث لم نكتبه إلا من حديث عمار بن محمد عنه".

عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إلـه إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيلـه العمل فقال : "عما كانوا يعملون" ولم يقل عما كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان، فإنما المعني به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قول والعمل عمل. وإنما قال رسول الله ﷺ : (عن لا إلـه إلا الله) أي عن الوفاء بها والصدق لمقالـها. كما قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. ولهذا ما قال رسول الله ﷺ (من قال لا إلـه إلا الله مخلصا دخل الجنة) قيل: يا رسول الله، وما إخلاصها؟ قال: (أن تحجزه عن محارم الله)[1] . رواه زيد بن أرقم. وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله عهد إلي ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إلـه إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت لـه الجنة) قالوا: يا رسول الله، وما الذي يخلط بلا إلـه إلا الله؟ قال: (حرصا على الدنيا وجمعا لـها ومنعا لـها، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة). وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (لا إلـه إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إلـه إلا الله ردت عليهم وقال الله كذبتم)[2] . أسانيدها في نوادر الأصول.

قلت: والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة). فإن قيل: وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا: فيه خلاف وذكرناه في التذكرة. والذي يظهر سؤالـه، للآية وقولـه: ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون﴾ (الصافات: ٢٤) وقولـه: ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ (الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦). فإن قيـل: فقـد قال تعالى: ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ (القصص: ٧٨) وقال: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ (الرحمن: ٣٩)، وقال: ﴿ ولا يكلمهم الله﴾ (البقرة: ١٧٤)، وقال: ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين: ١٥). قلنا: القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وقال ابن عباس: (لا يسألـهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألـهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لـهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟) واعتمد قطرب هذا القول. وقيل: "لنسألنهم أجمعين" يعني المؤمنين المكلفين؛ بيانه قولـه تعالى: ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر: ٨). والقول بالعموم أولى كما ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر﴾ أي بالذي تؤمر به، أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك. والصدع: الشق. وتصدع القوم أي تفرقوا؛ ومنه﴿ يومئذ يصدعون﴾ (الروم: ٤٣) أي يتفرقون. وصدعته فانصدع أي انشق. وأصل الصدع الفرق والشق. قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأتنه:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير. . . وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضاع " كما في "المجمع" (١/ ١٨).

(٢) رواه البزار، وإسناده حسن، كما في "المجمع"، (٧/ ٢٧٧).

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع

أي يفرق ويشق. فقوله: ﴿ اصدع بما تؤمر ﴾ قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك، فـ "ما" مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر، أي اقصد. وقيل: "فاصدع بما تؤمر" أي فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

قوله تعالى: ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون. وقال ابن عباس: هو منسوخ بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ (التوبة: ٥). وقال عبد الله بن عبيد: ما زال النبي ﷺ مستخفيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه. وقال مجاهد: أراد الجهر بالقرآن في الصلاة. "وأعرض عن المشركين" لا تبال بهم. وقال ابن إسحاق: لما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر* وأعرض عن المشركين* إنا كفيناك المستهزئين* الذين يجعلون مع الله إلـها آخر فسوف يعلمون ﴾.

والمعنى: اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك من أذاك كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة. والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة، أهلكهم الله جميعا، قيل: يوم بدر في يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله ﷺ. وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي ووجعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار. ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حَبَنا. (يقال: حبِن (بالكسر) حَبَنا وحُبِن للمفعول عظم بطنه بالماء الأصفر، فهو أحبن، والمرأة حبناء؛ قاله في الصحاح). ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجر سبله، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به على شبرمة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله. وقد ذكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا. وقيل: إنهم المراد بقوله تعالى: ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ (النحل: ٢٦) شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذه صفة المستهزئين. وقيل: هو ابتداء وخبره "فسوف يعلمون".

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ﴾ أي قلبك؛ لأن الصدر محل القلب. ﴿ بما يقولون ﴾ أي بما تسمعه من تكذيبك ورد قولك، وتناله وينالـه أصحابك من أعدائك.

قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ أي فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس.

قوله تعالى: ﴿ وكن من الساجدين ﴾ لا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود، كما قال ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء)[١]. ولذلك خص السجود بالذكر.

الثانية: قال ابن العربي: ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد في هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكر النقاش أن ههنا سجدة عند أبي حذيفة ويمان بن رئاب، ورأى أنها واجبة

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة: وهو أن اليقين الموت. أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته، وأن ذلك يجب عليه. فإن قيل: فما فائدة قوله: "حتى يأتيك اليقين"؟ وكان قوله: "واعبد ربك" كافيا في الأمر بالعبادة. قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: "واعبد ربك" مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا؛ وإذا قال "حتى يأتيك اليقين" كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت. فإن قيل: كيف قال سبحانه: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" ولم يقل أبدا؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبدا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد. وقد تقدم هذا المعنى. والمراد استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. ويترکب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق أبدا، وقال: نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة. ولو قال: طلقتها حياتها لم يراجعها. والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية، وكانت من المبايعات، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: (أما عثمان - أعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به) وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله وكان عمر ابن عبد العزيز يقول: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له؛ يعني كأنهم فيه شاكون. وقد قيل: إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك؛ قاله ابن شجرة؛ والأول أصح، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن. والله أعلم. وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول إن النبي ﷺ قال: (ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين لكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[٢].

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٤٨٢).

(٢) أخرجه البغوي في "شرح السنة"، (١٤/ ٢٣٧).

سورة النحل

مقدمة السورة:

سورة النحل وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده. وقيل: هي مكية غير قوله تعالى: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ (النحل: ١٢٦) الآية؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد. وغير قوله تعالى: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ (النحل: ١٢٧). وغير قوله: ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ (النحل: ١١٠) الآية. وأما قوله: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ (النحل: ٤١) فمكي، في شأن هجرة الحبشة. وقال ابن عباس: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا﴾ إلى قوله ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (النحل: ٩٥).

قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ قيل: "أتى" بمعنى يأتي؛ فهو كقولك: إن أكرمتني أكرمتك. وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة، كقوله: ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (الأعراف: ٤٤). و"أمر الله" عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. قال الحسن وابن جريج والضحاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه. وفيه بعد؛ لأنه لم ينقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم، حتى قال النضر بن الحارث: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك" الآية، فاستعجل العذاب.

قلت: قد يستدل الضحاك بقول عمر ﷺ: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر؛ خرجه مسلم والبخاري وقد تقدم في سورة "البقرة". وقال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ (هود: ٤٠). وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها. قال ابن عباس: لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (القمر: ١) قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا، فقالوا: ما نرى شيئا فنزلت ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ (الأنبياء: ١) الآية. فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدت الأيام فقالوا: ما نرى شيئا فنزلت "أتى أمر الله" فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا؛ فنزلت "فلا تستعجلوه" فاطمأنوا، فقال النبي ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[1] وأشار بأصبعيه: السبابة والتي تليها. يقول: (إن كادت لتسبقني فسبقتها). وقال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة، وأن جبريل لما مر بأهل السماوات مبعوثا إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر، قد قامت الساعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥١).

قولـه تعالى: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزيها لـه عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق، وذلك شرك. وقيل: "عما يشركون" أي عن إشراكهم. وقيل: "ما" بمعنى الذي أي ارتفع عن الذين أشركوا به.

قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

قرأ المفضل عن عاصم "تَنَزَّلُ الملائكةُ" والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش "تُنَزَّلُ الملائكةُ" غير مسمى الفاعل. وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم "نُنَزِّلُ الملائكةَ" بالنون مسمى الفاعل، الباقون "يُنَزِّلُ" بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل. وروي عن قتادة "ننزل الملائكة" بالنون والتخفيف. وقرأ الأعمش "تنزل" بفتح التاء وكسر الزاي، من النزول. "الملائكة" رفعا مثل ﴿ تنزل الملائكة ﴾ (القدر: ٤) ﴿ بالروح ﴾ أي بالوحي وهو النبوة؛ قالـه ابن عباس. نظيره ﴿ يلقي الروح من أمـره على من يشاء من عباده ﴾ (غافر: ١٥). الربيع بن أنس: بكلام الله وهو القرآن. وقيل: هو بيان الحق الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق؛ قالـه مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روي عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم. وقيل: بالرحمة؛ قالـه الحسن وقتادة. وقيل: بالـهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، وهو معنى قول الزجاج. قال الزجاج: الروح ما كان فيه من أمر الله حياة بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة: الروح هنا جبريل. والباء في قولـه: "بالروح" بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي مع ثيابه. ﴿ من أمره ﴾ أي بأمره. ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ أي على الذين اختارهم الله للنبوة. وهذا رد لقولـهم: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف: ٣١). ﴿ أن أنذروا أنه لا إلـه إلا أنا فاتقون ﴾ تحذير من عبادة الأوثان، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصلـه التحذير مما يخاف منه. ودل على ذلك قولـه: "فاتقون". و"أن" في موضع نصب بنزع الخافض، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إلـه إلا الله، فـ"أن" في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ أي للزوال والفناء. وقيل: "بالحق" أي للدلالة على قدرته، وأن لـه أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعـد الموت. ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ أي من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدي طوره. و"الإنسان" اسم للجنس. وروي أن المراد به أبي بن خلف الجمحي، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم فقال: أترى يحيي الله هذا بعدما قد رم. وفي هذا أيضا نزل ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ (يس: ٧٧) أي خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم في الأمور. فمعنى الكلام التعجب من الإنسان ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ﴾ (يس: ٧٨) وقوله: ﴿ فإذا هو خصيم ﴾ أي مخاصم، كالنسيب بمعنى المناسب. أي يخاصم الله عز وجل في قدرته. و﴿ مبين ﴾ أي ظاهر الخصومة. وقيل: يبين عن نفسه الخصومة بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما من به عليه. والأنعام: الإبل والبقر والغنم. وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة. قال حسان:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

فالنعم هنا الإبل خاصة. وقال الجوهري: والنعم واحد الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. قال الفراء: هو ذكر لا يؤنث، يقولون: هذا نعم وارد، ويجمع على نعمان مثل حمل وحملان. والأنعام تذكر وتؤنث؛ قال الله تعالى: ﴿ مما في بطونه ﴾ (النحل: ٦٦). وفي موضع ﴿ مما في بطونها ﴾ (المؤمنون: ٢١). وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان، أو بفعل مقدر، وهو أوجه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ دفء ﴾ الدفء: السخانة، وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابس ولحف وقطف. وروي عن ابن عباس: دفؤها نسلها؛ والله أعلم. قال الجوهري في الصحاح: الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى: ﴿ لكم فيها دفء ﴾. وفي الحديث (لنا من دفئهم ما سلموا بالميثاق). والدفء أيضا: السخونة، تقول منه: دفئ الرجل دفاءة مثل كره كراهة. وكذلك دفئ دفأ مثل ظمئ ظمأ. والاسم الدفء بالكسر وهو الشيء الذي يدفئك، والجمع الأدفاء. تقول: ما عليه دفء؛ لأنه اسم. ولا تقول: ما عليك دفاءة؛ لأنه مصدر. وتقول: اقعد في دفء هذا الحائط أي ركنه. ورجل دفئ على فعل إذا لبس ما يدفئه. وكذلك رجل دفآن وامرأة دفأى. وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به، وادفأ به وهو افتعل؛ أي لبس ما يدفئه. ودفؤت ليلتنا، وهو يوم دفيء على فعيل وليلة دفيئة، وكذلك الثوب والبيت. والمدفئة الإبل الكثيرة؛

لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها، وقد يشدد. والمدفأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم؛ عن الأصمعي. وأنشد الشماخ:

وكيف يضيع صاحب مدفآت   على أثباجهن من الصقيع

قوله تعالى: ﴿ ومنافع ﴾ قال ابن عباس: المنافع نسل كل دابة. مجاهد: الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن. ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح.

الثالثة: دلت هذه الآية على لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين... الحديث، خرجه مسلم وغيره[1]. قال ابن العربي: وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يلبس لينا وخشنا وجيدا ومقاربا ورديئا، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية؛ لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث. وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا   فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى   صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الجمال ما يتجمل به ويتزين. والجمال: الحسن. وقد جمُل الرجل - بالضم - جمالا فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضا؛ عن الكسائي. وأنشد:

فهي جملاء كبدر طالع   بذّت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبي ذؤيب:

جمالك أيها القلب القريح

يريد: الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا. قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال. فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم. وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان؛ قاله السدي. ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك. والله أعلم. وروى أشهب عن

---

(١) وكذا أخرجه البخاري.

مالك قال: يقول الله عز وجل "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون" وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه. والرواح رجوعها بالعشي من المرعى، والسراح بالغداة؛ تقول: سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها، وسرحت هي. المتعدي واللازم واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسان حمله. وقيل: المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (الزلزلة: ٢). والبلد مكة، في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر. وشق الأنفس: مشقتها وغاية جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري: والشق المشقة؛ ومنه قوله تعالى: "لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس" وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة. قال المهدوي: وكسر الشين وفتحها في "شق" متقاربان، وهما بمعنى المشقة، وهو من الشق في العصا ونحوها؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان. وقال الثعلبي: وقرأ أبو جعفر "إلا بشق الأنفس" وهما لغتان، مثل رِق ورَقّ وجِص وجَصّ ورِطل ورَطل. وينشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها:

وذي إبل يسعى ويحسبها له أخي نصب من شقها ودؤوب

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شققت عليه أشق شقا. والشق أيضا بالكسر النصف، يقال: أخذت شق الشاة وشقة الشاة. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها، أي لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر. والشق أيضا الناحية من الجبل. وفي حديث أم زرع: وجدني في أهل غنيمة بشق. قال أبو عبيد: هو اسم موضع. والشق أيضا: الشقيق، يقال: هو أخي وشق نفسي. وشق اسم كاهن من كهان العرب. والشق أيضا: الجانب؛ ومنه قول امرئ القيس:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

فهو مشترك.

الثانية: منَّ الله سبحانه بالأنعام عموما، وخص الإبل هنا بالذكر في حمل الأثقال على سائر الأنعام؛ فإن الغنم للسرح والذبح، والبقر للحرث، والإبل للحمل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرة تتكلم)؟ فقال رسول الله ﷺ: (وإني أومن به وأبو بكر وعمر). فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرسل.

الثالثة : في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها. ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير. وقد أمر النبي ﷺ بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها. وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقيها) رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان. وروى معاوية بن قرة قال: كان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون، فكان يقول: يا دمون، لا تخاصمني عند ربك. فالدواب عجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرض للخصومة بين يدي الله تعالى. وروى مطر بن محمد قال: حدثنا أبو داود قال حدثنا ابن خالد قال حدثنا المسيب بن آدم قال رأيت عمر بن الخطاب ﷺ ضربَ جمَّالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى : قوله تعالى: ﴿ والخيل ﴾ بالنصب معطوف، أي وخلق الخيل. وقرأ ابن أبي عبلة "والخيل والبغال والحمير" بالرفع فيها كلها. وسميت الخيل خيلا لاختيالها في المشية. وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضأن. وقيل: لا واحد له. وقد تقدم هذا في "آل عمران" وذكرنا الأحاديث هناك. ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام وقيل: دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير.

الثانية : قال العلماء: ملكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا اختلاف بينهم في ذلك. وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه.

الثالثة : لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى: ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ (النحل: ٧) الآية. وأجازوا أن يكري الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يسم أين ينزل منها، وكم من منهل ينزل فيه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، واجتزوا بالمتعارف بين الناس في ذلك. قال علماؤنا: والكراء يجري مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم. قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مروي ولم يصف رقعته وذرعه، لم يجز؛ لأن مالكا لا يجيز هذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكراء إلا ما يجوز في ثمن البيع.

قلت: ولا يختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة. قال ابن المنذر: وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما اشترط فتلفت أن لا شيء عليه. وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير. واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليها

عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزا، فكان الشافعي وأبو ثور يقولان: هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء. وقال ابن أبي ليلى: عليه قيمتها ولا أجر عليه. وفيه قول ثالث ـ وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد. وقال ابن القاسم صاحب مالك: لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يفدح الدابة، ويعلم أن مثلـه لا تعطب فيه الدابة، ولرب الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة. وذلك بخلاف مجاوزة المسافة؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَدٍّ كلـه فيضمن إذا هلكت في قليلـه وكثيره. والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدّ، فإذا كانت الزيادة لا تعطب في مثلـها علم أن هلاكها مما أذن لـه فيه.

الرابعة: واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى، فيتعدى فيجتاز[1] ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون لـه في المصير إليه. فقالت طائفة: إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدي كراء؛ هكذا قال الثوري. وقال أبو حنيفة: الأجر لـه فيما سمى، ولا أجر لـه فيما لم يسم؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب. وقال الشافعي: عليه الكراء الذي سمى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك، ولو عطبت لزمه قيمتها. ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخة أهل المدينة قالوا: إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن. وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور: عليه الكراء والضمان. قال ابن المنذر: وبه نقول. وقال ابن القاسم: إذا بلغ المكتري الغاية التي اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحوه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة، فلربها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدي. ابن المواز: وقد روي أنه ضامن ولو زاد خطوة. وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن. وقال ابن حبيب عن ابن الماجشون وأصبغ: إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكاراها إليه، فليس لـه إلا كراء الزيادة، كرده لما تسلف من الوديعة. ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغير في مثلـها سوقها فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يعن على قتلـها فهلاكها بعد ردها إلى الموضع المأذون لـه فيه كهلاك ما تسلف من الوديعة بعد رده لا محالة. وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلـها.

الخامسة: قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ فجعلـها للركوب والزينة ولم يجعلـها للأكل؛ ونحوه عن أشهب. ولـهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه. وقال في "الأنعام": "ومنها تأكلون" مع ما امتن الله منها من الدفء والمنافع، فأباح لنا أكلـها بالذكاة المشروعة فيها. وبهذه الآية احتج ابن عباس والحكم بن عيينة، قال الحكم: لحوم الخيل حرام

---

(١) في نسخة (فيتجاوز).

في كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال: هذه للأكل وهذه للركوب. وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها "والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع" ثم قال: هذه للأكل. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، واحتجوا بما أخرجه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد، أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير. لفظ الدارقطني. وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبي ﷺ يقول: (لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير)[1]. وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين: هي مباحة. وروي عن أبي حنيفة. وشذت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحكم كما ذكرنا، وروي عن أبي حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الروياني في بحر المذهب على مذهب الشافعي.

قلت: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة. أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل. إذ لو دلت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمر، والسورة مكية، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام خيبر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرحا به، وقد تركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ (غافر: ٧٩). وقال في الخيل: "لتركبوها وزينة" فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيّنه نبيّه ﷺ الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كل شيء فقالت: إنما خلقت للحرث. فيلزم من علل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب وألا تؤكل البقر لأنها خلقت للحرث. وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسنة الثابتة فيها. روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النسائي عن جابر: أطعمنا رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر[2]. وفي رواية عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ. فإن قيل: الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خيبر حكاية حال وقضية في عين، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة، ولا يحتج بقضايا الأحوال. قلنا: الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت: نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يعرج عليه. وقد روى الدارقطني زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف النسائي (٢٨٩).

(٢) "صحيح" انظر صحيح النسائي (٤٠٣٩).

أسماء، قالت أسماء: كان لنا فرس على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها. فذبحها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. وبالله التوفيق. فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمار؟ قلنا: هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظلف وقد باين ذوات الأظلاف، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه. قال الطبري: وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب.

السادسة: وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا إن الخيل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول. وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة وقد مضى في "الأنعام" الكلام في تحريم الخمر فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط؛ فسمي رجسا.

السابعة: في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها؛ لأن الله سبحانه من علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل. وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عراك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة)[١]. وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق)[٢]. وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة، وإن شاء قومها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم. واحتج بأثر عن النبي ﷺ أنه قال: (في الخيل السائمة في كل فرس دينار)[٣] وبقوله ﷺ: (الخيل ثلاثة...) الحديث. وفيه: (ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها)[٤]. والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك السعدي عن جعفر عن محمد عن أبيه عن جابر. قال الدارقطني: تفرد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومن دونه ضعفاء. وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النفير وتعين بها لقتال العدو إذا تعين ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعين عليه أن يطعمهم عند الضرورة، فهذه حقوق الله في رقابها. فإن قيل: هذا هو الحق الذي في ظهورها وبقي الحق الذي في رقابها؛ قيل: قد روي (لا ينسى حق الله فيها) ولا فرق بين قوله: (حق الله فيها) أو (في رقابها وظهورها) فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأن الحق يتعلق بجملتها. وقد قال جماعة من العلماء: إن الحق هنا حسن ملكها وتعهد شبعها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها؛ كما

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٣)، ومسلم (٩٨٢).
(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (١٤٠٩).
(٣) أخرجه الدارقطني والبيهقي وغيرهما، وقال الحافظ في "التلخيص"، (٢/ ١٥٠): "إسناده ضعيف جدًا".
(٤) متفق عليه وقد سبق.

جاء في الحديث (لا تتخذوا ظهورها كراسي)[١]. وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ (النساء: ٩٢) وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرباع والأموال؛ ألا ترى قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

وأيضا فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها. وأيضا فإيجابه الزكاة في إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه. وليس في الحديث فصل بينهما. ونقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مقتنى لنسله لا لدره، ولا تجب الزكاة في ذكوره فلم تجب في إناثه كالبغال والحمير. وقد روي عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهذا الذي عليه الجمهور. قال ابن عبد البر: الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهري وغيره. وقد روي من حديث مالك، ورواه عنه جويرية عن الزهري أن السائب ابن يزيد قال: لقد رأيت أبي يقوم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر. وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما. تفرد به جويرية عن مالك وهو ثقة.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وزينة ﴾ منصوب بإضمار فعل، المعنى: وجعلها زينة. وقيل: هو مفعول من أجله. والزينة: ما يتزين به، وهذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه؛ قال النبي ﷺ: (الإبل عز لأهلها والغنم بركة والخيل في نواصيها الخير)[٢]. خرجه البرقاني وابن ماجه في السنن. وإنما جمع النبي ﷺ العز في الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نقصها الكر والفر. وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدادين أهل الوبر. وقرن النبي ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعائش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال الجمهور: من الخلق. وقيل: من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به. وقيل: "ويخلق ما لا تعلمون" مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر. وقال قتادة والسدي: هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه. ابن عباس: عين تحت العرش؛ حكاه الماوردي. الثعلبي: وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة، يدخله جبريل كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وغيرهما، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٤/ ٤٠): "رواه الطبراني وفيه ميسر بن عبيد وهو ضعيف".

(٢) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (١٨٦٦).

نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. وقول خامس: وهو ما روي عن النبي ﷺ أنها أرض بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض، قالوا: يا رسول الله، من ولد آدم؟ قال: (لا يعلمون أن الله خلق آدم). قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: (لا يعلمون أن الله خلق إبليس) - ثم تلا "ويخلق ما لا تعلمون" ذكره الماوردي.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال: إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس، ما يرون أن الله عصاه مخلوق، رضراضهم الدر والياقوت وجبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم؛ ذكره في بدء الخلق من "كتاب الأسماء والصفات". وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[1]

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان. والسبيل: الإسلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين. وقصد السبيل: استعانة الطريق؛ يقال: طريق قاصد أي يؤدي إلى المطلوب. ﴿ ومنها جائر ﴾ أي ومن السبيل جائر؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به؛ ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال طرفة:

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي

العدولية سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين. والعدولي: الملاح؛ قاله في الصحاح. وفي التنزيل ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ (الأنعام: ١٥٣). وقد تقدم. وقيل: المعنى ومنهم جائر عن السبيل الحق، أي عادل عنه فلا يهتدي إليه. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الأهواء المختلفة؛ قاله ابن عباس. الثاني: ملل الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانية. وفي مصحف عبد الله "ومنكم جائر" وكذا قرأ علي "ومنكم" بالكاف. وقيل: المعنى وعنها جائر؛ أي عن السبيل. فـ "من" بمعنى عن. وقال ابن عباس: أي من أراد الله أن يهديه سهل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه. وقيل: معنى "قصد السبيل" مسيركم ورجوعكم. والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال: "ومنها" والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز.

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٣٩٥٣).

قولـه تعالى: ﴿ ولو شاء لـهداكم أجمعين ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويرد على القدرية ومن وافقها كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الشراب ما يشرب، والشجر معروف. أي ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا. و"تسيمون" ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سوما أي رعت، فهي سائمة. والسوام والسائم بمعنى، وهو المال الراعي. وجمع السائم والسائمة سوائم. وأسمتها أنا أي أخرجتها إلى الرعي، فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة. قال:

أولى لك ابن مسيمة الأجمال

وأصل السوم الإبعاد في المرعى. وقال الزجاج: أخذ من السومة وهي العلامة؛ أي أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها، أو لأنها تعلم للإرسال في المرعى.

قلت: والخيل المسومة تكون المرعية. وتكون المعلمة. وقولـه: ﴿ مسومين ﴾ (آل عمران: ١٢٥) قال الأخفش تكون معلمين وتكون مرسلين؛ من قولك: سوم فيها الخيل أي أرسلـها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سومت وعليها ركبانها.

قوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم "ننبت" بالنون على التعظيم. العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم؛ يقال: ينبت الأرض وأنبتت بمعنى، ونبت البقل وأنبت بمعنى. وأنشد الفراء:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينـا بهـا حـتى إذا أنبـت البقـل

أي نبت. وأنبته الله فهو منبوت، على غير قياس. وأنبت الغلام نبتت عانته. ونبت الشجر غرسه؛ يقال: نبت أجلك بين عينيك. ونبت الصبي تنبيتا ربيته. والمنبت موضع النبات؛ يقال: ما أحسن نابتة بني فلان؛ أي ما ينبت عليه أموالـهم وأولادهم. ونبتت لـهم نابتة إذا نشأ لـهم نشء صغار. وإن بني فلان لنابتة شر. والنوابت من الأحداث الأغمار. والنبيت حي من اليمن. والينبوت شجر؛ كلـه عن الجوهري. ﴿ والزيتون ﴾ جمع زيتونة. ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، وللثمرة زيتونة وقد مضى في سورة "الأنعام" حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة. ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الإنزال والإنبات. ﴿ لآية ﴾ أي دلالة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي للسكون والأعمال؛ كما قال: ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضلـه ﴾ (القصص: ٧٣). ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي مذللات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم في الظلمات. وقرأ ابن عامر وأهل الشام "والشمس والقمر والنجوم مسخرات" بالرفع على الابتداء والخبر. الباقون بالنصب عطفا على ما قبلـه. وقرأ حفص عن عاصم برفع "والنجوم"، "مسخرات" خبره. وقرئ "والشمس والقمر والنجوم" بالنصب. "مسخرات" بالرفع، وهو خبر ابتـداء محـذوف أي في مسخرات، وهي في قراءة من نصبها حال مؤكدة؛ كقولـه: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾(البقرة: ٩١). ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي يعقلون عن الله ما نبههم عليه ووفقهم له. قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وما ذرأ ﴾ أي وسخر ما ذرأ في الأرض لكم. "ذرأ" أي خلق؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم، فهو ذارئ؛ ومنه الذرية وهي نسل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذراري. يقال: أنمى الله ذرأك وذروك، أي ذريتك. وأصل الذرو والذرء التفريق عن جمع. وفي الحديث: ذرء النار؛ أي أنهم خلقوا لـها.

الثانية : ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك. والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولـهن لجعلتني يهود حمارا. فقيل لـه: وما هن؟ فقال: أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلـها ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وبرأ وذرأ. وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال: أسري برسول الله ﷺ فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث. وفيه: وشر ما ذرأ في الأرض. وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع.

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ مختلفا ألوانه ﴾ "مختلفا" نصب على الحال. و"ألوانه" هيئاته ومناظره، يعني الدواب والشجر وغيرها. ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في اختلاف ألوانها. ﴿ لآية ﴾ أي لعبرة. ﴿ لقوم يذكرون ﴾ أي يتعظون ويعلمون أن في تسخير هذه المكونات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿وهو الذي سخر البحر ﴾تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليلـه بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا. وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده. وسماه هنا لحما واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس: فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس، ولحم ذوات الماء جنس. فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلا، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلا. وقال أبو حنيفة: اللحوم كلـها أصناف مختلفة كأصولـها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك الوحش مختلف، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعي. والقول الآخر أن الكل من النعم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. ودليلنا هو أن الله تعالى فرق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ (الأنعام: ١٤٣) ثم قال: "ومـن الإبـل اثنين ومـن البقـر اثنين" فلما أن أم بالجميع إلى اللحم قال: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾(المائدة: ١) فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾(الواقعة: ٢١) وهذا جمع طائر الذي هو الواحد، لقولـه تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ (الأنعام: ٣٨) فجمع لحم الطير كلـه باسم واحد. وقال هنا: "لحما طريا" فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما. وقد روي عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشيء واحد؟ فقال: لا؛ ولا مخالف لـه فصار كالإجماع، والله أعلم. ولا حجة للمخالف في نهيه ﷺعن بيع الطعام إلا مثلا بمثل؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم؛ ألا ترى أن القائل إذا قال: أكلت اليوم طعاما لـم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم، وأيضا فإنه معارض بقولـه ﷺ: (إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم)[1] وهذان جنسان، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لعلة أنه بيع طعام لا زكاة لـه بيع بلحم ليس فيه الزكاة، وكذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا.

الثانية : وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا. وذكر عن سحنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدخر.

الثالثة : اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما؛ فقال ابن القاسم: يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لـها على إطلاق اللفظ اللغوي، وهو أحسن.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ يعني به اللؤلؤ والمرجان؛ لقولـه تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾(الرحمن: ٢٢). وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط. ويُقال: إن في الزمرد بحريا. وقد خطئ الـهذلي في قولـه في وصف الدرّة:

---

(١)صحيح، وقد سبق.

فجـاء بهـا مـن درة لطــمية علی وجهها ماء الفرات يدوم

فجعلها من الماء الحلو. فالحلية حق وهي نحلة الله تعالى لآدم وولده. خلق آدم وتوج وكلل بإكليل الجنة، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم، وكان يقال لـه خاتم العز فيما روي.

الخامسة : امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير. روى الصحيح عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)[1]. وسيأتي في سورة "الحج" الكلام فيه إن شاء الله. وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتما من ذهب، وجعل فصه مما يلي باطن كفه، ونقش فيه محمد رسول الله؛ فاتخذ الناس مثلـه؛ فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال: (لا ألبسه أبدا) ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة. قال ابن عمر: فلبس الخاتم بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، حتى وقع من عثمان في بئر أريس. قال أبو داود: لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده. وأجمع العلماء على جواز التختم بالورق على الجملة للرجال. قال الخطابي: وكره للنساء التختم بالفضة؛ لأنه من زي الرجال، فإن لم يجدن ذهبا فليصفرنه بزعفران أو بشبهه. وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب، إلا ما روي عن أبي بكر بن عبد الرحمن وخباب، وهو خلاف شاذ، وكل منهما لم يبلغهما النهي والنسخ. والله أعلم. وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله ﷺ خاتما من ورق يوما واحدا، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه فطرح الناس خواتيمهم ـ أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاري ـ فهو عند العلماء وهم من ابن شهاب؛ لأن الذي نبذ رسول الله ﷺ إنما هو خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صهيب وقتادة عن أنس، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجملة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر.

السادسة : إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلي به، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله. وأجاز نقشه جماعة من العلماء. ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعلـه في شمالـه، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشمالـه؟ خففه سعيد بن المسيب ومالك. قيل لمالك: إن كان في الخاتم ذكر الله ويلبسه في الشمال أيستنجي به؟ قال: أرجو أن يكون خفيفا. وروي عنه الكراهة وهو الأولى. وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه. وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه. قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يعرف عن ابن جريج عن زيادة بن سعد عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من ورق ثم ألقاه. قال أبو داود: لم يحدث بهذا إلا همام.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٨)، ومسلم (٢٠٦٩).

السابعة : روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله" وقال: (إني اتخذت خاتما من ورق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشن أحد على نقشه). قال علماؤنا: فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه. قال مالك: ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه ﷺ: ألا ينقشن أحد على نقش خاتمه، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه. وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان. ورووا في ذلك حديثا عن أبي ريحانة، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه. وقوله ﷺ: (لا ينقشن أحد على نقشه) يرده ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس، إذا لم ينقش على نقش خاتمه. وكان نقش خاتم الزهري "محمد يسأل الله العافية". وكان نقش خاتم مالك "حسبي الله ونعم الوكيل". وذكر الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" أن نقش خاتم موسى عليه السلام "لكل أجل كتاب" وقد مضى في "الرعد". وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه: إنه بلغني أنك اشتريت خاتما بألف درهم، فبعه وأطعم منه ألف جائع، واشتر خاتما من حديد بدرهم، واكتب عليه "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه".

الثامنة : من حلف ألا يلبس حليا فلبس لؤلؤا لم يحنث؛ وبه قال أبو حنيفة. قال ابن خويز منداد: لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين، والأيمان تخص بالعرف؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنث، وكذلك لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنث، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشا والشمس سراجا. وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد: من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث؛ لقوله تعالى: "وتستخرجوا منه حلية تلبسونها" والذي يخرج منه: اللؤلؤ والمرجان.

التاسعة : قوله تعالى: ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾[(١)] الفلك: السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث. وليست الحركات في المفرد تلك بأعيانها في الجمع، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر؛ يدل على ذلك توسط التثنية في قولهم: فلكان. والفلك المفرد مذكر؛ قال تعالى: ﴿ في الفلك المشحون ﴾ (يس: ٤١) فجاء به مذكرا، وقال: "والفلك التي تجري في البحر" فأنث. ويحتمل واحدا وجمعا؛ وقال: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾ (يونس: ٢٢) فجمع؛ فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر، وإلى السفينة فيؤنث. وقيل: واحده فلك؛ مثل أسد وأسد، وخشب وخشب، وأصله من الدوران، ومنه: فلك السماء التي تدور عليه النجوم. وفلكت الجارية استدار ثديها؛ ومنه فلكة المغزل. وسميت السفينة فلكا لأنها تدور بالماء أسهل دور. وقوله: "مواخر" قال ابن عباس: جواري، من جرت تجري. سعيد بن جبير: معترضة. الحسن: مواقر. قتادة والضحاك: أي تذهب وتجيء، مقبلة ومدبرة بريح واحدة. وقيل: "مواخر" ملججة في داخل البحر؛ وأصل المخر شق الماء عن يمين وشمال. مخرت السفينة تمخر وتمخر مخرا ومخورا إذا جرت تشق الماء مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ يعني جواري. قاله الجوهري،

---

(١) غير موجودة في نسخة دار الريان.

ومخر السابح إذا شق الماء بصدره، ومخر الأرض شقها للزراعة، ومخرها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى تصير أريضة؛ أي خليقة بجودة نبات الزرع. وقال الطبري: المخر في اللغة صوت هبوب الريح؛ ولم يقيد كونه في ماء، وقال: إن من ذلك قول واصل مولى أبي عيينة: إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح؛ أي لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب، فيتجنب استقبالها لئلا ترد عليه بوله. ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي ولتركبوه للتجارة وطلب الربح. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ تقدم جميع هذا في "البقرة" والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي جبالا ثابتة. رسا يرسو إذا ثبت وأقام. قال:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تُطلَّع

﴿أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد؛ عند الكوفيين. وكراهية أن تميد؛ على قول البصريين. والميد: الاضطراب يمينا وشمالا؛ ماد الشيء يميد ميدا إذا تحرك؛ ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبختر. قال وهب بن منبه: خلق الله الأرض فجعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، ولم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: لما خلق الله الأرض قمصت ومالت وقالت: أي رب! أتجعل علي من يعمل بالمعاصي والخطايا، ويلقي علي الجيف والنتن! فأرسى الله تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون. وروى الترمذي في آخر "كتاب التفسير" حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الماء قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء قال نعم الريح قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله)[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

قلت: وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال. وقد تقدم هذا المعنى. ﴿وأنهارا﴾ أي وجعل فيها أنهارا، أو ألقى فيها أنهارا. ﴿وسبلا﴾ أي طرقا ومسالك. ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى حيث تقصدون من البلاد فلا تضلون ولا تتحيرون.

﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وعلامات﴾ قال ابن عباس: العلامات معالم الطرق بالنهار؛ أي جعل للطريق علامات يقع الاهتداء بها. ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ يعني بالليل، والنجم يراد به النجوم.

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٩)، وضعفه الشيخ الألباني في تخريج المشكاة (١٩٢٣).

وقرأ ابن وثاب "وبالنُّجْم". الحسن: بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر:

إن الفقير بيننا قاض حكم   أن ترد الماء إذا غاب النجم

وكذلك القول لمن قرأ "النُّجْم" إلا أنه سكن استخفافا. ويجوز أن يكون النجم جمع نجم كسُقُف وسَقف. واختلف في النجوم؛ فقال الفراء: الجدي والفرقدان. وقيل: الثريا. قال الشاعر:

حتى إذا ما استقل النجم في غلس   وغودر البقل ملوي ومحصود

أي منه ملوي ومنه محصود، وذلك عند طلوع الثريا يكون. وقال الكلبي: العلامات الجبال. وقال مجاهد: هي النجوم؛ لأن من النجوم ما يهتدى بها، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها؛ وقاله قتادة والنخعي. وقيل: تم الكلام عند قوله "وعلامات" ثم ابتدأ وقال: "وبالنجم هم يهتدون". وعلى الأول: أي وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها. ومن العلامات الرياح يهتدى بها. وفي المراد بالاهتداء قولان: أحدهما: في الأسفار، وهذا قول الجمهور. الثاني: في القبلة. وقال ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: "وبالنجم هم يهتدون" قال: (هو الجدي يا ابن عباس، عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم) ذكره الماوردي.

الثانية: قال ابن العربي: أما جميع النجوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما الثريا فلا يهتدي بها إلا من يهتدي بجميع النجوم. وإنما الهدي لكل أحد بالجدي والفرقدين؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السمت الثابتة في المكان، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصلا، فهي أبدا هدي الخلق في البر إذا عميت الطرق، وفي البحر عند مجرى السفن، وفي القبلة إذا جهل السمت، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سمت الجهة.

قلت: وسأل ابن عباس رسول الله ﷺ عن النجم فقال: (هو الجدي عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم). وذلك أن آخر الجدي بنات نعش الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها.

الثالثة: قال علماؤنا: وحكم استقبال القبلة على وجهين: أحدهما: أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه. والآخر: أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصلى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له؛ فإذا صلى مجتهدا مستدلا ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر به. وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفمن يخلق ﴾ هو الله تعالى. ﴿ كمن لا يخلق ﴾ يريد الأصنام. ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع، كما يخبر عمن يعقل على ما تستعمله العرب في

ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ "من" كقوله: ﴿ ألهم أرجل ﴾ (الأعراف: ١٩٥). وقيل: لاقتران الضمير في الذكر بالخالق. قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه علي الراكب وجمله فلا أدري من ذا ومن ذا؛ وإن كان أحدهما غير إنسان. قال المهدوي: ويسأل بـ "من" عن الباريء تعالى ولا يسأل عنه بـ "ما"؛ لأن "ما" إنما يسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له: "﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ (طه: ٤٩) ولم يجب حين قال له: ﴿ وما رب العالمين ﴾ (الشعراء: ٢٣) إلا بجواب "من" وأضرب عن جواب "ما" حين كان السؤال فاسدا. ومعنى الآية: من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع؛ ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ (لقمان: ١١) ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ (فاطر: ٤٠).

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ تقدم في إبراهيم. ﴿ إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه. وقد تقدم جميع هذا مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين يدعون من دون الله ﴾ قراءة العامة "تدعون" بالتاء لأن ما قبله خطاب. روى أبو بكر عن عاصم وهبيرة عن حفص "يدعون" بالياء، وهي قراءة يعقوب. فأما قوله: "ما تسرون وما تعلنون" فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء. ﴿ لا يخلقون شيئا ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء ﴿ وهم يخلقون ﴾، ﴿ أموات غير أحياء ﴾ أي هم أموات، يعني الأصنام، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة. ﴿ وما يشعرون ﴾ يعني الأصنام. ﴿ أيان يبعثون ﴾ وقرأ السلمي، "إيان" بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ "يبعثون" وهي في معنى الاستفهام. والمعنى: لا يدرون متى يبعثون. وعبر عنها كما عبر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك. وقد قيل: إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهي في الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث. قال ابن عباس: تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار. وقيل: إن الأصنام تطرح في النار مع عبدتها يوم القيامة؛ دليله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (الأنبياء: ٩٨). وقيل: تم الكلام عند قوله: "لا يخلقون شيئا وهم يخلقون" ثم

ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر . "وما يشعرون أيان يبعثون" أي وما يدري الكفار متى يبعثون، أي وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله وقيل: أي وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريباً.

قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لما بين استحالة الإشراك بالله تعالى بين أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه. ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ أي لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا رد على القدرية. ﴿ وهم مستكبرون ﴾ متكبرون متعظمون عن قبول الحق. وقد تقدم في "البقرة" معنى الإستكبار. ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي من القول والعمل فيجازيهم. قال الخليل: "لا جرم" كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا؛ يقال: فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون. أي حقا أن لهم النار. وقد مضى القول في هذا في "هود" مستوفى. ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ أي لا يثيبهم ولا يثني عليهم. وعن الحسين بن علي أنه مر بمساكين قد قدموا كسرا بينهم وهم يأكلون فقالوا: الغذاء يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال: ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبوني؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا. قال العلماء: وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفي الحديث الصحيح (إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم)[1]. أو كما قال ﷺ: (تصغر لهم أجسامهم في المحشر حتى يضرهم صغرها وتعظم لهم في النار حتى يضرهم عظمها).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ يعني وإذا قيل لمن تقدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث "ماذا أنزل ربكم". قيل: القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيه، وكان خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث "كليلة ودمنة" فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين؛ أي ليس هو من تنزيل ربنا. وقيل: إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقولهم: "أساطير الأولين" فأقروا بإنكار شيء هو أساطير الأولين. والأساطير: الأباطيل والترهات. والقول في "ماذا أنزل ربكم" كالقول في ﴿ ماذا ينفقون ﴾ (البقرة: ٢١٥) وقوله: ﴿ أساطير الأولين ﴾. خبر ابتداء محذوف، التقدير: الذي أنزله أساطير الأولين.

---

(١) "حسن" بنحوه في صحيح الترمذي (٢٠٢٥).

قوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليحملوا أوزارهم ﴾ قيل: هي لام كي، وهي متعلقة بما قبلها. وقيل: لام العاقبة، كقوله: ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ (القصص: ٨). أي قولهم في القرآن والنبي أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم. وقيل: هي لام الأمر، والمعنى التهدد. ﴿ كاملة ﴾ لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم. ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ قال مجاهد: يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيء. وفي الخبر (أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيما داع دعا إلى هدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء) خرجه مسلم بمعناه. و"من" للجنس لا للتبعيض؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم. وقوله: ﴿ بغير علم ﴾ أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لما أضلوا. ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه. ونظير هذه الآية ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ (العنكبوت: ١٣) وقد تقدم في آخر الأنعام بيان قوله: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ أي سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل. ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: إنه النمرود بن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتال أهله؛ فبنوا الصرح ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع، فخر. كما تقدم بيانه في آخر سورة "إبراهيم". ومعنى "فأتى الله بنيانهم" أي أتى أمره البنيان، إما زلزلة أو ريحا فخربته. قال ابن عباس ووهب: كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين، فهبت ريح فألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي. ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا، فلذلك سمي بابل، وما كان لسان قبل ذلك إلا السريانية. وقرأ ابن هرمز وابن محيصن "السقف" بضم السين والقاف جميعا. وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا؛ كما تقدم في "وبالنجم" في الوجهين. والأشبه أن يكون جمع سقف. والقواعد: أصول البناء، وإذا اختلت القواعد سقط البناء. وقوله: ﴿ من فوقهم ﴾ قال ابن الأعرابي: وكُد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته. والعرب تقول: خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإنْ لم يكن وقع عليه. فجاء بقوله: "من فوقهم" ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب

---

(١) زيادة في نسخة.

فقال: "من فوقهم" أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا. وقيل: إن المراد بالسقف السماء؛ أي إن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم؛ قاله ابن عباس. وقيل: إن قوله: "فأتى الله بنيانهم من القواعد" تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه. وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه. وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه. وعلى هذا اختلف في الذين خر عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدم. وقيل: إنه بختنصر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين. وقيل: المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله في سورة الحجر؛ قاله الكلبي. وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم. ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي من حيث ظنوا أنهم في أمان. وقال ابن عباس: يعني البعوضة التي أهلك الله بها نمرودا.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ﴿ ويقول أين شركائي ﴾ أي بزعمكم وفي دعواكم، أي الآلهة التي عبدتم دوني، وهو سؤال توبيخ. ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ أي تعادون أنبيائي بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كثير "شركاي" بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز. وقرأ نافع "تشاقون" بكسر النون على الإضافة، أي تعادونني فيهم. وفتحها الباقون. ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ قال ابن عباس: أي الملائكة. وقيل: المؤمنون. ﴿ إن الخزي اليوم ﴾ أي الهوان والذل يوم القيامة. ﴿ والسوء ﴾ أي العذاب. ﴿ على الكافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ هذا من صفة الكافرين. و"ظالمي أنفسهم" نصب على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك. ﴿ فألقوا السلم ﴾ أي الاستسلام. أي أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا: ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ أي من شرك. فقالت لهم الملائكة: ﴿ بلى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء. ﴿ إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ وقال عكرمة. نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها؛ فقال: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ بقبض أرواحهم. ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة. ﴿ فألقوا السلم ﴾ يعني في خروجهم معهم. وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الصلح؛ قاله الأخفش. الثاني: الاستسلام؛ قاله قطرب. الثالث: الخضوع؛ قاله مقاتل. ﴿ ما

كنا نعمل من سوء ﴾ يعني من كفر. ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ يعني أن أعمالهم أعمال الكفار. وقيل: إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم. وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال: ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (غافر: ٨٥). وقد تقدم هذا المعنى. وتقدم فى "الأنفال" إن الكفار يتوفون بالضرب والهوان وكذلك فى "الأنعام" وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ أي يقال لهم ذلك عند الموت. وقيل: هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين. وقيل: لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا. وقيل: لكل دركة باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر. فالله أعلم. ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها. ﴿ فلبئس مثوى ﴾ أي مقام ﴿ المتكبرين ﴾ الذين تكبروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى، وقد بينهم بقوله الحق: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ (الصافات: ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ أي قالوا: أنزل خيرا؛ وتم الكلام. و"ماذا" على هذا اسم واحد. وكان يرد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد ﷺ فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون. ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى، والمراد القرآن. وقيل: إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿ أساطير الأولين ﴾ (النحل: ٢٤) وانتصب في قوله: "خيرا" فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين. والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيرا، وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ قيل: هو من كلام الله عز وجل. وقيل: هو من جملة كلام الذين اتقوا. والحسنة هنا: الجنة؛ أي من أطاع الله فله الجنة غدا. وقيل: ﴿ للذين أحسنوا﴾ اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة ﴿ولدار الآخرة خير﴾ أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا؛ لفنائها وبقاء الآخرة. ﴿ولنعم دار المتقين﴾ فيه وجهان: قال الحسن: المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول

الجنة. وقيل: المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور. وعلى هذا تكون ﴿ جنات عدن﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع. وقيل: ارتفع على تقدير هي جنات، فهي مبينة لقولـه: "دار المتقين". أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير: جنات عدن نعم دار المتقين. ﴿ يدخلونها ﴾ في موضع الصفة، أي مدخولة. وقيل: "جنات" رفع بالابتداء، وخبره "يدخلونها" وعليه يخرج قول الحسن. والله أعلم. ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ تقدم معناه في "البقرة". ﴿ لـهم فيها ما يشاءون ﴾ أي مما تمنوه وأرادوه. ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ قرأ الأعمش وحمزة "يتوفاهم الملائكة" في الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم. الباقون بالتاء؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة. و﴿ طيبين ﴾ فيه ستة أقوال: الأول: "طيبين" طاهرين من الشرك. الثاني: صالحين. الثالث: زاكية أفعالـهم وأقوالـهم. الرابع: طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى. الخامس: طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله. السادس: "طيبين" أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط. والله أعلم. ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون السلام إنذارا لـهم بالوفاة. الثاني: أن يكون تبشيرا لـهم بالجنة؛ لأن السلام أمان. وذكر ابن المبارك قال: حدثني حيوة قال أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام. ثم نزع بهذه الآية "الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم". وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه. وقد أتينا على هذا في كتاب التذكـرة وذكرنا هنـاك الأخبار الواردة في هذا المعنى، والحمـد لله. وقولـه ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة. الثاني: أن يقولوا ذلك لـهم في الآخرة ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا من الصالحات.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ هذا راجع إلى الكفار، أي ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم. وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي وخلف "يأتيهم الملائكة" بالياء. والباقون بالتاء على ما تقدم. ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ أي بالعذاب من

القتل كيوم بدر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة. والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب، فأضيف ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب. ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا. ﴿ وما ظلمهم الله﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير؛ التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم. ﴿ وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ودار. ﴿ ما كانوا به يستهزئون﴾ أي عقاب استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ أي شيئا، و"من" صلة. قال الزجاج: قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين. وقد مضى هذا في سورة الأنعام مبينا معنى وإعرابا فلا معنى للإعادة ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا. ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ﴾ أي بأن اعبدوا الله ووحدوه. ﴿ اجتنبوا الطاغوت ﴾ أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال. ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ أي أرشده إلى دينه وعبادته. ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرد على القدرية؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول: ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ وقد تقدم. هذا فى غير موضع ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ أي فسيروا معتبرين في الأرض ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿إن تحرص على هداهم ﴾ أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم. ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل وما لـهم من ناصرين ﴾ أي لا يرشد من أضلـه، أي من سبق لـه من الله الضلالة لم يهده. وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة. فـ"يهدي" فعل مستقبل وماضيه هدى. و"من" في موضع نصب بـ"يهدي" ويجوز أن يكون هدى يهدي بمعنى اهتدى يهتدي، رواه أبو عبيد عن الفراء قال: كما قرئ ﴿أمن لا يهدي إلا أن يهدى ﴾ (يونس: ٣٥) بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد. ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء، وليس بمتهم فيما يحكيه. النحاس: حكي لي عن محمد بن يزيد كأن معنى "لا يهدي من يضل" من علم ذلك منه وسبق ذلك لـه عنده، قال: ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلا أن يكون يَهدي أو يُهدي. وعلى قول الفراء "يهدي" بمعنى يهتدي، فيكون "من" في موضع رفع، والعائد إلى "من" الـهاء المحذوفة من الصلة، والعائد إلى اسم "إن" الضمير المستكن في "يضل". وقرأ الباقون "لا يهدى" بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضلـه الله لم يهده هاد؛ دليلـه قولـه: ﴿من يضلل الله فلا هادي لـه ﴾ (الأعراف: ١٨٦) و"من" في موضع رفع على أنه اسم ما لم يسم فاعلـه، وهي بمعنى الذي، والعائد عليها من صلتها محذوف، والعائد على اسم إن من "فإن الله" الضمير المستكن في "يضل". ﴿وما لـهم من ناصرين ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات. وقال أبو العالية: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت؛ فنزلت الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس قال لـه رجل: يا ابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليا مبعوث بعد الموت قبل الساعة، ويتأولون هذه الآية. فقال ابن عباس: كذب أولئك! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علي مبعوثا قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه. ﴿بلى ﴾ هذا رد عليهم؛ أي بلى ليبعثنهم. ﴿وعدا عليه حقا ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قولـه "يبعثهم" يدل على الوعد، أي وعد البعث وعدا حقا. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن لـه ذلك وشتمني ولم يكن لـه ذلك فأما تكذيبه إياي فقولـه لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إياي فقولـه اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفوا أحد). وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليبين لهم ﴾ أي ليظهر لهم. ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ أي من أمر البعث. ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ بالبعث وأقسموا عليه ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد؛ كأبي طالب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما نحدثه؛ لأنا إنما نقول له كن فيكون. قراءة ابن عامر والكسائي "فيكون" نصبا عطفا على أن نقول. وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصبا على جواب "كن". الباقون بالرفع على معنى فهو يكون. وقال ابن الأنباري: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد. وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان قوله: "كن" مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان، والثاني إلى ثالث وتسلسل وكان محالا. وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين: إما لكونه جاهلا لا يدري، وإما لكونه مغلوبا لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلا لشيء وهو غير مريد له؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد؛ وهذا قول الطبيعيين، وقد أجمع الموحدون على خلافه وفساده.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ قد تقدم في "النساء" معنى الهجرة، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله، وترك السيئات. وقيل: "في" بمعنى اللام، أي لله. "من بعد ما ظلموا" أي عذبوا في الله. نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكلبي. وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل. وقال قتادة: المراد أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة؛ ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين. والآية تعم الجميع. ﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ في الحسنة ستة أقوال: الأول: نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة. الثاني: الرزق الحسن؛ قاله مجاهد. الثالث: النصر على عدوهم؛ قاله الضحاك. الرابع: إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جريج. الخامس: ما استولوا عليه من فتوح البلاد

وصار لـهم فيها من الولايات. السادس: ما بقي لـهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. وكل ذلك اجتمع لـهم بفضل الله، والحمد لله. ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ أي ولأجر دار الآخرة أكبر، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده؛ ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾ (الإنسان: ٢٠) ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك. وقيل: هو راجع إلى المؤمنين. أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادخر لكم في الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قيل: ﴿ لذين﴾ بدل من ﴿ الذين ﴾ الأول. وقيل: من الضمير في "لنبوئنهم" وقيل: هم الذين صبروا على دينهم. ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ في كل أمورهم. وقال بعض أهل التحقيق: خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، وإذا عجز عن أمر توكل؛ قال الله تعالى: ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾ قراءة العامة "يوحى" بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص عن عاصم "نوحي إليهم" بنون العظمة وكسر الحاء. نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسولـه بشرا، فهلا بعث إلينا ملكا؛ فرد الله تعالى عليهم بقولـه: "وما أرسلنا من قبلك" إلى الأمم الماضية يا محمد "إلا رجالا" آدميين. ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: أهل الذكر أهل القرآن. وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب. ﴿ بالبينات والزبر ﴾ قيل: "بالبينات، متعلق بـ"أرسلنا". وفي الكلام تقديم وتأخير، أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا ـ أي غير رجال، "فإلا" بمعنى غير؛ كقولـه: لا إلـه إلا الله، وهذا قول الكلبي ـ نوحي إليهم. وقيل: في الكلام حذف دل عليه "أرسلنا" أي أرسلناهم بالبينات والزبر. ولا يتعلق "بالبينات" بـ "أرسلنا" الأول على هذا القول؛ لأن ما قبل "إلا" لا يعمل فيما بعدها، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدرة، أي أرسلناهم بالبينات. وقيل: مفعول بـ"تعلمون" والباء زائدة، أو نصب بإضمار أعني؛ كما قال الأعشى:

وليس مجيرا إن أتى الحي خائف   ولا قائلا إلا هو المتعيبا

أي أعني المتعيب. والبينات: الحجج والبراهين. والزبر: الكتب. وقد تقدم في "آل عمران" ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ يعني القرآن. ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول ﷺ مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله. وقد تقدم هذا المعنى مستوفى في مقدمة الكتاب والحمد لله. ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ فيتعظون.

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ أي بالسيئات، وهذا وعيد للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام. ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ قال ابن عباس: كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسوفا ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أي غاب به فيها؛ ومنه قوله: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ (القصص: ٨١). وخسف هو في الأرض وخسف به. والاستفهام بمعنى الإنكار؛ أي يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين. ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم وقيل: يريد يوم بدر؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شيء منه في حسابهم. ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ أي في أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة. ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي مسابقين الله ولا فائتيه وقيل: "في تقلبهم" على فراشهم أينما كانوا. وقال الضحاك: بالليل والنهار. ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي على تنقص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم. وكذا قال ابن الأعرابي: أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلهم. وقال الضحاك: هو من الخوف؛ المعنى: يأخذ طائفة ويدع طائفة، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها. وقال الحسن: "على تخوف" أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى، وهذا هو معنى القول الذي قبله بعينه، وهما راجعان إلى المعنى الأول، وأن التخوف التنقص؛ تخوفه تنقصه، وتخوفه الدهر وتخونه ـ بالفاء والنون ـ بمعنى؛ يقال: تخونني فلان حقي إذا تنقصك. قال ذو الرمة:

لا، بل هو الشوق من دار تخونها   مرا سحاب ومرا بارح ترب

وقال لبيد:

تخونها نزولي وارتحالي

أي تنقص لحمها وشحمها. وقال الهيثم بن عدي: التخوف "بالفاء" التنقص، لغة لأزد شنوءة. وأنشد:

تخـوف غدرهم مالي وأهدى سلاسل في الحلوق لـها صليل

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب ﷺ على المنبر قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف التنقص. فخرج رجل فقال: يا فلان، ما فعل دينك؟ قال: تخوفته، أي تنقصته؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم؛ قال شاعرنا أبو كبير الـهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. تمك السنام يتمك تمكا، أي طال وارتفع، فهو تامك. والسفن والمسفن ما يُنجر به الخشب. وقال الليث بن سعد: "على تخوف" على عجل. وقيل: على تقريع بما قدموه من ذنوبهم، وهذا مروي عن ابن عباس أيضا. وقال قتـادة: "على تـخوف" أن يعاقـب أو يتجاوز. ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي لا يعاجل بل يمهل.

قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش "تروا" بالتاء، على أن الخطاب لجميع الناس. الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار. ﴿ من شيء ﴾ يعني من جسم قائم لـه ظل من شجرة أو جبل؛ قالـه ابن عباس. وإن كانت الأشياء كلـها سميعة مطيعة لله تعالى. ﴿ يتفيأ ظلالـه ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد. أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها؛ ومنه قيل للظل بالعشي: فيء؛ لأنه فاء من المغـرب إلى المشـرق، أي رجـع. والفيء الرجوع؛ ومنه ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ (الحجرات: ٩). روي معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى في سورة "الرعد" وقال الزجاج: يعني سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام في كل جسم. ومعنى ﴿ وهم داخرون ﴾ أي خاضعون صاغرون. والدخور: الصغار والذل. يقال: دخر الرجل - بالفتح - فهو داخر، وأدخره الله. وقال ذو الرمة:

فلـم يبـق إلا داخر فـي مخيس ومنجحر في غير أرضك في جحر

كذا نسبه الماوردي لذي الرمة، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال: المخيس اسم سجن كان بالعراق؛ أي موضع التذلل، وقال:

أما تراني كيسا مكيسا بنيت بعد نافع مخيسا

ووحد اليمين في قوله: "عن اليمين" وجمع الشمال؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحدا الجمع. ولو قال: عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضا فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ (البقرة: ٧) وكقوله: ﴿ ويخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (المائدة: ١٦) ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز. ويجوز أن يكون رد اليمين على لفظ "ما" والشمال على معناها. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الواردون وتيم في ذرا سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

ولم يقل جلود. وقيل: وحد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم في حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات، فسماها شمائل.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ﴾ أي من كل ما يدب على الأرض. ﴿ والملائكة ﴾ يعني الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها؛ كقوله: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (الرحمن: ٦٨). وقيل: لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا. وقيل: أراد "ولله يسجد من في السماوات" من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، "وما في الأرض من دابة" وتسجد ملائكة الأرض. ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن عبادة ربهم. وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ومعنى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾" أي عقاب ربهم وعذابه، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف. وقيل: معنى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ يعني الملائكة، يخافون ربهم وهي من فوق ما في الأرض من دابة ومع ذلك يخافون؛ فلأن يخاف من دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى: ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ يعني الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ (٥١) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ قيل: المعنى لا تتخذوا اثنين إلهين. وقيل: جاء قوله "اثنين" توكيدا. ولما كان الإله الحق لا يتعدد وأن كل من يتعدد فليس بإله، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفي التعديد. ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ يعني ذاته المقدسة. وقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته حسبما تقدم فى "البقرة" بيانه وذكرناه في اسمه الواحد في شرح الأسماء، والحمد لله. ﴿ فإياي فارهبون ﴾ أي خافون. وقد تقدم في البقرة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا ﴾ الدين: الطاعة والإخلاص. و"واصبا" معناه دائما؛ قاله الفراء، حكاه الجوهري. وصب الشيء يصب وصوبا، أي دام. ووصب الرجل على الأمر إذا واظب عليه. والمعنى: طاعة الله واجبة أبدا. وممن قال واصبا دائما: الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك. ومنه قوله تعالى: ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ (الصافات: ٩) أي دائم. وقال الدؤلي:

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه   بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما:

ما أبتغي الحمد القليل بقاؤه   يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل: الوصب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها. ومنه قول الشاعر:

لا يمسك الساق من أين ولا وصب   ولا يعض على شرسوفه الصفر

وقال ابن عباس: "واصبا" واجبا. الفراء والكلبي: خالصا. ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله. فـ"غير" نصب بـ"تتقون".

قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ قال الفراء. "ما" بمعنى الجزاء. والباء في "بكم" متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم. "من نعمة" أي صحة جسم وسعة رزق وولد فمن الله. وقيل: المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي. ﴿ ثم إذا مسكم الضر ﴾ أي السقم والبلاء والقحط. ﴿فإليه تجأرون ﴾ أي تضجون بالدعاء. يقال: جأر يجأر جؤارا. والجؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر، أي صاح. وقرأ بعضهم "عجلا جسدا له جؤار"؛ حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله، أي تضرع بالدعاء. وقال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة   وكان النكير أن تضيف وتجأرا

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾ أي البلاء والسقم. ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك، وهذا المعنى مكرر في القرآن، وقد تقدم في "الأنعام ويونس" ويأتي في (سبحان) وغيرها. وقال الزجاج: هذا خاص بمن كفر. ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء. أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي. وقيل: لام العاقبة. وقيل: "ليكفروا بما آتيناهم" أي ليجعلوا النعمة سببا للكفر، وكل هذا فعل خبيث؛ كما قال:

والكفر مخبثة لنفس المنعم

﴿ فتمتعوا ﴾ أمر تهديد. وقرأ عبد الله ﴿ قل تمتعوا ﴾. ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي عاقبة أمركم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع ـ وهي الأصنام ـ شيئا من أموالهم يتقربون به إليه؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. فـ "يعلمون" على هذا للمشركين. وقيل: هي للأوثان، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل، فهو رد على "ما" ومفعول يعلم محذوف، والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا. وقد مضى في "الأنعام:١٣٦" تفسير هذا المعنى، ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿ تالله لتسئلن ﴾ وهذا سؤال توبيخ. ﴿ عما كنتم تفترون ﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا.

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ نزلت في خزاعة وكنانة؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات. ﴿ سبحانه ﴾ نزّه نفسه وعظّمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد. ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع "ما" رفع بالابتداء، والخبر "لهم" وتم الكلام عند قوله: "سبحانه". وأجاز الفراء كونها نصبا، على تقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون. وأنكره الزجاج وقال: العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ أي أخبر أحدهم بولادة بنت. ﴿ ظل وجهه مسودا ﴾ أي متغيرا، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت. والعرب تقول لكل من لقي مكروها: قد اسود وجهه غما وحزنا؛ قاله الزجاج. وحكى الماوردي أن المراد سواد اللون قال: وهو قول الجمهور. ﴿ وهو كظيم ﴾ أي ممتلئ من الغم. وقال ابن عباس: حزين. وقال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره. وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم؛ مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة؛ قاله علي بن عيسى. وقد تقدم هذا المعنى في سورة يوسف.

قوله تعالى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يختفي ويتغيب. ﴿ من سوء ما بشر به ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت. ﴿ أيمسكه ﴾ ذكر الكناية لأنه مردود على "ما". ﴿ على هون ﴾ أي هوان. وكذا قرأ عيسى الثقفي "على هوان" والهون الهوان بلغة قريش؛ قاله

اليزيدي وحكاه أبو عبيد عن الكسائي. وقال الفراء: هو القليل بلغة تميم. وقال الكسائي: هو البلاء والمشقة. وقالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفو س يوم الكريهة أبقى لها

وقرأ الأعمش "أيمسكه على سوء" ذكره النحاس، قال: وقرأ الجحدري "أم يدسها في التراب" يرده على قوله: "بالأنثى" ويلزمه أن يقرأ "أيمسكها". وقيل: يرجع الهوان إلى البنت؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده. وقيل: يرجع إلى المولود له؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية. قال قتادة: كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء؛ وأشدهم في هذا تميم. زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن. وكان صعصعة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك. فقال الفرزدق يفتخر:

وعمي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وقيل: دسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف، كالمدسوس في التراب لإخفائه عن الأبصار؛ وهذا محتمل.

مسألة: ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: (من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار). ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما؛ فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: (إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار)[١]. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو) وضم أصابعه، خرجهما أيضا مسلم رحمه الله. وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار)[٢]. وخطب إلى عقيل بن علفة ابنته الجرباء فقال:

إني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان وخور عشر

أحب أصهاري إلي القبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، (٥/ ٥٧)، وقال: "غريب من حديث الأعمش تفرد به الأموي عن طلحة". قلت: طلحة هو ابن زيد متروك، قال أحمد وأبو داود: كان يضع الحديث كما في "التقريب"، (١/ ٣٧٨).

وقال عبد الله بن طاهر:

لكـل أبـي بنـت يـراعي شـؤونها ثلاثـة أصـهار إذا حمـد الصـهر
فـبعل يراعـيها وخـدر يكـنها وقـبر يواريهـا وخيرهـم القـبر

﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم. نظيره ﴿ ألكم الذكر ولـه الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ (النجم: ٢١) أي جائرة، وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي لـهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مثل السوء ﴾ أي صفة السوء من الجهل والكفر. وقيل: هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد. وقيل: أي العذاب والنار. ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قالـه قتادة. وقيل: أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز. وقال ابن عباس: "مثل السوء" النار، و"المثل الأعلى" شهادة أن لا إلـه إلا الله. وقيل: ليس كمثله شيء. وقيل: "ولله المثل الأعلى" كقولـه: ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ (النور: ٣٥). فإن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال: ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ (النحل: ٧٤) فالجواب أن قولـه: "فلا تضربوا لله الأمثال" أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص؛ أي لا تضربوا لله مثلا يقتضي نقصا وتشبيها بالخلق. والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه لـه ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا. ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ أي بكفرهم وافترائهم، وعاجلـهم. ﴿ ما ترك عليها ﴾ أي على الأرض، فهو كناية عن غير مذكور، لكن دل عليه قولـه: ﴿ من دابة ﴾ فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض. والمعنى المراد من دابة كافرة، فهو خاص. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء. وقيل: المراد بالآية العموم؛ أي لو أخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة من نبي ولا غيره؛ وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال: ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى: ٣٠). ﴿ فإذا جاء أجلـهم ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. أو الوقت المعلوم عند الله عز وجل. وقرأ ابن سيرين "جاء آجالـهم" بالجمع وقيل: "فإذا جاء أجلـهم" أي فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم. ﴿ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وقد تقدم. فإن قيل: فكيف يعم بالـهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم). وعن أم سلمة

وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت قال رسول الله ﷺ: (يعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم) فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: (يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته)(١). وقد أتينا على هذا المعنى مجودا في "كتاب التذكرة" وتقدم في "المائدة" وآخر "الأنعام" ما فيه كفاية، والحمد لله. وقيل "فإذا جاء أجلـهم" أي فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات. ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب. ﴿ أن لـهم الحسنى ﴾ قال مجاهد: هو قولـهم أن لـهم البنين ولله البنات. "الكذب" مفعول "تصف" و"أن" في محل نصب بدل من الكذب؛ لأنه بيان لـه. وقيل: "الحسنى" الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج. وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيصن "الكذب" برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ (النحل: ١١٦). والكذب جمع كذوب؛ مثل رسول ورسل وصبور وصبر وشكور وشكر. ﴿ لا ﴾ رد لقولـهم، وتم الكلام، أي ليس كما تزعمون. ﴿ جرم أن لـهم النار ﴾. أي حقا أن لـهم النار وقد سبق مستوفى. ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ متركون منسيون في النار؛ قالـه ابن الأعرابي وأبو عبيدة والكسائي والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا: مبعدون. قتادة والحسن: معجلون إلى النار مقدمون إليها. والفارط: الذي يتقدم إلى الماء؛ ومنه قول النبي ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض)(٢) أي متقدمكم. وقال القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا ... كما تعجل فراط لوراد

والفراط: المتقدمون في طلب الماء. والوراد: المتأخرون. وقرأ نافع في رواية ورش "مفرطون" بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية، أي أفرطوا فيها. يقال: أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه، وقال لـه أكثر مما قال من الشر. وقرأ أبو جعفر القارئ "مفرطون" بكسر الراء وتشديدها، أي مضيعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب.

قوله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لـهم الشيطان أعمالـهم ﴾ أي أعمالـهم الخبيثة. هذا تسلية للنبي ﷺ بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم. ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ أي

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٠).

ناصرهم في الدنيا على زعمهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة. وقيل: "فهو وليهم" أي قرينهم في النار. "اليوم" يعني يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته. وقيل يقال لهم يوم القيامة: هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾ أي القرآن ﴿ إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك. وعُطف "هدى ورحمة" على موضع قوله: "لتبين" لأن محله نصب. ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس. "وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" أي رشدا ورحمة للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والله أنزل من السماء ﴾ أي السحاب. ﴿ ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة. ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا، فتكون هذه الدلالة ﴿ لقوم يسمعون ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان؛ ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (الحج: ٤٦).

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ قد تقدم القول في الأنعام، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. "لعبرة" أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه ﴿ فاعتبروا ﴾ (الحشر: ٢). وقال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شيء. ومن أعظم العبر بريء يحمل مذنبا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ نسقيكم ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بفتح النون من سقى يسقي. وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقي، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة. قيل: هما لغتان. وقال لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال

وقيل: يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت لـه شرابا أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ابن عزيز، وقد تقدم. وقرأت فرقة "تسقيكم" بالتاء، وهي ضعيفة، يعني الأنعام. وقرئ بالياء، أي يسقيكم الله عز وجل. والقراء على القراءتين المتقدمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حمير.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ مما في بطونه ﴾ اختلف الناس في الضمير من قولـه: "مما في بطونه" على ماذا يعود. فقيل: هو عائد إلى ما قبلـه وهو جمع المؤنث. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ابن العربي: وما أراه عول عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير؛ وقالـه الزجاج، وقال الكسائي: معناه مما في بطون ما ذكرناه، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ إنها تذكرة، فمن شاء ذكره ﴾ (عبس: ١١ ـ١٢) وقال الشاعر:

مثل الفراخ نتفت حواصلـه

ومثلـه كثير. وقال الكسائي: "مما في بطونه" أي مما في بطون بعضه؛ إذ الذكور لا ألبان لـها، وهو الذي عول عليه أبو عبيدة. وقال الفراء: الأنعام والنعم واحد، والنعم يذكر، ولـهذا تقول العرب: هذا نعم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي: إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال: ﴿ نسقيكم مما في بطونها ﴾ (المؤمنون: ٢١) وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا. والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل يبرين وتيهاء فلسطين.

الرابعة: استنبط بعض العلماء الجلة وهو القاضي إسماعيل من عود هذا الضمير، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال: إنما جيء به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النبي ﷺ بأن لبن الفحل يحرم حين أنكرته عائشة في حديث أفلح أخي أبي القعيس (فللمرأة السقي وللرجل اللقاح) فجرى الاشتراك فيه بينهما. وقد مضى القول فى تحريم لبن الفحل في "النساء" والحمد لله.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾ نبه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين الفرث والدم. والفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج لم يسم فرثا. يقال: أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها. والمعنى: أن الطعام يكون منه ما في الكرش ويكون منه الدم، ثم يخلص اللبن من الدم؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدم في العروق. وقال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طبخته فكان أسفلـه فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسلط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق،

وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش؛ ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ (القمر: ٥). ﴿ خالصا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفرث وقد جمعهما وعاء واحد. وقال ابن بحر: خالصا بياضه. قال النابغة:

بخالصة الأردان خضر المناكب

أي بيض الأكمام. وهذه قدرة لا تنبغي إلا للقائم على كل شيء بالمصلحة.

السادسة: قال النقاش: في هذا دليل على أن المني ليس بنجس. وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال: كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المني على مخرج البول طاهرا. قال ابن العربي: إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع. اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة؛ وليس المني من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مقيسا عليه.

قلت: قد يعارض هذا بأن يقال: وأي منة أعظم وأرفع من خروج المني الذي يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (الطارق: ٧)، وقال: ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ (النحل: ٧٢) وهذا غاية في الامتنان. فإن قيل: إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول، قلنا: هو ما أردناه، فالنجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل: إن مخرجه غير مخرج البول وخاصة المرأة؛ فإن مدخل الذكر منها ومخرج الولد غير مخرج البول على ما قاله العلماء وقد تقدم في "البقرة". فإن قيل: أصله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر. وممن قال بطهارته الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أفركه من ثوب رسول الله ﷺ يابسا بظفري[1]. قال الشافعي: فإن لم يفرك فلا بأس به. وكان سعد بن أبي وقاص يفرك المني من ثوبه. وقال ابن عباس: هو كالنخامة أمطه عنك بإذخرة وامسحه بخرقة. فإن قيل: فقد ثبت عن عائشة أنها قالت: كنت أغسل المني من ثوب رسول الله ﷺ ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه[2]. قلنا: يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التي تزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هذا جمعا بين الأحاديث. والله أعلم. وقال مالك وأصحابه والأوزاعي: هو نجس. قال مالك: غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا، وهو قول الكوفيين. ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم. واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة. وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون.

السابعة: في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به؛ لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس، وذلك أن ضرع الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس. فأما لبن المرأة الميتة فاختلف أصحابنا فيه، فمن قال: إن الإنسان طاهر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٧) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩)، ومسلم (٢٨٩).

حياً وميتاً فهو طاهر. ومن قال: ينجس بالموت فهو نجس. وعلى القولين جميعا تثبت الحرمة؛ لأن الصبي قد يغتذي به كما يغتذي من الحية، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: (الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم)[١]. ولم يخص وقد مضى في "النساء".

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ سائغا للشاربين ﴾ أي لذيذا هينا لا يغص به من شربه. يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغا أي سهل مدخله في الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه، يتعدى ولا يتعدى، والأجود أسغته إساغة. يقال: أسغ لي غصتي أي أمهلني ولا تعجلني؛ وقال تعالى: ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ (إبراهيم: ١٧). والسواغ - بكسر السين - ما أسغت به غصتك. يقال: الماء سواغ الغصص؛ ومنه قول الكميت:

فكانت سواغا أن جئزت بغصة

وروي أن اللبن لم يَشرَق به أحد قط، وروي ذلك عن النبي ﷺ.

التاسعة: في هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها، ولا يقال: إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سرف ولا إكثار وقد تقدم هذا المعنى في "المائدة" وغيرها. وفي الصحيح عن أنس قال: لقد سقيت رسول الله ﷺ بقدحي هذا الشراب كله: العسل والنبيذ واللبن والماء[٢]. وقد كره بعض القراء أكل الفالوذج واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلماء. وروي عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار، فأتي بفالوذج فامتنع عن أكله، فقال له الحسن: كل فإن عليك في الماء البارد أكثر من هذا.

العاشرة: روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال: أتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب، فقال رسول الله ﷺ: (إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه. وإذا سقي لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب إلا اللبن)[٣]. قال علماؤنا: فكيف لا يكون ذلك وهو أول ما يغتذي به الإنسان وتنمي به الجثث والأبدان، فهو قوت خلي عن المفاسد به قوام الأجسام، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة؛ فقال في الصحيح: (فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لي جبريل اخترت الفطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوت أمتك)[٤]. ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الخصب وظهور الخيرات والبركات؛ فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) بنحوه في صحيح أبي داود (١٨١٤) عن ابن مسعود من قوله.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٨).
(٣) "حسن" انظر صحيح أبي داود (٣١٧٣).
(٤) أخرجه البخاري (٤٧٠٩)، ومسلم (١٦٨).

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ ومن ثمرات النخيل ﴾ قال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون؛ فحذف "ما" ودل على حذفه قولـه : "منه" . وقيل: المحذوف شيء، والأمر قريب. وقيل: معنى "منه" أي من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى. ويجوز أن يكون قولـه : "ومن ثمرات" عطفا على "الأنعام" ؛ أي ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة. ويجوز أن يكون معطوفا على "مما" أي ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ سكرا ﴾ السكر ما يسكر؛ هذا هو المشهور في اللغة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر. وأراد بالسكر الخمر، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جبير والنخعي والشعبي وأبو ثور. وقد قيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام. وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسَدُّ هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني.

قلت: فعلى أن السكر الخل أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. قال ابن عباس: الحبشة يسمون الخل السكر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبي ليلى والكلبي وغيرهم ممن تقدم ذكرهم، كلـهم قالوا: السكر ما حرمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهل اللغة: السكر اسم للخمر وما يسكر، وأنشدوا:

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم   إذا جـرى فيهـم المـزاء والسـكر

والرزق الحسن: ما أحلـه الله من ثمرتيهما. وقيل: إن قولـه "تتخذون منه سكرا" خبر معناه الاستفهام بمعنى الإنكار، أي أتتخذون منه سكرا وتدعون رزقا حسنا الخل والزبيب والتمر؛ كقولـه: ﴿ فهم الخالدون ﴾ (الأنبياء: ٣٤) أي أفهم الخالدون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة: السكر الطعم؛ يقال: هذا سكر لك أي طعم. وأنشد:

جعلت عيب الأكرمين سكرا

أي جعلت ذمهم طعما. وهذا اختيار الطبري أن السكر ما يطعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب، وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ (يوسف: ٨٦) وهذا حسـن ولا نسخ، إلا أن الزجاج قال: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة لـه في البيت الذي أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس. وقال الحنفيون: المراد بقولـه: "سكرا" ما لا يسكر من الأنبذة؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لـهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل لا بمحرم، فيكون

ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز، وعضدوا هذا من السنة بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها)[١]. وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال: رأيت رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ وهو عند الركن، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديدا فرده إلى صاحبه، فقال له حينئذ رجل من القوم: يا رسول الله، أحرام هو؟ فقال: (علي بالرجل) فأتي به فأخذ منه القدح، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطب، ثم دعا بماء أيضا فصبه فيه ثم قال: (إذا اغتلمت عليكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالماء)[٢]. وروي أنه ﷺ كان ينبذ له فيشربه ذلك اليوم، فإذا كان من اليوم الثاني أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير، ولو كان حراما ما سقاه إياه[٣]. قال الطحاوي: وقد روى أبو عون الثقفي عن عبد الله ابن شداد عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب، خرجه الدارقطني أيضا. ففي هذا الحديث وما كان مثله، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها. قالوا: والخمر شراب العنب لا خلاف فيها، ومن حجتهم أيضا ما رواه شريك بن عبد الله، حدثنا أبو إسحاق الهمذاني عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر بن الخطاب: إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ. قال شريك: ورأيت الثوري يشرب النبيذ في بيت حبر أهل زمانه مالك بن مغول. والجواب أن قولهم: إن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح؛ بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه. قال ابن العربي: إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ، قلنا: هذا كلام من لم يتحقق الشريعة، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذي لا يدخله النسخ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدل وتنسخ، جاءت بخبر أو أمر، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه، فإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصنف الغبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (النحل: ١٠١). المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب.

قلت: هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار، والمسألة أصولية، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا؟ اختلف في ذلك، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع، وذلك الطلب هو الحكم الشرعي الذي يستدل على نسخه. والله أعلم. وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثاني ضعيفان؛ لأنه ﷺ قد روي عنه بالنقل الثابت أنه قال: (كل شراب أسكر فهو حرام)[٤] وقال: (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)[٥] وقال: (ما أسكر كثيره فقليله حرام)[٦]. قال النسائي:

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٦٣) بأسانيد لا تصح..
(٢) "ضعيف" انظر ضعيف النسائي (٤٤١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٤).
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٢)، ومسلم (٢٠٠١).
(٥) أخرجه مسلم (٢٠٠٣).
(٦) "حسن صحيح" انظر الإرواء (٨/ ٤٣).

وهؤلاء أهل الثبت والعدالة مشهورون بصحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو عاضده من أشكالـه جماعة، وبالله التوفيق. وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة. وكان ﷺ يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيل عليه أزواجه في عسل زينب بأن قيل لـه: إنا نجد منك ريح مغافير[١]، يعني ريحا منكرة، فلم يشربه بعد. وسيأتي في التحريم. وأما حديث ابن عباس فقد روي عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: ما أسكر كثيره فقليلـه حرام، ورواه عنه قيس بن دينار. وكذلك فتياه في المسكر؛ قالـه الدارقطني. والحديث الأول رواه عنه عبد الله بن شداد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبي ﷺ. وأما ما روي عن عمر من قولـه: ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النسائي عن عتبة بن فرقد قال: كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خلل. قال النسائي: ومما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم: حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب ﷺ الحد تاما. وقد قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أما بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير. والخمر ما خامر العقل. وقد تقدم في "المائدة".

فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النخعي وأبو جعفر الطحاوي وكان إمام أهل زمانه، وكان سفيان الثوري يشربه. قلنا: ذكر النسائي في كتابه أن أول من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعي، وهذه زلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة في قول أحد مع السنة. وذكر النسائي أيضا عن ابن المبارك قال: ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم. قال أبو أسامة: ما رأيت رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات ومصر واليمن والحجاز. وأما الطحاوي وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوي قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد لـه: قال أبو جعفر الطحاوي اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذف بالزبد فهو خمر ومستحلـه كافر. واختلفوا في نقيع التمر إذا غلى وأسكر. قال: فهذا يدلك على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب)[٢] غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر، فثبت أنه لم يدخل في الخمر المحرمة غير عصير العنب الذي قد اشتد وبلغ أن يسكر. قال: ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلقا بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب. قال: فوجب قياسا على ذلك أن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٧)، ومسلم (١٤٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٨٥).

يحرم كل ما أسكر من الأشربة. قال: وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (كل مسكر حرام)[1] واستغني عن سنده لقبول الجميع لـه، وإنما الخلاف بينهم في تأويلـه، فقال بعضهم: أراد به جنس ما يسكر. وقال بعضهم: أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل.

قلت: فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقولـه: فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة. وقد روى الدارقطني في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن الله لم يحرم الخمر لاسمها وإنما حرمها لعاقبتها، فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر. قال ابن المنذر: وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنّة رسولـه ﷺ، وما روي عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون الله منها، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين: إما مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه، أو رجل أتى ذنبا لعلـه أن يكثر من الاستغفار لله تعالى، والنبي ﷺ حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة. وقد قيل في تأويل الآية: إنها إنما ذكرت للاعتبار، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما، فاتخاذ السكر لا يدل على التحريم، وهو كما قال تعالى: ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ (البقرة: ٢١٩). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قد مضى القول في الوحي وأنه قد يكون بمعنى الإلـهام، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، وهو من قولـه تعالى: ﴿ ونفس وما سواها. فألـهمها فجورها وتقواها ﴾ (الشمس: ٧ ـ ٨). ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها. وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال: ﴿ تحدث أخبارها. بأن ربك أوحى لـها ﴾ (الزلزلة: ٤ ـ٥). قال إبراهيم الحربي: لله عز وجل في الموات قدرة لم يدر ما هي، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك؛ أي ألـهمها. ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلـهام. وقرأ يحيى بن وثاب "إلى النحل" بفتح الحاء. وسمي نحلا لأن الله عز وجل نحلـه العسل الذي يخرج منه؛ قالـه الزجاج. الجوهري: والنحل والنحلة الدّبر يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال: يعسوب. والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الـهاء. وروي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (الذبان كلـها في النار يجعلـها عذابا لأهل النار إلا النحل)[2] ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وروي عن ابن

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

(٢) بنحوه في "المجمع"، (٤/ ٤١)، وقال: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن حازم وهو ثقة.

عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد، خرجه أبو داود أيضا، وسيأتي في "النمل" إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك ﴿ ومما يعرشون ﴾. جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع، إما في الجبال وكواها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرش ابن آدم من الأجباح والخلايا والحيطان وغيرها. وعرش معناه هنا هيأ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها؛ ومنه العريش الذي صنع لرسول الله ﷺ يوم بدر، ومن هذا لفظة العرش. يقال: عرش يعرش ويعرش (بكسر الراء وضمها)، وقرئ بهما. قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف في ذلك عن عاصم.

الثالثة: قال ابن العربي: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرج، إلا الشكل المسدس؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار. ﴿ فاسلكي سبل ربك ﴾ أي طرق ربك. والسبل: الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أي ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر. ﴿ ذللا ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد؛ أي مطيعة مسخرة. فـ "ذللا" حال من النحل. أي تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا؛ قاله ابن زيد. وقيل: المراد بقوله "ذللا" السبل. يقول: مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها؛ واختاره الطبري، و "ذللا" حال من السبل. واليعسوب سيد النحل، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴿٦٩﴾ ﴾ فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقال: "يخرج من بطونها شراب" يعني العسل. وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ وورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة. فظاهر هذا أنه من غير الفم. وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمي أنفاسها. وقد صنع أرسطاطاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغزنوي. وقال: "من بطونها" لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ مختلف ألوانه ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعي؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبي ﷺ: (جرست نحلـه العرفط) حين شبهت رائحته برائحة المغافير.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ الضمير للعسـل؛ قالـه الجمهور. أي في العسل شفاء للناس. وروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفراء وابن كيسان: الضمير للقرآن؛ أي في القرآن شفاء. النحاس: وهذا قول حسن؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس. وقيل: العسـل فيه شفاء، وهذا القول بين أيضا؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلـها من العسل. قال القاضي أبو بكر بن العربي: من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم، ولو صح نقلا لم يصح عقلا؛ فإن مساق الكلام كلـه للعسـل، ليس للقرآن فيه ذكر. قال ابن عطية: وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي، فقال لـه رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت سخافة قولـه.

الرابعة: اختلف العلماء في قولـه تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هل هو على عمومه أم لا؛ فقالت طائفة: هو على العموم في كل حال ولكل أحد، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا. وحكى النقاش عن أبي وجرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشي بالعسل ويتداوى بالعسل. وروي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل لـه: ألا نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله تعالى يقول: ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا ﴾ (ق: ٩) ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله تعالى يقول: "فيه شفاء للناس" وائتوني بزيت، فإن الله تعالى يقول: ﴿ من شجرة مباركة ﴾ (النور: ٣٥) فجاءوه بذلك كلـه فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ. ومنهم من قال: إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتي شرابا ينتفع به في كل حالة من كل داء. وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان، بل إنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض وعلى حال دون حال؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لما كثر الشفاء به وصار خليطا ومعينا للأدوية في الأشربة والمعاجين؛ وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام. ومما يدل على أنه ليس على العموم أن "شفاء" نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول. لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم. فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان. ابن العربي: ومن ضعفت نيته وغلبته على الدين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء، والكل من حكم الفعال لما يشاء.

الخامسة : إن قال قائل: قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل لـه: الماء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتلـه الماء إذا أخذه على ما يضاده من علة في البدن، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزجاج. وقد اتفق الأطباء عن بكرة أبيهم على مدح عموم منفعة السكنجبين في كل مرض، وأصلـه العسل وكذلك سائر المعجونات، على أن النبي ﷺ قد حسم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب لـه فبرئ؛ وقال: (صدق الله وكذب بطن أخيك).

السادسة : اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يُسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل لـه التصديق بنبيِّه ﷺ، فيستعملـه على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره بعقد نية وحسن طوية، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدم. وأما ما حكي من الإجماع فدليل على جهلـه بالنقل حيث لم يقيد وأطلق. قال الإمام أبو عبد الله المازري: ينبغي أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة، منها الإسهال الحادث عن التخم والـهيضات؛ والأطباء مجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلـها، وإن احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هذا قلنا: فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهيضة فأمره النبي ﷺ بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل. فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة. قال: ولسنا نستظهر على قول نبينا بأن يصدقه الأطباء بل لَو كذبوه لكذبناهم ولكفرناهم وصدقناه ﷺ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله ﷺ وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب.

السابعة : في قولـه تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضي بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز لـه مداواة. ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله). وروى أبو داود والترمذي عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: ألا نتداوى يا رسول الله؟ قال: (نعم. يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع لـه شفاء أو دواء إلا داء واحداً) قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: (الـهرم)[١] لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وروي عن أبي خزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: (هي من قدر الله)[٢] قال: حديث حسن، ولا يعرف لأبي خزامة غير هذا الحديث. وقال ﷺ: (إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار وما أحب أن أكتوي) أخرجه الصحيح. والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى. وعلى

(١) صحيح، انظر صحيح الترمذي (١٦٦٠).
(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي وابن ماجه، وانظر ضعيف ابن ماجه (٧٤٩).

إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء. روي أن ابن عمر اكتوى من اللقوة ورقي من العقرب. وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسقي ولده الترياق. وقال مالك: لا بأس بذلك. وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (دخلت أمة بقضها وقضيضها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)[1]. قالوا: فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (الحديد: ٢٢). وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهم. دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال لـه عثمان: ما تشتكي؟ قال ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال رحمة ربي. قال: ألا أدعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أمرضني. . . وذكر الحديث. وسيأتي بكمالـه في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى. وذكر وكيع قال: حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قرة قال: مرض أبو الدرداء فعادوه وقالوا: ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أضجعني. وإلى هذا ذهب الربيع بن خيثم. وكره سعيد بن جبير الرقى. وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلـها إلا اللبن والعسـل. وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبي ﷺ أبيا يوم الأحزاب على أكحلـه لما رمي. وقال: (الشفاء في ثلاثة) كما تقدم. ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس في كتاب الله، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ (الإسراء: ٨٢) على ما يأتي بيانه. ورقى أصحابه وأمرهم بالرقية؛ على ما يأتي بيانه.

الثامنة: ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوما مقتاتا. واختلف فيه قول الشافعي، والذي قطع به في قولـه الجديد: أنه لا زكاة فيه. وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسـل في قليلـه وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط. وقال محمد بن الحسن: لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق، والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق. وقال أبو يوسف: في كل عشرة أزقاق زق؛ متمسكا بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (في العسل في كل عشرة أزقاق زق) قال أبو عيسى: في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء.

التاسعة: قولـه تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها. فيشهد اليقين بأن ملـهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالـها في تفاوت أحوالـها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل: ٦٨) الآية. ثم إنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعلـه الله تعالى عسـلا حلوا وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته.

---

(١) ذكره ابن عبد البر في "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، (٥/ ٢٦٦)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٥/ ١٠٩): "رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ بين معناه. ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ يعني أرداه وأوضعه. وقيل: الذي ينقص قوته وعقله، ويصيره إلى الخرف ونحوه. وقال ابن عباس: يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له؛ والمعنى متقارب. وفي صحيح البخاري عن أنس ابن مالك قال كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من البخل). وفي حديث سعد بن أبي وقاص (وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر) الحديث. خرجه البخاري. ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير ﴾ أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر. وقد قيل: هذا لا يكون للمؤمن، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه. وقيل: المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا؛ فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه؛ لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه. والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ أي جعل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا. ﴿فما الذين فضلوا﴾ أي في الرزق. ﴿ برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوي المملوك والمالك في المال. وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبد؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه. حكى معناه الطبري، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت في نصارى نجران حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم "فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم" أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد في المال شرعا سواء، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لي ولدا من عبيدي. ونظيرها ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ (الروم: ٢٨) على ما يأتي. ودل هذا على أن العبد لا يملك، على ما يأتي آنفاً.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ جعل بمعنى خلق وقد تقدم "من أنفسكم أزواجا" يعني آدم خلق منه حواء. وقيل: المعنى جعل لكم من أنفسكم، أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (التوبة: ١٢٨) أي من الآدميين. وفي هذا رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها، حتى روي أن عمرو بن هند تزوج منهم غولا وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السعلاة فقالت: عمرو! ونفرت، فلم يرها أبدا. وهذا من أكاذيبها، وإن كان جائزا في حكم الله وحكمته فهو رد على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم. "أزواجا" زوج الرجل هي ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلـها في الوجود كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴿٧٢﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء، ووجود الأبناء يكون منهما معا؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصالـه عنها أضيف إليها، ولذلك تبعها في الرق والحرية وصار مثلـها في المالية. قال ابن العربي: سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة لـه ولا مالية فيه ولا منفعة، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها. كما لو أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لـها.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ وحفدة ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال: وسألته عن قولـه تعالى: "بنين وحفدة" قال: الحفدة الخدم والأعوان في رأيي. وروي عن ابن عباس في قولـه تعالى: "وحفدة" قال هم الأعوان، من أعانك فقد حفدك. قيل لـه: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم وتقوله! أو ما سمعت قول الشاعر:

حفد الولائد حولـهن وأسلمت   بأكفهـن أزمـة الأجمـال

أي أسرعن الخدمة. والولائد: الخدم، الواحدة وليدة؛ قال الأعشى:

كلفـت مجهولـها نوقا يمانيـة   إذا الحداة على أكسائها حفدوا.

أي أسرعوا. وقال ابن عرفة: الحفدة عند العرب الأعوان، فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد، قال: ومنه قولـهم "إليك نسعى ونحفد"، والحفدان السرعة. قال أبو عبيد: الحفد العمل والخدمة. وقال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، وقالـه مجاهد. وقال الأزهري: قيل الحفدة أولاد الأولاد. وروي عن ابن عباس. وقيل: الأختان؛ قالـه ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحاك وسعيد ابن جبير وإبراهيم؛ ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لـهـا حفـد ممـا يعـد كـثير
ولكـنها نفـس علـي أبـية عيوف لإصـهار اللئام قـذور

وروى زر عن عبد الله قال: الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب. قال الأصمعي: الختن من كان من قبل المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهار منها جميعا. يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر. وقول عبد الله هم الأختان، يحتمل المعنيين جميعا. يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمة: الحفدة من نفع الرجال من ولده؛ وأصله من حفد يحفد ـ بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل ـ إذا أسرع في سيره؛ كما قال كثير:

حفد الولائد بينهن . . . البيت

ويقال: حفدت وأحفدت، لغتان إذا خدمت. ويقال: حافد وحفد؛ مثل خادم وخدم، وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة. قال المهدوي: ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعا مما قبله ينوي به التقديم؛ كأنه قال: جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين.

قلت: ما قاله الأزهري من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه؛ ألا ترى أنه قال: "وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة" فجعل الحفدة والبنين منهن. وقال ابن العربي: الأظهر عندي في قوله "بنين وحفدة" أن البنين أولاد الرجل لصلبه والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة. وقال معناه الحسن.

الثالثة : إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربي. روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي ﷺ لعرسه فكانت امرأته خادمهم. . . الحديث، وقد تقدم في سورة "هود"، وفي الصحيح عن عائشة قالت: أنا فتلت قلائد بدن النبي ﷺ بيدي. الحديث. ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدر وتقم الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى: ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (الأعراف: ١٨٩) فكأنه جمع لنا فيها السكن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جري العادة.

الرابعة : ويخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها، لما روته عائشة أن النبي ﷺ كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج. وهذا قول مالك: ويعينها. وفي أخلاق النبي ﷺ أنه كان يخصف النعل ويقم البيت ويخيط الثوب. وقالت عائشة وقد قيل لها: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: كان بشرا من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه.

الخامسة : وينفق على خادمة واحدة، وقيل على أكثر؛ على قدر الثروة والمنزلة. وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن

في استعذاب الماء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه.

قوله تعالى: ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من الثمار والحبوب والحيوان. ﴿ أفبالباطل ﴾ يعني الأصنام؛ قاله ابن عباس. ﴿ يؤمنون ﴾ قراءة الجمهور بالياء. وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء. ﴿ وبنعمة الله ﴾ أي بالإسلام. ﴿ هم يكفرون ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات ﴾ يعني المطر. ﴿والأرض﴾ يعني النبات. ﴿ شيئا ﴾ قال الأخفش: هو بدل من الرزق. وقال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه؛ أي يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئا. ﴿ ولا يستطيعون ﴾ أي لا يقدرون على شيء، يعني الأصنام. ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تشبهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ نبه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم. "ضرب الله مثلا" أي بين شبها؛ ثم ذكر ذلك فقال: ﴿ عبدا مملوكا ﴾ أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخر بإرادة سيده. ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة؛ فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحدا، فإذا كانت بعد أمر أو نهي أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي؛ كقوله: أعتق رجلا ولا تهن رجلا، والمصدر كإعتاق رقبة، فأي رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء. وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى "ومن رزقناه منا رزقا حسنا" المؤمن. والأول عليه الجمهور

من أهل التأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه أسرا وأنضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن لـه فيه؛ فقال الله تعالى ضربا للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع.

الثانية : فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلـها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك. قال أهل العراق: الرق ينافي الملك، فلا يملك شيئا البتة بحال، وهو قول الشافعي في الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين. ومنهم من قال: يملك إلا أنه ناقص الملك، لأن لسيده أن ينتزعه منه أي وقت شاء، وهو قول مالك ومن اتبعه، وبه قال الشافعي في القديم. وهو قول أهل الظاهر؛ ولـهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادات الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك. وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملكه جارية جاز لـه أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر. والعراقي يقول: لا يجوز لـه أن يطأ الجارية، والزكاة في النصاب واجبة على السيد كما كانت. ودلائل هذه المسألة للفريقين في كتب الخلاف. وأدل دليل لنا قولـه تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ (الروم: ٤٠) فسوى بين العبد والحر في الرزق والخلق. وقال ﷺ: (من أعتق عبدا ولـه مال. . .) فأضاف المال إليه. وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى في مالـه فلا يعيب عليه ذلك. وروي عن ابن عباس أن عبدا لـه طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده. والله أعلم.

الثالثة : وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معولا على قولـه تعالى: ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ . قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدل دليل على خلافه. وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص. والله تعالى أعلم.

الرابعة : قال أبو منصور في عقيدته: الرزق ما وقع الاغتذاء به. وهذه الآية ترد هذا التخصيص؛ وكذلك قولـه تعالى: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (البقرة: ٣). و﴿ أنفقوا مما رزقناكم ﴾ (البقرة: ٢٥٤) وغير ذلك من قول النبي ﷺ: (جعل رزقي تحت ظل رمحي) وقولـه: (أرزاق أمتي في سنابك خيلـها وأسنة رماحها). فالغنيمة كلـها رزق، وكل ما صح به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب: أعلاها ما يغذي. وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قولـه: (يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت). وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك. وفي ألسنة المحدثين: السماع رزق، يعنون سماع الحديث، وهو صحيح.

الخامسة : قولـه تعالى: ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا ﴾ هو المؤمن، يطيع الله في نفسه ومالـه.

والكافر لما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا. ﴿ هل يستوون ﴾ أي لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان "من" لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. وقيل: إن "عبدا مملوكا"، "ومن رزقناه" أريد بهما الشيوع في الجنس. ﴿ الحمد لله ﴾ أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق. ﴿ بل أكثرهم﴾ أي أكثر المشركين ﴿ لا يعلمون ﴾ أن الحمد لي، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع، فهو خاص أريد به التعميم. وقيل: أي بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ﴾ هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قتادة وغيره. وقال ابن عباس: الأبكم عبد كان لعثمان ﷺ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، ويأمر بالعدل عثمان. وعنه أيضا أنه مثل لأبي بكر الصديق ومولى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي، وعنس "بالنون" حي من مذحج، وكان حليفا لبني مخزوم رهط أبي جهل، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل، وقال لها ذات يوم: إنما آمنت بمحمد لأنك تحبينه لجماله، ثم طعنها بالرمح في قبلها فماتت، فهي أول شهيد مات في الإسلام، رحمها الله. من كتاب النقاش وغيره. وسيأتي هذا في آية الإكراه مبينا إن شاء الله تعالى. وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف، كان لا ينطق بخير. ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ أي قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذي عثمان بن مظعون. وقال مقاتل: نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث، كان كافرا قليل الخير يعادي النبي ﷺ. وقيل: إن الأبكم الكافر، والذي يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة؛ روي عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم. والأبكم الذي لا نطق له. وقيل: الذي لا يعقل. وقيل: الذي لا يسمع ولا يبصر. وفي التفسير إن الأبكم ها هنا الوثن. بين أنه لا قدرة له ولا أمر، وأن غيره ينقله وينحته فهو كل عليه. والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء. وقيل: المعنى "وهو كل على مولاه" أي ثقل على وليه وقرابته، ووبال على صاحبه وابن عمه. وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله؛ ومنه قول الشاعر:

أكول لمال الكل قبل شبابه   إذا كان عظم الكل غير شديد

والكل أيضا الذي لا ولد له ولا والد. والكل العيال، والجمع الكلول، يقال منه: كل السكين يكل

كلا أي غلظت شفرته فلم يقطع. ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ قرأ الجمهور "يوجهه" وهو خط المصحف؛ أي أينما يرسلـه صاحبه لا يأت بخير، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال لـه ولا يفهم عنه. وقرأ يحيى بن وثاب "أينما يوجه" على الفعل المجهول. وروي عن ابن مسعود أيضا "توجه" على الخطاب. ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ تقدم معناه. وهذا متصل بقولـه ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (النحل: ٧٤) أي شرع التحليل والتحريم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلم تتحكمون. ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ وتجازون فيها بأعمالكم. والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة؛ سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة. واللمح النظر بسرعة؛ يقال لمحه لمحا ولمحانا. ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أي يقول للشيء كن فيكون. وقيل: إنما مثل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هي عليه من البعد من الأرض. وقيل: هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل: ما السنة إلا لحظة، وشبهه. وقيل: المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليلـه قولـه: ﴿ إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبًا ﴾ (المعارج: ٦ ـ ٧). ﴿ أو هو أقرب ﴾ ليس "أو" للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل. وقيل: دخلت لشك المخاطب. وقيل: "أو" بمنزلة بل. ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها: لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم. الثاني: لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء. الثالث: لا تعلمون شيئا من منافعكم؛ وتم الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي التي تعلمون بها وتدركون؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعدما أخرجهم؛ أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته. والأفئدة: جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة. وقد قيل في

ضمن قولـه "وجعل لكم السمع" إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق. وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة "إمهاتكم" هنا وفي النور والزمر والنجم، بكسر الـهمزة والميم. وأما الكسائي فكسر الـهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع. الباقون بضم الـهمزة وفتح الميم على الأصل. وأصل الأمهات: أمات، فزيدت الـهاء تأكيدا كما زادوا هاء في أهرقت الماء وأصلـه أرقت. وقد تقدم هذا المعنى في "الفاتحة". ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمه. الثاني: يعني تبصرون آثار صنعته؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب "تروا" بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿ مسخرات ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قالـه الكلبي. وقيل: "مسخرات" مذللات لمنافعكم. ﴿ في جو السماء ﴾ الجو ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قولـه "مسخرات" دليل على مسخر سخرها ومدبر مكنها من التصرف. ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بين لـهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات. "لقوم يؤمنون" بالله وبما جاءت به رسلـهم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ جعل لكم ﴾ معناه صير. وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقولـه: ﴿ سكنا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حالـه بين الحالتين، ورده كيف وأين. والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع.

قولـه تعالى: ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها ﴾ ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة وهي:

الثانية : فقال ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها ﴾ أي من الأنطاع والأدم. "بيوتا" يعني الخيام والقباب يخف عليكم حملها في الأسفار. ﴿ يوم ظعنكم ﴾ الظعن : سير البادية في الانتجاع والتحول من موضع إلى موضع؛ ومنه قول عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا؛ قال:

ألا هل هاجك الأظعان إذ بانوا   وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر. وقيل: يحتمل أن يعم بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سلام. وهو احتمال حسن، ويكون قوله: "ومن أصوافها" ابتداء كلام، كأنه قال جعل أثاثا؛ يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا   بذي الزي الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله: "من جلود الأنعام" بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولا. ويكون قوله: "ومن أصوافها" عطفا على قوله: "من جلود الأنعام" أي جعل بيوتا أيضا. قال ابن العربي: وهذا أمر انتشر في تلك الديار، وعزبت عنه بلادنا، فلا تضرب الأخبية عندنا إلا من الكتان والصوف، وقد كان للنبي ﷺ قبة من أدم، وناهيك من أدم الطائف غلاء في القيمة، واعتلاء في الصنعة، وحسنا في البشرة، ولم يعد ذلك ﷺ ترفا ولا رآه سرفا؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان. ومن غريب ما جرى أني زرت بعض المتزهدين من الغافلين مع بعض المحدثين، فدخلنا عليه في خباء كتان فعرض عليه صاحبي المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفا، وقال: إن هذا موضع يكثر فيه الحر والبيت أرفق بك وأطيب لنفسي فيك؛ فقال: هذا الخباء لنا كثير، وكان في صنعنا من الحقير؛ فقلت: ليس كما زعمت فقد كان لرسول الله ﷺ وهو رئيس الزهاد قبة من أدم طائفي يسافر معها ويستظل بها؛ فبهت، ورأيته على منزلة من العي فتركته مع صاحبي وخرجت عنه.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (النور: ٤٣)؛ فخاطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي ﷺ معا في التطهير فقال: (اللهم اغسلني بماء وثلج وبرد). قال ابن عباس: الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قط. وقيل: إن ترك ذكر القطن والكتان إنما كان

إعراضا عن الترف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف. وهذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم ﴾ (الأعراف: ٢٦) حسبما تقدم بيانه في "الأعراف" وقال هنا: "وجعل لكم سرابيل" فأشار إلى القطن والكتان في لفظة "سرابيل" والله أعلم. و﴿ أثاثا ﴾ قال الخليل: متاعا منضما بعضه إلى بعض؛ من أث إذا كثر. قال:

وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل

ابن عباس: "أثاثا" ثيابا وقد تقدم.

وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون علق به وسخ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: (لا بأس بجلد الميتة إذا دبغ وصوفها وشعرها إذا غسل)[1] لأنه مما لا يحله الموت، سواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله؛ وبه قال أبو حنيفة، ولكنه زاد علينا فقال: القرن والسن والعظم مثل الشعر؛ قال: لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان. وقال الحسن البصري والليث بن سعد والأوزاعي: إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل. وعن الشافعي ثلاث روايات: الأولى: طاهرة لا تنجس بالموت. الثانية: تنجس. الثالثة: الفرق بين شعر ابن آدم وغيره، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس. ودليلنا عموم قوله تعالى: ﴿ ومن أصوافها ﴾ الآية. فمن علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها، ولم يخص شعر الميتة من المذكاة، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل. وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل. فإن قيل قوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ (المائدة: ٣) وذلك عبارة عن الجملة. قلنا: نخصه بما ذكرنا؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف، وليس في آيتكم ذكره صريحا، فكان دليلنا أولى. والله أعلم. وقد عول الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خلقة، فهو ينمى بنمائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء. وأجيب بأن النماء ليس بدليل على الحياة؛ لأنَ النبات ينمى وليس بحي. وإذا عولوا على النماء المتصل لما على الحيوان عولنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة. وأما ما ذكره الحنفيون في العظم والسن والقرن أنه مثل الشعر، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم. وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة. ولنا قول ثالث: هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر، قولان. وكذلك الشعري من الريش حكمه حكم الشعر، والعظمي منه حكمه حكمه. ودليلنا قوله ﷺ: (لا تنتفعوا من الميتة بشيء)[2] وهذا عام فيها وفي كل جزء منها، إلا ما قام دليله؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ (يس: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ (البقرة: ٢٥٩)، وقال:

---

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٤٧)، وفي سنده يوسف بن السفر أبو الفيض الدمشقي، قال الدارقطني: متروك يكذب.

(٢) ضعيف. وراجع الضعيفة (١١٨).

﴿ فكسونا العظام لحما ﴾ (المؤمنون: ١٤)، وقال: ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ (النازعات: ١١) فالأصل هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عكيم: (لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب)[1]. فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال في شاة ميمونة: (ألا انتفعتم بجلدها)؟ فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتة. فقال: (إنما حرم أكلها) والعظم لا يؤكل. قلنا: العظم يؤكل، وخاصة عظم الجمل الرضيع والجدي والطير، وعظم الكبير يشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبل يدل على وجود الحياة فيه، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذكاة ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿من جلود الأنعام﴾ عام في جلد الحي والميت، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ؛ وبه قال ابن شهاب الزهري والليث بن سعد. قال الطحاوي: لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث. قال أبو عمر: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهور أهل العلم. وقد روي عنهما خلاف هذا القول، والأول أشهر.

قلت: قد ذكر الدارقطني في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهري، وحديث بقية عن الزبيدي، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المنقري عن سليمان بن كثير عن الزهري، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادسة[2]: اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خويز منداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا. قال ابن خويز منداد: وهو قول الزهري والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يصلى عليه ولا يؤكل فيه. وفي المدونة لابن القاسم: من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليه قيمته. وحكى أن ذلك قول مالك. وذكر أبو الفرج أن مالكا قال: من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه. قال إسماعيل: إلا أن يكون لمجوسي. وروى ابن وهب، وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه، فالدباغ أولى. قال أبو عمر: وكل جلد ذكي فجائز استعماله للوضوء وغيره. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله، ومرة قال: إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه، وتكره الصلاة عليه وبيعه، وتابعه على ذلك جماعة من أصحابه. وأما أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رسول الله ﷺ: (أيما إهاب دبغ فقد طهر). وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيار ابن وهب.

---

(١) صحيح وراجع الإرواء (٣٨).

(٢) سقطت المسألة الخامسة من النسخ المطبوعة أو لعله خطأ في عد هذه المسائل.

السابعة : ذهب الإمام أحمد بن حنبل ﵁ إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبغت؛ لأنها كلحم الميتة. والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ ترد قوله. واحتج بحديث عبد الله بن عكيم ـ رواه أبو داود ـ قال: قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة وأنا غلام شاب: (ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب). وفي رواية: قبل موته بشهر. رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم، قال: حدثنا مشيخة لنا أن النبي ﷺ كتب إليهم. . قال داود بن علي: سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث، فضعفه وقال: ليس بشيء، إنما يقول حدثني الأشياخ، قال أبو عمر: ولو كان ثابتا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المحبق وغيرهم، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم (ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب) قبل الدباغ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنا أن نجعله مخالفا، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي ﷺ بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه (أيما إهاب دبغ فقد طهر) قبل موته بجمعة أو دون جمعة، والله أعلم.

الثامنة : المشهور عندنا أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي. وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. وروى معن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه. قال ابن وضاح: وسمعت سحنونا يقول لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن علي وأصحابه؛ لقوله ﷺ: (أيما مسك دبغ فقد طهر). قال أبو عمر: يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها، فأما الخنزير فلم يدخل في المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذكاة. ودليل آخر وهو ما قاله النضر بن شميل: إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنما يقال له: جلد لا إهاب.

قلت: وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال ﷺ: (أكل كل ذي ناب من السباع حرام) فليست الذكاة فيها ذكاة، كما أنها ليست في الخنزير ذكاة. وروى النسائي عن المقدام بن معد يكرب قال: (نهى رسول الله ﷺ عن الحرير والذهب ومياثر النمور).

التاسعة : اختلف الفقهاء في الدباغ التي تطهر به جلود الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه: كل شيء دبغ الجلد من ملح أو قرظ أو شب أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به. وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود. وللشافعي في هذه المسألة قولان: أحدهما: هذا، والآخر أنه لا يطهر إلا الشب والقرظ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهد النبي ﷺ، وعليه خرج الخطابي ـ والله أعلم ـ ما رواه النسائي عن ميمونة زوج النبي ﷺ أنه مر برسول الله ﷺ رجال من قريش يجرون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: (لو أخذتم إهابها) قالوا: إنها ميتة، فقال رسول الله ﷺ: (يطهرها الماء والقرظ).

العاشرة : قوله تعالى: ﴿أثاثا﴾ الأثاث متاع البيت، واحدها أثاثة؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري. وقال الأموي: الأثاث متاع البيت، وجمعه آثة وأثث. وقال غيرهما: الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد

له من لفظه. وقال الخليل: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر؛ ومنه شعر أثيث أي كثير. وأث شعر فلان يأث أثا إذا كثر والتف؛ قال امرؤ القيس:

وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وقيل: الأثاث ما يلبس ويفترش. وقد تأثثت إذا اتخذت أثاثا. وعن ابن عباس رضي الله عنه "أثاثا" مالا. وقد تقدم القول في الحين؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان، إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث. ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا   بذي الزي الجميل من الأثاث

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ﴾ الظلال: كل ما يستظل به من البيوت والشجر. وقوله "مما خلق" يعم جميع الأشخاص المظلة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أكنانا ﴾ الأكنان: جمع كن، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك؛ وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها. وفي الصحيح أنه ﷺ كان في أول أمره يتعبد بغار حراء ويمكث فيه الليالي.. الحديث، وفي صحيح البخاري قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل، وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث... وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ يعني القمص، واحدها سربال. ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب؛ ومنه قول كعب بن زهير:

شم العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل

الرابعة: إن قال قائل: كيف قال "وجعل لكم من الجبال أكنانا" ولم يذكر السهل وقال "تقيكم الحر والبرد"، فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد، فذكر لهم نعمه التى تختص بهم كما خصهم بذكر الصوف وغيره، ولم يذكر القطن والكتان ولا الثلج - كما تقدم - فإنه لم يكن ببلادهم؛ قال معناه عطاء الخراساني وغيره.

وأيضا: فذكر أحدهما يدل على الآخر؛ ومنه قول الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

الخامسة: قال العلماء: في قوله تعالى: ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسها النبي ﷺ تقاة الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعد ما يشاء.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ قرأ ابن محيصن وحميد "تتم" بتاءين، "نعمته" رفعا على أنها الفاعل. الباقون "يتم" بضم الياء على أن الله هو يتمها. و"تسلمون" قراءة ابن عباس وعكرمة "تسلمون" بفتح التاء واللام، أي تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عباد بن العوام عن حنظلة عن شهر عن ابن عباس. الباقون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمه. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا.

قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يعرفون نعمة الله ﴾ قال السدي: يعني محمدا ﷺ، أي يعرفون نبوته ﴿ ثم ينكرونها ﴾ ويكذبونه. وقال مجاهد: يريد ما عدد الله عليهم في هذه السورة من النعم؛ أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم. وبمثله قال قتادة. وقال عون بن عبد الله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله. وقال الكلبي: هو أن رسول الله ﷺ لما عرفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا: نعم، هي كلها نعم من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقيل: يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها. ويحتمل سادسا: يعرفونها في الشدة وينكرونها في الرخاء. ويحتمل سابعا: يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم. ويحتمل ثامنا: يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ (النمل: ١٤) ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ يعني جميعهم؛ حسبما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ﴾ نظيره: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ (النساء: ٤١) وقد تقدم. ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار والكلام؛ كقوله: ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات: ٣٦). وذلك حين تطبق عليهم جهنم، كما تقدم في أول "الحجر" ويأتي.

قوله تعالى: ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ يعني يسترضون، أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون. وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة؛ يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه قيل عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب، والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب؛ قاله الهروي. وقال النابغة:

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته وإن كنت ذا عتبى فمثلك يُعْتب

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي أشركوا. ﴿ العذاب ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها. ﴿ فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار. وفي صحيح مسلم: (من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...) الحديث، خرجه من حديث أنس، والترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه: (فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون...) وذكر الحديث. ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ أي الذين جعلناهم لك شركاء. ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي ألقت إليهم الآلهة القول، أي نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنام حتى تظهر

عند ذلك فضيحة الكفار. وقيل: المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم. ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ يعني المشركين، أي استسلموا لعذابه وخضعوا لعزه. وقيل: استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم. ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي زال عنهم ما زين لـهم الشيطان وما كانوا يؤملون من شفاعة آلـهتهم.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ قال ابن مسعود: عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعي كأنها البخاتي تضربهم، فتلك الزيادة وقيل: المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار. وقيل: المعنى زدنا القادة عذابا فوق السفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدهم. ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ﴾ وهم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعوهم إلى الإيمان، وفي كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا؛ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أئمة الـهدى الذين هم خلفاء الأنبياء. الثاني: أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه.

قلت: فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله؛ كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه النبي ﷺ: (يبعث أمة وحده)، وسَطيح، وورقة بن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ: (رأيته ينغمس في أنهار الجنة). فهؤلاء ومن كان مثلـهم حجة على أهل زمانهم وشهيد عليهم. والله أعلم. وقولـه: ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ تقدم في "البقرة و"النساء".

قولـه تعالى: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ نظيره: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقد تقدم. فلينظر هناك وقال مجاهد: تبيانا للحلال والحرام.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ روي عن عثمان بن مظعون أنه قال: لما

نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب ﷺ فتعجب فقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسلـه ليأمركم بمكارم الأخلاق. وفي حديث ـ إن أبا طالب لما قيل لـه: إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" الآية، قال: اتبعوا ابن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق. وقال عكرمة: قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" إلى آخرها، فقال: يا ابن أخي أعد، فأعاد عليه فقال: والله إن لـه لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصلـه لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر، وذكر الغزنوي أن عثمان بن مظعون هو القارئ. قال عثمان: ما أسلمت ابتداء إلا حياء من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعد فأعدت فقال: والله إن لـه لحلاوة... وذكر تمام الخبر. وقال ابن مسعود: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب. وحكى النقاش قال: يقال زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه.

الثانية : اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان؛ فقال ابن عباس: العدل لا إلـه إلا الله، والإحسان أداء الفرائض. وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة. وقال سفيان بن عيينة: العدل ههنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. علي بن أبي طالب: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل. قال ابن عطية: العدل هو كل مفروض، من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كلـه مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان. وأما قول ابن عباس ففيه نظر؛ لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل بقولـه: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة. وقال ابن العربي: العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر. وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الـهوى﴾ (النازعات: ٤٠) وعزوب الأطماع عن الأتباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى. وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لـهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى.

قلت: هذا التفصيل في العدل حسن وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يحسن إحسانا. ويقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك: أحسنت كذا، أي حسنته وكملته، وهو منقول بالـهمزة من حسن الشيء. وثانيهما متعد بحرف جر؛ كقولك: أحسنت إلى

فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معا؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سجنك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك؛ وهو تعالى غني عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن. وهو في حديث جبريل بالمعنى الأول لا بالثاني؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها واستحضار عظمته وجلالـه حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقولـه (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقولـه: (وجعلت قرة عيني في الصلاة). وثانيهما: لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد لـه، وإليه الإشارة بقولـه تعالـى: ﴿ الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين ﴾ (الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩) وقولـه: ﴿ إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ﴾ (يونس: ٦١).

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي القرابة؛ يقول: يعطيهم المال كما قال ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ (الإسراء: ٢٦) يعني صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدل الشافعي في إيجاب إيتاء المكاتب، على ما يأتي بيانه. وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: (أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك). ولا سيما إذا كانوا فقراء.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل: هو الشرك. والبغي: هو الكبر والظلم والحقد والتعدي؛ وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره. وفي الحديث عن النبي ﷺ : (لا ذنب أسرع عقوبة من بغي)[1]. وقال ﷺ: (الباغي مصروع)[2]. وقد وعد الله من بُغي عليه بالنصر. وفي بعض الكتب المنزلةّ: لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكا..

الخامسة : ترجم الإمام أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال: (باب قول الله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ وقولـه: ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ (يونس: ٢٣)، "ثم بغي عليه لينصرنه الله"، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سحر لبيد بن الأعصم النبي ﷺ. قال ابن بطال: فتأول ﷺ من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دل عليه حديث عائشة حيث قال ﷺ (أما الله فقد شفاني وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا). ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ

---

(١) "ضعيف جداً" أخرجه ابن ماجه (٤٢١٢) بلفظ مغاير وفيه: "... وأسرع الشر عقوبة البغي..". وانظر ضعيف ابن ماجه (٩٢٣).

(٢) حاله كسابقه.

أنه تأول في قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الندب بالإحسان إلى المسيء وترك معاقبته على إساءته. فإن قيل: كيف يصح هذا التأويل في آيات البغي. قيل: وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما أعلم الله عباده بأن ضرر البغي ينصرف على الباغي بقوله: "إنما بغيكم على أنفسكم" وضمن تعالى نصرة من بغي عليه، كان الأولى بمن بغي عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغى عليه؛ وكذلك فعل النبي ﷺ باليهودي الذي سحره، وقد كان له الانتقام منه بقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ (النحل: ١٢٦). ولكن آثر الصفح أخذا بقوله: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (الشورى: ٤٣).

السادسة: تضمنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد تقدم القول فيهما. روي أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجها العامل وغلبها؛ بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره في شيء؛ فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن. قال: فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة. وهذه الآية مضمن قوله "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" لأن المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير. وقد قيل: إنها نزلت في بيعة النبي ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت في التزام الحلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد. والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه. روى الصحيح عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة) يعني في نصرة الحق والقيام به والمواساة. وهذا كنحو حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق قال: اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، أي حلف الفضائل. والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس.
روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال: قال رسول الله ﷺ: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم لو أدعى به في الإسلام لأجبت)[(١)]. وقال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن علي في مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علي: احلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول. قال عبدالله بن الزبير: وأنا أحلف والله لئن دعانا لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى

---

(١) ضعيف لإرساله.

يتصف من حقه أو نموت جميعا. وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك. وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه. قال العلماء: فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شده الإسلام وخصه النبي ﷺ من عموم قولـه: (لا حلف في الإسلام). والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصالـه إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلفين، وجعل لـهم السبيل على الظالمين فقال تعالى: ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لـهم عذاب أليم ﴾ (الشورى: ٤٢). وفي الصحيح: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: (تأخذ على يديه: في رواية: تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره). وقد تقدم قولـه ﷺ: (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)[1].

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها؛ يقال: توكيد وتأكيد، ووكد وأكد، وهما لغتان.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ يعني شهيدا. ويقال: حافظاً، ويقال: ضامنا. وإنما قال: "بعد توكيدها" فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مراراً، يردد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك؛ كقولـه: والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين. وقال يحيى بن سعيد: هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر. قال النبي ﷺ: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان)[2]. وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدم في "المائدة".

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلـها من بعد قوة أنكاثا ﴾ النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث. فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلـها وتفتلـه محكما ثم تحلـه. ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعـد بن تيـم بن مرة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه

---

(١) صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٧١١١)، ومسلم (١٧٣٨).

عبد الله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة، وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضرب مثل، لا على امرأة معينة. و"أنكاثا" نصب على الحال. والدخل: الدغل والخديعة والغش. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل. ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها، غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى ـ قاله مجاهد ـ فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين. والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان.
﴿ أربى ﴾ أي أكثر؛ من ربا الشيء يربو إذا كثر. والضمير في (به) يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد، وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله: ﴿ إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ من البعث وغيره.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ أي على ملة واحدة. ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ بخذلانه إياهم؛ عدلا منه فيهم. ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ بتوفيقه إياهم؛ فضلا منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم. والآية ترد على أهل القدر كما تقدم. واللام في "وليبينن، ولتسئلن" مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أي والله ليبينن لكم ولتسئلن.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ كرر ذلك تأكيدا. ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس؛ أي لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر؛ ومن هذا المعنى قول كثير:

فلما توافينا ثبت وزلت

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زلت قدمه؛ كقول الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقا ... وتقتل إن زلت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء: زل فيه. ثم توعد تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج من الإيمان، ولهذا قال: ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾ أي بصدكم. وذوق السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ نهى عن الرُشا وأخذ الأموال على نقض العهد؛ أي لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلا وإن كثر؛ لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله: ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وثبت على العقد. ولقد أحسن من قال:

المال ينفد حله وحرامه ... يوما وتبقى في غد آثامه

ليس التقي بمتق لإلهه ... حتى يطيب شرابه وطعامه

آخر:

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

قوله تعالى: ﴿ ولنجزين الذين صبروا ﴾ أي على الإسلام والطاعات وعن المعاصي. ﴿ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله. وقرأ عاصم وابن كثير "ولنجزين" بالنون على التعظيم. الباقون بالياء. وقيل: إن هذه الآية "ولا تشتروا. . ." إلى هنا نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أسوع، اختصما في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقر له بحقه؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ شرط وجوابه.

وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال: الأول: أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك. الثاني: القناعة؛ قالـه الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علي بن أبي طالب ﷺ. الثالث: توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك. وقال أيضا: من عمل صالحا وهو مؤمن في فاقة وميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضنك لا خير فيها. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هي الجنة، وقالـه الحسن، وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة. وقيل: هي السعادة، روي عن ابن عباس أيضا. وقال أبو بكر الوراق: هي حلاوة الطاعة. وقال سهل بن عبد الله التستري: هي أن ينزع عن العبد تدبيره ويرد تدبيره إلى الحق. وقال جعفر الصادق: هي المعرفة بالله، وصدق المقام بين يدي الله. وقيل: الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق. وقيل: الرضا بالقضاء. ﴿ ولنجزينهم أجرهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾. وقال (فلنحيينه) ثم قال (ولنجزينهم) لأن (من) يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى، وقد تقدم. وقال أبو صالح: جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ **فيه مسألة واحدة:**

وهي أن هذه الآية متصلة بقولـه: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل: ٨٩) فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن تدبره والعمل بما فيه؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك: إذا أكلت فقل باسم الله؛ أي إذا أردت أن تأكل. وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين افتتح الصلاة قال (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه)[(١)]. وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة. قال الكيا الطبري: ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقولـه تعالى: "فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعـد القراءة؛ كقولـه تعالى: ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا ﴾ (النساء: ١٠٣). إلا أن غيره محتمل، مثل قولـه تعالى: ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ (الأنعام: ١٥٢) ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ (الأحزاب: ٥٣) وليس المراد به أن يسألـها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم. ومثلـه قول القائل: إذا قلت فاصدق، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعني قبل

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وانظر ضعيف ابن ماجه (١٧٣).

الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة. وقد تقدم هذا المعنى وتقدم القول في الاستعاذة مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ أي بالإغواء والكفر، أي ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يغفر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد: لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصي. وقيل: إنه ليس عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عليهم حين قال عدو الله إبليس لعنه الله ﴿ ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (الحجر: ٣٩ ـ ٤٠) قال الله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (الحجر: ٤٢).

قلت: قد بينا أن هذا عام يدخله التخصيص، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك؟ حسبما تقدم في "الأعراف". ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ أي يطيعونه. يقال: توليته أي أطعته، وتوليت عنه، أي أعرضت عنه. ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ أي بالله؛ قاله مجاهد والضحاك. وقيل: يرجع "به" إلى الشيطان؛ قاله الربيع بن أنس والقتبي. والمعنى: والذين هم من أجله مشركون. يقال: كفرت بهذه الكلمة، أي من أجلها. وصار فلان بك عالما، أي من أجلك. أي والذي تولى الشيطان مشركون بالله.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ﴾ قيل: المعنى بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة؛ قاله ابن بحر. مجاهد: أي رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها. وقال الجمهور: نسخنا آية بآية أشد منها عليهم. والنسخ والتبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. وقد تقدم الكلام في النسخ في "البقرة" مستوفى. ﴿ قالوا ﴾ يريد كفار قريش. ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ أي كاذب مختلق، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم. فقال الله: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ لا يعلمون أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض. وقوله: ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ يعني جبريل، نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه. وروي بإسناد صحيح عن عامر الشعبي قال: وكل إسرافيل بمحمد ﷺ ثلاث سنين، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن. وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة "الحمد" ملك لم ينزل إلى الأرض قط. كما تقدم في الفاتحة بيانه. ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي من كلام ربك. ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ أي بما فيه من الحجج والآيات. ﴿ وهدى ﴾ أي وهو هدى ﴿ وبشرى

للمسلمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه؛ فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبي ﷺ ما مضى وما هو آت مع أنه أمي لم يقرأ قالوا: إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى: ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ أي كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها. وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول لـه: أنت تعلم محمدا، فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني. وقال ابن إسحاق: كان النبي ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيرا ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال لـه جبر، عبد بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب، فقال المشركون: والله ما يعلم محمدا ما يأتي به إلا جبر النصراني. وقال عكرمة: اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي، كان رسول الله ﷺ يلقنه القرآن؛ ذكره الماوردي. وذكر الثعلبي عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش: إنما يعلمه بشر، فنزلت. المهدوي عن عكرمة: هو غلام لبني عامر بن لؤي، واسمه يعيش. وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر. كذا ذكر الماوردي والقشيري والثعلبي؛ إلا أن الثعلبي قال: يقال لأحدهما نبت ويكنى أبا فكيهة، والآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف؛ وكانا يقرآن كتابا لـهم. الثعلبي: يقرآن التوراة والإنجيل. الماوردي والمهدوي: التوراة. فكان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم. وقيل: عنوا سلمان الفارسي ﷺ؛ قالـه الضحاك. وقيل: نصرانيا بمكة اسمه بلعام، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قالـه ابن عباس وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ حيث يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام. وقال القتبي: كان بمكة رجل نصراني يقال لـه أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله ﷺ، فقال الكفار: إنما يتعلم محمد منه، فنزلت. وفي رواية أنه عداس غلام عتبة بن ربيعة. وقيل: عابس غلام حويطب بن عبد العزى ويسار أبو فكيهة مولى ابن الحضرمي، وكانا قد أسلما. والله أعلم

قلت: والكل محتمل؛ فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة. وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يجوز أن يكونوا أومئوا إلى هؤلاء جميعا، وزعموا أنهم يعلمونه.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بعد؛ لأن سلمان إنما أتى النبي ﷺ بالمدينة، وهذه الآية مكية.

قولـه تعالى: ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال: لحد وألحد، أي مال عن القصد. وقد تقدم في "الأعراف". وقرأ حمزة "يلحدون" بفتح الياء والحاء؛ أي لسان الذي يميلون إليه ويشيرون أعجمي. والعجمة: الإخفاء وضد البيان. ورجل أعجم وامرأة عجماء، أي لا يفصح؛ ومنه عجم الذنب لاستتاره. والعجماء: البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها. وأعجمت الكتاب أي أزلت عجمته. والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا. وقال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي أو العجمي الذي أصلـه من العجم. وقال أبو علي: الأعجمي الذي لا يفصح، سواء كان من العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا. وأراد باللسان القرآن؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت: لسان؛ قال الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا

يعني باللسان القصيدة. ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أي هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن. ﴿ لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ هذا جواب وصفهم النبي ﷺ بالافتراء. ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ هذا مبالغة في وصفهم بالكذب؛ أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم. ويقال: كذب فلان ولا يقال إنه كاذب؛ لأن الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما. فأما النعت فيكون لازما ولـهذا يقال: عصى آدم ربه فغوى، ولا يقال: إنه عاص غاو. فإذا قيل: كذب فلان فهو كاذب، كان مبالغة في الوصف بالكذب؛ قالـه القشيري.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ من كفر بالله ﴾ هذا متصل بقولـه تعالى: ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ (النحل: ٩١) فكـان مبالغة في الوصـف بالكذب؛ لأن معنـاه لا ترتدوا عن بيعة الرسول ﷺ. أي من كفر من بعد إيمانه وارتد فعليه غضب الله. قال الكلبي: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي

سرح ومقيس بن ضبابة[1] وعبد الله بن خطل، وقيس بن الوليد بن المغيرة، كفروا بعد إيمانهم ثم قال ﴿ إلا من أكره ﴾. وقال الزجاج: "من كفر بالله من بعد إيمانه" بدل ممن يفتري الكذب؛ أي إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله. وقال الأخفش: "من" ابتداء وخبره محذوف، اكتفي منه بخبر "من" الثانية؛ كقولك: من يأتنا من يحسن نكرمه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ إلا من أكره ﴾ هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، في قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه. قال ابن عباس: أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم، وربطت سمية بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (كيف تجد قلبك)؟ قال: مطمئن بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ: (فإن عادوا فعد). وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد قال: أول شهيدة في الإسلام أم عمار، قتلها أبو جهل، وأول شهيد من الرجال مهجع مولى عمر. وروى منصور أيضا عن مجاهد قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار. فأما رسول الله ﷺ فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدرع الحديد، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس، فلما كان من العشي أتاهم أبو جهل ومعه حربة، فجعل يسبهم ويوبخهم، وأتى سمية فجعل يسبها ويرفث، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها؛ رضي الله عنهما. قال: وقال الآخرون ما سئلوا؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله، فجعلوا يعذبونه ويقولون له: ارجع عن دينك، وهو يقول أحد أحد؛ حتى ملوه، ثم كتفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبي مكة حتى ملوه وتركوه، قال فقال عمار: كلنا تكلم بالذي قالوا ـ لولا أن الله تداركنا ـ غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، فهان على قومه حتى ملوه وتركوه. والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالا فأعتقه. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية. ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيل بن إسحاق. وروى الترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: (ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما)[1] هذا حديث حسن غريب. وروي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان بن ربيعة)[2]. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح.

الثالثة: لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم؛ وبه جاء الأثر

---

(١) في نسخة (مقيس بن صبابة).

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٥٦١٩).

(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي وغيره.

المشهور عن النبي ﷺ: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٣] الحديث. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء؛ قالـه القاضي أبو بكر بن العربي. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعة: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً. وهـذا قـول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى: "إلا من أكره" الآية. وقال: ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ (آل عمران: ٢٨) وقال: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ (النساء: ٩٧) الآية. وقال: ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ (النساء: ٩٨) الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قالـه البخاري.

الخامسة: ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل مالـه، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصري، ﷺ. وهو قول الأوزاعي وسحنون من علمائنا. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لـهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد وتكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (البقرة: ١١٥) في رواية: ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة. فإذا كان هذا مباحا في السفر في حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا. واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلما به. فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل في حكمه. وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان. روي ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

---

(٣) اشتهر هذا الحديث في كتب الفقه والأصول بهذا اللفظ، وهو منكر، وإنما ثبت بلفظ: "وضع عن أمتي... إلخ"، وانظر صحيح الجامع (٧١١٠)، وراجع الإرواء (٨٢).

السادسة : أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوزلـه الإقدام على قتلـه ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل لـه أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

واختلف في الزنى، فقال مطرف وأصبغ وابن عبد الحكم وابن الماجشون: لا يفعل أحد ذلك، وإن قتل لم يفعلـه، فإن فعلـه فهو آثم ويلزمه الحد؛ وبه قال أبو ثور والحسن. قال ابن العربي: الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حد عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خلقية لا يتصور الإكراه عليها، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذي أسقط حكمه، وإنما يجب الحد على شهوة بعث عليها سبب اختياري، فقاس الشيء على ضده، فلم يحل بصواب من عنده. وقال ابن خويز منداد في أحكامه: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم: عليه الحد؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حد عليه. قال ابن خويز منداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غير السلطان حد، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحد، ولكن استحسن ألا يحد. وخالفه صاحباه فقالا: لا حد عليه في الوجهين، ولم يراعوا الانتشار، وقالوا: متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر. قال ابن المنذر: لا حد عليه، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان.

السابعة : اختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه؛ فقال الشافعي وأصحابه: لا يلزمه شيء. وذكر ابن وهب عن عمر وعلي وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا. وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وأجازت طائفة طلاقه؛ روي ذلك عن الشعبي والنخعي وأبي قلابة والزهري وقتادة، وهو قول الكوفيين. قال أبو حنيفة: طلاق المكره يلزم؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالـهازل. وهذا قياس باطل؛ فإن الـهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به، والمكره غير راض ولا نية لـه في الطلاق، وقد قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات). وفي البخاري: وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق: ليس بشيء؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن. وقال الشعبي: إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق. وفسره ابن عيينة فقال: إن اللص يقدم على قتلـه والسلطان لا يقتله.

الثامنة : وأما بيع المكره والمضغوط فلـه حالتان. الأولى: أن يبيع ما لـه في حق وجب عليه؛ فذلك ماض سائغ لا رجوع فيه عند الفقهاء؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه. وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه. وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه. قال مطرف: ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وكلما أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو

تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره، ولـه أخذ متاعه. قال سحنون: أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز. وقال الأبهري: إنه إجماع.

التاسعة: وأما نكاح المكره؛ فقال سحنون: أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا: لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد. قال محمد بن سحنون: وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا: لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداق مثلـها ألف درهم، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل. قال محمد: فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه. وقولـهم خلاف السنة الثابتة في حديث خنساء بنت خذام الأنصارية، ولأمره ﷺ بالاستئمار في أبضاعهن، وقد تقدم، فلا معنى لقولـهم.

العاشرة: فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمى من الصداق ودرئ عنه الحد. وإن قال: وطئتها على غير رضا مني بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمى؛ لأنه مدع لإبطال الصداق المسمى، وتحد المرأة إن أقدمت وهي عالمة أنه مكره على النكاح. وأما المكرهة على النكاح وعلى الوطء فلا حد عليها ولـها الصداق، ويحد الواطئ؛ فاعلمه. قالـه سحنون.

الحادية عشرة: إذا استكرهـت المرأة على الزنـى فلا حـد عليها؛ لقولـه "إلا مـن أكره" وقولـه ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1]. ولقول الله تعالى: ﴿ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ (النور: ٣٣) يريد الفتيات. وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدها. والعلماء متفقون على أنه لا حد على امرأة مستكرهة. وقال مالك: إذا وجدت المرأة حاملا وليس لـها زوج فقالت استكرهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحد، إلا أن تكون لـها بيّنة أو جاءت تدمي على أنها أوتيت، أو ما أشبه ذلك. واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال: الرجم في كتاب الله حق على مَن زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف. قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول.

الثانية عشرة: واختلفوا في وجوب الصداق للمستكرهة؛ فقال عطاء والزهري: لـها صداق مثلـها؛ وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وقال الثوري: إذا أقيم الحد على الذي زنى بها بطل الصداق. وروي ذلك عن الشعبي، وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأي. قال ابن المنذر: القول الأول صحيح.

الثالثة عشرة: إذا أكره الإنسان على إسلام أهلـه لما لم يحل أسلمها، ولـم يقتل نفسه دونها ولا احتمل أذية في تخليصها. والأصل في ذلك ما خرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلي فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلط علي هذا الكافر فغط حتى ركض برجلـه). ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لما لم يكن عليها ملامة، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة، ولا حد فيما هو أكبر من الخلوة. والله أعلم.

---

(١) صحيح، وراجع الإرواء (٨٢).

الرابعة عشرة: وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء. قال ابن الماجشون: وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذ أكره على اليمين؛ وقاله أصبغ. وقال مطرف: إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرا، أو لا يفسق ولا يغش في عمله، أو الولد يحلف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلف من ذلك. وقال به ابن حبيب. وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين: إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث، قالوا: لأن المكره له أن يوري في يمينه كلها، فلما لم يور ولا ذهبت نيته إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين. احتج الأولون بأن قالوا: إذا أكره عليها فنيته مخالفة لقوله؛ لأنه كاره لما حلف عليه.

الخامسة عشرة: قال ابن العربي: ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا؛ وهذه مسألة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هذه المسألة ولا كانوا! وأي فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغتروا بهذه الروية فإنها وصمة في الدراية.

السادسة عشرة: إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء؛ فقال مالك: لا تقية له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله. وقال ابن الماجشون: لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم بقول مطرف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ.

قلت: قول ابن الماجشون صحيح؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي. وقال رسول الله ﷺ: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام) وقال: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). وروى أبو هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجلا[1] يريد أخذ مالي؟ قال: (فلا تعطه مالك). قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: (قاتله) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: (فأنت شهيد) قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: (هو في النار) خرجه مسلم. وقد مضى الكلام فيه. وقال مطرف وابن الماجشون: وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسألها ليذب بها عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه. وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ. وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله: فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث.

السابعة عشرة: قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض؛ فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب. ومتى لم يكن كذلك كان كافرا؛ لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها. مثاله ـ أن يقال له: أكفر بالله فيقول باللاهي؛ فيزيد الياء.

---

(1) في نسخة (رجل).

وكذلك إذا قيل لـه: أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبي، مشددا وهو المكان المرتفع من الأرض. ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه. فإن قيل لـه: أكفر بالنبيء (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر، أي مخبر كان كطليحة ومسيلمة الكذاب. أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رتما دقاق الحصى مكان النبيء من الكاثب

الثامنة عشرة: أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة. واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل لـه؛ فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشدة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابن حبيب وسحنون. وذكر ابن سحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فلـه أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خفنا أن يكون آثما لأنه كالمضطر. وروى خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة لـه في ظل الكعبة فقلت: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر لـه في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون). فوصفه ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لـهم والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم. وهذه حجة من آثر الضرب والقتل والـهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في سورة (الأخدود) (البروج) إن شاء الله تعالى. وذكر أبو بكر محمد بن محمد ابن الفرج البغدادي قال: حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من أصحاب النبي ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال نعم. فخلى عنه. وقال للآخر: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. قال: وتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصم لا أسمع؛ فقدمه وضرب عنقه. فجاء هذا إلى النبي ﷺ فقال: هلكت، قال: (وما أهلكك)؟ فذكر الحديث، قال: أما صاحبك فأخذ بالثقة وأما أنت فأخذت بالرخصة على ما أنت عليه الساعة قال: أشهد أنك رسول الله. قال (أنت على ما أنت عليه)[1]. الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدلـه على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن: إذا خاف عليه وعلى مالـه فليحلف ولا يكفر يمينه؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه. وقد تقدم ما للعلماء في هذا.

وذكر موسى بن معاوية أن أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتلـه أنه ما آواه، ولا يعلم لـه موضعا؛ قال: فحلف لـه ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئذ قد علم موضعه وآواه، فحلفه بالطلاق ثلاثا، فحلف لـه ابن أشرس، ثم قال لامرأته: اعتزلي فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال لـه

---

(١) ضعيف.

البهلول: قال مالك إنك حانث. فقال ابن أشرس: وأنا سمعت مالكا يقول ذلك، وإنما أردت الرخصة، أو كلام هذا معناه؛ فقال لـه البهلول بن راشد: قال الحسن البصري إنه لا حنث عليك. قال: فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن. وذكر عبد الملك بن حبيب قال: حدثني معبد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال: سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليقيه بيمينه؟ فقال نعم؛ ولأن أحلف سبعين يمينا وأحنث أحب إلي أن أدل على مسلم. وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال: فجلس رجل منهم في حلقة رجاء بن حيوة فسمع بعضهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه فقال: يا رجاء! أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغير! فقال: ما كان ذلك يا أمير المؤمنين؛ فقال لـه الوليد: قل الله الذي لا إلـه إلا هو، قال: الله الذي لا إلـه إلا هو، فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطا، فكان يلقى رجاء فيقول: يا رجاء، بك يستقى المطر، وسبعون سوطا في ظهري! فيقول رجاء: سبعون سوطا في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم.

التاسعة عشرة: واختلف العلماء في حد الإكراه؛ فروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته. وقال ابن مسعود: ما كلام يدرأ عني سوطين إلا كنت متكلما به. وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة، إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقية. وقال النخعي: القيد إكراه، والسجن إكراه. وهذا قول مالك، إلا أنه قال: والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي وإنفاذه لما يتوعد به، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره. وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه. وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يخاف منهما التلف. وجعلوهما إكراها في إقراره لفلان عندي ألف درهم. قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس. وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يحلف، ولا حنث عليه؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء.

الموفية عشرين: ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب. وروى الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه قال: لا بأس إذا بلغ الرجل عنك شيء أن تقول: والله، إن الله يعلم ما قلت فيك من ذلك من شيء. قال عبد الملك بن حبيب: معناه أن الله يعلم أن الذي قلت، وهو في ظاهره انتفاء من القول، ولا حنث على من قال ذلك في يمينه ولا كذب عليه في كلامه. وقال النخعي: كان لـهم كلام من ألغاز الأيمان يدرءون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث. قال عبد الملك: وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك في غير مكر ولا خديعة في حق. وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجاريته: قولي لـه هو والله في المسجد. وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البعث إذا

عرضوا على أميرهم أن يقول: والله ما أهتدي إلا ما سدد لي غيري، ولا أركب إلا ما حملني غيري؛ ونحو هذا من الكلام. قال عبد الملك: يعني بقولـه (غيري) الله تعالى، هو مسدده وهو يحملـه؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حنثا في يمينه، ولا كذبا في كلامه، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم وجحدان حق فمن اجترأ وفعل أثم في خديعته ولم تجب عليه كفارة في يمينه.

الحادية والعشرون: قولـه تعالى: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ أي وسعه لقبول الكفر، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية. و(صدرا) نصب على المفعول. ﴿فعليهم غضب من الله ولـهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩)﴾

قولـه تعالى: ﴿ذلك﴾ أي ذلك الغضب. ﴿بأنهم استحبوا الحياة الدنيا﴾ أي اختاروها على الآخرة. ﴿وأن الله﴾ "أن" في موضع خفض عطفا على "بأنهم". ﴿لا يهدي القوم الكافرين﴾ ثم وضعهم فقال: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي عن فهم المواعظ. ﴿وسمعهم﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿وأبصارهم﴾ عن النظر في الآيات. ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عما يراد بهم. ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾

قولـه تعالى: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا﴾ هذا كله في عمار. والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس. وقال قتادة: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم، وقد تقدم ذكرهم في هذه السورة. وقيل: نزلت في ابن أبي سرح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبي ﷺ بقتلـه يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبي ﷺ؛ ذكره النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ـ إلى قولـه ـ ولـهم عذاب عظيم" فنسخ، واستثنى من ذلك فقال: "ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم" وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزلـه الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح؛ فاستجار لـه عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﷺ. (﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ أي إن الله غفور رحيم في ذلك. أو ذكرهم)[1].

---

(١) سقطت من طبعة دار الريان.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أي تخاصم وتحاج عن نفسها؛ جاء في الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة: نفسي نفسي! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد ﷺ فإنه يسأل في أمته. وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا. فقال له كعب: يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارات لا يهمك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه، حتى إن إبراهيم الخليل ليدلي بالخلة فيقول: يا رب، أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك اليوم إلا نفسي! قال: يا كعب، أين تجد ذلك في كتاب الله؟ قال: قوله تعالى: ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾. وقال ابن عباس في هذه الآية: ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد؛ فتقول الروح: رب، الروح منك أنت خلقته، لم تكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد، فضعف عليه أنواع العذاب ونجني؛ فيقول الجسد: رب، أنت خلقتني بيدك فكنت كالخشبة، ليس لي يد أبطش بها، ولا قدم أسعى به، ولا بصر أبصر به، ولا سمع أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني، وبه أبصرت عيني، وبه مشت رجلي، وبه سمعت أذني، فضعف عليه أنواع العذاب ونجني منه. قال: فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعدا دخلا بستانا فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمقعد لا ينالها، فنادى المقعد الأعمى ايتني فاحملني آكل وأطعمك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة؛ فعلى من يكون العذاب؟ قال: عليكما جميعا العذاب؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ هذا متصل بذكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف). فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاما ففرق فيهم. ﴿ كانت آمنة ﴾ لا يهاج أهلها. ﴿ يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾ من البر والبحر؛ نظيره ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ (القصص: ٥٧) الآية. ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ الأنعم: جمع النعمة؛ كالأشد جمع الشدة. وقيل: جمع

نعمى؛ مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ. ﴿ فأذاقها الله ﴾ أي أذاق أهلها. ﴿ لباس الجوع والخوف ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ أي من الكفر والمعاصي. وقرأه حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس "والخوف" نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على "لباس الجوع" وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي ﷺ سراياه التي كانت تطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ. وقيل: إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ هذا يدل على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ أي كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم. وقيل: الخطاب للمشركين؛ لأن النبي ﷺ بعث إليهم بطعام رقة عليهم، وذلك أنهم لما ابتلوا بالجوع سبع سنين، وقطع العرب عنهم الميرة بأمر النبي ﷺ أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعلهز، وهو الوبر يعالج بالدم. ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله ﷺ حين جهدوا وقالوا: هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان. وقال له أبو سفيان: يا محمد، إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم. فدعا لهم رسول الله ﷺ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

تقدم في "البقرة" القول فيها مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ

لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ لما تصف ﴾ ما هنا مصدرية، أي لوصف. وقيل: اللام لام سبب وأجل، أي لا تقولوا لأجل وصفكم "الكذب" بنزع الخافض، ، أي لما تصف ألسنتكم من الكذب. وقرئ "الكذب" بضم الكاف والذال والباء، نعتا للألسنة، وقد تقدّم. وقرأ الحسن هنا خاصة "الكذب" بفتح الكاف وخفض الذال والباء، نعتا "لما"؛ التقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب. وقيل: على البدل من ما؛ أي ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. الآية خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة. فقوله تعالى: ﴿ هذا حلال ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام، وكل ما أحلوه. وقوله: ﴿ وهذا حرام ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموه. ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع قليل ﴾ أي ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب. وقال الزجاج: أي متاعهم متاع قليل. وقيل: لـهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم.

الثانية: أسند الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون. وقال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى.
فإن قيل: فقد قال فيمن قال لزوجته أنت علي حرام إنها حرام ويكون ثلاثا. فالجواب أن مالكا لما سمع علي بن أبي طالب يقول إنها حرام اقتدى به. وقد يقوى الدليل على التحريم عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الربوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ بين أن الأنعام والحرث حلال لـهذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء. ﴿ حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ أي في سورة الأنعام. ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي بتحريم ما حرمنا عليهم، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لـهم؛ كما تقدم في "النساء".

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ

وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء ﴾ أي الشرك؛ قاله ابن عباس. وقد تقدم في "النساء".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ دعا ﷺ مشركي العرب إلى ملة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عزهم؛ والأمة: الرجل الجامع للخير، وقد تقدم محامله. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: بلغني أن عبد الله بن مسعود قال: يرحم الله معاذا! كان أمة قانتا. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام. فقال ابن مسعود: إن الأمة الذي يعلم الناس الخير، وإن القانت هو المطيع. وقد تقدم القنوت في "البقرة" و"حنيفا" في "الأنعام".

قوله تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ شاكرا ﴾ أي كان شاكرا. ﴿ لأنعمه ﴾ الأنعم جمع نعمة، وقد تقدم. ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره. ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ قيل: الولد الطيب. وقيل: الثناء الحسن. وقيل: النبوة. وقيل: الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد ﷺ في التشهد. وقيل: إنه ليس أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل: بقاء ضيافته وزيارة قبره. وكل ذلك أعطاه الله وزاده ﷺ. ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ "من" بمعنى مع، أي مع الصالحين؛ لأنه كان في الدنيا أيضا مع الصالحين. وقد تقدم هذا في "البقرة".

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قال ابن عمر: أمر باتباعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام. وقال الطبري: أمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام. وقيل: أمر باتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي. والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (المائدة: ٤٨).

مسألة: في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول ـ لما تقدم في الأصول ـ والعمل به، ولا درك على الفاضل في ذلك؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال: ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام: ٩٠). وقال هنا: "ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ أي لم يكن في شرع إبراهيم ولا في دينه، بل كان سمحا لا تغليظ فيه، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسيط في المعاش بسبب اختلافهم فيه، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا. فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاختاروا الأحد. وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف؛ فقالت طائفة: إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أن السبت أفضل؛ فقال الله له: (دعهم وما اختاروا لأنفسهم). وقيل: إن الله تعالى لم يعينه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه، فعينت اليهود السبت؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق. وعينت النصارى يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعين الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة، فكانت خير الأمم أمة. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ـ قال يوم الجمعة ـ فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى) فقوله: (فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه) يقوي قول من قال: إنه لم يعين لهم؛ فإنه لو عين لهم وعاندوا لما قيل (اختلفوا). وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا. ومما يقويه أيضا قوله ﷺ: (أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا). وهذا نص في المعنى. وقد جاء في بعض طرقه (فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه). وهو حجة للقول الأول. وقد روي: (إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع).

قوله تعالى: ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ يريد في يوم الجمعة كما بيناه؛ اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى. ووجه الاتصال بما قبله أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود.

قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة:

هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من

الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالا حسنا؛ لأنها تتدرج الرتب من الذي يُدعى ويُوعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يجازى على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت. روى الدارقطني عن ابن عباس قال: لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظرا ساءه، رأى حمزة قد شُق بطنه، واصطلم أنفه، وجدعت أذناه، فقال: (لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلا) ثم دعا ببردة وغطى بها وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذخر، ثم قدمه فكبر عليه عشرا، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إلى قوله ـ واصبر وما صبرك إلا بالله" فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد[1]. خرجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة، وحديث ابن عباس أكمل. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداه إلى غيره. وحكاه الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد.

الثانية: واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؛ فقالت فرقة: له ذلك؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك؛ واحتجوا بقول رسول الله ﷺ: (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)[2]. رواه الدارقطني وقد تقدم هذا في "البقرة" مستوفى. ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر فقال له: (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك). وعلى هذا يتقوى قول مالك في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغي أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مال لم يأتمنه عليه فيشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له؛ كما لو تمكن الأخذ بالحكم من الحاكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة، نسختها "واصبر وما صبرك إلا بالله".

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ٦٦)، وقال: "لم يروه غير إسماعيل بن عياش وهو مضطرب الحديث عن غير الشاميين".

(٢) "صحيح".

الثالثة : في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص؛ فمن قتل بحديدة قتل بها. ومن قتل بحجر قتل به، ولا يتعدى قدر الواجب، وقد تقدم هذا المعنى في "البقرة" مستوفى والحمد لله.

الرابعة : سمى الله تعالى الإذايات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول، وهذا بعكس قوله: ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ (آل عمران: ٥٤) وقوله: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ (البقرة: ١٥) فإن الثاني هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ فيه مسألة وحدة:

قال ابن زيد: هي منسوخة بالقتال. وجمهور الناس على أنها محكمة. أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا في المثلة. ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله. ﴿ ولا تكن في ضيق ﴾ ضيق جمع ضيقة؛ قال الشاعر:

كشف الضيقة عنا وفسح

وقراءة الجمهور بفتح الضاد. وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه. قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر. قال الأخفش: الضيق والضيق مصدر ضاق يضيق. والمعنى: لا يضيق صدرك من كفرهم. وقال الفراء: الضيق ما ضاق عنه صدرك، والضيق ما يكون في الذي يتسع ويضيق؛ مثل الدار والثوب. وقال ابن السكيت: هما سواء؛ يقال: في صدره ضيق وضيق. القتبي: ضيق مخفف ضيق؛ أي لا تكن في أمر ضيق فخفف؛ مثل هين وهين. وقال ابن عرفة: يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر. وقوله: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد. وتقدم معنى الإحسان. وقيل لهرم بن حبان عند موته: أوصنا؛ فقال: أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل "ادع إلى سبيل ربك" إلى آخرها. تم تفسير سورة النحل، والحمد لله رب العالمين.

سورة الإسراء

مقدمة السورة:

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عز وجل ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ (الإسراء: ٧٦) نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عز وجل: ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ (الإسراء: ٨٠) وقوله تعالى ﴿ إن ربك أحاط بالناس ﴾ (الإسراء: ٦٠) الآية. وقال مقاتل: وقوله عز وجل ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ (الإسراء: ١٠٧) الآية. وقال ابن مسعود ﷺ في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي؛ يريد من قديم كسبه.

قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ سبحان ﴾ (سبحان) اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين، تقول: سبحت تسبيحا وسبحانا، مثل كفرت اليمين تكفيرا وكفرانا. ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص. فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر:

أقول لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر

فإنما ذكره على طريق النادر. وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى سبحان الله؟ فقال: (تنزيه الله من كل سوء)[1]. والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القرفصاء، واشتمل الصماء؛ فالتقدير عنده: أنزه الله تنزيها؛ فوقع (سبحان الله) مكان قولك تنزيها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أسرى بعبده ﴾ "أسرى" فيه لغتان: سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى، كما تقدم. قال:

أسرت عليه من الجوزاء سارية ... تزجي الشمال عليه جامد البرد

وقال آخر:

حي النضيرة ربة الخدر ... أسرت إلي ولم تكن تسري

فجمع بين اللغتين في البيتين. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سريت مسرى وسرى، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر:

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ٩٥) وقال: "رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا وغيره.

وليلـة ذات ندى ســريت ولم يلتني من سراها ليت

وقيل: أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره؛ والأول أعرف.

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ بعبده ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية. وفي معناه أنشدوا:

يــا قــوم قلــبي عــند زهــراء يعــرفه الســامع والــرائي
لا تدعــني إلا بــيا عــبدها فإنــه أشــرف أســمائي

وقد تقدم. قال القشيري: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسم العبودية تواضعا للأمة.

الرابعة : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا. روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ـ قال ـ فركبته حتى أتيت بيت المقدس ـ قال ـ فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ـ قال ـ ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ـ قال ـ ثم عرج بنا إلى السماء...) وذكر الحديث. ومما ليس في الصحيحين ما خرجه الآجري والسمرقندي، قال الآجري عن أبي سعيد الخدري في قولـه تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حولـه ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسري به، قال النبي ﷺ: (أتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل لـه أذنان يضطربان وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبل فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج عليه ثم سمعت نداء عن يساري يا محمد على رسلك فمضيت ولم أعرج عليه ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال لي جبريل عليه السلام ما سمعت يا محمد فقلت نداء عن يميني يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج فقال ذلك داعي اليهود ولو وقفت لتهودت أمتك ـ قال ـ ثم سمعت نداء عن يساري على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج عليه فقال ذلك داعي النصارى أما إنك لو وقفت لتنصرت أمتك ـ قال ـ ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رسلك فمضيت ولم أعرج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة ـ قال ـ ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لي خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصبت الفطرة ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك ثم جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني

آدم فإذا هو أحسن ما رأيت أو لم تروا إلى الميت كيف يحد بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال: جبريل قالوا : ومن معك؟ قال: محمد قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ففتحوا لي وسلموا علي وإذا ملك يحرس السماء يقال لـه إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف ـ قال ـ وما يعلم جنود ربك إلا هو. . .) وذكر الحديث إلى أن قال: (ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحب في قومه وحولـه تبع كثير من أمته فوصفه النبي ﷺ وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سرته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم علي ورحب بي ـ فوصفه النبي ﷺ فقال ـ رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما. . .) الحديث[١] .

وروى البزار أن رسول الله ﷺ أتي بفرس فحمل عليه، كل خطوة منه أقصى بصره. . . وذكر الحديث[٢] . وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : (بينا أنا نائم في الحجر إذ أتاني آت فحركني برجلـه فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخفها خف حافر وذنبها ذنب ثور وعرفها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا برقة لا تنفري من محمد فوالله ما ركبك ملك مقرب ولا نبي مرسل أفضل من محمد ﷺ ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحب أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى. . .)[٣] الحديث. وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري عن أبي سعيد الخدري قال: لما مر النبي ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: (مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لـها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسرتها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيح أهلـها سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالـها مرة واحدة كان لـه مثل ثوابهم استفتح الباب جبريل عليه السلام ففتح لـه فإذا هو بكهل لم ير قط كهل أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته قريبا من سرته قد كان أن تكون شمطة وحولـه قوم جلوس يقص عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال: هارون المحب في قومه. .)[٤] وذكر الحديث.

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سبع بكمالـها في كتاب (شفاء الصدور) لـه. ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما

---

(١) عزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ٢٦٦) لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٩) وصححه وأقره الذهبي.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره مع سائر الأحاديث التي وردت في قصة الإسراء (٣/ ٢ـ٢٢) ثم قال بعدما انتهى من سردها: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها فحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام.

(٤) ضعيف.

فرضت على النبي ﷺ بمكة في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراء بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى.

فأما المسألة الأولى: وهي هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختلف في ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أسري بجسده. وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (النجم: ١٧) يدل على ذلك. ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيع والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقا فخبرنا عن عيرنا أين لقيتها؟ قال: (بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان) فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئا! غير أن الإبل قد نفرت. قالوا: فأخبرنا متى تأتينا العير؟ قال: (تأتيكم يوم كذا وكذا). قالوا: أية ساعة؟ قال: (ما أدري، طلوع الشمس من ها هنا أسرع أم طلوع العير من ها هنا). فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، واستخبروا النبي ﷺ عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط ـ قال ـ فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به...)[1] الحديث. وقد اعترض قول عائشة ومعاوية "إنما أسري بنفس رسول الله ﷺ" بأنها كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدثت عن النبي ﷺ. وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مستشهد[2] للحال، ولم يحدث عن النبي ﷺ. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (الإسراء: ٦٠) فسماها رؤيا. وهذا يرده

---

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (١٧٢).

(٢) في نسخة (مشاهد).

قولـه تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ ولا يقال في النوم أسرى. وأيضا فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبي ﷺ معارج؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قولـه ﷺ في الصحيح: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان. . .)[1] الحديث. ويحتمل أن يرد من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضا، واختلف في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسري به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبي ﷺ بسبعة أعوام. وروي عن الوقاصي قال: أسري به بعد مبعثه بخمس سنين. قال ابن شهاب: وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة، وحرمت الخمر بعد أحد. وقال ابن إسحاق: أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل. وروى عنه يونس بن بكير قال: صلت خديجة مع النبي ﷺ. وسيأتي. قال أبو عمر: وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الـهجرة بأعوام؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الـهجرة بخمس سنين وقيل: بثلاث وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم. وقال الحربي: أسري به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الـهجرة بسنة. وقال أبو بكر محمد بن علي بن القاسم الذهبي في تاريخه: أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا. قال أبو عمر: لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يسند قولـه إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم.

الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء، وذلك منصوص في الصحيح وغيره. وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت؛ فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعا، وأقرت صلاة السفر على ركعتين. وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق. قال الشعبي: إلا المغرب. قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز لـه بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم

(١) أخرجاه في الصحيحين.

كان هو وخديجة يصليان سواء. وروي عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريج، وروي عن النبي ﷺ ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثنى، ثم صلى رسول الله ﷺ أربعا فصارت سنة، وأقرت الصلاة للمسافر وهي تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتج بمثله، وقوله (فصارت سنة) قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قول لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في "المائدة" والحمد لله. ومضى في "آل عمران" أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس)[1]. خرجه مالك من حديث أبي هريرة. وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل، ويصلي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا في ثغر يسده: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل. وقد زاد أبو البختري في هذا الحديث مسجد الجند، ولا يصح وهو موضوع، وقد تقدم في مقدمة الكتاب.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ سمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة، ثم قال: ﴿الذي باركنا حوله﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدسا. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي). ﴿لنريه من آياتنا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب.

والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا، حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره. ﴿إنه هو السميع البصير﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

أي كرمنا محمدا ﷺ بالمعراج، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة. ﴿وجعلناه﴾ أي ذلك الكتاب. وقيل: موسى. وقيل: معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب؛

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز. وقيل: إن معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا، معناه أسرينا، يدل عليه ما بعده من قوله: ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (الإسراء: ١) فحمل "وآتينا موسى الكتاب" على المعنى. ﴿ ألا تتخذوا ﴾ قرأ أبو عمرو (يتخذوا) بالياء. الباقون بالتاء. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿ وكيلا ﴾ أي شريكا؛ عن مجاهد. وقيل: كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء. وقيل: ربا يتوكلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي. وقال الفراء: كافيا؛ والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلا. وقيل: التقدير لئلا تتخذوا. والوكيل: من يوكل إليه الأمر.

قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

أي يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي نجيح. والمراد بالذرية كل من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع من على الأرض؛ ذكره المهدوي. وقال الماوردي: يعني موسى وقومه من بني إسرائيل، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا. وذكر نوحا ليذكرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم. وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ (ذرية) بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد بن ثابت. وروي عن زيد بن ثابت أيضا "ذرية" بكسر الذال وشد الراء. ثم بين أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبس ثوبا قال: باسم الله، فإذا نزعه قال: الحمد لله. كذا روى عنه معمر. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شكره إذا أكل قال: باسم الله، فإذا فرغ من الأكل قال: الحمد لله. قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمد الله على طعامه. وقال عمران بن سليم: إنما سمى نوحا عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه في. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال. وقيل: المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح. وقيل: يجوز أن يكون "ذرية" مفعولا ثانيا "لتتخذوا" ويكون قوله: "وكيلا" يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعا أعني الياء والتاء في "تتخذوا". ويجوز أيضا في القراءتين جميعا أن يكون "ذرية" بدلا من قوله "وكيلا" لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح. ويجوز نصبها بإضمار أعني وأمدح، والعرب قد تنصب على المدح والذم. ويجوز رفعها على البدل من المضمر في "تتخذوا" في قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب. ويجوز جرها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما "أن" من قوله "ألا تتخذوا" فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلا يتخذوا. ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدم. ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون "لا" للنهي فيكون خروجا من الخبر إلى النهي.

قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ قرأ سعيد بن جبير وأبو العالية "في الكتب" على لفظ الجمع. وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد. ومعنى "قضينا" أعلمنا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس: وقال قتادة: حكمنا؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه، وقيل: قضينا أوحينا؛ ولذلك قال: "إلى بني إسرائيل". وعلى قول قتادة يكون "إلى" بمعنى على؛ أي قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضا. والمعني بالكتاب اللوح المحفوظ. ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس "لَتُفْسَدُنَّ". عيسى الثقفي "لَتَفْسُدُنَّ". والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة. ﴿ في الأرض ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها. ﴿ مرتين ولتعلن ﴾ اللام في "لتفسدن ولتعلن" لام قسم مضمر كما تقدم. ﴿ علوا كبيرا ﴾ أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي أولى المرتين من فسادهم. ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهم بختنصر في المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره. وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأس شديد. وقال مجاهد: جاءهم جند من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوعى حديثهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى، فكان منهم جوس خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيري أبو نصر. وذكر المهدوي عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد؛ ذكره النحاس. وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه طول: إن المهزوم سنحاريب ملك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كتابه، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شعيا؛

فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم. وقال ابن عباس وابن مسعود: أول الفساد قتل زكريا. وقال ابن إسحاق: فسادهم في المرة الأولى قتل شعيا نبي الله في الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مرج أمرهم وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى لـه: قم في قومك أوح على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت لـه شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها. وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شعيا. وقال سعيد بن جبير في قولـه تعالى: "ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار" هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كفارا، قالـه الحسن. ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا، قالـه ابن عزيز، وهو قول القتبي. وقرأ ابن عباس: (حاسوا) بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والـهوس: الطواف بالليل. وقال الجوهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها؛ وكذلك الاجتياس. والجوسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبي عبيدة. وقال الطبري: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة. قال ابن عباس: مشوا وترددوا بين الدور والمساكن. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان:

ومنا الـذي لاقـى بسيف محـمد فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فجســنا ديارهم عنوة وأبنا بسادتهم موثقينا

﴿ وكان وعدا مفعولا ﴾ أي قضاء كائنا لا خلف فيه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ أي الدولة والرجعة؛ وذلك لما تبتم وأطعتم. ثم قيل: ذلك بقتل داود جالـوت أو بقتـل غيره، علـى الخلاف في من قتلـهم. ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين﴾ حتى عاد أمركم كما كان ﴿وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أي أكثر عددا ورجالا من عدوكم. والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر مثل قدير وقادر. ويجوز أن يكون النفير جمع نفر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر:

فأكرم بقحطان من والد وحمير أكرم بقوم نفيرا

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا؛ جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ أي نفع إحسانكم عائد عليكم. ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ أي فعليها؛ نحو سلام لك، أي سلام عليك. قال:

فخر صريعا لليدين وللفم

أي على اليدين وعلى الفم. وقال الطبري: اللام بمعنى إلى، يعني وإن أسأتم فإليها، أي فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (الزلزلة: ٥) أي إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب. وقال الحسين بن الفضل: فلها رب يغفر الإساءة. ثم يحتمل أن يكون هذا خطابا لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي أسأتم فحل بكم القتل والسبي والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعلو وانتظام الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ؛ أي عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطابا لمشركي قريش على هذا الوجه.

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله ملك من بني إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القتبي. وقال الطبري: اسمه هيردوس، ذكره في التاريخ؛ حمله على قتله امرأة اسمها أزبيل. وقال السدي: كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه عنها وقال: إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا وطيبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طست من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس تتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا تحل لك؛ لا تحل لك؛ فلما أصبح إذا دمه يغلي، فألقى عليه التراب فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي؛ ذكره الثعلبي وغيره. وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن علي قال: كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له: لا تتزوجها فإنها بغي؛ فعرفت ذلك المرأة أنه قد ذكرها وصرفه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قبل يحيى، فقالت: ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فعمدت إلى ابنتها وصنعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمك

عند الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره، ويقول سليني ما شئت، فإنك لن تسأليني شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولي: لا أسأل إلا رأس يحيى. قال: وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رءوس الملأ ثم لم يمض لـه نزع من ملكه؛ ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموت من قتلـه يحيى، وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه، فاختار ملكه فقتلـه. قال: فساخت بأمها الأرض.
قال ابن جدعان: فحدثت بهذا الحديث ابن المسيب فقال: أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت: لا؛ قال: إن زكريا حيث قتل ابنه انطلق هاربا منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هدبة تكفتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الـهدبة فدعوا بالمنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها.

قلت: وقع في التاريخ الكبير للطبري فحدثني أبو السائب قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ، قال: وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه...) وذكر الخبر بمعناه. وعن ابن عباس قال: (بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه، وكان يريد أن يتزوجها، وكان لـها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لـها: إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا؛ فقال: سليني سوى هذا! قالت: ما أسألك إلا هذا. فلما أبت عليه دعا بطست ودعا به فذبحه، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله عليهم بختنصر فألقى في نفسـه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقتل عليه منهم سبعين ألفا، في رواية خمسة وسبعين ألفا. قال سعيد بن المسيب: هي دية كل نبي. وعن ابن عباس قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا).
وعن سمير بن عطية قال: قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا.
وعن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي تلي المحراب مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حالـه لم يتغير. وعن قرة بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وحمرتها بكاؤها. وعن سفيان بن عيينة قال: أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيخرج إلى دار هم، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلـهم، ويوم يبعث فيشهد مشهدا لم ير مثلـه؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾(مريم: ١٥). كلـه من التاريخ المذكور.

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة؛ فقيل: بختنصر. وقالـه القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره. قال السهيلي: وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمان طويل؛ وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحو من ثلاثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذي قتلـهم وخرب بيت المقدس واتبعهم إلى مصر. وأخرجهم منها. وقال الثعلبي: ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلـهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلـهم شعيا وفي عهد إرمياء. قالوا: ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلاثمائة وثلاثا وستين سنة.

قلت: ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله. قال الثعلبي: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ـ وبعض الناس يقول: لما قتلوا زكريا ـ بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال لـه: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشأم، ثم قال لرئيس جنوده: كنت حلفت بإلـهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمر أن يقتلـهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلي، فسألـهم فقالوا: دم قربان قربناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة. قال ما صدقتموني، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ، فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فقال: يا بني إسرائيل، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلته. فلما رأوا الجهد قالوا: إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قط طرفة عين ولا هم بمعصية. فقال: الآن صدقتموني، وخر ساجدا ثم قال: لمثل هذا ينتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرجوا من كان ها هنا من جيش خردوس، وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبي الله يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي منهم أحدا. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتل وقال: رب إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس الأنبياء: إن هذا الرئيس مؤمن صدوق. ثم قال: إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خندقا وأمر بأموالـهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حذيفة، وقد كتبناه في (كتاب التذكرة) مقطعا في أبواب في أخبار المهدي، نذكر منها هنا ما يبين معنى الآية ويفسرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلت يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسيم الخطر عظيم القدر. فقال رسول الله ﷺ: (هو من أجل البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد): وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلت يا رسول الله، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس. فقال رسول الله ﷺ: إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة، وهو قوله: "فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا" فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلي الذي كان في بيت المقدس ورده الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي والقتل، وهو قوله: ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ﴾ (الإسراء: ٨) فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر، وهو قوله: "فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا" فغزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلي جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي فيرده إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرسى بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين... وذكر الحديث[1].

قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي من المرتين؛ وجواب "إذا" محذوف، تقديره بعثناهم؛ دل عليه "بعثنا" الأول. ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أي بالسبي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ"ليسوءوا" متعلق بمحذوف؛ أي بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم. قيل: المراد بالوجوه السادة؛ أي ليذلوهم. وقرأ الكسائي "لنسوء" بنون وفتح الهمزة، فعل مخبر عن نفسه معظم، اعتبارا بقوله: "وقضينا ـ وبعثنا ـ ورددنا". ونحوه عن علي. وتصديقها قراءة أُبي (لنسوءن) بالنون وحرف التوكيد. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر (ليسوء) بالياء على التوحيد

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ٢٩٨، ٢٩٩) وعزاه إلى ابن جرير، وهو ضعيف.

وفتح الهمزة؛ ولها وجهان: أحدهما: ليسوء الله وجوهكم. والثاني: ليسوء الوعد وجوهكم. وقرأ الباقون "ليسوءوا" بالياء وضم الهمزة على الجمع؛ أي ليسوء العباد الذين هم أولو بأس شديد وجوهكم. ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ﴾ أي ليدمروا ويهلكوا. وقال قطرب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل   يتبر ما يبني وآخر رافع

﴿ ما علوا ﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تتبيرا ﴾

قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و"عسى" وعد من الله أن يكشف عنهم. و"عسى" من الله واجبة. "أن يرحمكم" بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثر عددهم وجعل منهم الملوك. ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمدا ﷺ؛ فهم يعطون الجزية بالصغار؛ وروي عن ابن عباس. وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره. وقال القشيري: وقد حل العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرة على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم. وعلى هذا يصح قول قتادة. ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أي محبسا وسجنا، من الحصر وهو الحبس. قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به. والحصير: الضيق البخيل. والحصير: البارية. والحصير: الجنب، قال الأصمعي: هو ما بين العرق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترضا فما فوقه إلى منقطع الجنب. والحصير: الملك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقماقم غلب الرقاب كأنهم   جن لدى باب الحصير قيام

ويروى:

ومقامة غلب الرقاب. . .

على أن يكون (غلب) بدلاً من (مقامة) كأنه قال: ورب غلب الرقاب. وروي عن أبي عبيدة:

. . . لدى طرف الحصير قيام

أي عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المحبس؛ قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾. قال القشيري: ويقال للذي يفرش حصير؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج. وقال الحسن: أي فراشا ومهادا؛ ذهب إلى الحصير الذي يفرش، لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيرا. قال الثعلبي: وهو وجه حسن.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد ﷺ، ثم بين أن الكتاب الذي أنزله الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿ للتي هي أقوم﴾ أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب؛ فـ "التي" نعت لموصوف محذوف، أي الطريقة إلى نص أقوم. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفراء.

قوله تعالى: ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ تقدم. ﴿ أن لهم ﴾ (في موضع نصب بـ "بشر" وقال الكسائي وجماعة من البصريين: "أن" في موضع خفض بإضمار الباء)[1]. أي بأن لهم. ﴿ أجرا كبيرا ﴾ أي الجنة. ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب. والقرآن معظمه وعد ووعيد. وقرأ حمزة والكسائي "ويَبْشُرُ" مخففا بفتح الياء وضم الشين، وقد ذكر.

قوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويدع الإنسان بالشر ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، ونحوه. ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك. نظيره: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ﴾ (يونس: ١١) وقد تقدم. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (الأنفال: ٣٢). وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مئزري المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح ... وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الهم عن يوسف ... يسخر لي ربة المحمل

قال الجوهري: يقال ما على فلان محمل مثال مجلس أي معتمد. والمحمل أيضا: واحد محامل الحاج. والمحمل مثال المرجل: علاقة السيف. وحذفت الواو من ﴿ ويدع الإنسان ﴾ في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى: ﴿ سندع الزبانية ﴾ (العلق: ١٨) ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ (الشورى: ٢٤) ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين ﴾ (النساء: ١٤٦) ﴿ يناد المناد ﴾ (ق: ٤١) ﴿ فما تغن النذر ﴾ (القمر: ٥). ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ أي طبعه العجلة، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض

---

(١) زيادة من نسخة.

قبل أن يركب فيه الروح على الكمال. قال سلمان: أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال: يا رب عجل قبل الليل؛ فذلك قولـه: "وكان الإنسان عجولا". وقال ابن عباس: لما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر؛ فذلك قولـه: ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾. وقال ابن مسعود: لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: "خلق الإنسان من عجل" ذكره البيهقي. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك)[١] وقد تقدم. وقيل: سلم عليه السلام أسيرا إلى سودة فبات يئن فسألته فقال: أنيني لشدة القد والأسر؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب؛ فأخبرت النبي ﷺ فقال: (قطع الله يديك) فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة؛ فقال ﷺ: (إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي لأني بشر أغضب كما يغضب البشر) ونزلت الآية؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلـها لـه كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة). وفي الباب عن عائشة وجابر. وقيل: معنى "وكان الإنسان عجولا" أي يؤثر العاجل وإن قل، على الآجل وإن جل.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا. والآية فيهما: إقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم، وإدباره إلى حيث لا يعلم. ونقصان أحدهمـا بزيادة الآخـر وبالعكس آية أيضا. وكذلك ضـوء النهـار وظلمـة الليل. وقـد مضى هذا. ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ ولـم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لـهما لا هما. و"محونا" معناه طمسنا. وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلـه مع نور الشمس، فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزءا والقمر على جزء واحد. وعنه أيضا: خلق الله شمسين من نور عرشه، وجعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١١).

مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمر دون الشمس؛ فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار. ذكر عنه الأول الثعلبي والثاني المهدوي؛ وسيأتي مرفوعا. وقال علي رضي الله عنه وقتادة: يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار. ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار. قال أبو عمرو بن العلاء: أي يبصر بها. قال الكسائي: وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها. وقيل: هو كقولهم خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء. ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافا؛ فكذلك النهار مبصرا إذا كان أهله بصراء. ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ يريد التصرف في المعاش. ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار. وقد قال في موضع آخر: ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ (يونس: ٦٧). ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عرف الليل من النهار، ولا كان يعرف الحساب والعدد. ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل: ٨٩) ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام: ٣٨). وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العظم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تدرى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله "وجعلنا الليل والنهار آيتين" الآية)(١).

قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق. وقال ابن عباس: "طائره" عمله وما قدر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به. وقال مجاهد: عمله

---

(١) ضعفه السيوطي في "الدر المنثور"، (٤/ ٣٠١) بقوله: "أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند واه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: . . . فذكره.

ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد. وقال الحسن: "ألزمناه طائره" أي شقاوته وسعادته وما كتب لـه من خير وشر وما طار لـه من التقدير، أي صار لـه عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زجر به أمكنه ذلك. ﴿ونخرج لـه يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: "طيره" بغير ألف؛ ومنه ما روي في الخبر (اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا رب غيرك)[1]. وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب "ويخرج" بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج لـه الطائر كتابا؛ فـ "كتابا" منصوب على الحال. ويحتمل أن يكون المعنى: ويخرج الطائر فيصير كتابا. وقرأ يحيى بن وثاب "ويخرج" بضم الياء وكسر الراء؛ وروي عن مجاهد؛ أي يخرج الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السميقع، وروي أيضا عن أبي جعفر: "ويخرج" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول، ومعناه: ويخرج لـه الطائر كتابا. الباقون "ونخرج" بنون مضمومة وكسر الراء؛ أي ونحن نخرج. احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقولـه "ألزمناه". وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر "يلقاه" بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه. الباقون بفتح الياء خفيفة، أي يراه منشورا. وقال "منشورا" تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة. وقال أبو السوار العدوي وقرأ هذه الآية "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" قال: هما نشرتان وطية؛ أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت؛ فإذا مت طويت حتى إذا بعثت نشرت. ﴿اقرأ كتابك﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه أميا كان أو غير أمي. ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ أي محاسبا. وقال بعض الصلحاء: هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك، ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك.

قوله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه لـه، ومن ضل فعقاب كفره عليه. ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تقدم في الأنعام. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعوني واكفروا بمحمد وعلي أوزاركم، فنزلت هذه الآية؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه. يقال: وزر يزر وزرا، ووزرة، أي أثم. والوزر: الثقل المثقل والجمع أوزار؛ ومنه ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ (الأنعام: ٣١) أي أثقال ذنوبهم. وقد وزر إذا حمل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثقل دولته. والـهاء في قولـه كناية عن النفس، أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، حتى أن الوالدة تلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يا بني ألم يكن حجري لك وطاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن بطني لك وعاء، فيقول: بلى يا أمه! فتقول: يا بني! فإن ذنوبي أثقلتني فاحمل عني منها ذنبا واحدا! فيقول: إليك عني يا أمه! فإني بذنبي عنك اليوم مشغول.

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند"، (٢/ ٢٢٠)، وقال العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند: (٧٠٤٥): "إسناده صحيح".

مسألة: نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الرد على ابن عمر حيث قال: إن الميت ليعذب ببكاء أهلـه. قال علماؤنا: وإنما حملـها على ذلك أنها لم تسمعه، وأنه معارض للآية. ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لـهذا المعنى كثير، كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقيلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم. ولا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محملـه على ما إذا كان النوح من وصية الميت وسنته، كما كانت الجاهلية تفعلـه، حتى قال طرفة:

إذا مـت فانعـيني بما أنا أهــلـه وشقي علي الجيب يا بنت معبد

وقال:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومـن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وإلى هذا نحا البخاري. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بنوحهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذب بتفريطه في ذلك؛ وبترك ما أمره الله به من قولـه: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ (التحريم: ٦) لا بذنب غيره، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ أي لم نترك الخلق سدى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن ويبيح ويحظر. وقد تقدم في البقرة القول فيه. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة، لقولـه تعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألـهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا﴾ (الملك: ٨). قال ابن عطية: والذي يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد وبث المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار. وهذه الآية أيضا يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلـهم رسالة، وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم. وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف. قال المهدوي: وروي عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفطرة والأبكم والأخرس والأصم؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة، ذكره النحاس.

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعا في آخر سورة (طه) إن شاء الله تعالى؛ ولا يصح. وقد استدل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبل أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعد منه، ولا خلف في وعده. فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير. يعلمك أن من هلك هلك بإرادته، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أمرنا ﴾ قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن "أمّرنا" بالتشديد، وهي قراءة علي ﷺ؛ أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهدي "أمّرنا" بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلطين؛ وقاله ابن عزيز. وتأمر عليهم تسلط عليهم. وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما "آمرنا" بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثرته؛ ومنه الحديث (خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة)[1] أي كثيرة النتاج والنسل. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنى واحد؛ أي أكثرنا. وعن الحسن أيضا ويحيى بن يعمر "أمِرنا" بالقصر وكسر الميم على فعلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال وأصلها "أأمرنا" فخفف، حكاه المهدوي. وفي الصحاح: وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي كثر. وأمر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر:

أمرون لا يرثون سهم القعدد

وآمر الله ماله: بالمد. الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أمر، والفعل منه: أمر القوم يأمرون أمرا إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحي إذا كثروا: أمر أمر بني فلان؛ قال لبيد:

كل بني حرة مصيرهم   قل وإن أكثرت من العدد
إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا   يوما يصيروا للهلك والنكد

قلت: وفي حديث هرقل الحديث الصحيح: (لقد أمر أمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر) أي كثر. وكله غير متعد ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدوي: ومن قرأ "أمر" فهي لغة، ووجه تعدية "أمر" أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شيء إلى العمارة، فعدي كما عدي عمر. الباقون "أمرنا" من الأمر؛ أي أمرناهم بالطاعة إعذارا وإنذارا وتخويفا ووعيدا. ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿ فحق عليها القول ﴾ فوجب عليها

(١) قال الهيثمي في "المجمع"، (٥/ ٢٥٨): "رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات".

الوعيد؛ عن ابن عباس. وقيل: "أمرنا" جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور، أي غير مؤمر. وقيل: معناه بعثنا مستكبريها. قال هارون: وهي قراءة أُبَي "بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا" ذكره الماوردي. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أبي "وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول". ويجوز أن يكون "أمرنا" بمعنى أكثرنا؛ ومنه (خير المال مهرة مأمورة) على ما تقدم. وقال قوم: مأمورة اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا. وكقوله: (ارجعن مأزورات غير مأجورات)[(١)]. وعلى هذا لا يقال: أمرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يقال: آمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فدمرناها ﴾ أي استأصلناها بالهلاك. ﴿ تدميرا ﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوما فزعا محمرا وجهه يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلت يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[(٢)]. وقد تقدم الكلام في هذا الباب، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تغير كانت سببا لهلاك الجميع؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار. يخوف كفار مكة، وقد تقدم القول فى القرن في أول سورة الأنعام والحمد لله. ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ "خبيرا" عليما بهم. "بصيرا" يبصر أعمالهم؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ يعني الدنيا، والمراد الدار العاجلة؛ فعبر بالنعت عن المنعوت. ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار. ﴿ مذموما مدحورا ﴾ أي مطردا مبعدا من رحمة الله. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا

---

(١) "ضعيف"، انظر ضعيف الجامع (٨٧٣)، وراجع الضعيفة (٢٧٤٢).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قسم لـهم. وقد تقدم في "هود" أن هذه الآية تقيد الآيات المطلقة؛ فتأملـه. ﴿ ومن أراد الآخرة﴾ "أي الدار الآخرة" ﴿ وسعى لـها سعيها﴾ أي عمل لـها عملـها من الطاعات. ﴿ وهو مؤمن﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن. ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ أي مقبولا غير مردود. وقيل: مضاعفا؛ أي تضاعف لـهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة؛ كما روي عن أبي هريرة وقد قيل لـه: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة)؟ فقال سمعته يقول: (إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة).

قوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ أعلـم أنه يـرزق المؤمنين والكافريـن. ﴿ وما كـان عطاء ربك محظورا﴾ أي محبوسا ممنوعا؛ من حظر يحظر حظـرا وحظارا. ثم قال تعالى: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الرزق والعمل؛ فمن مقل ومكثر. ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ أي للمؤمنين؛ فالكافر وإن وسع عليه في الدنيا مرة، وقتر على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالـهم؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها. وقولـه: ﴿ لا تجعل مع الله إلـها آخر﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. وقيل: الخطاب للإنسان. ﴿ فتقعد﴾ أي تبقى. ﴿ مذموما مخذولا﴾ لا ناصر لك ولا وليا.

قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وقضى﴾ أي أمر وألزم وأوجب. قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر. وفي مصحف ابن مسعود "ووصى" وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلي وغيرهما، وكذلك عند أبيهبن كعب. قال ابن عباس: إنما هو "ووصى ربك" فالتصقت إحدى الواوين فقرئت "وقضى ربك" إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد. وقال الضحاك: تصحفت على قوم "وصى بقضى" حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتب المصحف.

وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهران أنه قال: إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ﴾ (الشورى: ١٣) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك. وقال: لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله: ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ (فصلت: ١٢) يعني خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى: ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ يعني احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله: ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ (يوسف: ٤١) أي فرغ منه؛ ومنه قوله تعالى ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ (البقرة: ٢٠٠). وقوله تعالى: ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾. والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ (آل عمران: ٤٧). والقضاء بمعنى العهد؛ كقوله تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ (القصص: ٤٤).

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثا. فقال: إنك قد عصيت ربك وبانت منك. فقال الرجل: قضى الله ذلك علي فقال الحسن وكان فصيحا: ما قضى الله ذلك أي ما أمر الله به، وقرأ هذه الآية: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه".

الثانية : أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا". وقال: ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ (لقمان: ١٤). وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين) قال: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) فأخبر ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتب ذلك بـ (ثم) التي تعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة : من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (إن من الكبائر شتم الرجل والديه) قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال (نعم. يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه).

الرابعة : عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، كذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد

ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره في حق الولد مندوبا إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في ندبيته.

الخامسة : روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: (يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك)(١). قال: هذا حديث حسن صحيح.

السادسة : روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك). فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لذكر النبي ﷺ الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا توصل هذا المعنى شهد لـه العيان. وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. وروي عن مالك أن رجلا قال لـه: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إلي أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك؛ فقال: أطع أباك، ولا تعص أمك. فدل قول مالك هذا أن برهما متساو عنده. وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لـها ثلثي البر. وحديث أبي هريرة يدل على أن لـها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف. وقد زعم المحاسبي في (كتاب الرعاية) لـه أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبي هريرة ﷺ. والله أعلم.

السابعة : لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لـهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ﴾ (الممتحنة: ٨). وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلـها؟ قال: (نعم صلي أمك). وروي أيضا عن أسماء قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أأصلـها؟ قال: (نعم). قال ابن عيينة: فأنزل الله عز وجل فيها: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ (الممتحنة: ٨) الأول معلق والثاني مسند.

الثامنة : من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: (أحي والداك)؟ قال: نعم. قال: (ففيهما فجاهد). لفظ مسلم. في غير الصحيح قال: نعم؛ وتركتهما يبكيان. قال: (اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما)(٢). وفي خبر آخر أنه قال: (نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي). ذكره ابن خويز منداد. ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال:

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٤٢٨٤).
(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٢٢٠٥).

جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان فقال: (ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)[1]. قال ابن المنذر: في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع. وذلك بين في حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء... ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة وأن منادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أن الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس، اخرجوا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد) فخرج الناس مشاة وركبانا في حر شديد. فدل قوله: (اخرجوا فأمدوا إخوانكم) أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع النفير؛ مع قوله ﷺ: (فإذا استنفرتم فانفروا).

قلت: وفي هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدم الأهم منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية؛ فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الأخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل.

العاشرة: من تمام برهما صلة أهل ودهما؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي). وروى أبو أسيد وكان بدريا قال: كنت مع النبي ﷺ جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به؟ قال: (نعم. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك)[2]. وكان ﷺ يهدي لصدائق خديجة برا بها ووفاء لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر. وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: "فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما". روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه) قيل: من يا رسول الله؟ قال: (من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم

---

(١) قول المصنف: ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين... ليس المقصود به الصحيح كما هو المتبادر إلى الذهن، وإنما هو كتابه "الأدب المفرد"، (ص٥).

(٢) ضعيف، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، وانظر ضعيف ابن ماجه (٨٠٠).

لم يدخل الجنة). وقال البخاري في كتاب الوالدين: حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي. رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة. ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له)[1]. حدثنا ابن أبي أويس حدثنا أخي عن سليمان ابن بلال عن محمد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة السالمي عن أبيه ﷺ قال: إن كعب بن عجرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (أحضروا المنبر) فلما خرج رقي إلى المنبر، فرقي في أول درجة منه قال آمين ثم رقي في الثانية فقال آمين ثم لما رقي في الثالثة قال آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منك؟ قال: (وسمعتموه)؟ قلنا نعم. قال: (إن جبريل ﷺ اعترض قال: بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رقيت في الثانية قال بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت في الثالثة قال بعد من أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت آمين). حدثنا أبو نعيم حدثنا سلمة بن وردان سمعت أنسا ﷺ يقول: ارتقى رسول الله ﷺ على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: (أتاني جبريل ﷺ فقال رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت آمين) الحديث. فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة برهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك. والشقي من عقهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم. وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القذع الرديء الخفي. وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أف. والآية أعم من هذا. والأف والتف وسخ الأظفار. ويقال لكل ما يضجر ويستثقل: أف له. قال الأزهري: والتف أيضا الشيء الحقير. وقرئ "أف" منون مخفوض؛ كما تخفض الأصوات وتنون، تقول: صه ومه. وفيه عشر لغات: أفَّ، وأفُّ، وأفِّ، وأفّاً وأفٌّ، وأفٍّ، وأفَّه، وإف لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأفا (مخففة الفاء). وفي الحديث: (فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف). قال أبو بكر: معناه استقذار لما شم. وقال بعضهم: معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأفف وهو القليل. وقال القتبي: أصله نفخك الشيء يسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار، والتف قلامتها. وقال الزجاج: معنى أف النتن. وقال الأصمعي: الأف وسخ الأذن، والتف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يتأذى به. وروي من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من "أف" لذكره

---

(١) صحيح، انظر الإرواء (١/ ٦).

فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة)[١].

قال علماؤنا: وإنما صارت قولة "أف" للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل. و"أف" كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ (الأنبياء: ٦٧) أي رفض لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ ولا تنهرهما ﴾ النهر: الزجر والغلظة. ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾ أي لينا لطيفا، مثل: يا أبتاه ويا أماه، من غير أن يسميهما ويكنيهما؛ قاله عطاء. وقال ابن البداح التجيبي: قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله: "وقل لهما قولا كريما" ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن المسيب. وضرب خفض الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذل: هو اللين. وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذال وذليل. وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير "الذل" بكسر الذال، ورويت عن عاصم؛ من قولهم: دابة ذلول بينة الذل. والذل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يحد إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد به أمته؛ إذ لم يكن له ﷺ في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذل في قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ (الشعراء: ٢١٥) وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده. و"من" في قوله: "من الرحمة" لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا. ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقا بك؛ إذ ولياك صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعريا وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم. قال ﷺ: (لا يجزي ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه)[٢]. وسيأتي في سورة (مريم) الكلام على هذا الحديث. (والآية "وقل رب ارحمهما" نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجردة، فذكر ذلك لسعد فقال: لتمت، فنزلت الآية)[٣].

---

(١) ذكره الديلمي في "مسند الفردوس"، (٣/٣٩٨) من طريق عيسى بن عبد الله عن زيد بن علي عن أبيه عن جده الحسين بن علي مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم (١٥١٠).

(٣) سقط من إحدى النسخ.

السادسة عشرة : قوله تعالى: ﴿ كما ربياني ﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربى، كما تقدم. وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ـ إلى قوله ـ أصحاب الجحيم ﴾ (التوبة: ١١٣) فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خص بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل إن قوله: "وقل رب ارحمهما" نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجردة، فذكر ذلك لسعد فقال: لتمت، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: (من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا. ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا) فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: (وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه)[1]. وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبي ﷺ للرجل: (فأتني بأبيك) فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: (إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه) فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: (ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله)؟ فقال: سله يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله ﷺ: (إيه، دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك)؟ فقال الشيخ: والله يا رسول الله، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي. قال: (قل وأنا أسمع) قال قلت:

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... علي بمال دون مالك تبخل

---

(١) رواه البيهقي في الشعب وغيره، وقال الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة (٤٩٤٣): "رواه ابن وهب في "الجامع"، (ص١٤)، وفيه أبان بن أبي عياش، وهو ضعيف جداً".

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: (أنت ومالك لأبيك)[1]. قال الطبراني: اللخمي لا يروي - يعني هذا الحديث - عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد؛ وتفرد به عبيد الله ابن خلصة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياء. وقال ابن جبير: يريد البادرة التي تبدر، كالفلتة والزلة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأسا؛ قال الله تعالى: ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله: ﴿ فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى. قال سعيد بن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب. وقال ابن عباس رضي الله عنه: الأواب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها. وقال عبيد بن عمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل. وهذه الأقوال متقاربة. وقال عون العقيلي: الأوابون هم الذين يصلون صلاة الضحى. وفي الصحيح: (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال)[2]. وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ أي كما راعيت حق الوالدين فصل الرحم، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل. وقال علي بن الحسين في قوله تعالى: ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾: هم قرابة النبي ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي من سهم ذوي القربى من الغزو والغنيمة، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم. والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ولا تبذر ﴾ أي لا تسرف في الإنفاق في غير حق. قال الشافعي رضي الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله تعالى: ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ وقوله: ﴿ إخوان ﴾ يعني أنهم في حكمهم؛ إذ المبذر ساع في

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٤/ ١٥٤، ١٥٥)، وقال: "قلت روى ابن ماجه طرفا منه - : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد ضعيف، وقد وثقه أحمد، والحديث بهذا التمام منكر، وقد تقدمت له طريق مختصرة رجال إسنادها رجال الصحيح". قلت: وقد صح قوله: "أنت ومالك لأبيك".

(٢) أخرجه مسلم في "صلاة المسافرين"، (٧٤٨).

إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسول لـهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدا في النار؛ ثلاثة أقوال. والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (الحجرات: ١٠). وقولـه تعالى: ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ أي احذروا متابعته والتشبه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك "إخوان الشيطان" على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك ﷺ.

الثالثة : من أنفق ماله في الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر. ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر. ومن أنفق درهما في حرام فهو مبذر، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذلـه في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى : وهو أنه سبحانه وتعالى خص نبيه ﷺ بقولـه: ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾. وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع، أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم. وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال "فقل لـهم قولا ميسورا".

الثانية : في سبب نزولـها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم. وقال عطاء الخراساني في قولـه تعالى ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناس من مزينة إلى النبي ﷺ يستحملونه؛ فقال: (لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾. والرحمة الفيء. (والضمير في "عنهم" عائد على من تقدم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل)[1].

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ فقل لـهم قولا ميسورا ﴾ أمره بالدعاء لـهم، أي يسر فقرهم عليهم بدعائك لـهم. وقيل: ادع لـهم دعاء يتضمن الفتح لـهم والإصلاح. وقيل: المعنى "وإما تعرضن" أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لـهم قولا ميسورا؛ أي أحسن القول وأبسط العذر، وادع لـهم بسعة الرزق، وقل إذا وجدت فعلت وأكرمت؛ فإن ذلك يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة. وكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكت انتظارا لرزق يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهة الرد، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: (يرزقنا الله وإياكم من

---

(١) سقطت من إحدى النسخ.

فضله). فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. و"قولا ميسورا" أي لينا لطيفا طيبا، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي وعدا جميلا، على ما بيناه. ولقد أحسن من قال:

إلا تكن وَرِقٌ يوما أجود بها   للسائلين فإني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي   إما نوالي وإما حسن مردودي

تقول: يسرت لك كذا إذا أعددته.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغل الذي يمنع من التصرف باليد. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها. قال أبو هريرة ﷺ: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيته يوسعها ولا توسع.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ ضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وكثيرا ما جاء في القرآن؛ فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك. وأيضا فإنه ﷺ لم يكن يدخر شيئا لغد، وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع. وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يعنفهم النبي ﷺ ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم. وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم. وقيل: إن هذا الخطاب للنبي ﷺ في خاصة نفسه، علمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد. قال جابر وابن مسعود: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا. فقال: (ما عندنا اليوم شيء). قال: فتقول لك اكسني قميصك؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عريانا. وفي رواية جابر: فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول الله ﷺ يخرج، واشتغلت القلوب، فدخل بعضهم فإذا هو عار؛ فنزلت هذه الآية. وكل هذا في إنفاق الخير. وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام، كما تقدم.

الثالثة : نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أولا من سؤال المؤمنين؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء لـه، أو لئلا يضيع المنفق عيالـه. ونحوه من كلام الحكمة: ما رأيت قط سرفا إلا ومعه حق مضيع. وهذه من آيات فقه الحال فلا يبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ فتقعد ملوما محسورا ﴾ قال ابن عرفة: يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف؛ كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ (الملك: ٤) أي كليل منقطع. وقال قتادة: أي نادما على ما سلف منك؛ فجعلـه من الحسرة، وفيه بعد؛ لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور. والملوم: الذي يلام على إتلاف مالـه، أو يلومه من لا يعطيه.

قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى : قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أي لم يبق لـه إلا الملقات؛ وهي الحجارة العظام الملس. قال الـهذلي يصف صائدا:

أتيح لـها أقيدر ذو حَشيف إذا سامت على الملقات ساما

الواحدة ملقة. والأقيدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحشيف من الثياب: الخلق. وسامت مرت. وقال شمر: أملق لازم ومتعد، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:

وأملق ما عندي خطوب تَنَبَّل

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ خطئا ﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالـهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر "خطأ" بفتح الخاء والطاء والـهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد. وهاتان قراءتان مأخوذتان من "خطئ" إذا أتى الذنب على عمد. قال ابن عرفة: يقال خطئ في ذنبه خطأ إذا أثم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد. قال: ويقال خطئ في معنى أخطأ. وقال الأزهري: يقال خطئ يخطأ خطئا إذا تعمد الخطأ؛ مثل أثم يأثم إثما. وأخطأ إذا لم يتعمد إخطاء وخطأ. قال الشاعر:

دعيني إنما خطئي وصوبي علـي وإن ما أهلكت مال

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضد الصواب. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمد وهو قليل، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما "خطأ" بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الـهمزة. قال النحاس: ولا أعرف لـهذه القراءة وجها، ولذلك

جعلها أبو حاتم غلطا. قال أبو علي: هي مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تخاطأت النبل أحشاءه وأخر يومي فلم أعجل

وقول الآخر في وصف مهاة:

تخاطأه القناص حتى وجدته وخرطومه في منقع الماء راسب

الجوهري: تخاطأه أي أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

ألا أبلغا خلتي جابرا بأن خليلك لم يقتل

تخاطأت النبل أحشاءه وأخر يومي فلم يعجل

وقرأ الحسن "خطاء" بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز. وقال أبو الفتح: الخطاء من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا "خطى" بفتح الخاء والطاء منونة من غير همزة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى. والزنى يمد ويقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم

و "سبيلا" نصب على التميز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلا. أي لأنه يؤدي إلى النار. والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار. وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أن النبي ﷺ أتى بامرأة مُجح على باب فسطاط فقال: (لعله يريد أن يُلم بها) فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: (لقد هممت أن ألعنه لعنا يدخل معه قبره كيف يورثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له)[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما ﴾ قد مضى الكلام فيه فى "الأنعام" أي بغير سبب يوجب القتل. ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ أي لمستحق دمه. قال ابن خويز منداد: الولي يجب أن يكون ذكرا؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير. وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولي، فلا جرم، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر لعفوها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد ها هنا

(١) أخرجه مسلم في "النكاح"، (١٤٤١).

بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (التوبة: ٧١)، وقال: ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء ﴾ (الأنفال: ٧٢)، وقال: ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ (الأنفال: ٧٥) فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأما ما ذكروه من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه، وتتمته في كتب الخلاف. ﴿ سلطانا ﴾ أي تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصة. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعي. وقد مضى في سورة "البقرة" هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني: لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يمثل بالقاتل؛ قاله طلق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهي عنه. وقد مضى في "البقرة" القول في هذا مستوفى. وقرأ الجمهور "يسرف" بالياء، يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "تسرف" بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا فلا تسرف أيها القاتل. وقال الطبري: هو على معنى الخطاب للنبي ﷺ والأئمة من بعده. أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبي "فلا تسرفوا في القتل".

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ إنه كان منصورا ﴾ أي معانا، يعني الولي. فإن قيل: وكم من ولي مخذول لا يصل إلى حقه. قلنا: المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصورا. النحاس: ومعنى قوله إن الله نصره بوليه. وروي أنه في قراءة أُبَي "فلا تسرفوا في القتل إن ولي المقتول كان منصورا". قال النحاس: الأبين بالياء ويكون للولي؛ لأنه إنما يقال: لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولي. وقد يجوز بالتاء ويكون للولي أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة. قال الضحاك: هذا أول ما نزل من القرآن في شأن القتل، وهي مكية.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد. ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ عنه، فحذف؛ كقولـه: ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (التحريم: ٦) به وقيل: إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال: نقضت، كما تسأل الموءودة تبكيتا لوائدها.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في الأنعام. وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع، وقد مضى في سورة "يوسف" فلا معنى للإعادة. والقسطاس (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم؛ قاله ابن عزيز. وقال الزجاج: القسطاس: الميزان صغيرا كان أو كبيرا. وقال مجاهد: القسطاس العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأن الناس قيل لـهم: زنوا بمعدلة في وزنكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر "القسطاس" بضم القاف. وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ ذلك خير ﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك. "وأحسن تأويلا" أي عاقبة. قال الحسن: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدلـه الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير لـه من ذلك)[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ ولا تقف ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك. قال قتادة: لا تقل رأيت وأنت لم تر، وسمعت وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم؛ وقالـه ابن عباس رضي الله عنهما. قال مجاهد: لا تذم أحدا بما ليس لك به علم؛ وقالـه ابن عباس رضي الله عنهما أيضا. وقال محمد بن الحنفية: هي شهادة الزور. وقال القتبي: المعنى لا تتبع الحدس والظنون؛ وكلـها متقاربة. وأصل القفو البهت والقذف بالباطل؛ ومنه قولـه ﷺ: (نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا) أي لا نسب أمنا. وقال الكميت:

فلا أرمي البريء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا

يقال: قفوته أقفوه، وقفته أقوفه، وقفيته إذا اتبعت أثره. ومنه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كل شيء آخره، ومنه قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت. ومنه اسم النبي ﷺ المقفى؛ لأنه جاء آخر الأنبياء.

---

(١) ضعيف.

ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشبه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك. وتقول: فقوت الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابن عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب في بعض الألفاظ؛ كما قالوا: رعملي في لعمري. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف، مثل عتا وعات. وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جبذ وجذب. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي "تقف" بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الجراح "والفآد" بفتح الفاء، وهي لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره.

الثانية : قال ابن خويز منداد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال: "ولا تقف ما ليس لك به علم" دل على جواز ما لنا به علم، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القرعة والخرص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يسمى علما اتساعا. فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه. وفي الصحيح عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل علي مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال: (ألم تري أن مُجززا نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غطيا رءوسهما وبدت أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض)[1] . وفي حديث يونس بن يزيد: (وكان مجزز قائفا).

الثالثة : قال الإمام أبو عبد الله المازري: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عياض: وقال غير أحمد كان زيد أزهر اللون، وكان أسامة شديد الأدمة؛ وزيد بن حارثة عربي صريح من كلب، أصابه سباء، حسبما يأتي في سورة "الأحزاب" إن شاء الله تعالى.

الرابعة : استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد، بسرور النبي ﷺ بقول هذا القائف؛ وما كان عليه السلام بالذي يسر بالباطل ولا يعجبه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم متمسكين بإلغاء النبي ﷺ الشبه في حديث اللعان؛ على ما يأتي في سورة (النور) إن شاء الله تعالى.

الخامسة : واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأول: قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهور مذهبه قصره على ولد الأمة. والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي رضي الله عنه ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حران فكيف يلغى السبب الذي خرج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بد من اثنين لأنها شهادة؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصه. وبالثاني قال مالك والشافعي رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٥)، وفي مواضع أخرى ومسلم (١٤٥٩).

السادسة : قولـه تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأس من ذلك وسمع. وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده؛ ونظيره قولـه ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[1] فالإنسان راع على جوارحه؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي؛ كما قال: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلـهم بما كانوا يكسبون ﴾ (يس: ٦٠)، وقولـه ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ (فصلت: ٢٠). وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لـها إدراك، وجعلـها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة من يعقل، فلذلك عبر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قولـه تعالى: ﴿رأيتهم لي ساجدين ﴾(يوسف: ٤): إنما قال: "رأيتهم" في نجوم، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل؛ وقد تقدم. وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد هو والطبري:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ،والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده. وأما البيت فالرواية فيه "الأقوام" والله أعلم.

قوله تعالى:﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحا ﴾ هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع. والمرح: شدة الفرح. وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأشر. وقيل: هو النشاط وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم والآخر محمود؛ فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما؛ ففي الحديث الصحيح (لله أفرح بتوبة العبد من رجل...)[2] الحديث. والكسل مذموم شرعا والنشاط ضده. وقد يكون التكبر وما في معناه محمودا، وذلك على أعداء الله والظلمة. أسند أبو حاتم محمد بن حبان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من الغيرة ما يبغض الله عز وجل ومنها ما يحب الله عز وجل ومن الخيلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله فأما الغيرة التي يحب الله الغيرة في الدين والغيرة التي يبغض الله الغيرة في غير دينه والخيلاء التي يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذي يبغض الله الخيلاء في الباطل) وأخرجه أبو داود في مصنفه وغيره[3]. وأنشدوا:

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

(٣) "حسن" انظر صحيح أبي داود (٢٣١٦).

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومَنعة فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانية : إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفعا دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، ويجم فيها نفسه في التطرح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ مرحا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل. والأول أبلغ، فإن قولك: جاء زيد ركضا أبلغ من قولك: جاء زيد راكضا؛ فكذلك قولك مرحا. والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مرحا.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ يعني لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أي لن تساوي الجبال بطولك ولا تطاولك، ويقال: خرق الثوب أي شقه، وخرق الأرض قطعها. والخرق: الواسع من الأرض. أي لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها. "ولن تبلغ الجبال طولا" بعظمتك، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف، فلا يليق بك التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهري: معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبين؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أي أكثر سفرا وعزة ومنعة. ويروى أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسهلا وجبلا، وقتل سادة وسبى - وبه سمي سبأ - ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أول عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمرح؛ نعوذ بالله من ذلك.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ "ذلك" إشارة إلى جملة ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه. و"ذلك" يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق "سيئه" على إضافة سيئ إلى الضمير، ولذلك قال: "مكروها" نصب على خبر كان. والسيئ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿ وقضى ربك ﴾ إلى قوله ﴿ كان سيئه ﴾ (الإسراء: ٢٣) مأمورات بها ومنهيات عنها، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهي عنه. واختار هذه القراءة أبو عبيد. ولأن في قراءة أبي "كل ذلك كان سيئاته" فهذه لا تكون إلا للإضافة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو "سيئة" بالتنوين؛ أي كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿ وأحسن تأويلا ﴾ (النساء: ٥٩) ثم قال: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾

(الإسراء: ٣٦)، "ولا تمش"، ثم قال: "كل ذلك كان سيئة" بالتنوين. وقيل: إن قوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ (الأنعام: ١٥١) إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه، فجعلوا "كلا" محيطا بالمنهي عنه دون غيره. وقوله: "مكروها" ليس نعتا لسيئة، بل هو بدل منه؛ والتقدير: كان سيئة وكان مكروها. وقد قيل: إن "مكروها" خبر ثان لكان حمل على لفظه كل، و"سيئة" محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل. وقال بعضهم: وهو نعت لسيئة؛ لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر. وضعف أبو علي الفارسي هذا وقال: إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكرا، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر؛ ألا ترى قول الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

مستقبح عندهم. ولو قال قائل: أبقل أرض لم يكن قبيحا. قال أبو علي: ولكن يجوز في قوله "مكروها" أن يكون بدلا من "سيئة". ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذي في "عند ربك" ويكون "عند ربك" في موضع الصفة لسيئة.

الخامسة: استدل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال: "ولا تمش في الأرض مرحا" وذم المختال. والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما. فما أقبح من ذي لحية، وكيف إذا كان شيبة، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصوات لنسوان ومردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين، يشمس بالرقص شمس البهائم، ويصفق تصفيق النسوان، ولقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التبسم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله: ولقد حدثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي ﷺ أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في "الكهف" وغيرها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

الإشارة بـ "ذلك" إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله "ولا تجعل" على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من سمع الآية من البشر.

والمدحور: المهان المبعد المقصى. وقد تقدم في هذه السورة. ويقال في الدعاء: اللهم ادحر عنا الشيطان؛ أي أبعده.

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ﴾ هذا يرد على من قال من العرب: الملائكة بنات الله، وكان لهم بنات أيضا مع البنين، ولكنه أراد: أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه. ﴿إنكم لتقولون قولا عظيما ﴾ أي في الإثم عند الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا ﴾ أي بينا. وقيل كررنا (في هذا القرآن) قيل "في" زائدة، والتقدير: ولقد صرفنا هذا القرآن، مثل "وأصلح لي في ذريتي" أي أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة؛ أي غايرنا بين المواعظ ليذكروا ويعتبروا ويتعظوا. وقراءة العامة "صرفنا" بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف وقوله "في هذا القرآن" يعني الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: "صرفنا" معنيان؛ أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا؛ مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما؛ نحو قوله ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ (الإسراء: ١٠٦) ومعناه: أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك. (وقوله "في هذا القرآن" قيل "في" زائدة، والتقدير: ولقد صرفنا هذا القرآن؛ مثل ﴿وأصلح لي في ذريتي ﴾ (الأحقاف: ١٥) أي أصلح ذريتي. وقوله "في هذا القرآن" يعني الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام)[(١)].

قوله تعالى: ﴿ ليذكروا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي "ليذكروا" مخففا، وكذلك في الفرقان ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ (الفرقان: ٥٠). الباقون بالتشديد. واختاره أبو عبيد؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا. قال المهدوي: من شدد "ليذكروا" أراد التدبر. وكذلك من قرأ "ليذكروا". ونظير الأول ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ (القصص: ٥١) والثاني: ﴿واذكروا ما فيه ﴾ (البقرة: ٦٣).

قوله تعالى: ﴿وما يزيدهم ﴾ أي التصريف والتذكير.

قوله تعالى: ﴿إلا نفورا ﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر.

---
(١) سقطت من نسخة دار الريان.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل لو كان معه آلهة ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ (الإسراء ٢٢) وهو رد على عُباد الأصنام. ﴿ كما يقولون ﴾ قرأ ابن كثير وحفص "يقولون" بالياء. الباقون "تقولون" بالتاء على الخطاب. ﴿ إذاً لابتغوا ﴾ يعني الآلهة. ﴿ إلى ذي العرش سبيلا ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقال سعيد بن جبير ﷺ: المعنى إذاً لطلبوا طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه، لأنهم شركاؤه. وقال قتادة: المعنى إذاً لابتغت الآلهة القربة إلى ذي العرش سبيلا، والتمست الزلفة عنده لأنهم دونه، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ نزه سبحانه نفسه وقدسه ومجده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿ ومن فيهن ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصص أم لا؛ فقالت فرقة: ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه. وأجيبوا بأن المراد بقوله: "لا تفقهون" الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله "من شيء" عموم، ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة؛ يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا.

قلت: ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان

لا يستبرئ من البول) قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال: (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)[١]. فقوله ﷺ: (ما لم ييبسا) إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادا. والله أعلم. وفي مسند أبي داود الطيالسي: فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال: (لعله أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء). قال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن. وقد بينا هذا المعنى في كتاب التذكرة بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح.

قلت: ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ (ص: ١٧)، وقوله: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ (البقرة: ٧٤) ـ على قول مجاهد ـ، وقوله: ﴿وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا﴾ (مريم: ٩٠). وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إن الجبل يقول للجبل: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل؟ فإن قال نعم سر به. ثم قرأ عبد الله "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا" الآية. قال: أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير. وفيه عن أنس بن مالك ﷺ قال: ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا. يا جاراه؛ هل مر بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها. وقال رسول الله ﷺ: (لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة). رواه ابن ماجه في سننه[٢]، ومالك في موطئه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وخرج البخاري عن عبد الله ﷺ قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. في غير هذه الرواية عن ابن مسعود ﷺ: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه. وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن). قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملة منها في اللمع اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضا مشهور في هذا الباب خرجه البخاري في مواضع من كتابه. وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك؛ فكل شيء يسبح للعموم. وكذا قال النخعي وغيره: هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب. واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) صحيح، انظر صحيح ابن ماجه (٥٩١).

تُلقى بتسبيحة من حيث ما انصرفت وتستقر حشا الرائي بترعاد

أي يقول من رآها: سبحان خالقها. فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى. والله أعلم. وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف "تفقهون" بالتاء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتأنيث. ﴿ إنه كان حليما ﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا. ﴿ غفورا ﴾ للمؤمنين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لما نزلت سورة "تبت يدا أبي لهب" أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمما عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا

والنبي ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر ﷺ؛ فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله ﷺ: (إنها لن تراني) وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال. وقرأ "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا". فوقفت على أبي بكر ﷺ ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني! فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. وقال سعيد بن جبير ﷺ: لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ (المسد: ١) جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر ﷺ، فقال أبو بكر: لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذية. فقال النبي ﷺ: (إنه سيحال بيني وبينها) فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمصدقه؛ فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، أما رأتك؟ قال: (لا ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت). وقال كعب ﷺ في هذه الآية: كان النبي ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ (الكهف: ٥٧)، والآية التي في النحل ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ (النحل: ١٠٨)، والآية التي في الجاثية ﴿ أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ (الجاثية: ٢٣) الآية. فكان النبي ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين. قال كعب ﷺ: فحدثت بهن رجلا من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا، ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الري فأسر بالديلم، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه.

قلت: ويزاد إلى هذه الآي أول سورة يس إلى قوله "فهم لا يبصرون". فإن في السيرة في هجرة النبي ﷺ ومقام علي ﷺ في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم - إلى قوله - وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ (يس: ٦). حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله؛ يعنون شيطانا. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك. وقيل: الحجاب المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة. وقال الحسن: أي أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية. وقيل: نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره. وهو معنى القول الأول بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم. وقوله: ﴿مستورا﴾ فيه قولان: أحدهما - أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني: أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا به بمعنى ساتر.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ "أكنة" جمع كنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في "الأنعام". ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني. وهذا رد على القدرية. ﴿وفي آذانهم وقرا﴾ أي صمما وثقلا. وفي الكلام إضمار، أي أن يسمعوه. ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ أي قلت: لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن. وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله: ليس شيء أطرد للشياطين من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا "وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا". وقال علي بن الحسين: هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة. ﴿ولوا على أدبارهم نفورا﴾ قيل: يعني

بذلك المشركين. وقيل: الشياطين. و "نفورا" جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال. ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قولـه "ولوا" بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا.

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك ﴾ قيل: الباء زائدة في قولـه "به" أي يستمعونه. وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قالـه قتادة وغيره. ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ أي متناجون في أمرك. قال قتادة: وكانت نجواهم قولـهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين، وغير ذلك. وقيل: نزلت حين دعا عتبة أشراف قريش إلى طعام صنعه لـهم، فدخل عليهم النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا؛ يقولون ساحر ومجنون. وقيل: أمر النبي ﷺ عليا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين؛ ففعل ذلك علي ودخل عليهم رسول الله ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: (قولوا لا إلـه إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم) فأبوا، وكانوا يستمعون من النبي ﷺ ويقولون بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور؛ فنزلت الآية. وقال الزجاج: النجوى اسم للمصدر؛ أي وإذ هم ذو نجوى، أي سرار. ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالـهما. ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ أي مطبوبا قد خبلـه السحر فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس. وقال مجاهد: "مسحورا" أي مخدوعا؛ مثل قولـه: ﴿ فأنى تسحرون ﴾ (المؤمنون: ٨٩) أي من أين تخدعون. وقال أبو عبيدة: "مسحورا" معناه أن لـه سحرا، أي رئة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب؛ فهو مثلكم وليس بملك. وتقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره. ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومسحر. قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا   عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب   ونسحر بالطعام وبالشراب

أي نغذى ونعلل. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من هذه التي تساميني من أزواج النبي ﷺ؛ وقد توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري.

قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارة ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر. ﴿ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ أي حيلة في صد الناس عنك. وقيل: ضلوا عن الحق فلا يجدون سبيلا، أي إلى الـهدى. وقيل: مخرجا؛ لتناقض كلامهم في قولـهم: مجنون، ساحر، شاعر.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا ﴾ أي قالوا وهم يتناجون لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحورا مخدوعا لما قال هذا. قال ابن عباس: الرفات الغبار. مجاهد: التراب. والرفات ما تكسر وبلي من كل شيء؛ كالفتات والحطام والرضاض؛ عن أبي عبيدة والكسائي والفراء والأخفش. تقول منه: رفت الشيء رفتا، أي حطم؛ فهو مرفوت. ﴿ أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ "أئنا" استفهام والمراد به الجحد والإنكار. و"خلقا" نصب لأنه مصدر؛ أي بعثا جديدا. وكان هذا غاية الإنكار منهم.

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ ﴾

أي قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدا في الشدة والقوة. قال الطبري: أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم. وقال علي بن عيسى: معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم. وقال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون. النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة. ﴿ أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال لعظمها في النفوس. وهو معنى قول قتادة. يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه؛ قال أمية بن أبي الصلت:

وللموت خلق في النفوس فظيع

يقول: إنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنكم ولأبعثنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم. وهو معنى قوله: ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾. وفي الحديث أنه (يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار)[1]. وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر في صدورهم؛ قاله الكلبي. "فطركم" خلقكم وأنشأكم. ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ﴾ أي يحركون رءوسهم استهزاء؛ يقال: نغض رأسه ينغض وينغض نغضا ونغوضا؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

أي تحرك. وأنغض رأسه أي حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾. قال الراجز:

أنغض نحوي رأسه وأقنعا

ويقال أيضا: نغض فلان رأسه أي حركه؛ يتعدى ولا يتعدى، حكاه الأخفش. ويقال: نغضت سنه؛ أي تحركت وانقلعت. قال الراجز:

ونغضت من هرم أسنانها

وقال آخر:

لما رأتني أنغضت لي الرأسا

وقال آخر:

لا ماء في المقراة إن لم تنهض بمسد فوق المحال النغض

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يستقي بها الإبل. ﴿ويقولون متى هو﴾ أي البعث والإعادة وهذا الوقت. ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ أي هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣) و﴿لعل الساعة قريب﴾ (الشورى: ١٧). وكل ما هو آت فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾

قوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة. قال ﷺ: (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم)[٢]. ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي باستحقاقه الحمد على الإحياء. وقال أبو سهل: أي والحمد لله؛ كما قال:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست، ولا من غدرة أتقنع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم. وقال ابن عباس: "بحمده" بأمره؛ أي تقرون بأنه خالقكم. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقيل: المعنى بقدرته. وقيل: بدعائه إياكم. قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ وقال في آخر ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ (الزمر: ٧٥). ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون؛ فذلك قوله تعالى: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ (يس: ٥٢)

(٢) "ضعيف" أخرجه أحمد وأبو داود من حديث أبي الدرداء، وانظر ضعيف الجامع (٢٠٣٥).

فيكون خاصا للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هجعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين. وقال قتادة: المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ تقدم إعرابه. والآية نزلت في عمر بن الخطاب. وذلك أن رجلا من العرب شتمه، وسبه عمر وهم بقتله، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ ذكره الثعلبي والماوردي وابن عطية والواحدي. وقيل: نزلت لما قال المسلمون: ايذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا، فقال: (لم أومر بعد بالقتال) فأنزل الله تعالى: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾؛ قاله الكلبي. وقيل: المعنى قل لعبادي الذين اعترفوا بأني خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ (الأنعام: ١٠٨). وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامة في المؤمن والكافر، أي قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح واطراح نزغات الشيطان؛ وقد قال ﷺ: (وكونوا عباد الله إخوانا). وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدم في آخر (الأعراف) (ويوسف). يقال: نزغ بيننا أي أفسد؛ قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ الإغراء. ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ أي شديد العداوة. وقد تقدم في "البقرة". وفي الخبر (أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان). فهذا من بعض عداوته.

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم؛ قاله ابن جريج.

و "أعلم" بمعنى عليم؛ نحو قولـهم: الله أكبر، بمعنى كبير. وقيل: الخطاب للمؤمنين؛ أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ قالـه الكلبي. ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ أي وما وكلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلا لـهم تؤخذ بهم؛ قالـه الكلبي. وقال الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبت كأنني ... برد الأمـور الماضيات وكيل

أي كفيل.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ أعاد بعد أن قال: "ربكم أعلم بكم" ليبين أنه خالقهم وأنه جعلـهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالـهم ومالـهم ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ (الملك: ١٤). وكذا النبيون فضل بعضهم على بعض عن علم منه بحالـهم. وقد مضى القول في هذا في (البقرة). ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد. أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن. وهو في محاجة اليهود.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية؛ أي ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلـهة. وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيرا. ابن مسعود: يعني الجن. ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي القحط سبع سنين، على قول مقاتل. ﴿ ولا تحويلا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السقم إلى الصحة.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ "أولئك" مبتدأ "الذين" صفة "أولئك" وضمير الصلة محذوف؛ أي يدعونهم. يعني أولئك المدعوون. و﴿ يبتغون ﴾ خبر، أو يكون حالا، و"الذين

يدعون" خبر؛ أي يدعون إليه عبادا إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود "تدعون" بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في "يبتغون" أنه بالياء. وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل: "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن. في رواية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة". وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره الماوردي. وقال ابن عباس ومجاهد: عزير وعيسى. و"يبتغون" يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم. والهاء والميم في "ربهم" تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا. وأما "يدعون" فعلى العابدين. "ويبتغون" على المعبودين. ﴿ أيهم أقرب ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون "أيهم أقرب" بدلا من الضمير في "يبتغون"، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله. ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ أي مخوفا لا أمان لأحد منه؛ فينبغي أن يحذر منه ويخاف. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها ﴾ أي مخربوها. ﴿ قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم. فقيل: المعنى وإن من قرية ظالمة؛ يقوي ذلك قوله: ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (القصص: ٥٩). أي فليتق المشركون، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب. ﴿ كان ذلك في الكتاب ﴾ أي في اللوح. ﴿ مسطورا ﴾ أي مكتوبا. والسطر: الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر. والسطر (بالتحريك)، مثله. قال جرير:

من شاء بايعته مالي وخُلعته ... ما تكمل التيم في ديوانهم سطرا

الخلعة (بضم الخاء): خيار المال. والسطر جمع أسطار؛ مثل سبب وأسباب، ثم يجمع على أساطير. وجمع السطر أسطر وسطور؛ مثل أفلس وفلوس. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم. قال

معناه قتادة وابن جريج وغيرهما. فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا. وقد تقدم في "الأنعام" وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهبا وتتنحى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال: (إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم). فقال: (لا بل استأن بهم). و"أن" الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، و"أن" الثانية في محل رفع. والباء في "بالآيات" زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه. ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ أي آية دالة مضيئة نيرة على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى. وقد تقدم ذلك. ﴿ فظلموا بها ﴾ أي ظلموا بتكذيبها. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب. ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ فيه خمسة أقوال: الأول: العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين. الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي. الثالث: أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك؛ وهذا قول أحمد بن حنبل ﷺ. الرابع: القرآن. الخامس: الموت الذريع؛ قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم؛ أي أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي لتحقق كونه. وعني بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح. وقيل: معنى "أحاط بالناس" أي أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته؛ قاله مجاهد وابن أبي نجيح. وقال الكلبي: المعنى أحاط علمه بالناس. وقيل: المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه؛ أي وما أرسلناك عليهم حفيظا، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدك فإنا نعصمك منهم ونحفظك، فلا تهبهم، وامض لما آمرك به من تبليغ الرسالة، فقدرتنا محيطة بالكل؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها النبي

ﷺليلة أسري به إلى بيت المقدس. قال: "والشجرة الملعونة في القرآن" هي شجرة الزقوم. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث صحيح. وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن أبي نجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺأنه أسري به. وقيل: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها. وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺأنه يدخل مكة في سنة الحديبية، فرد فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾(الفتح: ٢٧). وفي هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة. وقال في رواية ثالثة: إنه ﷺرأى في المنام بني مروان ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها، فسري عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل بن سعد ﷺ. قال سهل إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله ﷺكان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات ﷺ [(١)]. فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا. وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾(الأنبياء: ١١١). قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية.

قوله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾فيه تقديم وتأخير؛ أي ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وفتنتها أنهم لما خوفوا بها قال أبو جهل استهزاء: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه: تزقموا. وقد قيل: إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزبعرى حيث قال: كثر الله من الزقوم في داركم، فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن. وجائز أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيّه ﷺ أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدق من سبق له الإيمان. كما روي أن أبا بكر الصديق ﷺقيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس فقال: إن كان قال ذلك فلقد صدق. فقيل له: أتصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير.

---

(١)ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٣/ ٤٩)، وقال: "وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضا ضعيف بالكلية".

قلت: ذكر هذا الخبر ابن إسحاق، ونصه: قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراهﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأم هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كل يحدث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسري بهﷺ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى على يقين؛ فأسرى بهﷺ كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أتى رسول اللهﷺ بالبراق ـ وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبلـه تضع حافرها في منتهى طرفها ـ فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا لـه فصلى بهم ثم أتي بثلاثة آنية: إناء فيه لبن وإناء فيه خمر؛ وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول اللهﷺ: (فسمعت قائلا يقول حين عُرِضَت عليّ إن أخذ الماء فغرق وغرقت أمته وإن أخذ الخمر فغوي وغوت أمته وإن أخذ اللبن فهُدي وهُديت أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لـه جبريل هُديت وهُديت أمتك يا محمد)[1]. قال ابن إسحاق: وحدثت عن الحسن أنه قال: قال رسول اللهﷺ: (بينما أنا نائم في الحجر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عدت لمضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته)[2]. قال ابن إسحاق: وحدثت عن قتادة أنه قال: حدثت أن رسول اللهﷺ قال: (لما دنوت منه لأركبه شمس فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال ألا تستحي يا براق مما تصنع فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى أرفض عرقا ثم قر حتى ركبته)[3].

قال الحسن في حديثه: فمضى رسول اللهﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمهم رسول اللهﷺ فصلى بهم ثم أتيَ بإناءين: في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، قال: فأخذ رسول اللهﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر. قال: فقال لـه جبريل: هديت الفطرة وهديت أمتك وحرمت عليكم الخمر. ثم انصرف رسول اللهﷺ إلى مكة، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر؛ فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام، مدبرة شهرا ومقبلة شهرا، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة قال: فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة. قال فقال

---

(١) ضعيف لإرساله.
(٢) ضعيف.
(٣) ضعيف.

أبو بكر الصديق ﷺ: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذا في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال (نعم) قال: يا نبي الله، فصفه لي فإني قد جئته؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: (رفع لي حتى نظرت إليه) فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر ﷺ: صدقت، أشهد أنك رسول الله. كلما وصف لـه منه شيئا قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ: (وأنت يا أبا بكر الصديق) فيومئذ سماه الصديق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن الإسلام لذلك: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا". فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة[1]. وذكر باقي الإسراء عمن تقدم في السيرة. وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أمية، وأن النبي ﷺ نفى الحكم. وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله. ثم قال: "والشجرة الملعونة في القرآن" ولم يجز في القرآن لعن هذه الشجرة، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها. ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون. وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله، يعني الكشوث. ﴿ونخوفهم﴾ أي بالزقوم. ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تقدم ذكر كون الشيطان عدو الإنسان، فانجر الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا﴾ أي من طين. وهذا استفهام إنكار. وقد تقدم القول في خلق آدم في "البقرة" و"الأنعام" مستوفى. ﴿قال أرأيتك﴾ أي قال إبليس. والكاف توكيد للمخاطبة. ﴿هذا الذي كرمت علي﴾ أي فضلته علي. ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة. وقد تقدم هذا في "الأعراف". و"هذا" نصب بـ "أرأيت". "الذي" نعته. والإكرام: اسم

---

(١) ضعيف.

جامع لكل ما يحمد. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف؛ أي أترى هذا الذي كرمته علي لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى ﴿ لأحتنكن ﴾ في قول ابن عباس: لأستولين عليهم. وقاله الفراء. مجاهد: لأحتوينهم. ابن زيد: لأضلنهم. والمعنى متقارب؛ أي لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم. وروي عن العرب: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله. وقيل: معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت. ومن قولهم: حنكت الفرس أحنكه وأحنكه حنكا إذا جعلت في فيه الرسن. وكذلك احتنكه. والقول الأول قريب من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحنك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا واجتلفت

﴿ إلا قليلا ﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الإسراء: ٦٥) وإنما قال إبليس ذلك ظنا، كما قال الله تعالى: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ (سبأ: ٢٠) أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم؛ أو بنى على قول الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ (البقرة: ٣٠). وقال الحسن: ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزما.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال اذهب ﴾ هذا أمر إهانة؛ أي اجهد جهدك فقد أنظرناك ﴿ فمن تبعك منهم ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم. ﴿ فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ أي وافرا؛ عن مجاهد وغيره. وهو نصب على المصدر، يقال: وفرته أفره وفرا، ووفر المال بنفسه يفر وفورا فهو وافر؛ فهو لازم ومتعد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ واستفزز ﴾ أي استزل واستخف. وأصله القطع، ومنه تفزز الثوب إذا انقطع. والمعنى استزله بقطعك إياه عن الحق. واستفزه الخوف أي استخفه. وقعد مستوفزا أي غير مطمئن. "واستفزز" أمر تعجيز، أي أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ بصوتك ﴾ وصوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى؛ عن ابن عباس. مجاهد: الغناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمار. وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزمر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزنوا؛ ذكره الغزنوي. وقيل: "بصوتك" بوسوستك.

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أصل الإجلاب السوق بجلبة من السائق؛ يقال: أجلب إجلابا. والجلب والجلبة: الأصوات؛ تقول منه: جلبوا بالتشديد. وجلب الشيء يجلبه ويجلُبه جَلَبا وجَلْبا. وجلبت الشيء إلى نفسي واجتلبته بمعنى. وأجلب على العدو إجلابا؛ أي جمع عليهم. فالمعنى أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك. وقال أكثر المفسرين: يريد كل راكب وماش في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إن لـه خيلا ورجلا من الجن والإنس. فما كان من راكب وماش يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالته. وروى سعيد ابن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال: كل خيل سارت في معصية الله، وكل رجل مشت في معصية الله، وكل مال أصيب من حرام، وكل ولد بغية فهو للشيطان. والرجل جمع راجل؛ مثل صحب وصاحب. وقرأ حفص "ورجلك" بكسر الجيم وهما لغتان؛ يقال: رَجْل ورَجِل بمعنى راجل. وقرأ عكرمة وقتادة "ورجالك" على الجمع.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله؛ قالـه الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حلـها؛ قالـه مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وقالـه قتادة. الضحـاك: ما كانوا يذبحونه لآلـهتهم. والأولاد قيل: هـم أولاد الزنى، قالـه مجاهـد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضا: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضا: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد اللات وعبد الشمس ونحوه. وقيل: هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هودوهم ونصروهم، كصنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لـهم؛ قاله قتادة. وقول خامس ـ روى عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليلـه فجامع معه، فذلك قولـه تعالى: ﴿ لم يطمثهن إنس قبلـهم ولا جان ﴾ وسيأتي. وروي من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : (إن فيكم مغرِّبين) قلت: يا رسول الله، وما المغربون؟ قال: (الذين يشترك فيهم الجن). رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. قال الـهروي: سموا مغربين لأنه دخل فيهم عرق غريب. قال الترمذي الحكيم: فللجن مساماة بابن آدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوج فيهم، وكانت بلقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الخامسة : قولـه تعالى: ﴿ وعدهم ﴾ أي منّهم الأماني الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم يقويه قولـه تعالى: "يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا" أي باطلا. وقيل: "وعدهم" أي عدهم النصرة على من أرادهم بسوء. وهذا الأمر للشيطان تهدد ووعيد لـه. وقيل: استخفاف به وبمن اتبعه.

السادسة : في الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللهو؛ لقوله : "واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم" على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع! أتسمع؟ فأقول نعم؛ فمضى حتى قلت له لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمع صوت زمارة راع فصنع مثل هذا. قال علماؤنا: إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة (لقمان) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدم الكلام فيه. ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ أي عاصما من القبول من إبليس، وحافظا من كيده وسوء مكره.

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ﴾ الإزجاء: السوق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا ﴾. وقال الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة. والفلك هنا جمع، وقد تقدم. والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا، وقد غلب هذا الاسم على الملح. وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده؛ أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا. ﴿لتبتغوا من فضله ﴾ أي في التجارات. وقد تقدم. ﴿إنه كان بكم رحيما ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ﴾ "الضر" لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجري. وأهوال حالاته اضطرابه وتموجه. ﴿ضل من تدعون إلا إياه ﴾ "ضل" معناه تلف وفقد؛ وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلها من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا. وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل. ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي عن الإخلاص. ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ الإنسان هنا الكافر. وقيل: وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله؛ فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسف: أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال: بئر خسيف إذا انهدم أصلـها. وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس. وعين من الماء خاسفة أي غار ماؤها. وخسفت الشمس أي غابت عن الأرض. وقال أبو عمرو: والخسيف البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة. والجمع خسف. وجانب البر: ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا. وأيضا فإن البحر جانب والبر جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحلـه جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهـم ما خافـوه من البحر. ﴿ أو يرسل عليكم حاصبا ﴾ يعني ريحا شديدة، وهي التي ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار؛ قالـه أبو عبيدة والقتبي. وقال قتادة: يعني حجارة من السماء تحصبهم، كما فعل بقوم لوط. ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد: صاحب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب وحصبة أيضا. قال لبيد:

جرت عليها أن خوت من أهلـها ... أذيالـها كـل عصـوف حصـبه

وقال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا ... بحاصـب كنديف القطن منثور

قوله تعالى: ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ أي حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ يعني في البحر. ﴿ فيرسل عليكم قاصفا من الريح ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة؛ من قصف الشيء يقصفه؛ أي كسره بشدة. والقصف: الكسر؛ يقال: قصفت الريح السفينة. وريح قاصف: شديدة. ورعد قاصف: شديد الصوت. يقال: قصف الرعد وغيره قصيفا. والقصيف: هشيم الشجر. والتقصف التكسر. والقصف أيضا: اللهو واللعب؛ يقال: إنها مولدة. ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بكفركم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "نخسف بكم" "أو نرسل عليكم" "أن نعيدكم" "فنرسل عليكم" "فنغرقكم" بالنون في الخمسة على التعظيم، ولقولـه: "علينا" الباقون بالياء؛ لقولـه في الآية قبل: "إياه". وقرأ أبو جعفر وشيبة ورويس ومجاهد "فتغرقكم" بالتاء نعتا للريح. وعن الحسن وقتادة "فيغرقكم" بالياء

مع التشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر "الرياح" هنا وفي كل القرآن. وقيل: إن القاصف المهلكة في البر، والعاصف المغرقة في البحر؛ حكاه الماوردي. ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ قال مجاهد: ثائرا. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع وتابع؛ ومنه ﴿فاتباع بالمعروف﴾ (البقرة: ١٧٨) أي مطالبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ الآية. لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا. "كرمنا" تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرما أي شرفا وفضلا. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة. وغاية كل حيوان يأكل لحما نيئا أو طعاما غير مركب. وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم. وروي عن ابن عباس؛ ذكره المهدوي والنحاس؛ وهو قول الكلبي ومقاتل؛ ذكره الماوردي. وقال الضحاك: كرمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمدا ﷺ منهم. وقيل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبري: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. وقيل: بالكلام والخط. وقيل: بالفهم والتمييز. والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين؛ فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء. وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بها ابن آدم أيضا؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه. والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ (النساء: ١٧١). وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل

فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بني آدم ما خصهم به من سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرض الآية لذكرهم، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوي، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع. وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر (لا تخايروا بين الأنبياء ولا تفضلوني على يونس بن متى). وهذا ليس بشيء؛ لوجود النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء. وقد بيناه في "البقرة" ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة.

الرابعة : هذه الآية ترد ما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول الله ﷺ : (احرموا أنفسكم طيب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجري في العروق منها)(١) . وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأن القرآن يرده، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرر في غير موضع. وقد حكى أبو حامد الطوسي قال: كان سهل يقتات من ورق النبق مدة. وأكل دقاق ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبت ذا النون من إخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا وملحا كان معي، وقلت: هلم. فقال لي: ملحك مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لست تفلح! فنظرت إلى مزوده وإذا فيه قليل سويق شعير يسف منه. وقال أبو يزيد: ما أكلت شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مزاجه؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر. وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت فقد قوومت حكمة البارئ سبحانه بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل. ومعلوم أن البدن مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلغ. وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حُوارى، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف وغيرهما. والأول غلو في الدين إن صح عنهم﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ (الحديد: ٢٧).

---

(١) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٣/ ٣٠)، والسيوطي في "اللآلئ المصنوعة" (٢/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَـٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال: (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعا، ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثل هذا - قال - وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا! اللهم لا تأتنا بهذا. قال: فيأتيهم فيقولون اللهم أخره. فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا)[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قوله: "وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون". والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: "بإمامهم" أي بكتابهم، أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله؛ دليله "فمن أوتي كتابه بيمينه". وقال ابن زيد: بالكتاب المنزل عليهم. أي يدعى كل إنسان بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن؛ فيقال: يأهل القرآن، ماذا عملتم، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه! وهكذا. وقال مجاهد: "بإمامهم" بنبيهم، والإمام من يؤتم به. فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متبعي موسى عليه السلام، هاتوا متبعي الشيطان، هاتوا متبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم. وقاله قتادة. وقال علي رضي الله عنه: بإمام عصرهم. وروي عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ فقال: (كل يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم فيقول هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد - عليهم أفضل الصلوات والسلام - فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقول: هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة). وقال الحسن وأبو العالية: "بإمامهم" أي بأعمالهم. وقاله ابن عباس. فيقال: أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور. وقيل: بمذاهبهم؛ فيدعون بمن كانوا يأتمون به في الدنيا: يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدري، ونحوه؛ فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة. وقد تقدم. وقال أبو هريرة: يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد...، الحديث بطوله. أبو سهل: يقال أين فلان المصلي والصوام، وعكسه الدفاف والنمام. وقال محمد بن كعب: "بإمامهم" بأمهاتهم. وإمام جمع آم. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها - لأجل عيسى. والثاني - إظهار لشرف الحسن والحسين. والثالث - لئلا يفتضح أولاد الزنى.

---

(١) "وضعيف" أخرجه الترمذي (٣٣٤٥- أحوذي)، وقال: "هذا حديث حسن غريب، والسدي اسمه إسماعيل بن عبد الرحمن". قال المباركفوري: "وعبد الرحمن بن أبي كريمة والد السدي مجهول الحال".

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان) خرجه مسلم والبخاري. فقوله: هذه غدرة فلان بن فلان) دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يرد على من قال: إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترا على آبائهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ هذا يقوي قول من قال: "بإمامهم" بكتابهم ويقويه أيضا قوله: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (يس:١٢). ﴿ فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ﴾ الفتيل الذي في شق النواة. وقد مضى في "النساء".

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ أي في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿ فهو في الآخرة ﴾ أي في أمر الآخرة ﴿ أعمى ﴾ وقال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرؤوا ما قبلها "ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر - إلى - تفضيلا". قال ابن عباس: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلا. وقيل: المعنى من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى. وقيل: المعنى من كان في الدنيا التي أمهل فيها وفسح له ووعد بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى وأضل سبيلا. وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى؛ كما قال: "ونحشره يوم القيامة أعمى" الآيات. وقال: "ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم". وقيل: المعنى في قوله "فهو في الآخرة أعمى" في جميع الأقوال: أشد عمى؛ لأنه من عمى القلب، ولا يقال مثله في عمى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خلقة بمنزلة اليد والرجل، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى. وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأن فعله عمي وعشي. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخ بصري أنه سمع العرب تقول: ما أسود شعره. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر وفي المخازي لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم لؤما وأبيضهم سربال طباخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف الحرفين "أعمى" و"أعمى" وفتح الباقون. وأمال أبو عمرو الأول وفتح الثاني. ﴿ وأضل سبيلا ﴾ يعني أنه لا يجد طريقا إلى الهداية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ قال سعيد بن جبير: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُسلم بآلـهتنا. فحدث نفسه وقال: (ما علي أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم أني لـها كاره)[1] فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططا وقالوا: متعنا بآلـهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لـها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرم وادينا كما حرمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم؛ فهم رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية. وقيل: هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهم بذلك حتى نهي عنه. وقال قتادة ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه، ويسودونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا يا سيدنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى ﴿ ليفتنونك ﴾ أي يزيلونك. يقال: فتنت الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الـهروي. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿ عن الذي أوحينا إليك" أي حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. ﴿ لتفتري علينا غيره ﴾ أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، وهو قول ثقيف: وحرم وادينا كما حرمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرني بذلك حتى يكون عذرا لك. ﴿ وإذاً لاتخذوك خليلا ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا، أي والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة (بالضم) وهي الصداقة لممايلته لـهم. وقيل: "لاتخذوك خليلا" أي فقيرا. مأخوذ من الخلة (بفتح الخاء) وهي الفقر لحاجته إليهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ أي على الحق وعصمناك من موافقتهم. ﴿ لقد كدت تركن إليهم ﴾ أي تميل. ﴿ شيئا قليلا ﴾ أي ركونا قليلا. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين). وقيل: ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولـهم؛ فنسب فعلـهم إليه مجازا واتساعا؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوي. وقيل ما كان منه هم بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوما، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه.

---

(١) مرسل.

وقولـه: ﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ قالـه ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد. وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لـها العذاب ضعفين﴾ (الأحزاب: ٣٠) وضعف الشيء مثلـه مرتين، وقد يكون الضعف النصيب؛ كقولـه عز وجل: ﴿لكل ضعف﴾ (الأعراف: ٣٨) أي نصيب. وقد تقدم في الأعراف.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية؛ حسبما تقدم في أول السورة. قال ابن عباس: حسدت اليهود مقام النبي ﷺ بالمدينة فقالوا: إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام، فإن كنت نبيا فالحق بها؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك في قلبه لما يحب من إسلامهم، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية[١]. وقال عبد الرحمن بن غنم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ بعدما ختمت السورة، وأمر بالرجوع[٢]. وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في همّ أهل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالـهجرة فخرج، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلـها خبر عن أهل مكة، ولم يجر لليهود ذكر. وقوله: "من الأرض" يريد أرض مكة. كقولـه: ﴿فلن أبرح الأرض﴾ (يوسف: ٨٠) أي أرض مصر؛ دليلـه ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ (محمد: ١٣) يعني مكة. معناه: هم أهلـها بإخراجه؛ فلـهذا أضاف إليها وقال "أخرجتك". وقيل: هم الكفار كلـهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يمهلوا، وهو معنى قولـه: "وإذاً" لا يلبثون خلافك" وقرأ عطاء بن أبي رباح "لا يلبثون" الباء مشددة. "خلفك" نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسـائي "خلافك" واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقولـه: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ (التوبة: ٨١) ومعناه أيضا بعدك؛ قال الشاعر:

عفـت الديار خـلافهم فكأنما   بسط الشواطب بينهن حصيرا

بسط البواسط؛ في الماوردي. يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تلقيه الشاطبة إلى المنقية. وقيل: "خلفك" بمعنى بعدك. "وخلافك" بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن

---

(١) ذكره السيوطي في "أسباب النـزول"، (ص٥٢١، ٥٢٢) من رواية ابن أبي حاتم والبيهقي فى الدلائل من حديث شـهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم، وقال: هذا مرسل ضعيف الإسناد".

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣)، وقال بعدما ساق إسناده: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالا لقولـه تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾.

الأنباري. ﴿ إلا قليلا ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم لـه إلى قتلـهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني ـ ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود.

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قالـه الفراء. وقيل: انتصب على معنى سنّنا سنة من قد أرسلنا. وقيل: هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قولـه: "إلا قليلا" ويوقف على الأول والثاني. "قبلك من رسلنا" وقف حسن. ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ أي لا خلف في وعدها.

قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّهﷺ بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثلـه "ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين". وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة "البقرة". وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة. واختلف العلماء في الدلوك على قولين: أحدهما ـ أنه زوال الشمس عن كبد السماء؛ قالـه عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني ـ أن الدلوك هو المغرب[1]؛ قالـه علي وابن مسعود وأبي بن كعب، وروي عن ابن عباس. قال الماوردي: من جعل الدلوك اسما لغروبها فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها حالة المغيب، ومن جعلـه اسما لزوالـها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها. وقال أبو عبيد: دلوكها غروبها. ودلكت براح يعني الشمس؛ أي غابت وأنشد قطرب:

هـذا مقـام قدمي رباح ذبب حتى دلكت براح

براح بفتح الباء على وزن حزام وقطام ورقاس اسم من أسماء الشمس. ورواه الفراء بكسر الباء وهو جمع راحة وهي الكف؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفه على حاجبه. ومنه قول العجاج:

والشمس قد كادت تكون دنفا أدفعـها بالـراح كـي تزحـلفا

قال ابن الأعرابي: الزحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزحلفة كالدحرجة والدفع؛ يقال: زحلفته فتزحلف. ويقال: دلكت الشمس إذا غابت. قال ذو الرمة:

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجـوم ولا بالآفـلات الدوالك

---

(١) في نسخة (الغروب).

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل ـ في اللغة ـ فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها في حالة ميل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غسق الليل. وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأنه سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوك كله؛ قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك والشافعي في حالة الضرورة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته. وقال أبو عبيدة: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقد قيل: غسق الليل مغيب الشفق. وقيل: إقبال ظلمته. قال زهير:

ظلت تجود يدها وهي لاهية حتى إذا جنح الإظلام والغسق

يقال: غسق الليل غسوقا. والغسق اسم بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غسقت العين إذا سالت، تغسق. وغسق الجرح غسقانا، أي سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أي أخر المغرب إلى غسق الليل. وحكى الفراء: غسق الليل وأغسق، وظلم وأظلم، ودجا وأدجى، وغبس وأغبس، وغبش وأغبش. وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يوم غيم: أغسق أغسق. يقول: أخر المغرب حتى يغسق الليل، وهو إظلامه.

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب؛ فقيل: وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بين في إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه أيضا وبه قال الثوري. وقال مالك في الموطأ: فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله. ولحديث أبي موسى، وفيه: أن النبي ﷺ صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأخر حتى كان سقوط الشفق. خرجه مسلم. قالوا: وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخ لما قبله. وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في موطئه الذي أقرأه طول عمره وأملاه في حياته.

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر.

قلت: القول بالتوسعة أرجح. وقد خرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يصل المغرب حتى أتى سرف، وذلك تسعة أميال. وأما القول بالنسخ فليس بالبين وإن كان التاريخ معلوما؛ فإن الجمع ممكن. قال علماؤنا: تحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس. قال ابن خويز منداد: ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس. وأحاديث التوسعة تبين وقت الجواز، فيرتفع التعارض ويصح الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وقرآن الفجر ﴾ انتصب "قرآن" من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة؛ المعنى: وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح؛ قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء؛ أي فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج. وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا.

قلت: وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه ـ يقرأ فيها بطوال المفصل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة ـ وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفف كالمغرب. وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة؛ كقراءته في الفجر المعوذتين ـ كما رواه النسائي ـ وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فمتروك بالعمل. ولإنكاره على معاذ التطويل، حين أم قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة. خرجه الصحيح. وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: (أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة). وقال: (فإذا صلى أحدكم وحده فليطول ما شاء). كله مسطور في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وقرآن الفجر ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمى الصلاة قرآنا. وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفذّ في كل ركعة. وهو مشهور قول مالك. وعنه أيضا أنها واجبة في جل الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضا تجب في ركعة واحدة؛ قاله المغيرة وسحنون. وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشذ الروايات عنه. وحكي عن مالك أيضا أنها تجب في نصف الصلاة، وإليه ذهب الأوزاعي. وعن الأوزاعي أيضا وأيوب أنها تجب على الإمام والفذ والمأموم على كل حال. وهو أحد قولي الشافعي. وقد مضى في "الفاتحة" مستوفى.

السادسة : قولـه تعالى: ﴿ كان مشهودا ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قولـه: "وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" قال: (تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار)[1] هذا حديث حسن صحيح. ورواه علي بن مسهر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ. وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح). يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم "وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" . ولـهذا المعنى يبكر بهذه الصلاة فمن لم يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة. ولـهذا المعنى أيضا قال مالك والشافعي: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس. وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعلـه من المداومة على التغليس، وأيضا فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل. والله أعلم.

السابعة : استدل بعض العلماء بقولـه ﷺ: (تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار) على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار.

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبي الفصيح ﷺ فيما رواه أبو هريرة: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر) الحديث. ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والإيمان، وهذا واضح.

قوله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به ﴾ "من" للتبعيض. والفاء في قولـه "فتهجد" ناسقة على مضمر، أي قم فتهجد. "به" أي بالقرآن. والتهجد من الـهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد. قال الشاعر:

ألا زارت وأهل منى هجود   ولـيت خيـالـها بمنى يعـود

آخر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود   فباتت بعلات النوال تجود

يعني نياما. وهجد وتهجد بمعنى. وهجدته أي أنمته، وهجدته أي أيقظته. والتهجد التيقظ بعد رقدة، فصار اسما للصلاة؛ لأنه يتنبه لـها. فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٥٠٧).

ابن عمر صاحب النبي ﷺ أنه قال: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد! إنما التهجد الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة. كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ. وقيل: الهجود النوم. يقال: تهجد الرجل إذا سهر، وألقى الهجود وهو النوم. ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا؛ لأن المتهجد هو الذي يلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه. وهذا الفعل جار مجرى تحوب وتحرج وتأثم وتحنث وتقذر وتنجس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه. ومثله قوله تعالى: "فظلتم تفكهون" معناه تندمون؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها. يقال: رجل فكه إذا كان كثير السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتا من الليل اسهر به في صلاة وقراءة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نافلة لك﴾ أي كرامة لك؛ قاله مقاتل. واختلف العلماء في تخصيص النبي ﷺ بالذكر دون أمته؛ فقيل: كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله: "نافلة لك" أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة.

قلت: وفي هذا التأويل بعد لوجهين: أحدهما ـ تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة. الثاني – قوله ﷺ: (خمس صلوات فرضهن الله على العباد)[1] وقوله تعالى: (هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي)[2] وهذا نص، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس، هذا ما لا يصح؛ وإن كان قد روي عنه ﷺ: (ثلاث عليَّ فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسواك)[3]. وقيل: كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة؛ كما قالت عائشة، على ما يأتي مبينا في سورة (المزمل) إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له. فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات. وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال:

(الأول) وهو أصحها ـ الشفاعة للناس يوم القيامة؛ قاله حذيفة بن اليمان. وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله

---

(١) "صحيح" وقد تقدم.

(٢) تقدم في حديث الإسراء الطويل.

(٣) أخرجه أحمد وغيره بلفظ: "ثلاث هن عليَّ فرائض، وهن لكم تطوع، الوتر، والنحر، وصلاة الضحى، وضعف إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٢٠٥٠).

وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول أنا لها. . .) وذكر الحديث. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: "عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا" سئل عنها قال: (هي الشفاعة)[1] قال: هذا حديث حسن صحيح.

الرابعة: إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ؛ ولأجل ذلك قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضي أبو الفضل عياض: شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة في قوم من موحدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا ﷺ، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة: الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتد بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة).

القول الثاني: أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة.

قلت: وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي. . .) الحديث[2].

القول الثالث: ما حكاه الطبري عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت: المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه؛ وروت في ذلك حديثا. وعضد الطبري جواز ذلك بشطط من

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٥٠٨)، وراجع الصحيحة (٢٦٣٩).

(٢) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٢٨٥٩).

القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى، وفيه بعد. ولا ينكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله. قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة: ٢٢) قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر.

قلت. ذكر هذا في باب ابن شهاب في حديث التنزيل. وروي عن مجاهد أيضا في هذه الآية قال: يجلسه على العرش. وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلها والعرش قائما بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارا لقدرته وحكمته، وليعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشا استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسا، أو كان العرش له مكانا. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف. وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مخرجا له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه. وأما قوله في الأخبار: (معه) فهو بمنزلة قوله: ﴿ إن الذين عند ربك ﴾، و﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ (التحريم: ١١). ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ (العنكبوت: ٦٩) ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان.

القول الرابع: إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة والله الموفق.

السادسة : اختلف العلماء في كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود على قولين: أحدهما: أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفه بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني: أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلهم فيه درجة محمد ﷺ؛ فإنه يُعطى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يُشفع أحد. و"عسى" من الله عز وجل واجبة. و"مقاما" نصب على الظرف. أي في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي). فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قيل: المعنى أمتني إماتة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق؛ ليتصل بقولـه: "عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا". كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز لـه الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهي. وقيل: علمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخالـه موضع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالـهجرة فنزلت "وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا" قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الضحاك: هو خروجه من مكة ودخولـه مكـة يوم الفتـح آمنا. أبو سـهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ (المنافقون: ٨) يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة. وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتني؛ قال معناه مجاهد. والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقولـه: ﴿أنزلني منزلا مباركا﴾ (المؤمنون: ٢٩) أي إنزالا لا أرى فيه ما أكره. وهي قراءة العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم "مدخل" و"مخرج". بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث. وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك. وقيل: الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري. وقولـه: ﴿واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾ قال الشعبي وعكرمة: أي حجة ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كلـه. قال: فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرها فيجعلـه لـه.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا، فجعل النبي ﷺ يطعنها بمخصرة في يده - وربما قال بعود - ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) لفظ الترمذي. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا في حديث مسلم (نصبا). وفي رواية (صنما). قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظمون في يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين. وقولـه: (فجعل يطعنها بعود في يده) يقال: إنها كانت مثبتة بالرصاص وأنه كلما طعن منها صنما في وجهه خر لقفاه، أو في قفاه خر لوجهه. وكان يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) حكاه أبو عمر والقاضي عياض. وقال القشيري: فما بقي منها صنم إلا خر لوجهه، ثم أمر بها فكسرت.

الثانية : في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى. قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المدر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه. ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غيرت عما هي عليه وصارت نقرا أو قطعا فيجوز بيعها والشراء بها. قال المهلب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال. وقد تقدم حرق ابن عمر ﷺ. وقد هم النبي ﷺ بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة. وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله ﷺ في الناقة التي لعنتها صاحبتها: (دعوها فإنها ملعونة) فأزال ملكها عنها تأديبا لصاحبتها، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر ابن الخطاب ﷺ لبنا شيب بماء على صاحبه.

الثالثة : ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله ﷺ: (والله لينزلن عيسى ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها. . .) الحديث. خرجه الصحيحان. ومن هذا الباب هتك النبي ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم؛ وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في "النمل" إن شاء الله تعالى. قوله تعالى: ﴿ وقل جاء الحق ﴾ أي الإسلام. وقيل: القرآن؛ قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿ وزهق الباطل ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان؛ قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه. "وزهق الباطل": بطل الباطل. ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها. يقال زهقت نفسه تزهق زهوقا، وأزهقتها. ﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ أي لا بقاء له والحق الذي يثبت.

قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى : قوله تعالى: ﴿ وننزل ﴾ قرأ الجمهور بالنون. وقرأ مجاهد "وينزل" بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص. و"من" لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله)[1]. وأنكر بعض المتأولين أن تكون "من" للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض، فكأنه قال: وننزل من القرآن شيئاً شفاء؛ ما فيه كله شفاء. وقيل: (شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان)[2].

(١) لا يصح مرفوعاً، وهو من كلام أبي رجاء الغنوي، كما سيأتي في آخر الصفحة القادمة.
(٢) في نسخة (وقيل: شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان).

الثانية : اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين: أحدهما: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني: شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه. وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدارقطني ـ عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ثلاثين راكبا قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا؛ قال: فلدغ سيد الحي، فأتونا فقالوا: فيكم أحد يرقي من العقرب؟ في رواية ابن قتة: إن الملك يموت. قال: قلت أنا نعم، ولكن لا أفعل حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقرأت عليه "الحمد لله رب العالمين" سبع مرات فبرأ. في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد: فأفاق وبرأ. فبعث إلينا بالنزل وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر فقال: (وما يدريك أنها رقية) قلت: يا رسول الله، شيء ألقي في روعي. قال: (كلوا وأطعمونا من الغنم) خرجه في كتاب السنن.

وخرج في (كتاب المديح) من حديث السري بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ينفع بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسل والحمى والنفس أن تكتب بزعفران أو بمشق ـ يعني المغرة ـ أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عامة من شر السامة والعامة ومن شر العين اللامة ومن شر حاسد إذا حسد ومن أبي فروة وما ولد)[1] . كذا قال، ولم يقل من شر أبي قترة. العين اللامة: التي تصيب بسوء. تقول: أعيذه من كل هامة لامة. وأما قوله: أعيذه من حادثات اللمة فيقول: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسامة: الخاصة. يقال: كيف السامة والعامة. والسامة السم. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقالوا: وصب بأرضنا. فقال: خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيكم. أو قال: نواصيكم رقية محمد ﷺ لا أفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صفدا. ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول "البقرة"، والآية التي فيها تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها، وخواتيم سورة "البقرة" من موضع ﴿ لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ (البقرة: ٢٨٤) إلى آخرها، وعشرا من أول "آل عمران" وعشرا من آخرها، وأول آية من "النساء"، وأول آية من "المائدة"، وأول آية من "الأنعام"، وأول آية من "الأعراف"، والآية التي في "الأعراف" ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ (الأعراف: ٥٤) حتى تختم الآية؛ والآية التي في "يونس" من موضع ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ (يونس: ٨١). والآية التي في (طه) ﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (طه: ٦٩)، وعشرا من أول (الصافات)، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص: ١)، والمعوذتين. تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حثوات ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على

---

(١) ضعيف، فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، والحسن البصري مدلس، وقد عنعنه.

طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به ثم يصلي ركعتين ثم يستشفي الله عز وجل؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كل يوم كتابا. في رواية: ومن شر أبي قترة وما ولد. وقال: (فامسحوا نواصيكم) ولم يشك. وروى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها. فسألت الزهري كيف كان ينفث؟ قال: كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه. وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوذتين وتفل أو نفث. قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون تفسير "نفث" نفخ نفخًا ليس معه ريق. ومعنى "تفل" نفخ نفخا معه ريق. قال الشاعر:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفقود

وقال ذو الرمة:

ومن جوف ماء عرمض الحول فوقه متى يحس منه مائح القوم يتفل

أراد ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة : روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرقى إلا بالمعوذات. قال الطبري: وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين؛ إذ في نقلته من لا يعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطا وإما منسوخا؛ لقوله ﷺ في الفاتحة (ما أدراك أنها رقية). وإذا جاز الرقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن. وروي عنه ﷺ أنه قال: (شفاء أمتي في ثلاث، آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم)[1]. وقال رجاء الغنوي: ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له.

الرابعة : واختلف العلماء في النشرة، وهي أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيب. قيل له: الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحل عنه ويُنشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم ينه عنه. ولم ير مجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوذتين في إناء ثم تأمر أن يصب على المريض. وقال المازري أبو عبد الله: النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسميت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تحل. ومنعها الحسن وإبراهيم النخعي، قال النخعي: أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء. وقال الحسن: سألت أنسا فقال: ذكروا عن النبي ﷺ أنها من الشيطان. وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)[2]. قال ابن عبد البر: وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة، وقد قيل: إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وعن المداواة المعروفة. والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨١).

(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٣٢٧٧).

الله ﷺ. وقال ﷺ: (لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك[١] "ومن" استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)[٢].

قلت: قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين. وعلى هذا القول جماعة أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى، فهو كالرقى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها. وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا فزع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يحضرون). وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه[٣]. فإن قيل: فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (من علق شيئا وكل إليه)[٤]. ورأى ابن مسعود على أم ولده تميمة مربوطة فجبذها جبذا شديدا فقطعها وقال: إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك، ثم قال: إن التمائم والرقى والتولة من الشرك. قيل: ما التولة؟ قال: ما تحببت به لزوجها. وروي عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله له قلبا)[٥]. قال الخليل بن أحمد: التميمة قلادة فيها عوذ، والودعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب القلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل. فلا أتم الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلق ودعة - وهي مثلها في المعنى - فلا ودع الله له؛ أي فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده. والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى. وما روي عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكهان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقا وغير معلق لا يكون شركا، وقوله ﷺ: (من علق شيئا وكل إليه) فمن علق القرآن ينبغي أن يتولاه الله ولا يكله إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكل عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسئل ابن المسيب عن التعويذ أيعلق؟ قال: إذا كان في قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به. وهذا على أن

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٩).
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهم، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٦٦٩٦).
(٤) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٧١٤)، وأوله: "من عقد عقدة..." .
(٥) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٧١٥)، وراجع الضعيفة (١٢٦٦).

المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخص أبو جعفر محمد بن علي في التعويذ يعلق على الصبيان. وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[1]. قال هذا حديث حسن صحيح غريب. وقد تقدم. ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ لتكذيبهم. قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" الآية. ونظير هذه الآية قوله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ (فصلت: ٤٤) وقيل: شفاء في الفرائض لما فيه من البيان.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى "نأى بجانبه" أي تكبر وتباعد. وناء مقلوب منه؛ والمعنى: بعد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال: نأى الشيء أي بعد. ونأيته ونأيت عنه بمعنى، أي بعدت. وأنأيته فانتأى؛ أي أبعدته فبعد. وتناءوا تباعدوا. والمنتأى: الموضع البعيد. قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان "ناء" مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال: راء ورأى. وقيل: هو من النوء وهو النهوض والقيام. وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس نوء؛ وهو من الأضداد. وقرئ "ونئي" بفتح النون وكسر الهمزة. والعامة "نأى" في وزن رأى. ﴿ وإذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حدته. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيته. مقاتل: جبلته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جبل عليه. وقيل: قل كل يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب في اعتقاده. وقيل: هو مأخوذ من الشكل؛ يقال: لست على شكلي ولا شاكلتي. قال الشاعر:

---

(١) صحيح.

كل امرئ يشبهه فعلـه ما يفعل المرء فهو أهلـه

فالشكل هو المثل والنظير والضرب. كقولـه تعالى: ﴿ وآخر من شكلـه أزواج ﴾ (ص: ٥٨). والشكل (بكسر الشين): الـهيئة. يقال: جارية حسنة الشكل. وهذه الأقوال كلـها متقاربة. والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصلـه وأخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن. والآية والتي قبلـها نزلتا في الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوي. ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ أي بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم. وقيل: "أهدى سبيلا" أي أسرع قبولا. وقيل: أحسن دينا. وحكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق ﷺ: قرأت القرآن من أولـه إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسـن من قولـه تبارك وتعالى: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وقال عمر بن الخطاب ﷺ قرأت القرآن من أولـه إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قولـه تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴾ (غافر: ١) قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان ﷺ: قرأت جميع القرآن من أولـه إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قولــه تعالى: ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ (الحجر: ٤٩). وقـال علي بن أبي طالب ﷺ: قرأت القرآن من أولـه إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قولـه تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (الزمر: ٥٣).

قلت: وقرأت القرآن من أولـه إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قولـه تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لـهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (الأنعام: ٨٢).

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئا؛ فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" لفظ البخاري. وفي مسلم: فأسكت النبي ﷺ. وفيه: وما أوتوا. وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أي الروح هو؟ فقيل: هو جبريل؛ قالـه قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: هو عيسى. وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشورى. وقال علي بن أبي طالب: هو ملك من الملائكة لـه سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، في كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. ذكره الطبري. قال ابن عطية: وما أظن القول يصح عن علي ﷺ.

قلت: أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قولـه:

"ويسألونك عن الروح" يقول: الروح ملك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هران (بكسر الهاء) يزيد بن سمرة عمن حدثه عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح" قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه. وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة؛ ذكره النحاس. وعنه: جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام؛ ذكره الغزنوي. وقال الخطابي: وقال بعضهم، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقال أبو صالح: الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيد وأرجل. والصحيح الإبهام لقوله: "قل الروح من أمر ربي" أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، مبهما له وتاركا تفصيله؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها. وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى. وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز.

قوله تعالى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ اختلف فيمن خوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود "وما أوتوا" ورواها عن النبي ﷺ. وقالت فرقة: المراد العالم كله. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور "وما أوتيتم". وقد قالت اليهود للنبي ﷺ: كيف لم نؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغلبوا. وقد نص رسول الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: (كلاًّ) يعني أن المراد "بما أوتيتم" جميع العالم. وذلك أن يهود قالت له: نحن عنيت أم قومك؟ فقال: (كلاًّ). وفي هذا المعنى نزلت ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ (لقمان: ٢٧). حكى ذلك الطبري رحمه الله وقد قيل: إن السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: "قل الروح من أمر ربي" أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ يعني القرآن. أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتصل هذا بقوله: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" أي ولو

شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه. ﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ﴾ أي ناصرا يرده عليك. ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناء ليس من الأول. وقيل: إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به. ﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ إذ جعلك سيد ولد آدم. وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز. وقال عبد الله بن مسعود: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم، تصبحون يوما وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا، نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة! قال: يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله "ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك" الآية. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رفيع عن شداد بن معقل قال: قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ: إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم. قال: قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وثبتناه في مصاحفنا! قال: يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء. ثم قرأ "ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك" وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي كدوي النحل، فيقول الله ما بالك. فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أتلى فلا يعمل بي، أتلى ولا يعمل بي..

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة. قال حذيفة قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله. وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة). قال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؛ فأعرض عنه حذيفة؛ ثم رددها ثلاثا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة! تنجيهم من النار، ثلاثا. خرجه ابن ماجه في السنن[(١)]. وقال عبد الله بن عمر: خرج النبي ﷺ وهو معصوب الرأس من وجع فضحك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه) قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: (من أراد الله به خيرا أبقى في قلبه لا إله إلا الله) ذكره الثعلبي[(٢)] والغزنوي وغيرهما في التفسير.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

---

(١) "صحيح"، انظر صحيح ابن ماجه (٣٢٧٣)، وراجع الصحيحة (٨٧).

(٢) سلف أن ذكرنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الثعلبي هذا وما حواه تفسيره مما لا يحصى من الضعيف والموضوع، حتى وصفه شيخ الإسلام بأنه حاطب ليل.

أي عونا[1] ونصيرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أول الكتاب والحمد لله.
و﴿ لا يأتون ﴾ جواب القسم في "لئن" وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:

لـئن كان مـا حدثته اليوم صادقا   أقم في نهار القيظ للشمس باديا

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة. ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ يريد أهل مكة، بين لـهم الحق وفتح لـهم وأمهلـهم حتى تبين لـهم أنه الحق، فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق. قال المهدوي: ولا حجة للقدري في قولـهم: لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف وأبي البختري، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لـهم فيما كلمهم فيه بدو، وكان رسول الله ﷺ حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا لـه: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما

(١) في نسخة عوينا.

أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا؛ وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: (ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم). قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله ﷺ: (ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل) قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال لـه: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبلـه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لـهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ـ أو كما قال لـه ـ فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهلـه حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، كلـه لفظ ابن إسحاق. وذكر الواحدي عن عكرمة عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾. "ينبوعا" يعني العيون؛ عن مجاهد. وهي يفعول، من نبع ينبع. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "تفجر لنا" مخففة؛ واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد. ولم يختلفوا في تفجر الأنهار أنه مشدد. قال أبو عبيد: والأولى مثلـها. قال أبو حاتم ليست مثلـها، لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتشديد يدل على التكثير. أجيب بأن "ينبوعا" وإن كان واحدا فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. الينبوع عين الماء، والجمع الينابيع. وقرأ قتادة "أو يكون لك جنة". ﴿ خلالـها ﴾ أي وسطها. ﴿ أو تسقط السماء ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد "أو يسقط السماء" على إسناد الفعل إلى السماء. ﴿ كسفا ﴾ قطعا، عن ابن عباس وغيره. والكسف (بفتح السين) جمع كسفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقون "كسفا" بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ كسْفا من السماء جعلـه واحدا، ومن قرأ كسَفا جعلـه جمعا. قال المهدوي: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كسفة وجاز أن يكون مصدرا، من كسفت الشيء إذا غطيته. فكأنهم قالوا: أسقطها طبقا علينا. وقال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كِسْف وكِسَف. ويقال: الكسْف والكسْفة واحد.

قولـه تعالى: ﴿ أَو تأتي بالله والملائكة قبيلا ﴾ أي معاينة؛ عن قتادة وابن جريج. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلا. قال مقاتل: شهيدا. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة. وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به. ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ أي من ذهب؛ عن ابن عباس وغيره. وأصلـه الزينة. والمزخرف المزين. وزخارف الماء طرائقه. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزخرف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود "بيت من ذهب" أي نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى. ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد؛ يقال: رقيت في السلم أرقى رقيا ورقيا إذا صعدت. وارتقيت مثلـه. ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ أي من أجل رقيك، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مضيا،

وهوى يهوي هويا، كذلك رقي يرقي رقيا. ﴿ حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ أي كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى: ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ (المدثر: ٥٢).
﴿ قل سبحان ربي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام "قال سبحان ربي" يعني النبي ﷺ؛ أي قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل. وقيل: هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون "قل" على الأمر؛ أي قل لهم يا محمد ﴿ هل كنت ﴾ أي ما أنا ﴿ إلا بشرا رسولا ﴾ أتبع ما يوحى إلي من ربي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات وقال بعض الملحدين: ليس هذا جوابا مقنعا، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس لي أن أتخير على ربي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أومن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري. وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿ إلا أن قالوا ﴾ جهلا منهم. ﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر. فبين الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ"أن" الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض. و"أن" الثانية في محل رفع بـ"منع" أي وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

أعلم الله تعالى أن الملك إنما يرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به، ليكون ذلك آية لهم ومعجزة. وقد تقدم في "الأنعام" نظير هذه الآية؛ وهو قوله: ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ﴾ (الأنعام: ٨، ٩) وقد تقدم الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله "هل كنت إلا بشرا رسولا" : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ .

قوله تعالى:﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد﴾ أي لو هداهم الله لاهتدوا. ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ أي لا يهديهم أحد. ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس أن رجلا قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ :(أليس الذي أمشاه على الرجلين قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة): قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا. أخرجه البخاري ومسلم. وحسبك. ﴿ عميا وبكما وصما ﴾ قال ابن عباس والحسن: أي عمي عما يسرهم، بكم عن التكلم بحجة، صم عما ينفعهم؛ وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ (الكهف: ٥٣)، وتكلموا، لقوله تعالى: ﴿ دعوا هنالك ثبورا﴾ (الفرقان: ١٣)، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ (الفرقان: ١٢). وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ (المؤمنون: ١٠٨) صاروا عميا لا يبصرون صما لا يسمعون بكما لا يفقهون. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا. ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي مستقرهم ومقامهم. ﴿ كلما خبت ﴾ أي سكنت؛ عن الضحاك وغيره. مجاهد طفئت. يقال: خبت النار تخبو خبوا أي طفئت، وأخبيتها أنا. ﴿ زدناهم سعيرا ﴾ أي نار تتلهب. وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم. وقيل: إذا أرادت أن تخبو. كقوله: ﴿ وإذا قرأت القرآن﴾ (الإسراء: ٤٥).

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم. ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا ﴾ أي ترابا. ﴿ أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلـهم وجعل لـهم أجلا لا ريب فيه ﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لـهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلـهم. والأجل: مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولـهم: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ (الإسراء: ٩٢). وقيل: هو يوم القيامة. ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ أي أبى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغي أن يشك فيه.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ أي خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم. ﴿ إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ من البخل، وهو جواب قولـهم: ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ (الإسراء: ٩٠) حتى نتوسع في المعيشة. أي لو توسعتم لبخلتم أيضا. وقيل: المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما: أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم. والله تعالى يتعالى في جوده عن هاتين الحالتين. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قالـه ابن عباس وقتادة. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قل مالـه. ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ أي بخيلا مضيقا. يقال: قتر على عيالـه يقتر ويقتُر قترا وقتورا إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات. واختلف في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المشركين خاصة؛ قالـه الحسن. والثاني: أنها عامة، وهو قول الجمهور؛ وذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ اختلف في هذه الآيات؛ فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال المرادي أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسألـه؛ فقال: لا تقل لـه نبي فإنه إن سمعنا كان لـه أربع أعين؛ فأتيا النبي ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: "ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات" فقال رسول الله ﷺ: (لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتلـه ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم يا معشر اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت) فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي. قال: (فما يمنعكما أن تسلما) قالا: إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا

اليهود[1]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد مضى في "البقرة". وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ آيات مفصلات. وقال الحسن والشعبي: الخمس المذكورة في "الأعراف"؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروي نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات؛ البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في "الأعراف" والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم. وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفى والحمد لله. ﴿ فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ﴾ أي سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدم بيانه في "يونس". وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ. ﴿ فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ أي ساحرا بغرائب أفعالك؛ قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضع الفاعل؛ كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل: مخدوعا. وقيل: مغلوبا؛ قاله مقاتل. وقيل: غير هذا؛ وقد تقدم. وعن ابن عباس وأبي نهيك أنهما قرآ "فسأل بني إسرائيل" على الخبر؛ أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء ﴾ يعني الآيات التسع. و"أنزل" بمعنى أوجد. ﴿ إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾ أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة "علمت" بفتح التاء، خطابا لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة علي ﷺ؛ وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم، فبلغت ابن عباس فقال: إنها "لقد علمتَ"، واحتج بقوله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ (النمل: ١٤). ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن علي لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كلثوم المرادي وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائي. وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شات وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣١٤٤)، وابن ماجه (٣٧٠٥) بأخصر منه، وانظر ضعيف ابن ماجه (٨٠٨).

فُقميها، ففزع وأحدث في قطيفته. ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضا. قال الكميت:

ورأت قضاعة في الأيا   من رأي مثبور وثابر

أي مخسور وخاسر، يعني في انتسابها إلى اليمن. وقيل: ملعونا. رواه المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقاله أبان بن تغلب. وأنشد:

يا قومنا لا تروموا حربنا سفهاً   إن السفاه وإن البغي مثبور

أي ملعون. وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: "مثبورا" ناقص العقل. ونظر المأمون رجلا فقال له: يا مثبور؛ فسأل[1] عنه قال: قال الرشيد قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألته فقال: حدثني ميمون بن مهران... فذكره. وقال قتادة: هالكا. وعنه أيضا والحسن ومجاهد: مهلكا. والثبور: الهلاك؛ يقال: ثبر الله العدو ثبورا أهلكه. وقيل: ممنوعا من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه. وثبره الله يثبره. قال ابن الزبعرى:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ   ـي ومن مال ميله مثبور

الضحاك: "مثبورا" مسحورا. رد عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: "مثبورا" مخبولا لا عقل له.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل. ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل ﴾ أي من بعد إغراقه ﴿ اسكنوا الأرض ﴾ أي أرض الشام ومصر. ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي القيامة. ﴿ جئنا بكم لفيفا ﴾ أي من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعا من جهات شتى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، أي وأخلاطهم. وقوله تعالى ﴿ جئنا بكم لفيفا ﴾ أي مجتمعين مختلطين. وطعام لفيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا. وفلان لفيف فلان أي صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: "فإذا جاء وعد الآخرة" يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء.

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن.

(١) (فسأل) في نسخة (فسئل).

والكناية ترجع إلى القرآن. ووجه التكرير في قولـه "وبالحق نزل" يجوز أن يكون معنى الأول: أوجبنا إنزالـه بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق؛ كقولـه: خرج بثيابه، أي وعليه ثيابه. وقيل: الباء في "وبالحق" الأول بمعنى مع، أي مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه. "وبالحق نزل" أي بمحمد ﷺ، أي نزل عليه، كما تقول: نزلت بزيد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ مذهب سيبويه أن "قرآنا" منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر. وقرأ جمهور الناس "فرقناه" بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قالـه الحسن. وقال ابن عباس: فصلناه. وقرأ ابن عباس وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبي "فرقناه" بالتشديد، أي أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملة واحدة؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبي "فرقناه عليك".

واختلف في كم نزل القرآن من المدة؛ فقيل: في خمس وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله ﷺ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة. وقد مضى هذا في "البقرة". ﴿ على مكث ﴾ أي تطاول في المدة شيئا بعد شيء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أي أنزلناه آية آية وسورة سورة. وأما على القول الأول فيكون "على مكث" أي على ترسل في التلاوة وترتيل؛ قالـه مجاهد وابن عباس وابن جريج. فيعطي القارئ القراءة حقها من ترتيلـها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب. وأجمع القراء على ضم الميم من "مكث" إلا ابن محيصن فإنه قرأ "مكث" بفتح الميم. ويقال: مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات. قال مالك: "على مُكْث" على تثبت وترسل. ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أي أنزلناه نجما بعد نجم؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لـهم والتهديد لا على وجه التخيير. ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبلـه ﴾ أي من قبل نزول القرآن

وخروج النبي ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب؛ في قول ابن جريج وغيره. قال ابن جريج: معنى ﴿إذا يتلى عليهم﴾ كتابهم. وقيل: القرآن. ﴿يخرون للأذقان سجدا﴾ وقيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبي ﷺ، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله "من قبله". "إذا يتلى عليهم" يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: "سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا". وقيل: كانوا إذا تلوا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في "قبله" عائد على القرآن حسب الضمير في قوله "قل آمنوا به". وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: "إذا يتلى عليهم".

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

دليل على جواز التسبيح في السجود. وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في سجوده وركوعه (سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي).

قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل. وفي مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علما؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضا. والأذقان جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللحى؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع. واللام بمعنى على؛ تقول سقط لفيه أي على فيه. وقال ابن عباس: "ويخرون للأذقان سجدا" أي للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان. قال ابن خويز منداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه؛ فيقال: خر لوجهه ساجدا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه. ألا ترى إلى قوله: فخر صريعا لليدين وللفم. فإنما أراد: خر صريعا على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ يبكون ﴾ فيه دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على معصيته في دين الله، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت

البناني عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وفي كتاب أبي داود: وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء.

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأنين؛ فقال مالك: الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التنحنح والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعي: إن كان لـه حروف تسمع وتفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجع قطع. وروي عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كلـه تامة؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ ويزيدهم خشوعا ﴾ تقدم القول في الخشوع في (البقرة) ويأتي.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فلـه الأسماء الحسنى ﴾ سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو (يا الله يا رحمن) فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إلـه واحد وهو يدعو إلـهين؛ قالـه ابن عباس. وقال مكحول: تهجد رسول الله ﷺ ليلة فقال في دعائه: (يا رحمن يا رحيم) فسمعه رجل من المشركين، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة. فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمى واحد؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهم؛ فنزلت ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (النمل: ٣٠) فكتب رسول الله ﷺ "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال المشركون: هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؛ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمع في القرآن اسما هو في التوراة كثير؛ يعنون الرحمن؛ فنزلت الآية. وقرأ طلحة بن مصرف "أيا ما تدعو فلـه الأسماء الحسنى" أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وأشرف المعاني. وحسن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنص عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معاني حسانا شريفة، وهي بتوقيف لا يصح وضع اسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع. حسبما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قولـه تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ اختلفوا في سبب نزولـها على خمسة أقوال: الأول: ما روى ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزلـه ومن جاء به؛ فقال الله تعالى "ولا تجهر بصلاتك" فيسمع المشركون قراءتك. "ولا تخافت بها" عن أصحابك. أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر. ﴿ وابتغ بين ذلك

سبيلا ﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة؛ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم. واللفظ لمسلم. والمخافتة: خفض الصوت والسكون؛ يقال للميت إذا برد: خفت. قال الشاعر:

لم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت

رثى لها الشامت مما بها يا ويح من يرثي له الشامت

الثاني: ما رواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل: "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها" قالت: أنزل هذا في الدعاء. الثالث: قال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك.

قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد؛ ذكره ابن المنذر. الرابع: ما روي عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر ﷺ كان يُسر قراءته، وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما في ذلك؛ فقال أبو بكر: إنما أناجي ربي، وهو يعلم حَاجَتي إليه. وقال عمر: أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلا، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا؛ ذكره الطبري وغيره. الخامس ما روي عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخير في الجهر والسر في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعا. وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلا ونهارا. وقول سادس: قال الحسن: يقول الله لا تراء بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسئها في السر. وقال ابن عباس: لا تصل مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس.

عبر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ (الإسراء: ٧٨) لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها؛ فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير؛ ومنه الحديث الصحيح: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي) أي قراءة الفاتحة على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا: عزيز وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه؛ تعالى الله عن أقوالهم. ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له ولي من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، ردا لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الحسن بن الفضل: "ولم يكن له ولي من الذل" يعني لم يذل فيحتاج إلى

ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿وكبره تكبيرا﴾ أي عظمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر؛ أي صفة بأنه أكبر من كل شيء. قال الشاعر:

رأيت الله أكبر كل شيء   محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبي ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: (الله أكبر)[١] وقد تقدم أول الكتاب. وقال عمر بن الخطاب: قولُ العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها. وهذه الآية هي خاتمة التوراة. روى مطرف عن عبد الله بن كعب قالَ: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة. وفي الخبر أنها آية العز؛ رواه معاذ بن جبل عن النبي[٢] ﷺ. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه "وقل الحمد لله الذي" الآية. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعت عن النبي ﷺ أنه قال: (من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله لـه من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن لـه ولدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)[٣]. وجاء في الخبر أن النبي ﷺ أمر رجلاً شكا إليه بالدين بأن يقرأ ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ (الإسراء: ١١٠) ـ إلى آخر السورة ثم يقول: توكلت على الحي الذي لا يموت؛ ثلاث مرات[٤].

تمت سورة الإسراء، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

---

(١)أخرجه البخاري (٧٣٥)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٣٩١).

(٢)أخرجه أحمد في "المسند"، (٣/ ٤٣٩) من طريق رشدين عن زبان عن سهل عن أبيه مرفوعاً، ورشدين هو ابن سعد ضعيف، أدركته غفلة الصالحين، فخلط في الحديث.

(٣)ضعيف لانقطاعه.

(٤)ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٠)، وقال: "إسناده ضعيف وفي متنه نكارة".

سورة الكهف

مقدمة السورة:

سورة الكهف وهي مكية في قول جميع المفسرين. روي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله ﴿ جرزا ﴾ (الكهف: ٨)، والأول أصح. وروي في فضلها من حديث أنس أنه قال: من قرأ بها أعطي نورا بين السماء والأرض ووقي بها فتنة القبر. وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: إن رسول الله ﷺ قال: (ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك). قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: (سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورا يبلغ السماء ووقي فتنة الدجال)[١] ذكره الثعلبي، والمهدوي أيضا بمعناه. وفي مسند الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق[٢]. وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أن نبي الله ﷺ قال: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[٣]. وفي رواية (من آخر الكهف). وفي مسلم أيضا من حديث النواس بن سمعان (فمن أدركه - يعني الدجال - فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف)[٤]. وذكره الثعلبي. قال: سمرة بن جندب قال النبي ﷺ: (من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال)[٥]. ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. قيما ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم

---

(١) الحديث مرسل، ومع إرساله فإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الأموي متروك كما في "التقريب"، (١/ ٥٩).
(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٣٤٠٧)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٣٠٧): "رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح".
(٣) أخرجه مسلم (٨٠٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢١٣٧).
(٥) صحيح، وأصله عند مسلم.

يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لـهم حديث عجب. سلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح، ما هي؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسألـه عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لـهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال: فقال لـهم رسول الله ﷺ: (أخبركم بما سألتم عنه غدا) ولم يستثن. فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه؛ وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف والروح. قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: (لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا) فقال لـه جبريل: ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك لـه ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾[1] (مريم: ٦٤).

فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكر نبوة رسولـه ﷺ لما أنكروا عليه من ذلك فقال: "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب" يعني محمدا، إنك رسول مني، أي تحقيق لما سألوا عنه من نبوتك. "ولم يجعل لـه عوجا قيما" أي معتدلا لا اختلاف فيه. "لينذر بأسا شديدا من لدنه" أي عاجل عقوبته في الدنيا، وعذابا أليما في الآخرة، أي من عند ربك الذي بعثك رسولا. "ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أن لـهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا" أي دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ (الكهف: ٤) يعني قريشا في قولـهم: إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله. ﴿ ما لـهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ (الكهف: ٥) الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم. ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ (الكهف: ٥) أي لقولـهم إن الملائكة بنات الله. ﴿ إن يقولون إلا كذبا. فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (الكهف: ٦) لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا تفعل. قال ابن هشام: "باخع نفسك" مهلك نفسك؛ فيما حدثني أبو عبيدة. قال ذو الرمة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه   بشيء نحته عن يديه المقادر

وجمعها باخعون وبخعة. وهذا البيت في قصيدة لـه. وتقول العرب: قد بخعت لـه نصحي ونفسي، أي جهدت لـه. ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لـها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ (الكهف: ٧) قال ابن إسحاق: أي أيهما أتبع لأمري وأعمل بطاعتي: ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ (الكهف: ٨)

---

(١) أخرجه البيهقي في "الدلائل"، (٢/٢٦٩، ٢٧٠)، وفي سنده رجل مبهم لم يسم.

أي الأرض، وإن ما عليها لفان وزائل، وإن المرجع إلي فأجزي كلا بعمله؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها. قال ابن هشام: الصعيد وجه الأرض، وجمعه صعد. قال ذو الرمة يصف ظبيا صغيرا:

كأنه بالضحى ترمي الصعيد به دبابة في عظام الرأس خرطوم

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضا: الطريق، وقد جاء في الحديث: (إياكم والقعود على الصعدات) يريد الطرق. والجرز: الأرض التي لا تنبت شيئا، وجمعها أجراز. ويقال: سنة جرز وسنون أجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطر. وتكون فيها جدوبة ويبس وشدة. قال ذو الرمة يصف إبلا:

طوى النحز والأجراز ما في بطونها فما بقيت إلا الضلوع الجراشع

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾(الكهف: ٩) أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حججي ما هو أعجب من ذلك. قال ابن هشام: والرقيم الكتاب الذي رقم بخبرهم، وجمعه رقم. قال العجاج:

ومستقر المصحف المرقم

وهذا البيت في أرجوزة له. قال ابن إسحاق: ثم قال ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا. ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ (الكهف: ١٢). ثم قال: ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (الكهف: ١٣) أي بصدق الخبر ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلـها لقد قلنا إذاً شططا ﴾(الكهف: ١٤) أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابن هشام: والشطط الغلو ومجاوزة الحق. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

أتنتهون ولا ينهى ذوي شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وهذا البيت في قصيدة له. قال ابن إسحاق: ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلـهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾(الكهف: ١٥). قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة. ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا. وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا. وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾(الكهف: ١٧). قال ابن هشام: تزاور تميل؛ وهو من الزور. وقال أبو الزحف الكليبي يصف بلدا:

جدب المندى عن هوانا أزور ينضي المطايا خمسه العشنزر

وهذان البيتان في أرجوزة له. و"تقرضهم ذات الشمال" تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شـمالا وعن أيمانهن الفوارس

وهذا البيت في قصيدة لـه. والفجوة: السعة، وجمعها الفجاء. قال الشاعر:

ألبســت قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وحلوا فجوة الدار

"ذلك من آيات الله" أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم. ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لـه وليا مرشدا. وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ (الكهف: ١٧ـ١٨) قال ابن هشام: الوصيد الباب. قال العبسي واسمه عبد بن وهب:

بأرض فلاة لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

وهذا البيت في أبيات لـه. والوصيد أيضا الفناء، وجمعه وصائد ووصد ووصدان. ﴿لو اطلعت عليهم لوليـت منهم فـرارا﴾ ـ إلى قولـه ـ﴿ الذيـن غلبوا على أمرهـم﴾ (الكهف: ١٨ـ٢١) أهل السلطان والملك منهم. ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا. سيقولون ﴾ (الكهف: ٢١) يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم ﴾ أي لا تكابرهم. ﴿ إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ (الكهف: ٢٢) فإنهم لا علم لـهم بهم. ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا. إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ (الكهف: ٢٤) أي لا تقولن لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غدا، واستثن مشيئة الله، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لخبر ما سألتموني عنه رشدا، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾ (الكهف: ٢٥) أي سيقولون ذلك. ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا لـه غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لـهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾ (الكهف: ٢٦) أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه.

قلت: هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه. ويأتي خبر ذي القرنين، ثم نعود إلى أول السورة فنقول:

قد تقدم معنى الحمد لله. وزعم الأخفش والكسائي والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن في أول هذه السورة تقديما وتأخيرا، وأن المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل لـه عوجا. و"قيما" نصب على الحال. وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل لـه عوجا ولكن جعلناه قيما. وقول الضحاك فيه حسن، وأن المعنى: مستقيم، أي مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض. وقيل: "قيما" على الكتب السابقة يصدقها. وقيل: "قيما" بالحجج أبدا. "عوجا" مفعول به؛ والعوج (بكسر العين) في الدين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار؛ وقد تقدم. وليس في القرآن عوج، أي عيب، أي ليس متناقضا مختلفا؛ كما قال تعالى: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾

(النساء : ٨٢) وقيل : أي لم يجعله مخلوقا ؛ كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ قرآنا عربيا غير ذي عوج ﴾ (الزمر : ٢٨) قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : "عوجا" اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودي للصديق تكرما ولا خير فيمن كان في الود أعوجا

﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾ أي لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار ، أي لينذر الكافرين عقاب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة . ﴿ من لدنه ﴾ أي من عنده وقرأ أبو بكر عن عاصم "من لدنه" بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . والباقون "لدنه" بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء . قال الجوهري : وفي "لدن" ثلاث لغات : لدن ، ولدى ، ولد . وقال :

من لد لحييه إلى منحوره

المنحور لغة في المنحر .

قوله تعالى : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم ﴾ أي بأن لهم ﴿ أجرا حسنا ﴾ وهي الجنة . ﴿ ماكثين ﴾ دائمين . ﴿ فيه أبدا ﴾ لا إلى غاية . وإن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء في بـ" أن" . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت : الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ ما لهم به من علم ﴾ "من" صلة ، أي ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ولا لآبائهم﴾ أي أسلافهم . ﴿ كبرت كلمة ﴾ "كلمة" نصب على البيان ؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمة . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق "كلمة" بالرفع ؛ أي عظمت كلمة ؛ يعني قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسن . ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ في موضع الصفة . ﴿ إن يقولون إلا كذبا ﴾ أي ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ "باخع" أي مهلك وقاتل ؛ وقد تقدم . "آثارهم" جمع أثر ، ويقال : إثر . والمعنى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك . ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ أي القرآن . ﴿ أسفا ﴾ أي حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لـها ﴾ ، "ما" و"زينة" مفعولان. والزينة كل ما على وجه الأرض؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه. وقال ابن جبير عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال؛ قاله مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قولـه تعالى: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لـها" قال: العلماء زينة الأرض. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب. والقول بالعموم أولى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه. والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلـها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانا واختبارا لأهلـها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظمن عليك كفرهم فإنا نجازيهم.

الثانية : معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي ﷺ: (إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون)[١]. وقولـه ﷺ: (إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) قال: وما زهرة الدنيا؟ قال: (بركات الأرض)[٢] خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري. والمعنى: أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المستحلى المعجب المرأى؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملا. أي من أزهد فيها وأترك لـها؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زيّنه الله إلا (أن) يعينه على ذلك. ولـهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه. فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه. وهذا معنى قولـه ﷺ: (فمن أخذه بطيب نفس بورك لـه فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع). وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل لـه منها بل همته جمعها؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسولـه؛ فإن الفتنة معها حاصلة وعدم السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه. وقال ابن عطية: كان أبي ﷺ يقول في قولـه "أحسن عملا": أحسن العمل أخذ بحق وإنفاق في حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه.

قلت: هذا قول حسن، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه، وقد جمعه النبي ﷺ في لفظ واحد وهو قولـه لسفيان بن عبد الله الثقفي لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ في رواية: غيرك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) خرجه مسلم. وقال سفيان الثوري: "أحسن عملا" أزهدهم فيها. وكذلك قال أبو عصام العسقلاني: "أحسن عملا" أترك لـها. وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد؛ فقال قوم: قصر الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قالـه سفيان الثوري. قال علماؤنا: وصدق ﷺ لأن من قصر أملـه لم يتأنق في المطعومات ولا يتفنن في الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يبلغ. وقال قوم: بغض المحمدة وحب الثناء. وهو قول الأوزاعي ومن ذهب إليه. وقال قوم: ترك الدنيا كلـها هو الزهد؛ أحب تركها أم كره. وهو قول فضيل. وعن بشر

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٢).

ابن الحارث قال: حب الدنيا حب لقاء الناس، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيل أيضا: علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس. وقال قوم: لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم. وقال قوم: الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك. وقالت فرقة: الزهد حب الموت. والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

تقدم بيانه. وقال أبو سهل: ترابا لا نبات به؛ كأنه قطع نباته. والجرز: القطع؛ ومنه سنة جرز. قال الراجز:

قد جرفتهن السنون الأجراز

والأرض الجرز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها؛ كأنه قطع وأزيل. يعني يوم القيامة؛ فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها. النحاس: والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها. قال الكسائي: يقال جرزت الأرض تجرز، وجرزها القوم يجرزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجرز.

قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

مذهب سيبويه أن "أم" إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: "أم" عطف على معنى الاستفهام في لعلك، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار. قال الطبري: وهو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا، بمعنى إنكار ذلك عليه؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق. والخطاب للنبي ﷺ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فقدوا، وعن ذي القرنين وعن الروح، وأبطأ الوحي على ما تقدم. فلما نزل قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم. الكلبي: خلق السماوات والأرض أعجب من خبرهم. الضحاك: ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب. الجنيد: شأنك في الإسراء أعجب. الماوردي: معنى الكلام النفي؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا. أبو سهل: استفهام تقرير؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب. والكهف: النقب المتسع في الجبل؛ وما لم يتسع فهو غار. وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال: الكهف الجبل؛ وهذا غير شهير في اللغة.

واختلف الناس في الرقيم؛ فقال ابن عباس: كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة: غسلين وحنان والأواه والرقيم. وسئل مرة عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها قرية خرجوا منها. وقال مجاهد: الرقيم واد. وقال السدي: الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف. وقال ابن زيد: الرقيم كتاب غم الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته. وقالت فرقة: الرقيم كتاب في لوح من نحاس. وقال ابن عباس: في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار الذين فر الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخا لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبين من كانوا. وكذا قال الفراء، قال: الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا. قال ابن عطية: ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما

مؤرخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة، وهو أمر مفيد. وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم؛ ومنه كتاب مرقوم. ومنه الأرقم لتخطيطه. ومنه رقمة الوادي؛ أي مكان جري الماء وانعطافه. وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كعب. والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده. وروى عنه سعيد بن جبير قال: ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال: إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال: ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم. وقيل: إن مؤمنين كانا في بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان؛ فالله أعلم. وعن ابن عباس أيضا: الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقال النقاش عن قتادة: الرقيم دراهمهم. وقال أنس بن مالك والشعبي: الرقيم كلبهم. وقال عكرمة: الرقيم الدواة. وقيل: الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر. وقيل: الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم؛ فذكر كل واحد منهم أصلح عمله.

قلت: وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان، وإليه نحا البخاري. وقال قوم: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم. وقيل: الرقيم واد دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رقمة الوادي وهي موضع الماء؛ يقال: عليك بالرقمة ودع الضِّفّة؛ ذكره الغزنوي. قال ابن عطية: وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلب رمة. وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم، كأنه قصر مخلق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم، لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ﴾ (الكهف: ١٨). وقال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة. وقال مجاهد في قوله "كانوا من آياتنا عجبا" قال: هم عجب. كذا روى ابن جريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي ﷺ أن يكون عنده أنهم عجب. وروى ابن نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾روي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه دقينوس. وروي أنهم كانوا مطوقين مسورين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى. وقيل: كانوا قبل عيسى، والله أعلم. وقال ابن عباس: إن ملكا من الملوك يقال لـه دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لـها أفسوس. وقيل: هي طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلـها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرا، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا، ومروا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولـهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا؛ فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لـها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين ـ حسبما ذكر النقاش، أو من مؤمني الأمم قبلـهم ـ فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرفع أمرهم إلى الملك، وقيل لـه: إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلـهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلـهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا لـه فيما روي: ﴿ربنا رب السماوات والأرض ـ إلى قولـه ـ وإذ اعتزلتموهم ﴾وروي أنهم قالوا لحو هذا الكلام وليس به، فقال لـهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأني فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرب لـهم في ذلك أجلا، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الـهروب بأديانهم، فقال لـهم أحدهم: إني أعرف كهفا في جبل كذا، وكان أبي يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا؛ فخرجوا فيما روي يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم. وروي أنهم كانوا مثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك. وروى وهب بن منبه أن أول أمرهم إنما كان حواري لعيسى ابن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولـها، فأجر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعمالـه بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتيان من المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغي، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فاتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتلـهما؛ ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروي أنه كان كلب صيد لـهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعيا لـه كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قالـه ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل: قطمير. وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه:

مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنهم وصاحب غنم.

الثانية: هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبي ﷺ فارا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما تقدم في سورة "النحل". وقد نص الله تعالى على ذلك في "براءة" وقد تقدم. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: "فأووا إلى الكهف".

وقال[(١)] العلماء الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت؛ وقد جاء في الخبر: (إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكف لسانك). ولم يخص موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت. وروى البغوي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)[(٢)]. وروي عن النبي ﷺ قال: (نعم صوامع المؤمنين بيوتهم) من مراسيل الحسن وغيره[(٣)]. وقال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: (يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك)[(٤)]. وقال ﷺ: (يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن). خرجه البخاري. وذكر علي بن سعد عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رؤوس الجبال). وذكر أيضا علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: (يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلت العزبة). قالوا: يا رسول الله، كيف تحل العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: (إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن

---

(١) في نسخة (قال) الواو محذوفة.

(٢) "صحيح" أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وراجع الصحيحة (٩٣٩).

(٣) ضعيف مرفوعا، ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (٢٨٣٠) وعزاه إلى العسكري عن الحسن من قوله.

(٤) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (١٩٦١)، وراجع الصحيحة (٨٨٨).

لـه زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن لـه ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران). قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قـال: (يعـيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها)[١].

قلت: أحوال الناس في هذا الباب تختلف، فرب رجل تكون لـه قوة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبرا عن الفتية، فقال: ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ﴾ (الكهف: ١٦) ورب رجل تكون العزلة لـه في بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم. ورب رجل متوسط بينهما فيكون لـه من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لـهم في الباطن. وذكر ابن المبارك حدثنا وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا! وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم. فقال: لا تفعل إنه لا بد لك من الناس، ولا بد لـهم منك، ولك إليهم حوائج، ولـهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعا، أعمى بصيرا، سكوتا نطوقا. وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب؛ مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس. وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم ـ والله أعلم ـ لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه، كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة. وروى عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة). خرجه النسائي[٢].

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ لما فروا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا: "ربنا آتنا من لدنك رحمة" أي مغفرة ورزقا. "وهيئ لنا من أمرنا رشدا" توفيقا للرشاد. وقال ابن عباس: مخرجا من الغار في سلامة. وقيل: صوابا. ومن هذا المعنى أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٣].

قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم. وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثلـه. قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأن النائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم؛ أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى "فضربنا على آذانهم" أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم، وأنمناهم. والمعنى كلـه متقارب. وقال قطرب: هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد، وضرب السيد على يد عبده المأذون لـه في التجارة إذا منعه من التصرف. قال الأسود بن يعفر وكان ضريرا:

---

(١) ضعيف، والمبارك والحسن مدلسان.

(٢) صحيح.

(٣) صحيح.

ومـــن الحوادث لا أبا لك أنني ضربت علي الأرض بالأسداد

وأما تخصيص الأذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع. ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنه) خرجه الصحيح. أشار ﷺ إلى رجل طويل النوم، لا يقوم الليل. و"عددا" نعت للسنين؛ أي معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عرف. والعد المصدر، والعدد اسم المعدود كالنفض والخبط. وقال أبو عبيدة: "عددا" نصب على المصدر. ثم قال قوم: بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعد فقال: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾(الكهف: ٢٥).

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ثم بعثناهم ﴾أي من بعد نومهم. ويقال لمن أحيي أو أقيم من نومه مبعوث؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف. ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ "لنعلم" عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته؛ وهذا على نحو كلام العرب، أي لنعلم ذلك موجودا، وإلا فقد كان الله تعالى علم أي الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزهري "ليعلم" بالياء. والحزبان الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلا. والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل: غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية. و"أحصى" فعل ماض. و"أمدا" نصب على المفعول به؛ قاله أبو علي. وقال الفراء: نصب على التمييز. وقال الزجاج: نصب على الظرف، أي: أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد، والأمد الغاية. وقال مجاهد: "أمدا" نصب[(١)] معناه عددا، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري: "أمدا" منصوب بـ "لبثوا". ابن عطية: وهذا غير متجه، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و"أحصى" فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن أفعل في الرباعي قد كثر؛ كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير. وقال في صفة حوضه ﷺ: (ماؤه أبيض من اللبن)[(٢)]. وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضيع.

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾لما اقتضى قوله تعالى ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾اختلافا وقع في أمد الفتية، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. ﴿إنهم فتية ﴾أي شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة؛ كذلك قال أهل اللسان: رأس الفتوة الإيمان. وقال الجنيد: الفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى. وقيل: الفتوة

---

(١) في نسخة (نصب) محذوفة.
(٢) أخرجه مسلم وغيره.

اجتناب المحارم واستعجال المكارم. وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جدا؛ لأنه يعم بالمعنى جميع ما قيل في الفتوة. ﴿ وزدناهم هدى ﴾ أي يسرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادة على الإيمان. وقال السدي: زادهم هدى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن ينبح عليهم وينبه بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال: يا قوم لم تطردونني، لم ترجمونني لم تضربونني فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هدى.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطاها الله لـهم حتى قالوا بين يدي الكفار: "ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلـها لقد قلنا إذاً شططا". ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط؛ ومنه يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الربط على قلب أم موسى. وقولـه تعالى: ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (الأنفال: ١١) وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا (١٤) ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: يحتمل ثلاثة معان: أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر ـ كما تقدم، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنهم: إني أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعا فقالوا: "ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلـها لقد قلنا إذاً شططا". أي لئن دعونا إلـها غيره فقد قلنا إذاً جورا ومحالا. والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الـهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس؛ كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجد.

الثانية: قال ابن عطية: تعلقت الصوفية في القيام والقول بقولـه: "إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض".

قلت: وهذا تعلق غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان؛ هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى. وقد تقدم في "سبحان" عند قولـه: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحا ﴾ (الإسراء: ٣٧) ما فيه كفاية. وقد قال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب

السامري؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا أي أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة. ﴿ لولا ﴾ أي هلا. ﴿يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي بحجة على عبادتهم الصنم. وقيل: "عليهم" راجع إلى الآلهة؛ أي هلا أقاموا بينة على الأصنام في كونها آلهة؛ فقولهم "لولا" تحضيض بمعنى التعجيز؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ قيل: هو من قول الله لهم. أي وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف. وقيل: هو من قول رئيسهم يمليخا؛ فيما ذكر ابن عطية. وقال الغزنوي: رئيسهم مكسلمينا، قال لهم ذلك؛ أي إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال "إلا الله" أي إنكم لم تتركوا عبادته؛ فهو استثناء منقطع. قال ابن عطية: وهذا على تقدير إن الذين فر أهل الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به؛ وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود "وما يعبدون من دون الله". قال قتادة هذا تفسيرها.

قلت: ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني في قوله تعالى "وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله" قال: كان فتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله.

ابن عطية: فعلى ما قال قتادة تكون "إلا" بمنزلة "غير"، و"ما" من قوله "وما يعبدون إلا الله" في موضع نصب، عطفا على الضمير في قوله "اعتزلتموهم". ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله؛ فإنه سيبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقا. وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: كان أصحاب الكهف صياقلة، واسم الكهف حيوم. ﴿ مرفقا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يرتفق به وكذلك مرفق الإنسان ومرفقه؛ ومنهم من يجعل "المرفق" بفتح الميم الموضع كالمسجد وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق. و "تزاور" تتنحى وتميل؛ من الازورار. والزور الميل. والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين؛ كما قال ابن أبي ربيعة:

وجنبي خيفة القوم أزور

ومن اللفظة قول عنترة:

فازور من وقع القنا بلبانه

وفي حديث غزوة مؤتة أن رسول الله ﷺ رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سرير جعفر وزيد ابن حارثة. وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو "تزاور" بإدغام التاء في الزاي، والأصل "تتزاور". وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "تزاور" مخففة الزاي. وقرأ ابن عامر "تزور" مثل تحمر. وحكى الفراء "تزوار" مثل تحمار؛ كلـها بمعنى واحد. ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم؛ قالـه مجاهد. وقال قتادة: تدعهم. النحاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنه يقال: قرضه يقرضه إذا تركه؛ والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة كرامة لـهم؛ وهو قول ابن عباس. يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال، أي شمال الكهف، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار. وكان كهفهم مستقبل بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها، وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم. وقد قيل: إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك. وقرأت فرقة "يقرضهم" بالياء من القرض وهو القطع، أي يقطعهم الكهف بظلـه من ضوء الشمس. وقيل: "وإذا غربت تقرضهم" أي يصيبهم يسير منها، مأخوذ من قراضة الذهب والفضة، أي تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها. وقالوا: كان في مسها لـهم بالعشي إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر. والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم، والتأذي بحر أو برد. ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي من الكهف والفجوة المتسع، وجمعها فجوات وفجاء؛ مثل ركوة وركاء وركوات. وقال الشاعر:

ونحـــن ملأنا كـل واد وفجوة رجالا وخيلا غير ميل ولا عزل

أي كانوا بحيث يصيبهم نسيم الـهواء. "ذلك من آيات الله" لطف بهم، وهذا يقوي قول الزجاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظا. وقيل: ﴿ تحسبهم أيقاظا ﴾ لكثرة تقلبهم كالمستيقظ في مضجعه. و"أيقاظا" جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه. ﴿وهم رقود ﴾ كقولـهم: وهم قوم ركوع وسجود وقعود فوصف الجمع بالمصدر. ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الأرض لحومهم. قال أبو هريرة: كان لـهم في كل عام تقليبتان. وقيل: في كل سنة مرة. وقال مجاهد: في كل سبع سنين مرة. وقالت فرقة: إنما قلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاثمائة فلا. وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴿١٨﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وكلبهم ﴾ قال عمرو بن دينار: إن مما أخذ على العقرب ألا تضر أحدا (قال) في ليلـه أو في نهاره: صلى الله على نوح. وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه (إذا قال): وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد.

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل. واختلف في لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبي. تحصيلـه: أي لون ذكرت أصبت؛ حتى قيل: لون الحجر. وقيل: لون السماء. واختلف أيضا في اسمه؛ فعن علي: ريان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سلام: بسيط. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطفير؛ ذكره الثعلبي. وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلا، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم. وقال كعب: مروا بكلب فنبح لـهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني أنا أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم.

الثانية : ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان). وروى الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انْتُقِصَ من أجره كل يوم قيراط). قال الزهري: وذكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع. فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعي، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه؛ والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين (قيراطان) وفي الأخرى (قيراط). وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر، كالأسود الذي أمر ﷺ بقتلـه، ولم يدخلـه في الاستثناء حين نهى عن قتلـها كما هو منصوص في حديث جابر؛ أخرجه الصحيح. وقال: (عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان). ويحتمل

أن يكون ذلك لاختلاف المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذه فلا ينقص؛ كالفرس والهرة. والله أعلم.

الثالثة : وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السراق. وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق. وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع. وقد تقدم في "المائدة" من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم؛ كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله.

قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل. روى الصحيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ : (ما أعددت لها) قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله؛ ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (فأنت مع من أحببت). في رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ : (فأنت مع من أحببت). قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

قلت: وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين؛ كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي ﷺ ، ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء: ٧).

وقالت فرقة: لم يكن كلبا حقيقة، وإنما كان أحدهم، وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم كما سمي النجم التابع للجوزاء كلبا؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له: كلب الجبار. قال ابن عطية: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبي ﷺ : (ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب)[1]. وقد حكى أبو عمر المطرز في كتاب اليواقيت أنه قرئ "وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد". فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روي؛ إذ بسط الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الربية المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقرأ جعفر ابن محمد الصادق "وكالبهم" يعني صاحب الكلب.

(١) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ باسط ذراعيه ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بسط ذراعيـه لطـول المـدة. وقيل: نـام الكلب، وكـان ذلـك مـن الآيـات. وقيـل: نـام مفتـوح العين. ﴿ بالوصيد ﴾ والوصيد: الفناء؛ قالـه ابن عباس ومجاهد وابن جبير، أي فناء الكهف، والجمع وصائد ووصد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضا. وأنشد:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها علـي ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدم. وقال عطاء: عتبة الباب، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدت الباب وآصدته أي أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وثاب بضمها. ﴿ لوليت منهم فرارا ﴾ أي لو أشرفت عليهم لـهربت منهم. ﴿ ولملئت منهم رعبا ﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الـهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبثنا يوما أو بعض يوم. ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالـها؛ إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لـهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لـهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبل لـهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم. وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة "لملئت منهم" بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أي ملئت ثم ملئت. وقرأ الباقون "لملئت" بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة. وقد جاء التثقيل في قول المخبَّل السعدي:

وإذ فتك النعمان بالناس محرمـــا فملِّئ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور "رعبا" بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان. و"فرارا" نصب على الحال و"رعبا" مفعول ثان أو تمييز.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾ البعث: التحريك عن سكون. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم بعثناهم أيضا؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالـهم. قال الشاعر:

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعا بين عاث ونشوان

أي أيقظت. واللام في قولـه ﴿ ليتساءلوا ﴾ لام الصيرورة وهي لام العاقبة؛ كقولـه ﴿ ليكون لـهم عدوا وحزنا ﴾ (القصص: ٨) فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلـهم. ﴿ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ وذلك أنهم دخلوه غدوة وبعثهم الله في آخر النهار؛ فقال رئيسهم يمليخا أو مكسلمينا: الله أعلم بالمدة.

قولـه تعالى: ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقهم كأخفاف الربع؛ ذكره النحاس. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم "بورقكم" بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم "بورقكم" بسكون الراء، حذفوا الكسرة لثقلـها، وهما لغتان. وقرأ الزجاج "بورقكم" بكسر الواو وسكون الراء. ويروى أنهم انتبهوا جياعا، وأن المبعوث هو يمليخا، كان أصغرهم؛ فيما ذكر الغزنوي. والمدينة: أفسوس ويقال: هي طرسوس، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس؛ فلما جاء الإسلام سموها طرسوس. وقال ابن عباس: كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما ﴾ قال ابن عباس: أحل ذبيحة؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم. ابن عباس: كان عامتهم مجوسا. وقيل "أزكى طعاما" أي أكثر بركة. قيل: إنهم أمروه أن يشتري ما يظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يطلع عليهم، ثم إذا طبخ كفى جماعة؛ ولـهذا قيل: ذلك الطعام الأرز. وقيل: كان زبيبا. وقيل: تمرا؛ فالله أعلم. وقيل: "أزكى" أطيب. وقيل: أرخص.

قولـه تعالى: ﴿ فليأتكم برزق منه ﴾ أي بقوت. ﴿ وليتلطف ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿ ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ أي لا يخبرن. وقيل: إن ظهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما وقع فيه.

الثالثة: في هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها. وقد وكل علي بن أبي طالب أخاه عقيلا عند عثمان ﷺ؛ ولا خلاف فيها في الجملة. والوكالة معروفه في الجاهلية والإسلام؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكل أمية بن خلف بأهلـه وحاشيته بمكة؛ أي يحفظهم، وأمية مشرك، والتزم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاة لصنعه. روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة؛ فلما ذكرت الرحمن؛ قال: لا أعرف الرحمن كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو. . . وذكر الحديث. قال الأصمعي: صاغية الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه؛ وهو مأخوذ من صغا يصغو ويصغى إذا مال، وكل مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال.

الرابعة : الوكالة عقد نيابة، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترفه فيستنيب من يريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقولـه تعالى: ﴿ والعاملين عليها﴾ (التوبة: ٦٠) وقولـه "اذهبوا بقميصي هذا" وأما من السنة فأحاديث كثيرة منها حديث عروة البارقي، وقد تقدم في آخر الأنعام. روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت لـه: إني أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال: (إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقا فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته)[1] خرجه أبو داود. والأحاديث كثيرة في هذه المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية.

الخامسة : الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكل الغاصب لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرم فعلـه لا تجوز النيابة فيه.

السادسة : في هذه الآية نكتة بديعة، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التقية خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العذر متفق عليه؛ فأما من لا عذر لـه فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسحنون: لا تجوز. قال ابن العربي: وكأن سحنون تلقفه من أسد بن الفرات فحكم به أيام قضائه، ولعلـه كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافا منهم وإذلالا لـهم، وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلـهم أن يوكلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: (أعطوه) فطلبوا لـه سنه فلم يجدوا إلا سنا فوقها؛ فقال: (أعطوه) فقال: أوفيتني أوفى الله لك. قال النبي ﷺ: (إن خيركم أحسنكم قضاء). لفظ البخاري. فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السن التي كانت عليه؛ وذلك توكيل منه لـهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضا ولا مسافرا. وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولـهما: أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولـهما.

السابعة : قال ابن خويز منداد: تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء. وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا، وإن كان بعضهم أكثر أكلا من الآخر؛ ومثلـه قولـه تعالى: ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ (البقرة: ٢٢٠) حسبما تقدم بيانه في "البقرة". ولـهذا قال أصحابنا في المسكين يتصدق عليه فيخلطه بطعام لغني ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد كان رسول الله ﷺ وكل من اشترى لـه أضحية. قال ابن العربي: ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفردا فلا يكون فيه

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود (٣٦٣٢).

اشتراك. ولا معول في هذه المسألة إلا على حديثين: أحدهما: أن ابن عمر مر بقوم يأكلون تمرا فقال: نهى رسول الله ﷺ عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه[1]. الثاني: حديث أبي عبيدة في جيش الخبط. وهذا دون الأول في الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه.

قلت: ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قولـه تعالى: ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ (البقرة: ٢٢٠) وقولـه ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ (النور: ٦١) على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قال الزجاج: معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأول أصح، لأنه كان عازما على قتلـهم كما تقدم في قصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبلـه (عقوبة) مخالفة دين الناس إذ هي أشفى لجملة أهل ذلك الدين من حيث إنهم يشتركون فيها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و"أعثر" تعدية عثر بالـهمزة، وأصل العثار في القدم. ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾، "يتنازعون": يعني الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم. وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجل صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح والجسد تأكلـه الأرض. وقال بعضهم: تبعث الروح والجسد جميعا؛ فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبين أمره لـهم، حتى لبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ فيقال: إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكرت دراهمه لبعد العهد، فحمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن مَن معه، فلما نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يرينيهم، وسأل الفتى فأخبره؛ فسر الملك بذلك وقال: لعل الله قد بعث لكم آية، فلنسر إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنوا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمة إسلام، فروي أنهم سروا بذلك وخرجوا إلى الملك

(١) "صحيح" أخرجه أبو داود وابن ماجه وغيرهما وفيه: "إلا أن تستأذن أصحابك" وانظر صحيح أبي داود (٣٢٤٧)

وعظموه وعظمهم ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تمليخا ميتة الحق، على ما يأتي. ورجع من كان شك في بعث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى "أعثرنا عليهم".

"ليعلموا أن وعد الله حق" أي ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق "إذ يتنازعون بينهم أمرهم". وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك: ابنوا عليهم بنيانا؛ فقال الذين هم على دين الفتية: اتخذوا عليهم مسجدا. وروي أن طائفة كافرة قالت: نبني بيعة أو مضيفا، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذن عليهم مسجدا. وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين. وروي عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم، فلذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلما لـهم. وقيل: إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فأتاه آت منهم في المنام فقال: أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود، فدعنا.

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[(١)]. قال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة). لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) لفظ مسلم. أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد). وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة لـه على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه. وخرجه أبو داود والترمذي أيضا عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ[(٢)]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى الصحيح عن أبي الـهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته - في رواية - ولا صورة إلا طمستها. وأخرجه أبو داود والترمذي.

(١) حسن بشواهده دون قوله: "والسرج" فليس لها شاهد البتة، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وراجع الإرواء (٧٦١).

(٢) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٢٧٦٢، ٢٧٦٣).

قال علماؤنا: ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة. وقد قال به بعض أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما ـ على ما ذكر مالك في الموطأ ـ وقبر أبينا آدم ﷺ، على ما رواه الدارقطني من حديث ابن عباس. وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعلـه تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبها بمن كان يعظم القبور ويعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام. والتسنيم في القبر: ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير. ويرش عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح. وقال الشافعي: لا بأس أن يطين القبر. وقال أبو حنيفة: لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط. ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدثنا مسدد حدثنا نوح بن دراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر.

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرخوة. وروي أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ لـه تابوت من زجاج ويلقى في ركية مخافة أن يعبد، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلته عليه عجوز فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام. وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتخذوا لي لحدا وانصبوا علي اللبن نصبا؛ كما صنع برسول الله ﷺ. اللحد: هو أن يشق في الأرض ثم يحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يدخل فيه الميت ويسد عليه باللبن. وهو أفضل عندنا من الشق؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسولـه ﷺ. وبه قال أبو حنيفة قال: السنة اللحد. وقال الشافعي: الشق. ويكره الآجر في اللحد. وقال الشافعي: لا بأس به لأنه نوع من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأن الآجر لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبلى، فلا يليق به الإحكام. وعلى هذا يسوى بين الحجر والآجر. وقيل: إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر. قالوا: ويستحب اللبن والقصب لما روي أنه وضع على قبر النبي ﷺ حزمة من قصب. وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفي رحمه الله أنه جوز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض. وقال: لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به، لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطين الطبقة العليا مما يلي الميت، ويجعل اللبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد.

قلت: ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبي ﷺ؛ فإن المدينة سبخة، قال شقران: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذي: حديث شقران حديث حسن غريب.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ الضمير في "سيقولون" يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد ﷺ. وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص. وقيل: المراد به النصارى؛ فإن قوما منهم حضروا النبي ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم. وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف. والواو في قول "وثامنهم كلبهم" طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم؛ لتفصل أمرهم، وتدل على أن هذا غاية ما قيل، ولو سقطت لصح الكلام. وقالت فرقة منها ابن خالويه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشا كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية؛ فتدخل الواو في الثمانية. وحكى نحوه القفال، فقال: إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿ التائبون العابدون ﴾ ثم قال ﴿ والناهون عن المنكر والحافظون ﴾ (التوبة: ١١٢). يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ (الزمر: ٧١) بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ (الزمر: ٧٣) بالواو. وقال: ﴿ خيرا منكن مسلمات ﴾ (التحريم: ٥) ثم قال ﴿ وأبكارا ﴾ (التحريم: ٥) فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين السبعة نهاية عندهم ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ (الحشر: ٢٣) ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله "سبعة وثامنهم" لينبه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين "رجما بالغيب" ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يخرص: رجم فيه ومرجوم ومرجم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجم

قلت: وقد ذكر الماوردي والغزنوي: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى "وثامنهم كلبهم" أي صاحب كلبهم. وهذا مما يقوي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القشيري: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزا، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ (الحجر: ٤). وفي موضع آخر: ﴿ إلا لها منذرون. ذكرى ﴾ (الشعراء: ٢٠٨).

قولـه تعالى: ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من أهل الكتاب؛ في قول عطاء. وكان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر، فوق القلطي ودون الكردي. وقال محمد بن سعيد بن المسيب: هو كلب صيني. والصحيح أنه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر لـه. قال: وكتبه أبو عمرو الحيري عني.

قولـه تعالى: ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك؛ وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتج على أمر مقدر في ذلك. وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم فلهذا قال "إلا مراء ظاهرا" أي ذاهبا؛ كما قال:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ولم يبح لـه في هذه الآية أن يماري؛ ولكن قولـه "إلا مراء" استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب. سميت مراجعته لـهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم. والضمير في قولـه "فيهم" عائد على أهل الكهف. وقولـه: "فلا تمار فيهم" يعني في عدتهم؛ وحذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها. ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾ روي أنه ﷺ سأل نصارى نجران عنهم فنهي عن السؤال. والضمير في قولـه "منهم" عائد على أهل الكتاب المعارضين. وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيّه ﷺ على قولـه للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين: غدا أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولـم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة. وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه. واللام في قولـه "لشيء" بمنزلة في، أو كأنه قال لأجل شيء.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ قال ابن عطية: وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين. وقولـه: "إلا أن يشاء الله" في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز؛ تقديره: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله. فالمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس "إلا أن يشاء الله" من القول الذي نهي عنه.

قلت: ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائي والفراء والأخفش. وقال البصريون: المعنى إلا بمشيئة الله. فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله. قال ابن عطية: وقالت فرقة "إلا أن يشاء الله" استثناء من قوله "ولا تقولن". قال: وهذا قول حكاه الطبري ورد عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى. وقد تقدم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في "المائدة".

قوله تعالى: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ فيه مسألة واحدة، وهي الأمر بالذكر بعد النسيان ـ واختلف في الذكر المأمور به؛ فقيل: هو قوله ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ قال محمد الكوفي المفسر: إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص. وقيل: هو قوله ﴿ إن شاء الله ﴾ (الصافات: ١٠٢) الذي كان نسيه عند يمينه. حكي عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا. وهو قول مجاهد. وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال: يستثني إذا ذكره. الحسن: ما دام في مجلس الذكر. ابن عباس: سنتين؛ ذكره الغزنوي قال: فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكما فلا يصح إلا متصلا. السدي: أي كل صلاة نسيها إذا ذكرها. وقيل: استثن باسمه لئلا تنسى. وقيل: اذكره متى ما نسيته. وقيل: إذا نسيت شيئا فاذكره يذكركه. وقيل: اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقة الذكر. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعد تعم جميع أمته؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهۡفِهِمۡ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم. وفي قراءة ابن مسعود "وقالوا لبثوا". قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياما، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقوله على هذا "لبثوا" الأول يريد في نوم الكهف، و"لبثوا" الثاني يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء. مجاهد: إلى وقت نزول القرآن. الضحاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال "وازدادوا تسعا" لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام. واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية. وقيل: غير هذا على ما يأتي. قال القشيري: لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول: عندي مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم. وقال أبو علي "وازدادوا تسعا" أي ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك: لما نزلت "ولبثوا في كهفهم ثلثمائة" قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل "سنين". وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية

بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين. وقرأ الجمهور "ثلثمائة سنين" بتنوين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أي سنين ثلاثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون "سنين" على هذا بدلا أو عطف بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و"سنين" في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله "ثلثمائة سنة". وقرأ الضحاك "ثلثمائة سنون" بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف "تسعا" بفتح التاء. وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغيرهم بالبلى؛ على ما تقدم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك ﴿ له غيب السماوات والأرض ﴾. ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ أي ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى "أبصر به" أي بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العالم؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقيل: المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم.

قوله تعالى: ﴿ ما لهم من دونه من ولي ﴾ أي لم يكن لأصحاب الكهف ولي يتولى حفظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في "لهم" على معاصري محمد ﷺ من الكفار. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم ولي دون الله يتولى تدبير أمرهم؛ فكيف يكونون أعلم منه، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم.

قوله تعالى: ﴿ ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري "ولا تشرك" بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي ﷺ، ويكون قوله "ولا تشرك" عطفا على قوله: "أبصر به وأسمع". وقرأ مجاهد "يشرك" بالياء من تحت والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة؛ فروي عن ابن عباس أنه مر بالشام في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا: هذه عظام أهل الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قوم فنوا وعدموا منذ

مدة طويلة؛ فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا؛ فقيل لـه: هذا ابن عم نبينا ﷺ. وروت فرقة أن النبي ﷺ قال: (ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد). ذكره ابن عطية.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى ابن مريم عبد الله ورسولـه، وأنه يمر بالروحاء حاجا أو معتمرا أو يجمع الله لـه ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم، فيمرون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبر بكمالـه في كتاب "التذكرة". فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة، بل يموتون قبيل الساعة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ﴾ قيل: هو من تمام قصة أصحاب الكهف؛ أي اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبري: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه. ﴿ ولن تجد ﴾ أنت ﴿ من دونه ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته. ﴿ ملتحدا ﴾ أي ملجأ وقيل موئلا وأصلـه الميل؛ ومن لجأت إليه فقد ملت إليه. قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخر قصة أصحاب الكهف. ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف؛ فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم؛ فقال ابن عباس: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال: ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ﴾ (الكهف: ١٨) فقال: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، وبعث قوما لذلك، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم؛ ذكره الثعلبي أيضا. وذكر أن النبي ﷺ سأل الله أن يريه إياهم، فقال: إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان؛ فقال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علي بن أبي طالب، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجرا، فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ إليهم برأسه أن ادخلوا فدخلوا الكهف فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فرد الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته؛ فقالوا لـهم: معشر الفتية، إن النبي محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام؛ فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السماوات والأرض، وعليكم بما أبلغتم، وقبلوا دينه وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمدا رسول الله منا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي. فيقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردتهم الريح فقال النبي

ﷺ: (كيف وجدتموهم)؟. فأخبروه الخبر؟ فقال النبي ﷺ: (اللهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبني وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي)[١]. وقيل: إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ. وقيل: كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله ﷺ. وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح؛ فالله أعلم أي ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ هذا مثل قوله: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ (الأنعام: ٥٢) في سورة "الأنعام" وقد مضى الكلام فيه. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن والأقرع بن حابس فقالوا: يا رسول الله؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى "واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - حتى بلغ - إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها". يتهددهم بالنار. فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال: (الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات)[٢]. ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي طاعته. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي" وحجتهم أنها في السواد بالواو. وقال أبو جعفر النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة. وروي عن الحسن ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدي. وقيل: لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تنبو عنه العين؛ أي مستحقرا.

قوله تعالى: ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ أي تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يرد النبي ﷺ أن يفعل ذلك، ولكن الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ (الزمر: ٦٥). وإن كان الله أعاذه من الشرك. و"تريد" فعل مضارع في موضع الحال؛ أي لا تعد عيناك مريدا؛ كقول امرئ القيس:

---

(١) موضوع.

(٢) أخرجه الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٢٢٤، ٢٢٥) وفي سنده مجهول.

فقلت لـه لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وزعم بعضهم أن حق الكلام: لا تعد عينيك عنهم؛ لأن "تعد" متعد بنفسه. قيل لـه: والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجه إلى النبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ فلا تعجبك أموالـهم ﴾ فأسند الإعجاب إلى الأموال، والمعنى: لا تعجبك يا محمد أموالـهم. ويزيدك وضوحا قول الزجاج: إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الـهيئات والزينة.

قولـه تعالى: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ قال: نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد. ﴿ واتبع هواه ﴾ يعني الشرك. ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ قيل: هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحد، وكان القوم قالوا: نحن أشراف مضر إن أسلمنا أسلم الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: "فرطا" أي قدما في الشر؛ من قولـهم: فرط منه أمر أي سبق. وقيل: معنى "أغفلنا قلبه" وجدناه غافلا؛ كما تقول: لقيت فلانا فأحمدته؛ أي وجدته محمودا. وقال عمرو بن معد يكرب لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألناكم فما أبخلناكم، وقاتلناكم فما أجبناكم، وهاجيناكم فما أفحمناكم؛ أي ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفحمين. وقيل: نزلت "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" في عيينة بن حصن الفزاري؛ ذكره عبد الرزاق، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ "الحق" رفع على خبر الابتداء المضمر؛ أي قل هو الحق. وقيل: هو رفع على الابتداء، وخبره في قولـه "من ربكم". ومعنى الآية: قل يا محمد لـهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الـهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر؛ ليس إلي من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفا، ويحرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا، ولست بطارد المؤمنين لـهواكم؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا. وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

قولـه تعالى: ﴿إنا أعتدنا﴾ أي أعددنا. ﴿للظالمين﴾ أي للكافرين الجاحدين. ﴿نارا أحاط بهم سرادقها﴾ قال الجوهري: السرادق واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف فهو سرادق. قال رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن الجارود سـرادق المجـد عليك ممدود

يقال: بيت مسردق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتلـه النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هـو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق

وقال ابن الأعرابي: "سرادقها" سورها. وعن ابن عباس: حائط من نار. الكلبي: عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة. القتبي: السرادق الحجزة التي تكون حول الفسطاط. وقالـه ابن عزيز. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة "والمرسلات". حيث يقول: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ (المرسلات: ٣٠) وقولـه: ﴿وظل من يحموم﴾ (الواقعة: ٤٣) قالـه قتادة. وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: (البحر هو جهنم - ثم تلا - نارا أحاط بهم سرادقها - ثم قال - والله لا أدخلـها أبدا ما دمت حيا ولا يصيبني منها قطرة)[١] ذكره الماوردي. وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: (لسرادق النار أربع جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة). وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب[٢].

قلت: وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجدره ما وصف.

قولـه تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ قال ابن عباس: المهل ماء غليظ مثل دردي الزيت. مجاهد: القيح والدم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلـها سود. وقال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس وقصدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل. ونحوه عن ابن مسعود قال سعيد بن جبير: هو الذي قد انتهى حره. وقال: المهل ضرب من القطران؛ يقال: مهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وفي الترمذي عن النبي ﷺ في قولـه "كالمهل" قال: (كعكر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه)[٣] قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ورشدين قد تكلم فيه من قبل حفظه. وخرج عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قولـه: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: (يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره). يقول الله تعالى: ﴿وسقوا ماء حميما

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ٣٨٦) وقال: "رواه أحمد ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٤) وقال: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد وفي رشدين مقال، وقد تُكلم فيه من قبل حفظه". وضعفه الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة (٥٦٨١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٠٧، أحوذي) من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعًا، ورشدين بن سعيد ضعيف، وكذا دراج وشيخه أبو الهيثم.

فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد: ١٥) يقول "وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا" قال: حديث غريب[(١)].

قلت: وهذا يدل على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم. وكذلك نص عليها أهل اللغة. في الصحاح "المهل" النحاس المذاب. ابن الأعرابي: المهل المذاب من الرصاص. وقال أبو عمرو. المهل دردي الزيت. والمهل أيضا القيح والصديد. وفي حديث أبي بكر: ادفنوني في ثوبي هذين فإنهما للمهل والتراب. و﴿ مرتفقا ﴾ قال مجاهد: معناه مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة. ابن عباس: منزلا. عطاء: مقرا. وقيل: مهادا. وقال القتبي: مجلسا. والمعنى متقارب؛ وأصله من المتكأ، يقال منه: ارتفقت أي اتكأت على المرفق. قال الشاعر:

قالت له وارتفقت ألا فتى ... يسوق بالقوم غزالات الضحى

ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذؤيب الهذلي:

نام الخلي وبت الليل مرتفقا ... كأن عيني فيها الصاب مذبوح

الصاب: عصارة شجر مر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للمؤمنين من الثواب. وفي الكلام إضمار؛ أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله محبط. و"عملا" نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع "أحسن" عليه. وقيل: "إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا" كلام معترض، والخبر قوله ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾. و"جنات عدن" سرة الجنة، أي وسطها وسائر الجنات محدقة بها وذكرت بلفظ الجمع لسعتها؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة وقيل: العدن الإقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به. وعدنت البلد توطنته وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه؛ ومنه "جنات عدن" أي جنات إقامة ومنه سمي المعدن (بكسر الدال)؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء ومركز كل شيء معدنه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى. وعدن بلد؛ قاله الجوهري. ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ تقدم في غير موضع ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ وهو جمع سوار. قال سعيد بن جبير: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورق، وواحد من لؤلؤ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٠٩ـ أحوذي)، من طريق صفوان بن عمر عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة مرفوعًا، وعبيد الله بن بسر مجهول كما في التقريب" (١/ ٥٣١).

قلت: هـذا منصـوص فـي القـرآن، قال هنا: "مـن ذهب" وقال في الحج وفاطر ﴿من ذهب ولؤلؤا ﴾(الحج: ٢٣) وفي الإنسان ﴿من فضة ﴾(الإنسان: ٢١). وقال أبو هريرة: سمعت خليلي ﷺ يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) خرجه مسلم. وحكى الفراء: "يحلون" بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي. وحلي الشيء بعيني يحلى؛ ذكره النحاس. والسوار سوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة. وقـرئ: ﴿فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب ﴾(الزخرف: ٥٣) وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قالـه الجوهري. وقال ابن عزيز: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار وسُوار، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قلب وجمعه قلبة؛ فإن كانَ من قرن أو عاج فهي مسكة وجمعه مسك. قال النحاس: وحكى قطرب في واحد الأساور إسوار، وقطرب صاحب شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره.

قلت: قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار. وقال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة.

قولـه تعالى: ﴿ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ﴾ السندس: الرقيق النحيف، واحده سندسة؛ قالـه الكسائي. والإستبرق: ما ثخن منه ـ عن عكرمة ـ وهو الحرير. قال الشاعر:

تراهـن يلبســن المشاعـر مرة وإستبرق الديباج طورا لباسها

فالإستبرق الديباج. ابن بحر: المنسوج بالذهب. القتبي: فارسي معرب. الجوهري: وتصغيره أبيرق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيح أنه وفاق بين اللغتين؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب، على ما تقدم، والله أعلم. وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر؛ لأن البياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع. والله أعلم. روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب الجنة، أخلق يخلق أم نسيج ينسج؟ فضحك بعض القوم. فقال لـهم: (مم تضحكون من جاهل يسأل عالما) فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله ﷺ: (أين السائل عن ثياب الجنة)؟ فقال: ها هو ذا يا رسول الله؛ قال: (لا بل تشقق عنها ثمر الجنة) قالـها ثلاثا[1]. وقال أبو هريرة: دار المؤمن درة مجوفة في وسطها شجرة تنبت الحلل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حلة منظمة بالدر والمرجان. ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه. وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة. وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لـها وجهان لكل وجه لون، يتكلمان به بصوت يستحسنه سامعه، يقول أحد الوجهين للآخر: أنا أكرم على ولي الله منك، أنا ألي جسده وأنت لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرم على ولي الله منك، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر.

قولـه تعالى: ﴿متكئين فيها على الأرائك ﴾ "الأرائك" جمع أريكة، وهي السرر في الحجال. وقيل: الفرش في الحجال؛ قالـه الزجاج. ابن عباس: هي الأسرة من ذهب، وهي مكللة بالدر والياقوت عليها الحجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية. وأصل متكئين

(١)ضعيف، زهير بن معاوية ثقة إلا أن سماعه عن أبي إسحاق وهو السبيعي بآخره لما اختلط.

موتكئين، وكذلك اتكأ أصلـه اوتكأ، وأصل التكأة وكأة؛ ومنه التوكأ للتحامل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت. ورجل وكأة كثير الاتكاء. ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ يعني الجنات، عكس "وساءت مرتفقا". وقد تقدم. ولو كان "نعمت" لجاز لأنه اسم للجنة. وعلى هذا "وحسنت مرتفقا". وروى البراء بن عازب أن أعرابيا قام إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات" الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: (ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فأعلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم) ذكره الماوردي، وأسنده النحاس في كتاب معاني القرآن، قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن علي بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: قام أعرابي...؛ فذكره. وأسنده السهيلي في كتاب الأعلام. وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واضرب لـهم مثلا رجلين ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقولـه: ﴿ واصبر نفسك ﴾ (الكهف: ٢٨). واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ. والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة "الصافات" في قولـه: ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ (الصافات: ٥١)، ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما مالـه في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال...؛ ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. وقيل: هو مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال: اسم الخير منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثيابا فكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاما فأطعم الجوع، وبنى أيضا مساجد، وفعل خيرا. وأما الآخر فنكح بمالـه نساء ذوات

يسار، واشترى دواب وبقرا فاستنتجها فنمت لـه نماء مفرطا، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى؛ وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكد يصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسألـه حاجته قال لـه: ألـم أكن قاسمتك المال نصفين فما صنعت بمالك؟. قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال. أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كسبت وسفهت أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلا بما أرسل عليها من السماء من الحسبان. وقد ذكر الثعلبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب.

قال عطاء: كانا شريكين لـهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وإني اشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال: اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإني أشتري منك دارا في الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، وإني أشتري منك خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعل صاحبي ينالني معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث والله لا أعطيك شيئا ثم قال لـه: أنت تعبد إلـه السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما؛ فقال صاحبه: والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه. فقال: سر بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال لـه: يا أخي إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلـها ثوابا لمحسن أو عقابا لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما الله، فجعل الكافر يرمي شبكته ويسمي باسم صنمه، فتطلع متدفقة سمكا. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلع لـه فيها شيء؛ فقال لـه: كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نصيبا ومنزلة ونفرا، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقا. قال: فضج الملك الموكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله لـه قال: وعزتك لا يضره ما نالـه من الدنيا بعدما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله لـه أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: ﴿ إني كان لي قرين. يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ (الصافات: ٥١) الآية؛ فنادى مناد: يا أهل الجنة! هل أنتم مطلعون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم؛ فنزلت: "واضرب لـهم مثلا".

بيّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبين حالـهما في الآخرة في سورة "الصافات" في قوله ﴿ إني كان لي قرين. يقول أئنك لمن المصدقين ـ إلى قولـه ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾(الصافات: ٥١). قال ابن عطية: وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيره الآخر، وجرت بينهما المحاورة ففرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عني بهذه الآية. وقد قيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لـهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعلـه زجرا وإنذارا؛ ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل. والحفاف الجانب، وجمعه أحفة؛ ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفا، أي طافوا به؛ ومنه ﴿ حافين من حول العرش ﴾ (الزمر: ٧٥). ﴿ وجعلنا بينهما زرعا ﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع.

قولـه تعالى: ﴿ كلتا الجنتين ﴾ أي كل واحدة من الجنتين، واختلف في لفظ "كلتا وكلا" هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهل البصرة: هو مفرد؛ لأن كلا وكلتا في توكيد الاثنين نظير "كل" في المجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولي اسما ظاهرا كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيت كلا الرجلين وجاءني كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيت كليهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال الفراء: هو مثنى، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل: كل وكلت وكلان وكلتان. واحتج بقول الشاعر:

في كلت رجليها سلامى واحده   كلتاهـما مقـرونـة بـزائـده

أراد في إحدى رجليها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياء مع الاسم الظاهر، ولأن معنى "كلا" مخالف لمعنى "كل" لأن "كُلاّ" للإحاطة و"كلاَ" يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدر أنها زائدة، وما يكَون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفرد كمعى، إلا أنه وضع ليدل على التثنية، كما أن قولـهم "نحن" اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير:

كلا يومي أمامة يوم صد   وإن لـم نأتـها إلا لماما

فأخبر عن "كلا" بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقولـه "آتت" ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما. واختلف أيضا في ألف "كلتا"؛ فقال سيبويه: ألف "كلتا" للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كلوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علم التأنيث، والألف "في كلتا" قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيد للتأنيث. وقال أبو عمر الجرمي: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فعتل، ولو كان الأمر على ما زعم الجرمي: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فعتل، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كلتوي، فلما قالوا كلوي وأسقطوا التاء دل على أنهم أجروها مجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوي؛ ذكره

الجوهري. قال أبو جعفر النحاس: وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتا. وأجاز الفراء: كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المعنى كل الجنتين. قال: وفي قراءة عبد الله "كل الجنتين آتى أكله". والمعنى على هذا عند الفراء: كل شيء من الجنتين آتي أكله. والأكل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر. وكل ما يؤكل فهو أكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أكلها دائم ﴾ (الرعد: ٣٥) وقد تقدم. ﴿ آتت أكلها ﴾ تاما ولذلك لم يقل آتتا. ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿ وكان له ثمر ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق "ثمر" بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله ﴿ وأحيط بثمره ﴾ (الكهف: ٤٢) جمع ثمرة. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق. والثمر أيضا المال المثمر؛ يخفف ويثقل. وقرأ أبو عمرو "وكان له ثمر" بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال. والباقون بضمهما في الحرفين. قال ابن عباس: ذهب وفضة وأموال. وقد مضى في "الأنعام" نحو هذا مبينا. وذكر النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال: لو سمعت أحدا يقرأ "وكان له ثمر" لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش: أتأخذ بذلك؟ فقال: لا؟ ولا نعمة عين. فكان يقرأ "ثمر" ويأخذه من جمع الثمر. قال النحاس: فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله "كلتا الجنتين آتت أكلها" يدل على أن له ثمرا.

قوله تعالى: ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إلي جوابا، وما رجع إلي حويرا ولا حويرة ولا محورة ولا حوارا؛ أي ما رد جوابا. ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ النفر: الرهط وهو ما دون العشرة. وأراد ههنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ودخل جنته ﴾ قيل: أخذ بيد أخيه المؤمن يطيف به فيها ويريه إياها. ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره، وهو جملة في موضع الحال. ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه. ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ﴾ أنكر فناء الدار. ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي لا أحسب البعث كائنا. ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ أي وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه؛ وهو معنى قوله ﴿ لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان

بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام "منهما". وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة "منها" على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف في اسمه. ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة. و"سواك رجلا" أي جعلك معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء ذكرا. ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية. وروي عن الكسائي "لكن هو الله" بمعنى لكن الأمر هو الله ربي، فأضمر اسمها فيها. وقرأ الباقون "لكنا" بإثبات الألف. قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لكن الله هو ربي أنا، فحذفت الهمزة من "أنا" طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف "أنا" في الوصل وأثبتت في الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائي والفراء والمازني أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون في النون فالوقف عليها لكنا وهي ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيدة: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لهنك من عبسية لوسيمة   على هنوات كاذب من يقولها

أراد: لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من "لله" وحذف الألف من إنك. وقال آخر فجاء به على الأصل:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب   وتقلينني لكن إياك لا أقلي

أي لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووا عن عاصم "لكنا هو الله ربي" وزعم أن هذا لحن، يعني إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف في "لكنا هو الله ربي" في الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا. قال: وفي قراءة أبي "لكن أنا هو الله ربي". وقرأ ابن عامر والمسيلي عن نافع ورويس عن يعقوب "لكنا" في حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني   حميدا قد تذريت السناما

وقال الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافي   بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف. ﴿ هو الله ربي ﴾ "هو" ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ (الأنبياء: ٩٧) وقوله: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص: ١).
﴿ ولا أشرك بربي أحدا ﴾ دل مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره. ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قدر عليه؛ وهو

الذي آتاني الفقر . ويحتمل أنه أراد جحودك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومن عجزه سبحانه وتعالى شبهه بخلقه؛ فهو إشراك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ قوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾فيه مسألتان:

الأولى : قوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾أي بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر ورد عليه، إذ قال: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبدا ﴾(الكهف: ٣٥) و"ما" في موضع رفع، تقديره: هذه الجنة هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أي الأمر مشيئة الله تعالى. وقيل: الجواب مضمر، أي ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون. "لا قوة إلا بالله" أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

الثانية : قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: وقال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا "ما شاء الله لا قوة إلا بالله". وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: (ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ـ أو قال كنز من كنوز الجنة) قلت: بلى يا رسول الله، قال (لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى. وفيه: فقال (يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ـ في رواية على كنز من كنوز الجنة ـ) قلت: ما هي يا رسول الله، قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله). وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ (ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة) قلت: بلى؛ فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشة: إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال الملك هديت، وإذا قال ما شاء الله قال الملك كفيت، وإذا قال لا قوة إلا بالله قال الملك وقيت. خرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان) [1]هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه ـ فقال له: (هديت وكفيت ووقيت). وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال باسم الله قالا هديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قالا وقيت وإذا قال توكلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قريناه فيقولان ماذا

---

(١)صحيح، انظر صحيح الترمذي (٢٧٢٤).

تريدان من رجل قد هدي ووقي وكفي)[١] . وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث: سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبي ﷺ: (تحاجت الجنة والنار فقالت هذه ـ يعني الجنة ـ يدخلني الضعفاء) من الضعيف؟ قال: الذي يبرئ نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. وقال أنس بن مالك قال النبي ﷺ: (من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين)[٢] . وقد قال قوم: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رضي به. وروي أن من قال أربعا أمن من أربع: من قال هذه أمن من العين، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان، ومن قال وأفوض أمري إلى الله أمن مكر الناس، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أمن من الغم.

قوله تعالى: ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ﴾ "إن" شرط "ترن" مجزوم به، والجواب "فعسى ربي" و"أنا" فاصلة لا موضع لها من الإعراب. ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيدا للنون والياء. وقرأ عيسى بن عمر "إن ترن أنا أقل منك" بالرفع؛ يجعل "أنا" مبتدأ و"أقل" خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة. و﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل أي فلعل ربي. "أن يؤتيني خيرا من جنتك" أي في الآخرة. وقيل: في الدنيا. ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك. ﴿ حسبانا من السماء ﴾ أي مرامي من السماء، واحدها حسبانة؛ قاله الأخفش والقتبي وأبو عبيدة. وقال ابن الأعرابي: والحسبانة السحابة، والحسبانة الوسادة، والحسبانة الصاعقة. وقال الجوهري: والحسبان (بالضم): العذاب. وقال أبو زياد الكلابي: أصاب الأرض حسبان أي جراد. والحسبان أيضا الحساب، قال الله تعالى: ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ (الرحمن: ٥). وقد فسر الحسبان هنا بهذا. قال الزجاج: الحسبان من الحساب؛ أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حذف المضاف. والحسبان أيضا: سهام قصار يرمى بها في طلق واحد، وكان من رمي الأكاسرة. والمرامي من السماء عذاب. ﴿ فتصبح صعيدا زلقا ﴾ يعني أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم، وهي أضر أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و"زلقا" تأكيد لوصف الصعيد؛ أي وتزل عنها الأقدام لملاستها. يقال: مكان زلق (بالتحريك) أي دحض، وهو في الأصل مصدر قولك: زلقت رجله تزلق زلقا، وأزلقها غيره. والزلق أيضا عجز الدابة. قال رؤبة:

كأنها حقباء بلقاء الزلق

والمَزْلَقَة والمُزْلَقَة: الموضع الذي لا يثبت عليه قدم. وكذلك الزلاقة. والزلق الحلق، زلق رأسه يزلقه زلقا حلقه؛ قاله الجوهري. والزلق المحلوق، كالنقْض والنقَض. وليس المراد أنها تصير مزلقة، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حلق لا يبقى عليه شعر؛ قاله القشيري. ﴿ أو يصبح ماؤها غورا ﴾ أي غائرا ذاهبا، فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء. والغور مصدر

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن ماجه (٣٨٨٦)، وانظر ضعيف سننه (٨٤٧).

(٢) ضعيف.

وضع موضع الاسم؛ كما يقال: رجل صوم وفطر وعدل ورضا وفضل وزور ونساء نوح؛ ويستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع. قال عمرو بن كلثوم:

تظل جياده نوحا عليه مقلـدة أعنتها صفونا

آخر:

هريقي من دموعهما سجاما ضبـاع وجاوبي نوحا قياما

أي نائحات. وقيل: أو يصبح ماؤها ذا غور؛ فحذف المضاف؛ مثل ؟ ﴿واسأل القرية﴾ (يوسف: ٨٢) ذكره النحاس. وقال الكسائي: ماء غور. وقد غار الماء يغور غورا وغوورا، أي سفل في الأرض، ويجوز الـهمزة لانضمام الواو. وغارت عينه تغور غورا وغؤورا؛ دخلت في الرأس. وغارت تغار لغة فيه. وقال:

أغارت عينه أم لم تغارا

وغارت الشمس تغور غيارا، أي غربت. قال أبو ذؤيب:

هـل الدهـر إلا ليلـة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿فلن تستطيع لـه طلبا﴾ أي لن تستطيع رد الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾ اسم ما لم يسم فاعلـه مضمر، وهو المصدر. ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع. ومعنى "أحيط بثمره" أي أهلك مالـه كلـه. وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه. ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى يديه على الأخرى ندما؛ لأن هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبر عنه باليد، من قولـهم: في يده مال، أي في ملكه مال. ودل قولـه: "فأصبح" على أن هـذا الإهـلاك جرى بالليل؛ كقولـه ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم﴾ (القلم: ١٩) ويقال: أنفقت في هذه الدار كذا وأنفقت عليها. ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض؛ مأخوذ من خوت النجوم تخوى خيا أمحلت، وذلك إذا سقطت ولم تمطر في نوئها. وأخوت مثلـه. وخوت الدار خواء أقوت، وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ (النمل: ٥٢) ويقال: ساقطة؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، مقابلة على بغيه. ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله علي، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ "فئة" اسم "تكن" و"له" الخبر. "ينصرونه" في موضع الصفة، أي فئة ناصرة. ويجوز أن يكون "ينصرونه" الخبر. والوجه الأول عند سيبويه أولى لأنه قد تقدم "له". وأبو العباس يخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (الإخلاص: ٤). وقد أجاز سيبويه الآخر. و"ينصرونه" على معنى فئة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره؛ أي فرقة وجماعة يلتجئ إليهم.

قوله تعالى: ﴿ وما كان منتصرا ﴾ أي ممتنعا؛ قاله قتادة. وقيل: مستردا بدل ما ذهب منه. وقد تقدم اشتقاق الفئة في "آل عمران". والهاء عوض من الياء التي نقصت من وسطه، أصله فيء مثل فيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فئون وفئات، مثل شيات ولدات ومئات. أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضل عنه من افتخر بهم من الخدم والولد.

قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ اختلف في العامل في قوله "هنالك" وهو ظرف؛ فقيل: العامل فيه "ولم تكن له فئة" ولا كان هنالك؛ أي ما نصر ولا انتصر هنالك، أي لما أصابه من العذاب. وقيل: تم الكلام عند قوله "منتصرا". والعامل في قوله "هنالك": "الولاية". وتقديره على التقديم والتأخير: الولاية لله الحق هنالك، أي في القيامة. وقرأ أبو عمرو والكسائي "الحق" بالرفع نعتا للولاية. وقرأ أهل المدينة وحمزة "الحق" بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير: لله ذي الحق. قال الزجاج: ويجوز "الحق" بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول: هذا لك حقا. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي "الولاية" بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرضاعة والرضاعة. وقيل: الولاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (البقرة: ٢٥٧). ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ (محمد: ١١). وبالكسر يعني السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ (الانفطار: ١٩) أي له الملك والحكم يومئذ، أي لا يرد أمره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدعاوي والتوهمات يوم القيامة. وقال أبو عبيد: إنها بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق. ﴿ هو خير ثوابا ﴾ أي الله خير ثوابا في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثم غير يرجى منه، ولكنه أراد في ظن الجهال؛ أي هو خير من يرجى. ﴿ وخير عقبا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى "عقبا" ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد؛ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به. يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه، أي آخره.

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ واضرب لـهم مثل الحياة الدنيا ﴾ أي صف لـهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أي شبهها. ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به ﴾ أي بالماء. ﴿نبات الأرض ﴾ حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدم هذا المعنى في "يونس" مبينا. وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخلـه ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلـها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولـها يضر. وفي حديث النبي ﷺ قال لـه رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أكون من الفائزين؛ قال: (ذر الدنيا وخذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يطغي). وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه). ﴿ فأصبح ﴾ أي النبات ﴿ هشيما ﴾ أي متكسرا من اليبس متفتتا، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه. والـهشم: كسر الشيء اليابس. والـهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولـهم: ما فلان إلا هشيمة كرم؛ إذا كان سمحا. ورجل هشيم: ضعيف البدن. وتهشم عليه فلان إذا تعطف. واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه. ويقال: هشم الثريد؛ ومنه سمي هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزبعرى:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجـاف

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سنون ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز لـه، فحملـه في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعني كسره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحباء بعد السنة التي أصابتهم؛ فسمي بذلك هاشما. ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه؛ قالـه أبو عبيدة. ابن قتيبة: تنسفه. ابن كيسان: تذهب به وتجيء. ابن عباس: تديره؛ والمعنى متقارب. وقرأ طلحة بن مصرف "تذريه الريح". قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله "تذريه". يقال: ذرته الريح تذروه ذروا و"تذريه" ذريا وأذرته تذريه إذراء إذا طارت به. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته. وأنشد سيبويه والفراء:

فقلـــت لـه صوب ولا تجهدنه فيدرك من أخرى القطاة فتزلق

قولـه تعالى: ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ ويجوز "زينتا" وهو خبر الابتداء في التثنية والإفراد. وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالا ونفعا، وفي البنين قوة ودفعا، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تتبعوها نفوسكم. وهو رد على عيينة بن حصن وأمثالـه لما افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالـهشيم حين ذرته الريح؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعدد الآخرة. وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيء ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغدا مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغدا لغيرك. ويكفي في هذا قول الله تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ (التغابن: ١٥). وقال تعالى: ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ (التغابن: ١٤).

قولـه تعالى: ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي ما يأتي به سلمان وصهيب وفقراء المسلمين من الطاعات ﴿خير عند ربك ثوابا ﴾ أي أفضل ﴿وخير أملا ﴾ أي أفضل أملا من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قولـه ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا﴾ (الفرقان: ٢٤). وقيل: خير في التحقيق مما يظنه الجهال أنه خير في ظنهم.

واختلف العلماء في "الباقيات الصالحات"؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة وعمرو بن شرحبيل: هي الصلوات الخمس. وعن ابن عباس أيضا: أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة. وقالـه ابن زيد ورجحه الطبري. وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال لـه هذا. وقال علي ﷺ: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام. وقال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلـها: سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. خرجه مالك في موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات: إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. أسنده النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (استكثروا من الباقيات الصالحات) قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: (التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1]. صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله ﷺ أخذ غصنا فخرطه حتى سقط ورقه وقال: (إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات). ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها)[2]. وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ مر بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاه فتناثر الورق فقال: (إن الحمد لله وسبحان الله ولا إلـه إلا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) وابن حبان والحاكم وغيرهم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً، ودراج وشيخه ضعيفان، لكن له شاهد أخرجه أحمد أيضاً (٤/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) ضعيف، انظر ضعيف ابن ماجه (٨٣٢).

الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة)[١]. قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي فقال يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر)[٢] قال: حديث حسن غريب، خرجه الماوردي بمعناه. وفيه ـ فقلت: ما غراس الجنة؟ قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله). وخرج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرسا فقال: (يا أبا هريرة ما الذي تغرس) قلت غراسا. قال: (ألا أدلك على غراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة)[٣]. وقد قيل: إن الباقيات الصالحات هي النيات والـهمات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قالـه الحسن. وقال عبيد بن عمير: هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ ثم قال: ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ يعني البنات الصالحات هن عند الله لآبائهن خير ثوابا، وخير أملا في الآخرة لمن أحسن إليهن. يدل عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي امرأة مسكينة.. الحديث، وقد ذكرناه في سورة النحل في قولـه ﴿ يتوارى من القوم ﴾ (النحل: ٥٩) الآية. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (لقد رأيت رجلا من أمتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن رب إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن). وقال قتادة في قولـه تعالى: ﴿ فأردنا أن يبدلـهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما﴾ (الكهف: ٨١) قال: أبدلـهما منه ابنة فتزوجها نبي فولدت لـه اثني عشر غلاما كلـهم أنبياء.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر يوم نسير الجبال، أي نزيلـها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال في آية أخرى: ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ (النمل: ٨٨). ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال: ﴿ وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا ﴾ (الواقعة: ٦). وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر "ويوم تسير" بتاء مضمومة وفتح الياء. و"الجبال" رفعا على الفعل المجهول. وقرأ ابن محيصن ومجاهد "ويوم تسير الجبال" بفتح التاء مخففا من سار. "الجبال" رفعا. دليل قراءة أبي عمرو "وإذا الجبال سيرت". ودليل قراءة ابن محيصن "وتسير الجبال سيرا". واختار أبو عبيد القراءة الأولى "نسير" بالنون لقولـه: "وحشرناهم". ومعنى "بارزة" ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي قد

(١)حسن، انظر صحيح الترمذي (٢٧٩٩).
(٢)حسن.
(٣) "صحيح"، انظر صحيح الترمذي (٣٠٦٩).

اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: "وترى الأرض بارزة" أي برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (الانشقاق: ٤) وقال ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (الزلزلة: ٢) وهذا قول عطاء. ﴿ وحشرناهم ﴾ أي إلى الموقف. ﴿ فلم نغادر منهم أحدا ﴾ أي لم نترك؛ يقال: غادرت كذا أي تركته. قال عنترة:

غادرته متعفرا أوصاله   والقوم بين مجرح ومجدل

أي تركته. والمغادرة الترك؛ ومنه الغدر؛ لأنه ترك الوفاء. وإنما سمي الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه. ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. يقول: حشرنا برهم وفاجرهم وجنهم وإنسهم.

قوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾ "صفا" نصب على الحال. قال مقاتل: يعرضون صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صف واحد. وقيل: جميعا؛ كقوله ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ (طه: ٦٤) أي جميعا. وقيل: قياما. وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: (إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب).

قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي يقال لهم: لقد جئتمونا حفاة عراة، لا مال معكم ولا ولدا. وقيل: فرادى؛ دليله قوله: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ (الأنعام: ٩٤). وقد تقدم. وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم. ﴿ بل زعمتم ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث أي زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) قلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: (يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض). "غرلا" أي غير مختونين. وقد تقدم في "الأنعام" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ووضع الكتاب ﴾ "الكتاب" اسم جنس، وفيه وجهان: أحدهما: أنها كتب الأعمال في أيدي العباد؛ قالـه مقاتل. الثاني: أنه وضع الحساب؛ قالـه الكلبي، فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالـهم المكتوبة. والقول الأول أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم ـ شك نعيم ـ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال: قال عمر لكعب: ويحك يا كعب! حدثنا من حديث الآخرة؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عملـه ـ قال ـ ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قولـه تعالى: "ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لـهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها" قال الأسدي: الصغيرة ما دون الشرك؛ والكبيرة الشرك، إلا أحصاها ـ قال كعب: ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عملـه كلـه حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر ذلك كلـه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه. إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ (الحاقة: ١٩) ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشمالـه ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويلوى عنقه؛ فذلك قولـه: ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ (الانشقاق: ١٠) فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر. قال ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك؛ يعني ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبي. وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك.

قلت: فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية، فإن الضحك من المعصية رضا بها والرضا بالمعصية معصية، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم. أو يحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التبسم، وقد قال تعالى: ﴿ فتبسم ضاحكا من قولـها ﴾ (النمل: ١٩). وقال سعيد بن جبير: إن الصغائر اللمم كالمسيس والقبل، والكبيرة المواقعة والزنى. وقد مضى في "النساء" بيان هذا. قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلما، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. وقد مضى. ومعنى "أحصاها" عدها وأحاط بها؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعا. ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا. ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ أي لا يأخذ أحدا بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعملـه؛ قالـه الضحاك. وقيل: لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

قولـه تعالـى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ تقدم في "البقرة" هذا مستوفى. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى "ففسق عن أمر ربه" ففي هذا قولان: أحدهما: وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب الفسق أمر ربه؛ كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن قطرب أن المعنى: ففسق عن رد أمر ربه ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ وقف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقولـه أفتتخذونه يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو؛ أي أعداء، فهو اسم جنس. ﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلا عن عبادة الله. أو بئس إبليس بدلا عن الله. واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؛ فقال الشعبي: سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قولـه: "أفتتخذونه وذريته أولياء" فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق لـه في فخذه اليمنى ذكرا وفي اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج لـه كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة، فهو يخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة، وقال قوم: ليس لـه أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح.

قلت: الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر البرقاني أنه خرج في كتابه مسندا عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ)[1]. وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم. قال ابن عطية: وقوله "وذريته" ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري وغيره أن مجاهدا قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم: زلنبور صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب. والأعور صاحب أبواب الزنى. ومسوط صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لـها أصلا. وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع وما لم يحسن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش: وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم، فرأيت مطهرة فقلت: ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم أعوذ بالله منه زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد: والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء. وصـخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولـهان وهو صاحب الطهارة يوسوس

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٤/ ٧٧) وقال: "رواه الطبراني في الكبير وفيه القاسم بن يزيد، فإن كان هو الجرمي فهو ثقة وبقية رجاله رجال الصحيح.

فيها. والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها. ومرة وهو صاحب المزامير وبه يكنى. والـهفاف يكون بالصحارى يضل الناس ويتيههم. ومنهم الغيلان. وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الـهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان. قال وقال الداراني: إن لإبليس شيطانا يقال لـه المتقاضي، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عملـه في السر منذ عشرين سنة، فيحدث به في العلانية. قال ابن عطية: وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طول النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بي في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خنزب. وذكر الترمذي أن للوضوء شيطانا يسمى الولـهان[1].

قلت: أما ما ذكر من التعيين في الاسم فصحيح؛ وأما أن لـه أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن لـه أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث. وفي مسند البزار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي ﷺ: (لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته)[2]. وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول لـه القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته، قال: يوشك أن يتزوج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عق؛ قال: يوشك أن يبر. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شرب؛ قال: أنت! قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنت! قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنت! وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهلـه قال فيدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت). وقد تقدم. وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثغر الإسكندرية يقول: إن شيطانا يقال لـه البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لـهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا.

قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ قيل: الضمير عائد على إبليس وذريته؛ أي لم أشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، بل خلقتهم على

---

(١) ضعيف، ولفظه: "إن للوضوء شيطاناً يُقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء"، وانظر ضعيف الجامع (١٩٦٨).
(٢) سبق قريبا.

ما أردت. وقيل: ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض "ولا خلق أنفسهم" أي أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني؟. وقيل: الكناية في قوله: "ما أشهدتهم" ترجع إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط في هذه الأشياء. وقال ابن عطية: وسمعت أبي ﷺ يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدي بالمهدية يقول: سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف، وذكر هذا بعض الأصوليين. قال ابن عطية وأقول: إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته؛ وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن؛ حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمضلين؛ وتندرج هذه الطوائف في معناهم.

قال الثعلبي: وقال بعض أهل العلم "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض" رد على المنجمين أن قالوا: إن الأفلاك تحدث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقوله: "والأرض" رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا: إن الأرض كرية والأفلاك تجري تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله: "ولا خلق أنفسهم" رد على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس. وقرأ أبو جعفر "ما أشهدناهم" بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء بدليل قوله: "وما كنت متخذ" يعني ما استعنتهم على خلق السماوات والأرض ولا شاورتهم. ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ يعني الشياطين. وقيل: الكفار. ﴿ عضدا ﴾ أي أعوانا. يقال: اعتضدت بفلان إذا استعنت به وتقويت والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد. يقال: عضده وعاضده على كذا إذا أعانه وأعزه. ومنه قوله: ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ (القصص: ٣٥) أي سنعينك بأخيك. ولفظ العضد على جهة المثل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد. وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. وقرأ أبو جعفر الجحدري "وما كنت" بفتح التاء أي وما كنت يا محمد متخذ المضلين عضدا. وفي عضد ثمانية أوجه: "عضدا" بفتح العين وضم الضاد وهي قراءة الجمهور، وهي أفصحها. و"عَضْدا" بفتح العين وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و"عُضُدا" بضم العين والضاد، وهي قراءة أبي عمرو والحسن. و"عُضْدا" بضم العين وإسكان الضاد، وهي قراءة عكرمة. و"عِضَدا" بكسر العين وفتح الضاد، وهي قراءة الضحاك. و"عَضَدا" بفتح العين والضاد وهي قراءة عيسى بن عمر. وحكى هارون القارئ "عَضِدا" واللغة الثامنة "عِضْدا" على لغة من قال: كتف وفخذ.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي اذكروا يوم يقول الله: أين شركائي؟

أي ادعوا الذين أشركتموهم بي فليمنعوكم من عذابي. وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان. وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر "نقول" بنون. الباقون بالياء؛ لقوله: "شركائي" ولم يقل: شركائنا. ﴿فدعوهم﴾ أي فعلوا ذلك. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ أي لم يجيبوهم إلى نصرهم ولم يكفوا عنهم شيئا. ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾ قال أنس بن مالك: (هو واد في جهنم من قيح ودم). وقال ابن عباس: (أي وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا) وقيل: بين الأوثان وعبدتها، نحو قوله: "فزيلنا بينهم" قال ابن الأعرابي: كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق، وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى: "موبقا" قال واد في جهنم يقال له موبق، وكذلك قال نوف البكالي إلا أنه قال: يحجز بينهم وبين المؤمنين. عكرمة: هو نهر في جهنم يسيل نارا على حافتيه حيات مثل البغال الدهم، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا منها بالاقتحام في النار. وروى زيد بن درهم عن أنس بن مالك قال: "موبقا" (واد من قيح ودم في جهنم). وقال عطاء والضحاك: مهلكا في جهنم؛ ومنه يقال: أوبقته ذنوبه إيباقا. وقال أبو عبيدة: موعدا للهلاك. الجوهري: وبق يبق وبوقا هلك، والموبق مثل الموعد مفعل من وعد يعد، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾. وفيه لغة أخرى: وبق يوبق وبقا. وفيه لغة ثالثة: وبق يبق بالكسر فيهما، وأوبقه أي أهلكه. وقال زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله يصن عرضه من كل شنعاء موبق

قال الفراء: جعل تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار﴾ "رأى" أصله رأي؛ قلبت الياء ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها؛ ولهذا زعم الكوفيون أن "رأى" يكتب بالياء، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين. فأما البصريون الحذاق، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف، ولا فرق بين ذوات الياء وبين ذوات الواو في الخط، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضحا جمع ضحوة، وكسا جمع كسوة، وهما من ذوات الواو بالياء، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل. ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ "فظنوا" هنا بمعنى اليقين والعلم كما قال:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج

أي أيقنوا؛ وقد تقدم. قال ابن عباس: (أيقنوا أنهم مواقعوها) وقيل: رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: (إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة)(١). والمواقعة ملابسة الشيء بشدة. وعن علقمة أنه قرأ "فظنوا أنهم ملافوها"

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٩٠) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، ودراج وشيخه ضعيفان.

أي مجتمعون فيها، واللفف الجمع. ﴿ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ أي مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب. وقال القتبي: معدلا ينصرفون إليه. وقيل: ملجأ يلجئون إليه، والمعنى واحد. وقيل: ولم تجد الأصنام مصرفا للنار عن المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في "سبحان"؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ أي جدالا ومجادلة والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزجاج: أي الكافرون أكثر شيء جدلا؛ والدليل على الكافر قوله "ويجادل الذين كفروا بالباطل"

وروى أنس أن النبي ﷺ قال: (يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعت فيما أرسلت إليك فيقول رب آمنت بك وصدقت برسلك وعملت بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يا رب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول يا رب[1] ولا أقبلهم يا رب كيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك فقال يا رب ألم تجرني من الظلم قال بلى فقال يا رب لا أقبل إلا شاهدا علي من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يخلى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإن بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكم[2] الله فعنكن كنت أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكتم حديثا فذلك قوله تعالى: وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا. وفي صحيح مسلم عن علي أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة فقال: (ألا تصلون؟ فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا")

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ أي القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ أي سنتنا في إهلاكهم؛ أي ما منعهم

(١) زيادة من نسخة.
(٢) في نسخة لعنكن.

عن الإيمان إلا حكمي عليهم بذلك؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا. وسنة الأولين عادة الأولين في عذاب الاستئصال. وقيل: المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين فحذف. وسنة الأولين معاينة العذاب، فطلب المشركون ذلك، وقالوا: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك... ﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية. ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ نصب على الحال، ومعناه عيانا قاله ابن عباس. وقال الكلبي: هو السيف يوم بدر. وقال مقاتل: فجأة. وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي "قبلا" بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كله، جمع قبيل نحو سبيل وسبل. النحاس: ومذهب الفراء أن "قبلا" جمع قبيل أي متفرقا يتلو بعضه بعضا. ويجوز عنده أن يكون المعنى عيانا. وقال الأعرج: وكانت قراءته "قبلا" معناه جميعا. وقال أبو عمرو: وكانت قراءته "قبلا" ومعناه عيانا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ﴾ أي بالجنة لمن آمن ﴿ ومنذرين ﴾ أي مخوفين بالعذاب من الكفر[1]. وقد تقدم ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ قيل: نزلت في المقتسمين كانوا يجادلون في الرسول ﷺ فيقولون: ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدم. ومعنى "يدحضوا" يزيلوا ويبطلوا وأصل الدحض الزلق. يقال: دحضت رجله أي زلقت، تدحض دحضا، ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت، ودحضت حجته دحوضا بطلت، وأدحضها الله. والإدحاض الإزلاق. وفي وصف الصراط: (ويضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم) قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: (دحض مزلقة) أي تزلق فيه القدم قال طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

﴿ واتخذوا آياتي ﴾ يعني القرآن. ﴿ وما أنذروا ﴾ من الوعيد ﴿ هزوا ﴾ و "ما" بمعنى المصدر أي والإنذار. وقيل: بمعنى الذي؛ أي اتخذوا القرآن والذي أنذروا به من الوعيد هزوا أي لعبا وباطلا؛ وقد تقدم في "البقرة" بيانه. وقيل: هو قول أبي جهل في الزبد والتمر هذا هو الزقوم. وقيل: هو قولهم في القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأولين، وقالوا للرسول: ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ (الأنبياء: ٣) ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف: ٣١) و ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ (المدثر: ٣١).

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) في نسخة كفر.

قولـه تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولـها. ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها، فالنسيان هنا بمعنى الترك. وقيل: المعنى نسي ما قدم لنفسه وحصل من العذاب؛ والمعنى متقارب. ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ بسبب كفرهم؛ أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم. ﴿ وإن تدعهم إلى الـهدى ﴾ أي إلى الإيمان. ﴿ فلن يهتدوا إذاً أبدا ﴾ نزل في قوم معينين، وهو يـــرد على القـــدرية قولـهم؛ وقد تقدم معنى هذه الآية في ﴿ سبحان ﴾ (الإسراء: ١) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي للذنوب. وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قولـه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ (النساء: ٤٨). "ذو الرحمة" فيه أربع تأويلات: أحدها: ذو العفو. الثاني: ذو الثواب؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمان دون الكفر. الثالث: ذو النعمة. الرابع: ذو الـهدى؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان والكفر، لأنه ينعم في الدنيا على الكافر، كإنعامه على المؤمن. وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر. ومعنى قوله: ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا ﴾ أي من الكفر والمعاصي. ﴿ لعجل لـهم العذاب ﴾ ولكنه يمهل. ﴿ بل لـهم موعد ﴾ أي أجل مقدر يؤخرون إليه. نظيره ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ (الأنعام: ٦٧)، ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ (الرعد: ٣٨) أي إذا حل لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة. ﴿ لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ (أي ملجأ) قالـه ابن عباس وابن زيد، وحكاه الجوهري في الصحاح. وقد وأل يئل وألا ووءولا على فعول أي لجأ؛ وواءل منه على فاعل أي طلب النجاة. وقال مجاهد: محرزا. قتادة: وليا. وأبو عبيدة: منجى. وقيل: محيصا؛ والمعنى واحد. والعرب تقول: لا وألت نفسه أي لا نجت؛ منه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها   للعامـــريين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد أخالس رب البيت غفلته   وقـد يحـاذر مـني ثـم مـا يئل

أي ما ينجو.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وتلك القرى أهلكناهم ﴾ "تلك" في موضع رفع بالابتداء. "القرى" نعت أو بدل. و"أهلكناهم" في موضع الخبر محمول على المعنى؛ لأن المعنى أهل القرى. ويجوز أن تكون "تلك" في موضع نصب على قول من قال: زيدا ضربته؛ أي وتلك القرى التي قصصنا عليك نبأهم،

نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا. ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ أي وقتا معلوما لم تعده. و"مهلك" من أهلكوا. وقرأ عاصم "مهلكهم" بفتح الميم واللام وهو مصدر هلك. وأجاز الكسائي والفراء "لمهلكهم" بكسر اللام وفتح الميم. النحاس: قال الكسائي وهو أحب إلي لأنه من هلك. الزجاج: اسم للزمان. والتقدير: لوقت مهلكهم، كما يقال: أتت الناقة على مضربها.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفتاه﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نوف البكالي: إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران. وقد رد هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره. وفتاه: هو يوشع بن نون. وقد مضى ذكره في "المائدة" وآخر "يوسف". ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون. ﴿ لا أبرح﴾ أي لا أزال أسير؛ قال الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقا مجيدا

وقيل: "لا أبرح" لا أفارقك. ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحر فارس والروم؛ وقاله مجاهد. قال ابن عطية: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين على هذا القول. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم. وقيل: مجمع البحرين عند طنجة؛ قاله محمد ابن كعب. وروي عن أبي بن كعب أنه بأفريقية. وقال السدي: الكر والرس بأرمينية. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النقاش؛ وهذا مما يذكر كثيرا. وقالت فرقة: إنما هما موسى والخضر؛ وهذا قول ضعيف؛ وحكي عن ابن عباس، ولا يصح؛ فإن الأمر بين من الأحاديث أنه إنما وسم له بحر ماء. وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. . .) وذكر الحديث، واللفظ للبخاري. وقال ابن عباس: (لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكّرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلم الله نبيكم تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى علي محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا؛ فقال

لـه رجل من بني إسرائيل: عرفنا الذي تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث إليه جبريل: أن يا موسى وما يدريك أين أضع علمي؟ بلى إن لي عبدا بمجمع البحرين أعلم منك...) وذكر الحديث. قال علماؤنا: قولـه في الحديث (هو أعلم منك) أي بأحكام وقائع مفصلة، وحكم نوازل معينة، لا مطلقا بدليل قول الخضر لموسى: (إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت) وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالارتحال على كل حال وقيل لـه: احمل معك حوتا مالحا في مكتل ـ وهو الزنبيل فحيث يحيا وتفقده فثم السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طالبا قائلا: "لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين". ﴿أو أمضي حقبا﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر، والجمع أحقاب. وقد تسكن قافه فيقال حقب. وهو ثمانون سنة. ويقال: أكثر من ذلك. والجمع حقاب والحقبة بكسر الحاء واحدة الحقب وهي السنون.

الثانية: في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان في دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لـهم في العلوم أقدام، وصح لـهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام. قال البخاري: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ للعلماء فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان معه يخدمه، والفتى في كلام العرب الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: (لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي) فهذا ندب إلى التواضع؛ وقد تقدم هذا في "يوسف". والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام. ويقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل: إنما سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأول. وقيل: إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالـهم...﴾ (يوسف: ٦٢) وقال: "تراود فتاها عن نفسه..." قال ابن العربي: فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد، وفي الحديث: (أنه كان يوشع بن نون) وفي التفسير: أنه ابن أخته، وهذا كلـه مما لا يقطع به، والتوقف فيه أسلم.

الرابعة: "أو أمضي حقبا" قال عبد الله بن عمر: (والحقب ثمانون سنة) مجاهد: سبعون خريفا. قتادة: زمان، النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محدود: وجمعه أحقاب.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

الضمير في قوله: ﴿ بينهما ﴾ للبحرين؛ قاله مجاهد. والسرب المسلك؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: جمد الماء فصار كالسرب. وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغا، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر. وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر وقوله: ﴿ نسيا حوتهما ﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل: المعنى؛ نسي أن يعلم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من الملح، وقوله: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم... ﴾ وإنما الرسل من الإنس لا من الجن. وفي البخاري: (فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كثيرا؛ فذلك قوله عز وجل: "وإذ قال موسى لفتاه..." يوشع بن نون ـ ليست عن سعيد – قال: فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه: لا أوقظه؛ حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر؛ قال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما). وفي رواية: (وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: "آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: "أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره") وقيل: إن النسيان كان منهما لقوله تعالى: ﴿نسيا﴾ فنسب النسيان إليهما؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى؛ لأنه الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما جاوزا ﴾ يعني الحوت هناك منسياً ـ أي متروكاً ـ فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين. وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكا في النسيان لأن النسيان التأخير؛ من ذلك قولهم في الدعاء: أنسأ الله في أجلك. فلما مضيا من الصخرة أخرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت.

قوله تعالى: ﴿ آتنا غداءنا ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامه والقفار، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار؛ هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد. وفي صحيح البخاري: (إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن

المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى "وتزودوا") وقد مضى هذا في "البقرة".
واختلف في زاد موسى؛ فقال ابن عباس: كان حوتا مملوحا في زنبيل، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت جري البحر فتحرك الحوت في المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى.
وقيل: إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله في الحديث: (أحمل معك حوتا في مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثم) على هذا فيكون تزودا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس واختاره. وقال ابن عطية: قال أبي ﷺ: سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوما لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم.
وقوله: "نصبا" أي تعبا، والنصب التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في "أنسانيه" وهو بدل الظاهر من المضمر، أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان؛ وفي مصحف عبد الله "وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان". وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت؛ فقال: ما كلفت كثيرا، فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى: ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجبا ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ أي اتخذ الحوت سبيله عجبا للناس ويحتمل أن يكون قوله: "واتخذ سبيله في البحر" تمام الخبر، ثم استأنف التعجيب فقال من نفسه: "عجبا" لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حيي بعد ذلك. قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيته - أتيت به - فإذا هو شق حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء. قال ابن عطية: وأنا رأيته والشق الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة. ويحتمل أن يكون قوله: "واتخذ سبيله" إخبارا من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أي تعجب منه. وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجبا للناس. ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس من قصص هذه الآية: (أن الحوت إنما حيي لأنه مسه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حيي) وفي التفسير: إن العلامة كانت أن يحيا الحوت؛ فقيل: لما نزل موسى بعدما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحيي. وقال الترمذي في حديثه قال سفيان: (يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش، قال: وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش). وذكر صاحب كتاب العروس: أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ﴾ أي قال موسى لفتاه أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثمَّ؛ فرجعا يقصان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما. وفي البخاري: (فوجدا خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت ؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا. . .) الحديث. وقال الثعلبي في كتاب "العرائس": (إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه فقال: وأنى بأرضنا السلام؟ ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراك بي ودلك علي؛ ثم قال: يا موسى لقد كان لك في بني إسرائيل شغل، قال موسى: إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك، ثم جلسا يتحدثان، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء. . .) وذكر الحديث على ما يأتي. ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ فرجعا يقصان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما.

قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر وحكى أيضا هذا القول القشيري، قال: وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر؛ بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ. وقال مجاهد: سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء) هذا حديث صحيح غريب. الفروة هنا وجه الأرض؛ قاله الخطابي وغيره. والخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي. وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي. وقيل: كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن. والأول الصحيح؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ الرحمة في هذه الآية النبوة. وقيل: النعمة. ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أي علم الغيب، ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما في الحديث: (هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ . . .) وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى: ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء . . . ﴾ (المائدة: ١١٢) حسب ما تقدم بيانه في "المائدة" .

الثانية: في هذه الآية دليل أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله؛ فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبي والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة. والله أعلم. "ورشدا" مفعول ثان بـ "تعلمني" . ﴿ قال ﴾ الخضر: ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ والأنبياء لا يقرون على منكر، لا يجوز لهم التقرير أي لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك. وانتصب "خبرا" على التمييز المنقول عن الفاعل. وقيل: على المصدر الملاقي في المعنى، لأن قوله: "لم تحط" . معناه لم تخبره، فكأنه قال: لم تخبره خبرا؛ وإليه أشار مجاهد والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ﴾ أي سأصبر بمشيئة الله. ﴿ ولا أعصي لك أمرا ﴾ أي قد ألزمت نفسي طاعتك وقد اختلف في الاستثناء، هل هو يشمل قوله: "ولا أعصي لك أمرا" أم لا؟ فقيل: يشمله كقوله: ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ (الأحزاب: ٣٥). وقيل: استثنى في الصبر فصبر، وما استثنى في قوله: "ولا أعصي لك أمرا" فاعترض وسأل، قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف. يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه، ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركه، فإن ذلك كله مكتسب لنا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾ في صحيح مسلم والبخاري: (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع منها لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها "لقد جئت شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا) قال: وقال رسول الله ﷺ: (وكانت الأولى من موسى نسيانا) قال: (وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة في البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر). قال علماؤنا: حرف السفينة طرفها وحرف كل شيء طرفه، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد. والعلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أي من معلوماته، وهذا من الخضر تمثيل؛ أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله؛ كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإنما مثل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل والتفهيم، إذ لا نقص في علم الله، ولا نهاية لمعلوماته. وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال: (والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر) وفي التفسير عن أبي العالية: لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة. وقيل: خرج أهل السفينة إلى جزيرة، وتخلف الخضر فخرق السفينة، وقال ابن عباس: (لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية فيطيعوني قال له الخضر: يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقت؛ ذكره الثعلبي في كتاب "العرائس").

الثانية: في خرق السفينة دليل أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا، مثل أن يخاف على ريعه ظالما فيخرّب بعضه. وقال أبو يوسف: يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض. وقرأ حمزة والكسائي: "ليغرق" بالياء "أهلها" بالرفع فاعل يغرق، فاللام على قراءة الجماعة في "لتغرق" لام المآل مثل "ليكون لهم عدوا وحزنا". وعلى قراءة حمزة لام كي، ولم يقل لتغرقني؛ لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم. و"إمرا" معناه عجبا؛ قاله القتبي، وقيل: منكرا؛ قاله مجاهد، وقال أبو عبيدة: الإمر الداهية العظيمة؛ وأنشد

قد لقي الأقران مني نكرا   داهية دهياء إدا إمـــرا

وقال الأخفش: يقال أَمِرَ أَمْرُه يأْمَرُ "أمراً" إذا اشتد والاسم الإمر.

قولـه تعالى: ﴿ قال ﴾ الخضر. ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب.

قولـه تعالى: ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ﴾[1].

في معناه قولان: أحدهما: يروى عن ابن عباس، قال: (هذا من معاريض الكلام). والآخر: أنه نسي فاعتذر؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره؛ وقد تقدم، ولو نسي في الثانية لاعتذر.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾

في البخاري قال يعلى قال سعيد: (وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين) "قال أقتلت نفسا زكية" لم تعمل بالحنث، وفي الصحيحين وصحيح الترمذي: (ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتلـه، قال لـه موسى: "أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا" قال: وهذه أشد من الأولى. "قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا") لفظ البخاري. وفي التفسير: إن الخضر مر بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاما ليس فيهم أضوأ منه، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه، فقتلـه. قال أبو العالية: لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام.

قلت: ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دمغه أولا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه؛ والله أعلم بما كان من ذلك وحسبك بما جاء في الصحيح. وقرأ الجمهور "زاكية" بالألف وقرأ الكوفيون وابن عامر "زكية" بغير ألف وتشديد الياء؛ قيل: المعنى واحد؛ قالـه الكسائي وقال ثعلب: الزكية أبلغ قال أبو عمرو: الزاكية التي لم تذنب قط، والزكية التي أذنبت ثم تابت.

قولـه تعالى: ﴿ غلاما ﴾ اختلف العلماء في الغلام هل كان بالغا أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغا يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأمه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه عن جسده. قال الكلبي: واسم الغلام شمعون. وقال الضحاك: حيسون. وقال وهب: اسم أبيه سلاس واسم أمه رحمى. وحكى السهيلي أن اسم أبيه كازير واسم أمه سهوى وقال الجمهور: لم يكن بالغا؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب. وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام؛ فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ، وتقابلـه الجارية في النساء. وكان الخضر قتلـه لما علم من سره، وأنه طبع كافرا كما في صحيح الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرا، وقتل الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك؛ فإن الله تعالى الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء، وفي كتاب "العرائس": إن موسى لما قال للخضر "أقتلت نفسا زكية..." الآية ـ غضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر، وقشر اللحم عنه، وإذا في عظم كتفه مكتوب: كافر لا يؤمن بالله أبدا. وقد احتج أهل القول الأول بأن العرب تبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية:

---

(١) سقطت هذه العبارة من طبعة دار الريان.

شفاها من الداء العضال الذي بها غـلام إذا هــز القناة ســـــقاها

وقال صفوان لحسان:

تلق ذباب الســـيف عني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر

وفي الخبر: إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما فعل، فيقسمان على قسمه، ويحميانه ممن يطلبه، قالوا وقوله: "بغير نفس" يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبر الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا. قال ابن عباس: كان شابا يقطع الطريق، وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ سن التكليف لقراءة أبي وابن عباس "وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين" والكفر والإيمان من صفات المكلفين، ولا يطلق على غير مكلف إلا بحكم التبعية لأبويه، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يصار إليه والغلام من الاغتلام وهو شدة الشبق.

قوله تعالى: ﴿نكرا﴾ اختلف الناس أيهما أبلغ "إمرا" أو قوله "نكرا" فقالت فرقة: هذا قتل بين، وهناك مترقب؛ فـ "نكرا" أبلغ، وقالت فرقة: هذا قتل واحد وذاك قتل جماعة فـ "إمرا" أبلغ. قال ابن عطية: وعندي أنهما لمعنيين وقوله: "إمرا" أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و"نكرا" بين في الفساد لأن مكروهه قد وقع؛ وهذا بيّن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قال﴾ الخضر. ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب.

قوله تعالى: ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء، والتزم للأنبياء. "فلا تصاحبني" كذا قرأ الجمهور؛ أي تتابعني. وقرأ الأعرج "تصحبني" بفتح التاء والباء وتشديد النون وقرئ "تصحبني" أي تتبعني وقرأ يعقوب "تصحبني" بضم التاء وكسر الحاء؛ ورواها سهل عن أبي عمرو؛ قال الكسائي: معناه فلا تتركني أصحبك.

قوله تعالى: ﴿قد بلغت من لدني عذرا﴾ يدل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقا، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع؛ قاله ابن العربي. ابن عطية: ويشبه أن تكون هذه القصة أيضا أصلا للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة، وأيام المتلوم ثلاثة؛ فتأمله.

"قد بلغت من لدني عذرا" أي بلغت مبلغا تعذر به في ترك مصاحبتي، وقرأ الجمهور: "من لدني" بضم الدال، إلا أن نافعا وعاصما خففا النون، فهي "لدن" اتصلت بها ياء المتكلم التي في غلامي وفرسي، وكسر ما قبل الياء كما كسر في هذه. وقرأ أبو بكر عن عاصم "لَدْني" بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون وروي عن عاصم "لدني" بضم اللام وسكون الدال؛ قال ابن مجاهد:

وهي غلط؛ قال أبو علي: هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فهي صحيحة وقرأ الجمهور "عذر" وقرأ عيسى "عذرا" بضم الذال. وحكى الداني أن أبيا روى عن النبي ﷺ "عذري" بكسر الراء وياء بعدها.

مسألة: أسند الطبري قال: (كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه، فقال يوما: رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال: "فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا") والذي في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: (رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ولو صبر لرأى العجب) قال: وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه: (رحمة الله علينا وعلى أخي كذا) وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: (يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما) الذمامة بالذال المعجمة المفتوحة، وهو بمعنى المذمة بفتح الذال وكسرها، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة: يقال أخذتني منك مذمة ومذمة وذمامة وكأنه استحيا من تكرار مخالفته، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ في صحيح مسلم عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: لئاما؛ فطافا في المجالس فـ ﴿ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ﴾ يقول: مائل قال: "فأقامه" الخضر بيده قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا * قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ قال رسول الله ﷺ: (يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما).

الثانية: واختلف العلماء في القرية فقيل: هي أبلة؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد بن سيرين، وهى أبخل قرية وأبعدها من السماء وقيل: أنطاكية. وقيل: بجزيرة الأندلس؛ روي ذلك عن أبي هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. وقالت فرقة: هي باجروان وهي بناحية أذربيجان. وحكى السهيلي وقال: إنها برقة. الثعلبي: هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى والله أعلم بحقيقة ذلك.

الثالثة: كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر؛ ولم يسأل قوتا بل سقى ابتداء، وفي القرية سألا القوت؛ وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة؛ منها أن موسى كان في حديث مدين منفردا وفي قصة الخضر تبعا لغيره.

قلت: وعلى هذا المعنى يتمشى قوله في أول الآية لفتاه "آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع؛ والله أعلم.

وقيل: لما كان هذا سفر تأديب وكل إلى تكلف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت.

الرابعة : في هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافا لجهال المتصوفة والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة. بدليل قوله: "فأبوا أن يضيفوهما" فاستحق أهل القرية لذلك أن يذموا، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. قال قتادة في هذه الآية: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء. وقد تقدم القول في الضيافة في "هود" والحمد لله.

ويعفو الله عن الحريري حيث استخف في هذه الآية وتمجن، وأتى بخطل من القول وزل؛ فاستدل بها على الكدية والإلحاح فيها، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال:

وإن رددت فما في الرد منقصة   عليك قد رد موسى قبل والخضر

قلت: وهذا لعب بالدين، وانسلال عن احترام النبيين، وهي شنشنة أدبية، وهفوة سخافية؛ ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعبا بشيء فإياك أن تلعب بدينك.

الخامسة : قوله تعالى: ﴿فوجدا فيها جدارا﴾ الجدار والجدر بمعنى واحد؛ وفي الخبر: (حتى يبلغ الماء الجدر). ومكان جدير بُني حواليه جدار، وأصله الرفع وأجدرت الشجرة طلعت؛ ومنه الجدري.

السادسة : قوله تعالى: ﴿يريد أن ينقض﴾ أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله: (مائل) فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور. وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان متمثلا لذلك الفعل، هذا كلام العرب وأشعارها كثير؛ فمن ذلك قول الأعشى:

أتنتهون ولا ينهى ذوي شطط   كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

فأضاف النهي إلى الطعن. ومن ذلك قول الآخر:

يريد الرمح صدر أبي براء   ويرغب عن دماء بني عقيل

وقال آخر:

إن دهرا يلف شملي بجمل   لزمان يهم بالإحسان

وقال آخر:

في مهمه فلقت به هاماتها   فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

أي ثبوتا في الأرض؛ من قولهم: نصل السيف إذا ثبت في الرمية؛ فشبه وقع السيوف على رءوسهم بوقع الفؤوس في الأرض، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لا يكاد يخرج. وقال حسان بن ثابت:

لو ان اللوم ينسب كان عبدا   قبيح الوجه أعور من ثقيف

وقال عنترة:

فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقد فسر هذا المعنى بقولـه:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى

وهذا في هذا المعنى كثير جدا. ومنه قول الناس: إن داري تنظر إلى دار فلان. وفي الحديث: (اشتكت النار إلى ربها) وذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإسفرايني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسولـه حملـه على الحقيقة أولى بذي الفضل والدين؛ لأنه يقص الحق كما أخبر الله تعالى في كتابه، ومما احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز أيضا، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محال؛ قال الله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلـهم بما كانوا يعملون﴾ (النور: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وتقول هل من مزيد﴾(ق: ٣٠) وقال تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لـها تغيظا وزفيرا﴾(الفرقان: ١٢) وقال تعالى: ﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ (المعارج: ١٧) و(اشتكت النار إلى ربها) (واحتجت النار والجنة) وما كان مثلـها حقيقة، وأن خالقها الذي أنطق كل شيء أنطقها. وفي صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ (فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعملـه وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه). هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا؛ ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنسان وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعلـه وتخبره فخذه بما أحدث أهلـه من بعده)[(١)] قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿فأقامه﴾ قيل: هدمه ثم قعد يبنيه. فقال موسى للخضر: "لو شئت لاتخذت عليه أجرا" لأنه فعل يستحق أجرا، وذكر أبو بكر الأنباري عن ابن عباس عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ أنه قرأ "فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه" قال أبو بكر: وهذا الحديث إن صح سنده فهو جار من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن، وأن بعض الناقلين أدخل تفسير قرآن في موضع فسرى أن ذلك قرآن نقص من مصحف عثمان؛ على ما قالـه بعض الطاعنين، وقال سعيد بن جبير: مسحه بيده وأقامه فقام، وهذا القول هو الصحيح، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء، وفي بعض الأخبار: إن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن، وطولـه على وجه الأرض خمسمائة ذراع، وعرضه خمسون ذراعا، فأقامه الخضر عليه السلام أي سواه بيده فاستقام؛ قالـه الثعلبي في كتاب "العرائس": فقال موسى للخضر: "لو شئت لاتخذت عليه أجرا" أي طعاما تأكلـه؛ ففي هذا دليل على كرامات

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٠٨٣).

الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر ﷺ في هذا الباب كلـها أمور خارقة للعادة؛ هذا إذا تنزلنا على أنه ولي لا نبي. وقوله تعالى: ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ (الكهف: ٨٢) يدل على نبوته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أُوْحِيَ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول؛ والله أعلم.

الثامنة : واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع في المشي إذا كان مارا عليه؛ لأن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا مر أحدكم بطربال مائل فليسرع المشي). قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان أبو عبيدة يقول: الطربال شبيه بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصومعة؛ والبناء المرتفع؛ قال جرير:

ألوى بها شذب العروق مشذب فكأنما وكـنت علـى طـربال

يقال منه: وكَنَ يكنُ إذا جلس، وفي الصحاح: الطربال القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطرابيل الشام صوامعها. ويقال: طربل بولـه إذا مده إلى فوق.

التاسعة : كرامات الأولياء ثابتة، على ما دلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء ـ على ما تقدم ـ وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليست بنبية؛ على الخلاف. ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر ﷺ من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. قال بعض العلماء: ولا يجوز أن يقال كان نبيا؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار الآحاد، لا سيما وقد روي من طريق التواتر ـ من غير أن يحتمل تأويلا ـ بإجماع الأمة قولـه عليه الصلاة والسلام: (لا نبي بعدي) وقال تعالى: ﴿ وخاتم النبيين ﴾ (الأحزاب: ٤٠) والخضر وإلياس جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبي، إلا ما قامت الدلالة في حديث عيسى أنه ينزل بعده.

قلت: الخضر كان نبيا على ما تقدم وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبي، أي يدعي النبوة بعده أبدا؛ والله أعلم.

العاشرة : اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا؟ على قولين: (أحدهما) أنه لا يجوز؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرا واستدراجا لـه؛ وقد حكي عن السري أنه كان يقول: لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح: السلام عليك يا ولي الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولي لزال عنه الخوف، وحصل لـه الأمن. ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ (فصلت: ٣٠) ولأن الولي من كان مختوما لـه بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدري أحد ما يختم لـه به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالخواتيم). (القول الثاني) أنه يجوز للولي أن

يعلم أنه ولي؛ ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولي، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولي الله تعالى، فجاز أن يعلم ذلك. وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام من حال العشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبة؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم. وكان الشبلي يقول: أنا أمان هذا الجانب؛ فلما مات ودفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، واستولوا على بغداد، ويقول الناس: مصيبتان موت الشبلي وعبور الديلم. ولا يقال: إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبي وولي الله، لجواز أن يكون ذلك استدراجا، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات. وما روي من ظهور الكرامات على يدي بلعام وانسلاخه عن الدين بعدها لقوله: ﴿ فانسلخ منها... ﴾ (الأعراف: ١٧٥) فليس في الآية أنه كان وليا ثم انسلخت عنه الولاية. وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم؛ والله أعلم.

والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار. وقيل: الكرامة ما تظهر من غير دعوى، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك. وقد تقدم في مقدمة الكتاب شرائط المعجزة، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له.

وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات، فمن ذلك ما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينًا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهي بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا إليهم قريبا من مائتي راجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب؛ فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما فوالله لا أنزل اليوم في ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموا بالنبل فقتلوا عاصما في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خبيب الأنصاري وابن الدثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم؛ إن لي في هؤلاء لأسوة ـ يريد القتلى ـ فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه؛ فانطلقوا بخبيب وابن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحرث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته، فأخذ ابن لي وأنا غافلة حتى أتاه، قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي؛ فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب؛ والله لقد وجدته يوما يأكل قطف عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر؛ وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله تعالى خبيبا؛ فلما

خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لـهم خبيب: دعوني أركع ركعتين؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لزدت؛ ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلـهم بددا، ولا تبق منهم أحدا؛ ثم قال:

ولسـت أبـالي حـين أقـتل مسلما عـلى أي شـق كـان لله مصـرعي
وذلـك في ذات الإلـــه وإن يشـــأ يبـــارك علــــى أوصــال شلو ممزع

فقتلـه بنو الحرث، وكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا؛ فاستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب؛ فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرفونه، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر؛ فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلـهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا. وقال ابن إسحاق في هذه القصة: وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وقد كانت نذرت حين أصاب ابنيها بأحد لئن قدرت على رأسه لتشربن في قحفه الخمر فمنعهم الدبر، فلما حالت بينه وبينهم قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله تعالى الوادي فاحتمل عاصما فذهب، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك أبدا في حياته، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما امتنع منه في حياته. وعن عمرو بن أمية الضمري: وكان رسول الله ﷺ بعثه عينا وحده فقال: جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته، فوقع في الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا، ثم التفت فكأنما ابتلعته الأرض. وفي رواية أخرى زيادة: فلم نذكر لخبيب رمة حتى الساعة؛ ذكره البيهقي.

الحادية عشرة: ولا ينكر أن يكون للولي مال وضيعة يصون بها مالـه وعيالـه، وحسبك بالصحابة وأموالـهم مع ولايتهم وفضلـهم، وهم الحجة على غيرهم. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كلـه فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال يا عبد الله ما اسمك قال فلان الاسم الذي سمعه في السحابة فقال لـه يا عبد الله لم سألتني عن اسمي قال إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما فيها قال أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد فيها ثلثه) وفي رواية (وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل).

قلـت: وهذا الحديث لا يناقضه قولـه عليه الصلاة والسلام: (لا تتخذوا الضيعة فتركنوا إلى الدنيا)[1] خرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن؛ فإنه محمول على من اتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها، وأما من اتخذها معاشا يصون بها دينه وعيالـه فاتخاذها بهذه النية

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٢١٤)، وفيه: "... فترغبوا في الدنيا".

من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأموال؛ قال عليه الصلاة والسلام: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[1]، وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه كفاية؛ والله الموفق للهداية.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ لاتخذت عليه أجرا ﴾ فيه دليل على صحة جواز الإجارة، وهي سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة "القصص" إن شاء الله تعالى. وقرأ الجمهور "لاتخذت" وأبو عمرو "لتخذت" وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة، وهما لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك: تبع واتبع، وتقى واتقى. وأدغم بعض القراء الذال في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبي بن كعب: (لو شئت لأوتيت أجرا) وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العرض لا الاعتراض.

قوله تعالى: ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ فعند ذلك قال له الخضر: "هذا فراق بيني وبينك" بحكم ما شرطت على نفسك. وتكريره "بيني وبينك" وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد. قال سيبويه: كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منا. وقال ابن عباس: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق. وقال وهب بن منبه: كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ تأويل الشيء مآله أي قال له: إني أخبرك لم فعلت ما فعلت. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى وعجبا له وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ استدل بهذا من قال: إن المسكين أحسن حالا من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة "براءة". وقد قيل: إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قلة في لجة بحر، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عبر عنهم بمساكين؛ إذ هم في حالة يشفق عليهم بسببها، وهذا كما تقول لرجل غني وقع في وهلة أو خطب: مسكين. وقال كعب وغيره: كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم، خمسة زمنى، وخمسة يعملون في البحر. وقيل: كانوا سبعة لكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقاش أسماءهم؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما؛ والثاني أعور، والثالث أعرج، والرابع آدر، والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم؛ والخمسة الذين لا يطيقون العمل: أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم؛ ذكره

(١) صحيح.

الثعلبي. وقرأت فرقة: "لمساكين" بتشديد السين، واختلف في ذلك فقيل: هم ملاحو السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يمسك رجل السفينة، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمي الجميع مساكين. وقالت فرقة: أراد بالمساكين دبغة المسوك وهي الجلود واحدها مسك. والأظهر قراءة "مساكين" بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها: إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أي أجعلها ذات عيب، يقال: عبت الشيء فعاب إذا صار ذا عيب، فهو معيب وعائب. ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير (صحيحة) وقرأ أيضا ابن عباس وعثمان بن عفان (صالحة) و(وراء) أصلها بمعنى خلف؛ فقال بعض المفسرين: إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه. والأكثر على أن معنى (وراء) هنا أمام؛ يعضده قراءة ابن عباس وابن جبير "وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا". قال ابن عطية: "وراءهم" هو عندي على بابه؛ وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك؛ ومن قرأ "أمامهم" أراد في المكان، أي كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليه الصلاة والسلام: (الصلاة أمامك) يريد في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ؛ ووقع لقتادة في كتاب الطبري "وكان وراءهم ملك" قال قتادة: أمامهم ألا تراه يقول: "من ورائهم جهنم" وهي بين أيديهم؛ وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضج منها؛ قاله الزجاج.

قلت: وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة؛ قال الهروي قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال "من ورائه" وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علي قُطرُب أن هذا من الأضداد، وأن وراء في معنى قدام، وهذا غير محصل؛ لأن أمام ضد وراء، وإنما يصلح هذا في الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعدا في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيري وقال: إنما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك؛ قال الفراء: وجوزه غيره؛ والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيب السفينة؛ وذكره الزجاج. وقال الماوردي: اختلف أهل العربية في استعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال: أحدها: يجوز استعمالها بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى: ﴿ ومن ورائهم ﴾ (الجاثية: ١٠) أي من أمامهم: وقال الشاعر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

يعني أمامي، والثاني: أن وراء تستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لأن الإنسان يجوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها. الثالث: أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز في غيرها؛ وهذا قول علي بن عيسى.

واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هدد بن بدد. وقيل: الجلندي؛ وقاله السهيلي. وذكر البخاري اسم الملك الآخذ لكل سفينة غصبا فقال: هو (هدد بن بدد والغلام المقتول) اسمه جيسور، وهكذا قيدناه في الجامع من رواية يزيد المروزي، وفي غير هذه الرواية حيسور بالحاء وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حيسون. وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصبا فلذلك عابها الخضر وخرقها؛ ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه، وقد تقدم. وفي صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قوله: (فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها، فأصلحوها بخشبة. . .) الحديث. وتحصل من هذا الحض على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ (البقرة: ٢١٦).

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ﴾ جاء في صحيح الحديث: (أنه طبع يوم طبع كافر) وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغا؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين؛ أي خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلام الله تعالى وعنه عبر الخضر؛ قال الطبري: معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أي فعلمنا، وهذا كما كني عن العلم بالخوف في قوله: ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ (البقرة: ٢٢٩). وحكي أن أبيا قرأ "فعلم ربك" وقيل: الخشية بمعنى الكراهة؛ يقال: فرقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أي كراهة ذلك. قال ابن عطية: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة، أي على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود "فخاف ربك" وهذا بين في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما في هذا كله من ترج وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون. و"يرهقهما" يجشمهما ويكلفهما؛ والمعنى أن يلقيهما حبه في اتباعه فيضلا ويتدينا بدينه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال، وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال؛ أي أن يرزقهما الله ولدا. قوله تعالى: ﴿خيرا منه زكاة﴾ أي دينا وصلاحا. يقال: بدل وأبدل مثل مهل وأمهل ونزّل وأنزل ﴿ وأقرب رحما ﴾ قرأ ابن عباس "رحما" بالضم، قال الشاعر:

وكيف بظلم جارية ومنها اللين والرحم

الباقون بسكونها؛ ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يا منزل الرحم على إدريسا ومنزل اللعن على إبليسا

واختلف عن أبي عمرو، و"رحما" معطوف على "زكاة" أي رحمة؛ قال: رحمه رحمة ورحما؛ وألفه للتأنيث، ومذكره رحم. وقيل: إن الرُّحم هنا بمعنى الرَّحم؛ قرأها ابن عباس. "وأوصل رحما" أي رحما، وقرأ أيضا: "أزكى منه". وعن ابن جبير وابن جريج أنهما بُدلا جارية؛ قال الكلبي فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت لـه نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم. قتادة: ولدت اثني عشر نبيا، وعن ابن جريج أيضا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا. وعن ابن عباس: فولدت جارية ولدت نبيا؛ وفي رواية: أبدلـهما الله به جارية ولدت سبعين نبيا؛ وقالـه جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال علماؤنا: وهذا بعيد ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم.

ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما. فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير لـه من قضائه لـه فيما يحب.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم، واسمهما أصرم وصريم. وقد قال عليه الصلاة والسلام: (لا يتم بعد بلوغ)(1) هذا هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما. وقد تقدم أن اليتم في الناس من قبل فقد الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قبل فقد الأم.

ودل قولـه: ﴿ في المدينة ﴾ على أن القرية تسمى مدينة؛ ومنه الحديث (أمرت بقرية تأكل القرى...) وفي حديث الـهجرة (لمن أنت) فقال الرجل: من أهل المدينة؛ يعني مكة.

قولـه تعالى: ﴿ وكان تحته كنز لـهما ﴾ اختلف الناس في الكنز؛ فقال عكرمة وقتادة: كان مالا جسيما وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللغة المال المجموع؛ وقد مضى القول فيه. وقال ابن عباس: (كان علما في صحف مدفونة) وعنه أيضا قال: (كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلـها كيف يطمئن لـها، لا إلـه إلا الله محمد رسول الله) وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غفرة، ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

---

(1) صحيح، أخرجه أبو داود من حديث علي مرفوعاً بلفظ: "لا يتم بعد احتلام"، كما في صحيح الجامع (٧٦٠٩).

قولـه تعالى: ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنيَةً. وقيل: هو الأب السابع؛ قالـه جعفر بن محمد. وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكر بصلاَح؛ وكان يسمى كاشحا؛ قالـه مقاتل واسم أمهما دنيا؛ ذكره النقاش. ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه. وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته؛ وعلى هذا يدل قولـه تعالى: ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾(الأعراف: ١٩٦)

قولـه تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري ﴾يقتضي أن الخضر نبي؛ وقد تقدم الخلاف في ذلك. ﴿ذلك تأويل ﴾ أي تفسير. ﴿ما لم تسطع عليه صبرا ﴾قرأت فرقة "تستطع" وقرأ الجمهور "تسطع" قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خط المصحف.

وهنا خمس مسائل:

الأولى: إن قال قائل: لم يسمع لفتى موسى ذكر في أول الآية ولا في آخرها، قيل لـه: اختلف في ذلك؛ فقال عكرمة لابن عباس: ـ لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال: (شرب الفتى من الماء فخلد، وأخذه العالم فطبق عليه سفينة ثم أرسلـه في البحر، وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة وذلك أنه لم يكن لـه أن يشرب منه فشرب منه) قال القشيري: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون؛ فإن يوشع بن نون قد عمر بعد موسى وكان خليفته؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس: يحتمل أن يكون اكتفي بذكر المتبوع عن التابع والله أعلم.

الثانية: إن قال قائل: كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وقال في خرق السفينة: "فأردت أن أعيبها" فأضاف العيب إلى نفسه؟ قيل لـه: إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده. وقيل: لما كان ذلك خيرا كلـه أضافه إلى الله تعالى وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب، لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قولـه: "وإذا مرضت فهو يشفين" فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿ بيدك الخير ﴾(آل عمران: ٢٦) واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير. ولا اعتراض بما حكاه ﷺ عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني) فإن ذلك تنزُّلٌ في الخطاب وتلطف في العتاب مقتضاه التعريف بفضل ذي الجلال وبمقادير ثواب هذه الأعمال. وقد تقدم هذا المعنى. والله تعالى أعلم. ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة والأفعال الشريفة جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا. وقال في الغلام: "فأردنا" فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى والأشد كمال الخلق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في "الأنعام" والحمد لله.

الثالثة: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه؛ اختارهم لذلك، وخصهم بما هنالك؛ كما قال تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ (الحج: ٧٥) وقال تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام: ١٢٤) وقال تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ (البقرة: ٢١٣) إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول. وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي. . .)[1] الحديث.

الرابعة: ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات عليه السلام. وقالت فرقة: حي لأنه شرب من عين الحياة، وأنه باق في الأرض، وأنه يحج البيت. قال ابن عطية: وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق. ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة السلام: (أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد).

قلت: إلى هذا ذهب البخاري واختاره القاضي أبو بكر بن العربي، والصحيح القول الثاني وهو أنه حي على ما نذكره. والحديث خرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس

(١) صحيح.

مائة سنة منها لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد) قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام: (لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد) يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: (تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة) وفي أخرى قال سالم: تذاكرنا أنها (هي مخلوقة يومئذ). وفي أخرى: (ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ). وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال: نقص العمر. وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث. قال علماؤنا: وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن من كان من بني آدم موجودا في ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: (ما من نفس منفوسة) وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: (ممن هو على ظهر الأرض أحد) وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل، فتعين أن المراد بنو آدم. وقد بين ابن عمر هذا المعنى؛ فقال: يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول: إن الخضر حي لعموم قوله: (ما من نفس منفوسة) لأن العموم وإن كان مؤكد الاستغراق فليس نصا فيه، بل هو قابل للتخصيص. فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حي بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه حي بدليل حديث الجساسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضا، فمثل هذا العموم لا يتناوله. وقد قيل: إن أصحاب الكهف أحياء ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدم. وكذلك فتى موسى في قول ابن عباس كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب "العرائس" له: والصحيح أن الخضر نبي معمر محجوب عن الأبصار؛ وروى محمد بن المتوكل عن ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب قال: الخضر عليه السلام من ولد فارس، وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان كل عام في الموسم[1]. وعن عمرو بن دينار قال: إن الخضر وإلياس لا يزالان حيين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا. وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي في شرح الرسالة له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غلبة الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما. وقد جاء في صحيح مسلم: (أن الدجال ينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ـ أو ـ من خير الناس...) الحديث؛ وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أن هذا الرجل هو الخضر. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب "الهواتف": بسند يوقفه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أنه لقي الخضر وعلمه هذا

---

(١) موضوع.

الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قالـه في أثر كل صلاة، وهو: يا من لا يشغلـه سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يتبرم من إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك)[١] . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الدعاء بعينه نحوا مما ذكر عن علي بن أبي طالب ﷺ في سماعه من الخضر. وذكر أيضا اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام[٢] .
وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي ﷺ جاز بقاء الخضر، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت في كل حول، وأنهما يقولان عند افتراقهما: (ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمـة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكلـت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل)[٣] وأما خبر إلياس فيأتي في "والصافات" إن شاء الله تعالى.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب "التمهيد": عن علي ﷺ قال: (لما توفي النبي ﷺ وسجي بثوب هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت ﴿ كل نفس ذائقة الموت . . . ﴾ (آل عمران: ١٨٥) ـ الآية ـ إن في الله خلفا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب). فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام . يعني أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. والألف واللام في قولـه: (على الأرض) للعهد لا للجنس وهي أرض العرب، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الـهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه. ولا جواب عن الدجال.

قال السهيلي: واختلف في اسم الخضر اختلافا متباينا؛ فعن ابن منبه أنه قال: أيليا بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سماقحين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأن أباه كان ملكا، وأن أمه كانت بنت فارس واسمها ألمى، وأنها ولدته في مغارة، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فرباه، فلما شب وطلب الملك ـ أبوه ـ كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطه ومعرفته وبحث جلية أمره عرف أنه ابنه فضمه لنفسه وولاه أمر الناس، ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها، فهو حي إلى أن يخرج الدجال، وأنه الرجل الذي يقتلـه الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى. وقيل: لم يدرك زمن النبي ﷺ؛ وهذا لا يصح. وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: إنه مات قبل انقضاء المائة، من

---

(١) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/١٩٨) وقال: هذا حديث لا يصح، ومحمد بن الهروي مجهول، وابن محرز متروك، وقال أحمد: ترك الناس حديث عبد الله بن محرز، وقال ابن المنادي: لقيته وكانت البعرة أحب إلي منه.
(٢) موضوع.
(٣) موضوع، ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ١٩٥، ١٩٦).

قولـه عليه الصلاة والسلام: (إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد) يعني من كان حيا حين قال هذه المقالة

قلت: قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبينا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم.

الخامسة: قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال لـه موسى: أوصني؛ قال: كن بساما ولا تكن ضحاكا، ودع اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطائين خطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

قال ابن إسحاق: وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره، فمدت لـه الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطأ أرضا إلا سلط على أهلـها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق. قال ابن إسحاق: حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح. قال ابن هشام: واسمه الإسكندر وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه. قال ابن إسحاق: وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعي ـ وكان خالد رجلا قد أدرك الناس ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: (ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب)(١). وقال خالد: وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا يقول يا ذا القرنين، فقال: (اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة)(٢)! قال ابن إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان؟ أقال رسول الله ﷺ ذلك أم لا؟ والحق ما قال.

قلت: وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثل قول عمر؛ سمع رجلاً يدعو آخر يا ذا القرنين، فقال علي: (أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة)! وعنه أنه عبد ملك (بكسر اللام) صالح نصح الله فأيده. وقيل: هو نبي مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض. وذكر الدارقطني في كتاب الأخبار أن ملكا يقال لـه رباقيل كان ينزل على ذي القرنين، وذلك الملك هو الذي يطوي الأرض يوم القيامة، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلـهم بالساهرة؛ فيما ذكر بعض أهل العلم. وقال السهيلي: وهذا مشاكل بتوكيلـه بذي القرنين الذي قطع الأرض مشارقها ومغاربها؛ كما أن قصة خالد بن سنان في تسخير النار لـه مشاكلة بحال الملك الموكل بها، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين. ذكر ابن أبي خيثمة في كتاب البدء لـه خالد بن سنان العبسي وذكر نبوته، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار، وكان من أعلام نبوته أن نارا يقال لـها نار الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردها، فردها خالد بن سنان فلم تخرج بعد. واختلف في اسم ذي القرنين وفي السبب الذي سمي به بذلك اختلافا كثيرا؛ فأما اسمه فقيل: هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني، وقد تشدد قافه فيقال: المقدّوني. وقيل: اسمه هرمس. ويقال:

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف لانقطاعه.

اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بن ذي يزن الحميري من ولد وائل بن حمير؛ وقد تقدم قول ابن إسحاق. وقال وهب بن منبه: هو رومي. وذكر الطبري حديثا عن النبي عليه الصلاة والسلام (أن ذا القرنين شاب من الروم)[1] وهو حديث واهي السند؛ قاله ابن عطية. قال السهيلي: والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما. كان على عهد إبراهيم ﷺ، ويقال: إنه الذي قضى لإبراهيم ﷺ حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنه كان قريبا من عهد عيسى ﷺ. وقيل: إنه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغي على عهد إبراهيم ﷺ، أو قبله بزمان. وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقيل: إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما؛ ذكره الثعلبي وغيره. والضفائر قرون الرأس؛ ومنه قول الشاعر:

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وقيل: إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس، فسمي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنما سمي بذلك، لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمي بذلك ذا القرنين؛ أو قرني الشيطان بها. وقال وهب بن منبه: كان له قرنان تحت عمامته. وسأل ابن الكواء عليا ﷺ عن ذي القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ فقال: (لاذا ولاذا، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجوه على قرنه، ثم دعاهم فشجوه على قرنه الآخر، فسمي ذا القرنين) واختلفوا أيضا في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفترة بعد عيسى. وقيل: كان في وقت إبراهيم وإسماعيل. وكان الخضر ﷺ صاحب لوائه الأعظم؛ وقد ذكرناه في "البقرة". وبالجملة فإن الله تعالى مكنه وملكه ودانت له الملوك، فروي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان سليمان ابن داود وإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر؛ وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى: ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ (التوبة: ٣٣) وهو المهدي وقد قيل: إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه. وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي. وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا. وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن. وقيل: لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنه ملك فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ قال علي ﷺ: (سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له في النور، فكان الليل والنهار عليه سواء) وفي حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال: (إن أول أمره كان غلاما من الروم فأعطي ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه ملك فعرج به

---

(١) قال ابن كثير (٣/ ١٠٠): والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه ـ أي الحديث ـ بتمامه في كتابه "دلائل النبوة"، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيليس المقدوني الذي تؤرخ به الروم...

فقال له انظر ما تحتك قال أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذي تراه محيطا بها هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فسر في الأرض. فعلم الجاهل وثبت العالم) الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿ وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ قال ابن عباس: (من كل شيء علما يتسبب به إلى ما يريد) وقال الحسن: بلاغا إلى حيث أراد. وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء. وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء.

قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي "فأتبع سببا" مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو "فاتبع سببا" بوصلها؛ أي اتبع سببا من الأسباب التي أوتيها. قال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى؛ مثل ردفته وأردفته، ومنه قوله تعالى: ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (الصافات: ١٠) ومنه الإتباع في الكلام مثل حسن بسن وقبيح شقيح. قال النحاس: واختار أبو عبيد قراءة أهل الكوفة قال: لأنها من السير، وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تبعه واتبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه؛ قال أبو عبيد: ومثله "فأتبعوهم مشرقين". قال النحاس: وهذا التفريق إن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعلة أو دليل. وقوله عز وجل: ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ (الشعراء: ٦٠) ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث: لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السير، فقد يجوز أن يكون معه لحاق وألا يكون.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي "حامية" أي حارة. الباقون "حمئة" أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها. وحمئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتها. ويجوز أن تكون "حامية" من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء. وقد يجمع بين القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حمأة. وقال عبد الله بن عمرو: نظر النبي ﷺ إلى الشمس حين غربت؛ فقال: (نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض)[٢]. وقال ابن عباس: (أقرأنيها أبي كما أقرأه

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٠) بنحوه وقال: لا يصح، والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه "دلائل النبوة"، وذلك غريب منه.

(٢) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٣/ ١٠٢) وقال: ورواه أحمد عن يزيد بن هارون وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك. والله أعلم.

رسول الله ﷺ "في عين حمئة"؛ وقال معاوية: هي "حامية" فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فأنا مع أمير المؤمنين؛ فجعلوا كعبا بينهم حكما وقالوا: يا كعب كيف تجد هذا في التوراة؟ فقال: أجدها تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس). وقال الشاعر وهو تبع اليماني:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

الخلب: الطين: والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود. وقال القفال قال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسها؛ لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض؛ ولهذا قال: "وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم. وقال القتبي: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ووجد عندها قوما ﴾أي عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جابرس، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا؛ يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح؛ ذكره السهيلي. وقال وهب بن منبه: "كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى: يا ذا القرني!ن إني باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وهم أصناف: أمتان بينهما طول الأرض كله، وأمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك. وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل؛ وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل. فقال ذو القرنين: إلهي قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت؛ فأخبرني عن هذه الأمم بأي قوة أكاثرهم؟ وبأي صبر أقاسيهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك بما حملتك؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شيء، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحفظك الظلمة من ورائك؛ فلما قيل له ذلك سار بمن اتبعه، فانطلق إلى الأمة التي عند مغرب الشمس؛ لأنها كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواء متشتتة، فكاثرهم بالظلمة؛ فضرب حولهم ثلاث عساكر من

جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصد عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجوا إلى الله تعالى بصوت واحد: إنا آمنا؛ فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامه يقوده ويدله، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكترث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله في الأولى، ثم كر مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها، ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم؛ يأكلون العشب، ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد، فإن طالت المدة فسيملئون الأرض، ويجلون أهلها منها فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا؟ . . . " وذكر الحديث؛ وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية.

قوله تعالى: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ قال القشيري أبو نصر: إن كان نبيا فهو وحي، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى. ﴿إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا﴾ قال إبراهيم بن السري: خيره بين هذين كما خير محمدا ﷺ فقال: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ (المائدة: ٤٢) ونحوه. وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس: وردّ علي بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: "ثم يرد إلى ربه"؟ وكيف يقول: "فسوف نعذبه" فيخاطبه بالنون؟ قال: التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء. أما قوله: "قلنا يا ذا القرنين" فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ (محمد: ٤)، وأما إشكال "فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه" فإن تقديره أن الله تعالى لما خيره بين القتل في قوله تعالى: "إما أن تعذب" وبين

الاستبقاء في قولـه جل وعز: "وإما أن تتخذ فيهم حسنا". قال أحمد بن يحيى: "أن" في موضع نصب في "إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا" قال: ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإما هو، كما قال:

فسيرا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالـح وصديق

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال أما من ظلم ﴾ أي من أقام على الكفر منكـم، ﴿ فسوف نعذبه ﴾ أي بالقتل ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ أي يوم القيامة: ﴿ فيعذبه عذابا نكرا ﴾ أي شديدا في جهنم. "وأما من آمن وعمل صالحا" أي تاب من الكفر ﴿ فلـه جزاء الحسنى وسنقول لـه من أمرنا يسرا ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم "فلـه جزاء الحسنى" بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار و"الحسنى" موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة؛ أي لـه جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وهي الجنة، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقولـه: ﴿ حق اليقين ﴾ (الواقعة: ٩٥)، ﴿ ولدار الآخرة ﴾ (الأنعام: ٣٢)؛ قالـه الفراء. ويحتمل أن يريد بـ "الحسنى" الأعمال الصالحة. ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين؛ أي أعطيه وأتفضل عليه. ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون "الحسنى" في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحاق "فلـه جزاء الحسنى" إلا أنك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين "فلـه جزاء الحسنى" منصوبا منونا؛ أي فلـه الحسنى جزاء. قال الفراء: "جزاء" منصوب على التميز. وقيل: على المصدر؛ وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال؛ أي مجزيا بها جزاء. وقرأ ابن عباس ومسروق: "فلـه جزاء الحسنى" منصوبا غير منون. وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل "فلـه جزاء الحسنى" في أحد الوجهين. النحاس: وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره: فلـه الثواب جزاء الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾

تقدم معناه أن أتبع واتبع بمعنى أي سلك طريقا ومنازل.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام؛ يقال: طلعت الشمس والكواكب طلوعا ومطلعا. والمطلَع والمطلِع أيضا موضع طلوعها؛ قالـه الجوهري. ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس. والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قولـه تعالى: (وجدها تطلع على قوم)

وقد اختلف فيهم؛ فعن وهب بن منبه ما تقدم، وأنها أمة يقال لـها منسك وهي مقابلة ناسك؛ وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لـهما الزنج. وقال الكلبي: هم تارس وهاويل ومنسك؛ حفاة عراة عماة عن الحق، يتسافدون مثل الكلاب، ويتهارجون تهارج الحمر. وقيل: هم أهل جابلق وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لـهم بالسريانية: مرقيسا والذين عند مغرب الشمس هم أهل جابرس؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ. ووراء جابلق أمم، وهم تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جابرس وجابلق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام؛ (مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه، ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه)؛ ذكره السهيلي وقال: اختصرت هذا كلـه من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ ورواه الطبري مسندا إلى مقاتل يرفعه[1]؛ والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ لم نجعل لـهم من دونها سترا ﴾ أي حجابا يستترون منها عند طلوعها. قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس سترا؛ كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، وهم يكونون في أسراب لـهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم؛ يعني لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها. وقال أمية: وجدت رجالا بسمرقند يحدثون الناس، فقال بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فقيل لي: إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينيهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يحسن كلامهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيم جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر كيف تطلع الشمس؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذ هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت أدخلوني سربا لـهم، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رءوسهم خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج. وقال ابن جريج: جاءهم جيش مرة، فقال لـهم أهلـها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرح حتى تطلع الشمس. ثم قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فولوا هاربين في الأرض. وقال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم.

قلت: وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك. والله أعلم. وربما يكون منهم من يدخل في النهر، ومنهم من يدخل في السرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾

تقدم معناه أن أتبع واتبع بمعنى أي سلك طريقا ومنازل.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

---

(١) وهو ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان. روى عطاء الخراساني عن ابن عباس: "بين السدين" الجبلين أرمينية وأذربيجان ﴿ وجد من دونهما ﴾ أي من ورائهما. ﴿ قوما لا يكادون يفقهون قولا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي "يفقهون" بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي لا يفقهون غيرهم كلاما. الباقون بفتح الياء والقاف، أي يعلمون. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾ أي قالت لـه أمة من الإنس صالحة: ﴿ إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾ قال الأخفش: من همز "يأجوج" فجعل الألفين من الأصل يقول: يأجوج يفعول ومأجوج مفعول كأنه من أجيج النار. قال: ومن لا يهمز ويجعل الألفين زائدتين يقول: "ياجوج" من يججت وماجوج من مججت وهما غير مصروفين؛ قال رؤبة:

لو أن يأجوج ومأجوج معا وعاد عاد واستجاشوا تبعا

ذكره الجوهري. وقيل: إنما لم ينصرفا لأنهما اسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين؛ علتاهما في منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث. وقالت فرقة: هو معرب من أج وأجج علتاه في منع الصرف التعريف والتأنيث. وقال أبو علي: يجوز أن يكونا عربيين؛ فمن همز "يأجوج" فهو على وزن يفعول مثل يربوع، من قولك أجت النار أي ضويت، ومنه الأجيج، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الـهمزة فقلبها ألفا مثل راس، وأما "مأجوج" فهو مفعول من أج، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الـهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مج، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة. واختلف في إفسادهم؛ سعيد بن عبد العزيز: إفسادهم أكل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان متوقعا، أي سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم. وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث. روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولـد يافـث يأجـوج ومأجـوج والترك والصـقالبة ولا خـير فيهـم وولد حام القبط والبربر والسودان)[1] وقال كعب الأحبار: احتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك الماء، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم[2]. وهذا فيه نظر؛ لأن الأنبياء صلوات الله

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني عن سمرة وعمران بلفظ: "ولد نوح ثلاثة: فسام أبو العرب، وحام أبو الحبشة، ويافث أبو الروم" كما في ضعيف الجامع (٦١٤٥).

(٢) قال ابن كثير في "التفسير"، (٣/١٠٣، ١٠٤): وقد حكى النووي رحمه الله في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم=

عليهم لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل)[(١)]. يعني يأجوج ومأجوج. وقال أبو سعيد: (هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل) ذكره القشيري. وقال عبد الله بن مسعود: سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: (يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل منهم حتى يولد لـه ألف ذكر من صلبه كلـهم قد حمل السلاح) قيل: يا رسول الله صفهم لنا. قال: (هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز ـ شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع ـ وصنف عرضه وطولـه سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس)[(٢)]. وقال علي ﷺ:(وصنف منهم في طول شبر، لـهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السد حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان، فيقولون: ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون، ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكم الله تعالى بالنغف في رقابهم). ذكره الغزنوي. وقال علي عن النبي ﷺ: (يأجوج أمة لـها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده)[(٣)].

قلـت: وقد جاء مرفوعا من حديث أبي هريرة، خرجه ابن ماجه في السنن قال: قال رسول الله ﷺ: (إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم ـ الذي أحفظ ـ فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في أقفائهم فيقتلـهم بها) قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم)[(٤)] قال الجوهري: شكرت الناقة تشكر شكرا فهي شكرة؛ وأشكر الضرع امتلأ لبنا.

= وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ولا يجوز الاعتماد ها هنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة. والله أعلم.

(١) "موضوع" ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (١/ ٢٠٦) وقال: قال ابن عدي: هذا حديث منكر موضوع، ومحمد بن إسحاق هو العكاشي، قال يحيى بن معين: كذاب، وقال الدارقطني: يضع الحديث.

(٢) موضوع، انظر المصدر السابق.

(٣) موضوع.

(٤) "صحيح"، انظر صحيح ابن ماجه (٣٢٩٨).

وقال وهب بن منبه: رآهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخاليب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأحناك كأحناك الإبل، وهم هلب عليهم من الشعر ما يواريهم، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكرا، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى. وقال السدي والضحاك: الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت في هذا الجانب[1]. قال السدي: بني السد على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السد فهم الترك. وقاله قتادة.

قلت: وإذا كان هذا فقد نعت النبي ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوما وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون في الشعر) في رواية (ينتعلون الشعر) خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما. ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرتهم وحدة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام: (اتركوا الترك ما تركوكم)[2]. وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم. وروى أبو داود عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين ـ قال ابن يحيى قال أبو معمر ـ وتكون من أمصار المسلمين ـ فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء)[3] الغائط المطمئن من الأرض والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة. وبنو قنطوراء هم الترك. يقال: إن قنطوراء اسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولادا جاء من نسلهم الترك.

قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فهل نجعل لك خرجا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب "خرجا" أي جعلا. وقرئ "خراجا" والخرج أخص من الخراج. يقال: أد خرج رأسك وخراج مدينتك. وقال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الغلة. والخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج: المصدر. ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ أي ردما؛ والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. وثوب مردم أي مرقع، قاله الهروي. يقال: ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما أي سددتها والردم أيضا الاسم وهو السد. وقيل: الردم أبلغ من

---

(١) قال ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ١٠٤)، وقد ذكر ابن جرير هاهنا عن وهب أثراً طويلاً عجيباً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها. والله أعلم.

(٢) حسن، انظر صحيح أبي داود (٣٦١٥)، وراجع الصحيحة (٧٧٢).

(٣) "حسن" انظر صحيح أبي داود (٣٦١٨).

السد إذ السد كل ما يسد به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع؛ ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم

أي من قول يركب بعضه على بعض وقرئ "سدا" بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح. ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا "سدا" بالفتح، وقبله "بين السدين" بالضم، وهي قراءة حمزة والكسائي. وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عيناك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهو سد بالفتح.

الثانية : في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكلفون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقوة الأبدان، أي برجال وعمل منكم بالأبدان، والآلة التي أبني بها الردم وهو السد. وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان. ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج. وقرأ ابن كثير وحده "ما مكنني" بنونين. وقرأ الباقون "ما مكني فيه ربي".

الثانية : في هذه الآية دليل أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤن، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم؛ وذلك بثلاثة شروط: الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء. الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم. الثالث: أن يسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بتدبير؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال: لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم "فأعينوني بقوة" أي اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى. وضابط الأمر

أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر. والله تعالى الموفق للصواب.

قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ أي أعطوني زبر الحديد وناولونيها. أمرهم بنقل الآلة، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة، وإنما هو استدعاء للمناولة، لأنه قد ارتبط من قوله: إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان. و"زبر الحديد" قطع الحديد. وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرت الكتاب أي كتبته وجمعت حروفه. وقرأ أبو بكر والمفضل "ردما ايتوني" من الإتيان الذي هو المجيء؛ أي جيئوني بزبر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر:

أمرتك الخير . . .

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور "زبر" بفتح الباء. وقرأ الحسن بضمها؛ وكل ذلك جمع زبرة وهي القطعة العظيمة منه.

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا ساوى ﴾ يعني البناء فحذف لقوة الكلام عليه. "بين الصدفين" قال أبو عبيدة: هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما. وقاله الزهري وابن عباس؛ (كأنه يعرض عن الآخر)؛ من الصدوف؛ قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناها توقد مثل مصباح الظلام

ويقال للبناء المرتفع صدف تشبيه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشي. قال أبو عبيد: الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع. ابن عطية: الصدفان الجبلان المتناوحان ولا يقال للواحد صدف، وإنما يقال: صدفان للاثنين؛ لأن أحدهما يصادف الآخر. وقرأ نافع وحمزة والكسائي "الصدفين" بفتح الصاد وشدها وفتح الدال، وهي قراءة عمر بن الخطاب ﷺ وعمر بن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة لأنها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو "الصدفين" بضم الصاد والدال وقرأ عاصم في رواية أبي بكر "الصدفين" بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال. وقرأ قتادة "بين الصدفين" بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحان.

قوله تعالى: ﴿ قال انفخوا حتى إذا جعله نارا ﴾ "قال انفخوا" إلى آخر الآية: أي على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: "حتى إذا جعله نارا" ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن استوى العمل

فصار جبلا صلدا. قال قتادة: هو كالبرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. ويروى أن رسول الله ﷺ: جاءه رجل فقال: يا رسول الله إني رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: (كيف رأيته) قال: رأيته كالبرد المحبر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ (قد رأيته)(١). ومعنى "حتى إذا جعله نارا" أي كالنار.

قولـه تعالى: ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾ أي أعطوني قطرا أفرغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ "ائتوني" فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا. والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصلـه من القطر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء. وقالت فرقة: القطر الحديد المذاب. وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتق من قطر يقطر قطرا. ومنه "وأسلنا لـه عين القطر".

قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ أي ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عال لا يرام. وارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا. وروي: في طولـه ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ، وفي عرضه خمسون فرسخًا؛ قالـه وهب بن منبه.

قولـه تعالى: ﴿وما استطاعوا لـه نقبا﴾ لبعد عرضه وقوته. وروي في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وعقد وهب بن منبه بيده تسعين وفي رواية ـ وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها... وذكر الحديث. وذكر يحيى بن سلام عن سعد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن يأجوج ومأجوج يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس...)(٢) الحديث وقد تقدم. قولـه تعالى: "فما اسطاعوا" بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه كثير في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاء فقال استاع يستيع بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده "فما اسطاعوا" بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشددها، وهي قراءة ضعيفة الوجه؛ قال أبو علي: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش "فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا لـه نقبا" بالتاء في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٤) من رواية ابن جرير وقال: "هذا حديث مرسل".

(٢) صحيح، وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ القائل ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم، والقوة عليه، والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عبلة "هذه رحمة من ربي". ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم. ﴿ جعلـه دكاء وكان وعد ربي حقا ﴾ أي مستويا بالأرض؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ إذا دكت الأرض دكاً ﴾ (الفجر: ٢١) قال ابن عرفة: أي جعلت مستوية لا أكمة فيها، ومنه قولـه تعالى: ﴿ جعلـه دكاء ﴾ قال اليزيدي: أي مستويا؛ يقال: ناقة دكاء إذا ذهب سنامها. وقال القتبي: أي جعلـه مدكوكا ملصقا بالأرض. وقال الكلبي: قطعا متكسرا؛ قال:

هل غير غاد دك غارا فانهدم

وقال الأزهري: يقال دككته أي دققته. ومن قرأ: "دكاء" أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات. قرأ حمزة وعاصم والكسائي "دكاء" بالمد على التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لـها، وفي الكلام حذف تقديره: جعلـه في مثل دكاء؛ ولا بد من تقدير هذا الحذف لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء. ومن قرأ "دكا" فهو مصدر دك يدك إذا هدم ورض؛ ويحتمل أن يكون "جعل" بمعنى خلق. وينصب "دكا" على الحال. وكذلك النصب أيضا في قراءة من مد يحتمل الوجهين.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ الضمير في "تركنا" لله تعالى؛ أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج "يومئذ" أي وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لـهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض، كالمولـهين من هم وخوف؛ فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم.

قلت: فهذه ثلاثة أقوال أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قولـه تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ ونفخ في الصور ﴾ والصور قرن من نور ينفخ فيه، النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء. وليس جمع صورة كما زعم بعضهم؛ أي ينفخ في صور الموتى على ما نبينه. روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (. . . . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ـ قال ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبلـه – قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وذكر الحديث. وكذا في التنزيل ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ (الزمر: ٦٨)ولم يقل فيها؛ فعلم أنه ليس جمع الصورة. والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام. قال أبو الـهيثم: من أنكر أن يكون الصور قرنا فهو كمن ينكر العرش والميزان والصراط، وطلب لـها تأويلات. قال ابن فارس:

الصور الذي في الحديث كالقرن ينفخ فيه، والصور جمع صورة. وقال الجوهري: الصور القرن. قال الراجز:

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحا شـديدا لا كنطـــح الصـــورين

ومنه قولـه: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾. قال الكلبي: لا أدري ما هو الصور. ويقال: هو جمع صورة مثل بسرة وبسر؛ أي ينفخ في صور الموتى والأرواح. وقرأ الحسن "يوم ينفخ في الصور". والصور (بكسر الصاد) لغة في الصور جمع صورة والجمع صوار، وصيار (بالياء لغة فيه. وقال عمرو بن عبيد: قرأ عياض "يوم ينفخ في الصور" فهذا يغني به الخلق. والله أعلم. قتادة: وممن قال إن المراد بالصور في هذه الآية جمع صورة أبو عبيد. وهذا وإن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسنة. وأيضا لا ينفخ في الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور الذي هو القرن والله عز وجل يحيي الصـور. وفي التنزيل: ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ (التحريم: ١٢)[(١)].

قولـه تعالى: ﴿فجمعناهم جمعا﴾ يعني الجن والإنس في عرصات القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

أي أبرزناها لـهم.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ في موضع خفض نعت "للكافرين". ﴿ في غطاء عن ذكري ﴾ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى. ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى، فهم بمنزلة من صم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ أي ظن. وقرأ علي وعكرمة ومجاهد وابن محيصن "أفحسب" بإسكان السين وضم الباء؛ أي كفاهم. ﴿ أن يتخذوا عبادي ﴾ يعني عيسى والملائكة وعزيرا. ﴿ من دوني أولياء ﴾ ولا أعاقبهم؛ ففي الكلام حذف. وقال الزجاج: المعنى؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك. ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) سقط من طبعة دار الريان.

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر. روى البخاري عن مصعب قال: سألت أبي "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا" أهم الحرورية؟ قال: لا؛ هم اليهود والنصارى. وأما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا: لا طعام فيها ولا شراب؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين. والآية معناها التوبيخ؛ أي قل لـهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالـهم غدا؛ فهم الأخسرون أعمالا، وهم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ في عبادة من سواي. قال ابن عباس: (يريد كفار أهل مكة). وقال علي: (هم الخوارج أهل حروراء. وقال مرة: هم الرهبان أصحاب الصوامع). وروي أن ابن الكواء سألـه عن الأخسرين أعمالا فقال لـه: أنت وأصحابك. قال ابن عطية: ويضعف هذا كله قولـه تعالى بعد ذلك: ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالـهم ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنما هذه صفة مشركي مكة عبدة الأوثان، وعلي وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية. و"أعمالا" نصب على التمييز. و"حبطت" قراءة الجمهور بكسر الباء. وقرأ ابن عباس "حبطت" بفتحها.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ فلا نقيم لـهم يوم القيامة وزنا ﴾ قراءة الجمهور "نقيم" بنون العظمة. وقرأ مجاهد بياء الغائب؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل، وقرأ عبيد بن عمير "فلا يقوم" ويلزمه أن يقرأ "وزن" وكذلك قرأ مجاهد "فلا يقوم لـهم يوم القيامة وزن". قال عبيد بن عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

قلت: هذا لا يقال مثلـه من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم "فلا نقيم لـه يوم القيامة وزنا"). والمعنى أنهم لا ثواب لـهم، وأعمالـهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنة لـهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة لـه فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدري: يؤتى بأعمال كجبال تهامة فلا تزن شيئا. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة؛ كأنه قال: فلا قدر لـهم عندنا يومئذ؛ والله أعلم. وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه، لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن. وقد قال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين)[١] ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ـ قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثم إن من بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن) وهذا ذم. وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة

(١) ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (٧٦١)، وقال: "رواه البيهقي في الشعب وحسنه عن كعب من قوله، وزاد: وأهل البيت اللحمين".

الأكل والشره، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حالـه وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به؛ وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لـهم ﴾ (محمد: ١٢) فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم في كل أحوالـه وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام؟ ! ومن كثر أكلـه وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائما، وليلـه نائما. وقد مضى في "الأعراف" هذا المعنى؛ وتقدم فيها ذكر الميزان، وأن لـه كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة. وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حمش ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة: (تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض)[1] فدل هذا على أن الأشخاص توزن؛ ذكره الغزنوي. قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ "ذلك" إشارة إلى ترك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء "جزاؤهم" خبره. و﴿ جهنم ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو "ذلك". و"ما" في قولـه: ﴿ بما كفروا ﴾ مصدرية، والهزء الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾

قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلـها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرة الجنة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس؛ فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من آمن بالله وبرسولـه وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخلـه الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال ـ وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) وقال مجاهد: والفردوس البستان بالرومية. الفراء: هو عربي. والفردوس حديقة في الجنة. وفردوس اسم روضة دون اليمامة. والجمع فراديس، قال أمية بن أبي الصلت الثقفي:

كانت منازلـهم إذ ذاك ظـاهرة فيها الفراديس والفومان والبصل

والفراديس موضع بالشام. وكرم مفردس أي معرش.

قوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

(١) "صحيح" أخرجه أحمد وغيره بنحوه.

قولـه تعالى: ﴿ خالدين فيها ﴾ أي دائمين. ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ أي لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها. والحول بمعنى التحويل؛ قالـه أبو علي. وقال الزجاج: حال من مكانه حولا كما يقال: عظم عظما. قال: ويجوز أن يكون من الحيلة، أي لا يحتالون منزلا غيرها. قال الجوهري: التحول التنقل من موضع إلى موضع، والاسم الحول، ومنه قولـه تعالى: "خالدين فيها لا يبغون عنها حولا".

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ نفد الشيء إذا تم وفرغ؛ وقد تقدم. ﴿ ولو جئنا بمثلـه مددا ﴾ أي زيادة على البحر عددا أو وزنا. وفي مصحف أبي "مدادا" وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد. وانتصب "مددا" على التمييز أو الحال. وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لـهم النبي ﷺ: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (الإسراء: ٨٥) قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا؟ فنزلت "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر" الآية. وقيل: قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح؟ ! فقال الله تعالى قل: وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة، قال ابن عباس: "كلمات ربي" أي مواعظ ربي. وقيل: عنى بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية لـه ولا منتهى، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنه ينوب منابها، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما؛ وقال الأعشى:

ووجه نقي اللون صاف يزينه   مع الجيد لبات لـها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة. وفي التنزيل: ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ (فصلت: ٣١) و﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ (الحجر: ٩) ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ (الحجر: ٢٣) وكذلك ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ (النحل: ١٢٠) لأنه ناب مناب أمة. وقيل: أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى. وقال السدي: أي إن كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إلـه إلا الله. ونظير هذه الآية: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ (لقمان: ٢٧). وقرأ حمزة والكسائي "قبل أن ينفد" بالياء لتقدم الفعل.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلـهكم إلـه واحد ﴾ أي لا أعلم إلا ما يعلمني الله تعالى، وعلم الله تعالى لا يحصى، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إلـه إلا الله. ﴿ فمن كان يرجو لقاء

ربه ﴾ أي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ قال ابن عباس: نزلت في جندب بن زهير العامري قال: يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطلع عليه سرني، فقال النبي ﷺ: (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه) فنزلت الآية. وقال طاوس قال رجل: يا رسول الله! إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني فنزلت هذه الآية[١]. وقال مجاهد: جاء رجل للنبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئا، فأنزل الله تعالى: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا"[٢].

قلت: والكل مراد، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال. وقد تقدم في سورة "هود" حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس. وقد تقدم في سورة "النساء" الكلام على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية. وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل: معنى قوله تعالى: ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ إنه لا يرائي بعمله أحدا. وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في (نوادر الأصول) قال: حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدثنا مكي بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الواحد بن زيد عن عبادة بن نسي قال: أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ يوما، إذ رأيت بوجهه أمرا ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك؟ قال: (أمرا أتخوفه على أمتي من بعدي) قلت: ما هو يا رسول الله؟ قال: (الشرك والشهوة الخفية) قلت: يا رسول الله! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال: (يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم) قلت: والرياء شرك هو؟ قال: (نعم). قلت: فما الشهوة الخفية؟ قال: (يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر)[٣] قال عبد الواحد: فلقيت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد! أخبرني عن الرياء أشرك هو؟ قال: نعم؛ أما تقرأ "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا". وروى إسماعيل بن إسحاق قال حدثنا محمد بن أبي بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال: (كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس جالسين، فقالا: إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء). وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: (من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائي به فقد أشرك) ثم تلا "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا"[٤].

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في "النساء". وقال سهل بن عبد الله: وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا

---

(١) ضعيف لإرساله.

(٢) حاله كسابقه.

(٣) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٩٢١).

(٤) ضعيف.

تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قولـه تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ . ﴿ والذين يؤتون ما آتوا﴾ (المؤمنون: ١٠) الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملـها في الدنيا؛ قيل لـها: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء. وقال علماؤنا ﷺ: وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك؟ ! فقال: وأنا مع ذلك صائم. أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف، فقيل لـه إنك خففت، فقال: إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته؛ وقد تقدم في "النساء" دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل، وروى الترمذي الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحماني قال: أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن معقل بن يسار قال: قال أبو بكر وشهد به على رسول الله ﷺ، قال: ذكر رسول الله ﷺ الشرك، قال: (هو فيكم أخفى من دبيب النمل وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولـها ثلاث مرات)[١] . وقال عمر بن قيس الكندي سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر "فمن كان يرجو لقاء ربه" فقال: إنها لآخر آية نزلت من السماء. وقال عمر قال النبي ﷺ: (أوحي إلي أنه من قرأ "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا" رفع لـه نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون لـه)[٢] . وقال معاذ بن جبل قال النبي ﷺ: (من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت لـه نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلـها كانت لـه نورا من الأرض إلى السماء)[٣] وعن ابن عباس أنه قال لـه رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم، فقال: (إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي" إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل)؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي ﷺ. وفي مسند الدارمي أبي محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن عبدة عن زر بن حبيش قال: من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها؛ قال عبدة: فجربناه فوجدناه كذلك. قال ابن العربي: كان شيخنا الطرطوشي الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمان في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقولـه: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ .

---

(١) ضعيف.

(٢) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٣/ ١١٠)، وقال: غريب جداً.

(٣) ضعيف.]

المجلد الخامس